بغية السالك
في أشرف المسالك

حقيقة طريق القوم في مقامات
الإسلام والإيمان والإحسان

تأليف
العلامة الشيخ محمد بن محمد بن أحمد الساحلي
المعروف بالمعمم
المتوفى ٧٥٤ هجرية

تحقيقه
الشيخ أحمد فريد المزيدي

BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون

بُغْيَةُ السَّالِك

فِي أَشْرَفِ المَسَالِك

(حقيقة طريق القوم في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان)

تأليف

العلامة الشيخ محمد بن محمد بن أحمد الساحلي

المعروف بالمعمم

المتوفى ٧٥٤ هـ

تحقيق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

BOOKS - PUBLISHER

Beirut-Lebanon بيروت - لبنان | كتاب - ناشرون

BUĞYAT AS-SĀLIK FĪ ’AŠRAF AL-MASĀLIK | **بغية السالك في أشرف المسالك**

Author : *Al-Shaykh Mohammed ben Mohammed Al-Sahely (D. 754 H.)*

المؤلف : الشيخ محمد بن محمد الساحلي (ت ٧٥٤هـ)

Editor : *Al-Shaykh Ahmad Farid Al-Mazidy*

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Classification : *Sufism*

التصنيف : تصوّف

Year : *1440 H. - 2019 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

Pages: *384*

عدد الصفحات : ٣٨٤

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

BOOKS - PUBLISHER
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان كتاب - ناشرون

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel :+961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com

ISBN 978-2-7451-6392-9

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله، الحمد لله الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم، الذي أودع قلوب أوليائه طرائف الحِكم، ورفع عنها كثائف أستار الظلم، وأنارها بنور معارف قدسه، وفاتحها بفتح خطابه وأُنسه، لذلك كانت علومهم من فيض المواهب لا من تعنت البحث وتعب المكاسب.

فسبحان من وهب في لمحة من شاء كيف شاء، لأنه تعالى إذا شاء أنشأ، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

أحمده على ما وهب من أفضاله، وأشكره على جزيل نواله.

وأشهد أن لا إله إلا الله جواد غمر بجوده جميع الكائنات، وعمَّر بسره السرائر فكانت به أوسع من الأرضين والسموات.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ﷺ بحر المعارف الربانية ومنبع العلوم اللدنية.

صلى الله عليه وعلى آله صلاة أزليَّة ذاتية، تليق بقدس كماله الأقدس، وتصلح لكبير مقام جلاله الأنفس، وتتحف قائلها بشهود جماله الأنس، بمعارف تفوق أُنس ظباء الحي في المكنس.

ورضي الله عن أصحابه سيوف الحق وعيون الحقائق، وعقود الطرق ونجوم الطرائق، وعن التابعين لهم في التخلق والموافقين للأخلاق ما اكتسب مكتسب ووهب ذلك الخلَّاق.

أما بعد... فهذا كتاب قيم عظيم يحتاجه كل سالك إلى الله رب العالمين، يقتفي آثار النبي الهادي الأمين سيدنا محمدٍ - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - راجيًا سبيل السادة الكُمَّل الصالحين.

ألا وهو كتاب «بغية السالك» لإمام الأئمة سيدي الساحلي - قدس سره ونفعنا به - قد دفعنا الوجد والشوق والالتحاق بذوي الذوق إلى تحقيق هذا الكتاب العظيم المبارك.

فبادرت بتحقيقه والتعليق والتخريج عليه، مستفيدًا ممن سبقنا من أئمة هذا الفن ودراية التحقيق، وقد سبق أن طبع أكثر من مرة محققًا، وغير محققٍ بالنسخة الحجرية، وكان من أصولنا أيضًا النسخة الخطية بالديار المصرية.

وإنه من دواعي حُسن الذكر وجزيل الشكر لمن سبقنا بذلك بصورته الخاصة به من التتبع والاهتمام، وما هي إلا مشارب ومدارس وعطاءات قسمها الرحمن.

فجزى الله خيرًا كل من قام على خدمة هذا الكتاب الذي نأمل من الحق تبارك وتعالى أن يسع انتشارًا أمثال إحياء علوم الدين، وقوت القلوب ورياض الصالحين.

وآخرًا نسأل الله الإخلاص والقبول والتوفيق لما فيه الخير للعباد، وأن يهدينا سبيل الرشاد.

والله من وراء هذا القصد، وهو ولي التوفيق والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كثيرًا.

❖ ❖ ❖

ترجمة الشيخ المصنف

هو سيدي الشيخ العالم العلامة البحر المتفرد في العلم: محمد بن محمد بن أحمد الأندلسي المعروف بالساحلي المالقي.

ولد سنة ٦٧٨هـ، بـ«مالقة»، وتوفي سنة ٧٥٤هـ.

- بغية السالك في أشرف المسالك:

وهو أشهر كتبه وأهمها، إذ ارتبط اسمه في المصادر به.

- النفحة القدسية في الأخبار الساحلية:

سماه حاجي خليفة، والبغدادي، خطأ: «النفحة العباسية». وهو كتاب ذكرت معظم المصادر أنه جمع فيه مناقب وأخبار وكرامات والده الشيخ أبي عبد الله وأضاف مؤلفه في البغية أنه شرع في تأليفه خلال تأليفه كتاب «البغية» نفسه.

- إرشاد السائل لنهج الوسائل:

ذكره على الخصوص ابن الخطيب، والكتاني، وحدد المصنف في البغية موضوعه بأنه في استيفاء أحكام الدعاء.

- أشعة الأنوار في الكشف عن ثمرات الأذكار:

في فضائل الأذكار وأسرارها وثمراتها ونحو ذلك.

- بهجة الأنوار.

- الأسرار.

- نهزة التذكرة ونزهة التبصرة.

- منسك لطيف:

كتابان انفرد بذكرهما السخاوي في الضوء اللامع، وتابعه في ذلك كل من الزركلي.

- غرائب النجب في رغائب الشعب (شعب الإيمان).

- غنية الخطيب بالاختصار والتقريب:

ذكر ابن الخطيب والكتاني والقادري أنه في خطب الجمع والأعياد.

- المتجر الربيح في شرح الجامع الصحيح.

- مناسك الحج.

- نظم سلك الجواهر، في جيد معارف الصدور والأكابر:

ذكر ابن الخطيب أنها فهرسة تحتوي على فوائد من العلم، وما يتعلق بالرواية، وتسمية الشيوخ، وتحرير الأسانيد، وأنها تحتوي على لائحة طويلة من شيوخ المؤلف مغاربة ومشارقة، نقل عنها أسماء بعضهم.

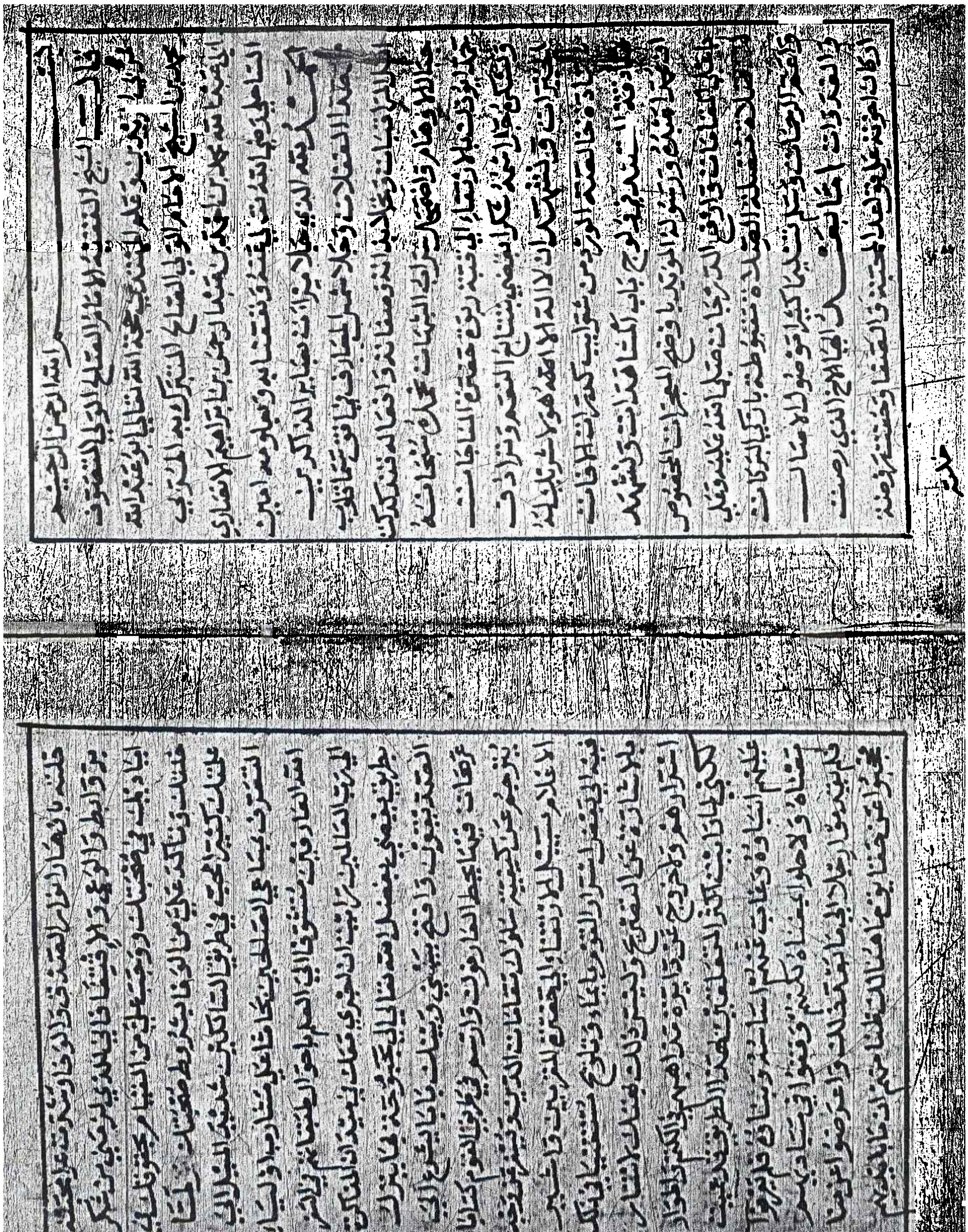
- المفيد المختصر من كتاب كفاية المريد وحلية العبيد.

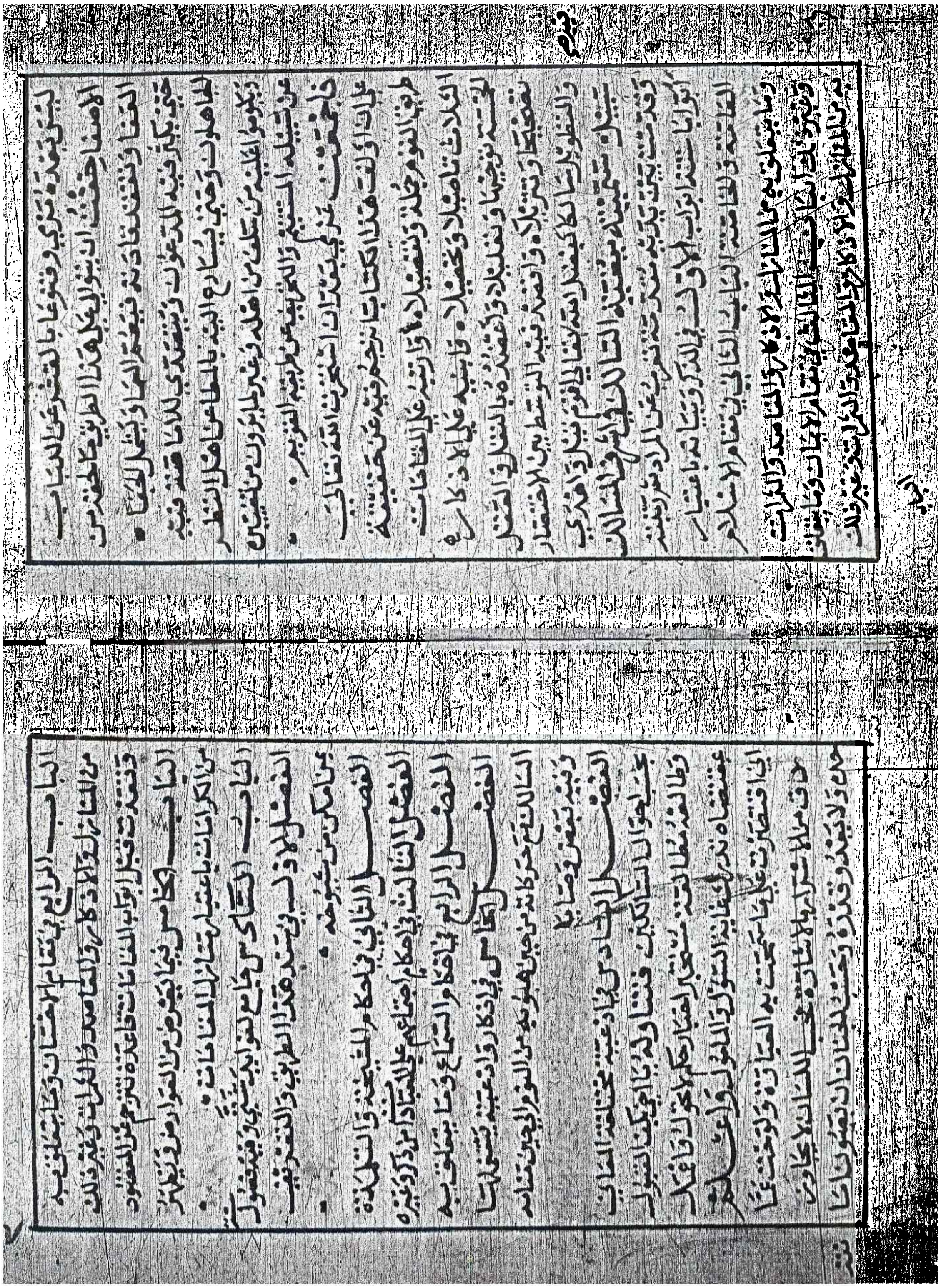
- حلية الأبصار في فضائل الأنصار:

انفرد البغدادي بنسبته إليه دون دليل ثابت. والغالب أن الأمر اختلط لديه مع كتاب: «نزهة الأبصار في فضائل الأنصار» لأبي عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري الأندلسي.

❖ ❖ ❖

نماذج من صور المخطوط







ذا المحبة في اهله فلا مطمع الان في الاستطام في سبلنا اهله
الا بمجرد المحبة فيهم ومن احب قوما فهو منهم جعلنا الله
ممن اختصته برحمته وافاض علينا مواهب منه ولا قطع
بنا عنه ولا حجبنا باهوا بنا عنه انه سميع الدعا
واسع العطا وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد وعلى
اله وصحبه وازواجه واصهاره وانصاره صلاة
تدوم بدوام بقائه والحمد لله كثيرا كثيرا ولا حول ولا قوة
الا بالله العظيم وكان الفراغ من كتابته يوم
الثلاثاء المبارك تاسع عشري
شهر رمضان المعظم قدره
من شهور سنة ١٠٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا كثيرًا

المقدمة

قال الشيخ الإمام الصوفي المربي أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد الساحلي الأنصاري رحمه الله:

يقول العبد المستغفر من ذنبه، الراجي رحمة ربه، محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي غفر الله له، وأصلح قوله وعمله، بفضله وكرمه:

الحمد لله الذي جلا مرآة بصائر الذاكرين من صدأ الغفلات، وجلا شمس قلوب المعارف في أفق سماء قلوب أهل المراقبات، وتجلى بذاته وصفاته وأفعاله فتدكدكت جبال الأوهام واضمحل سراب الشبهات، نحمده سبحانه حمدًا يؤذن بالارتقاء إلى قنة[1] ربوة حضرة المناجاة، ونشكره جلَّ اسمه شكرًا يقضي بتتابع النعم وترادف الخيرات.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة الورد من شوائب كدرات الآفات، صادقة القصد في ولوج باب المشاهدات.

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله المؤيدُ بأوضح المعجزات، المخصوصُ بأعلى المقامات، وأرفع الدرجات، صلى الله عليه وعلى آله صلاة متصلة الصلات، محفوفة بأزكى البركات وأعم الرحمات، وسلم تسليمًا كثيرًا موصول الآصال بالغدوات.

أما بعد... أيها الأخ الذي رصت أركان أخوته على قواعد المحبة والصفاء، وحفت روضة خلته بأزهار أنوار الصدق والوفاء، وشدت عُرَى صحبته بروابط

---

(١) قنة الجبل وقلته: أعلاه. لسان العرب (١٢١/٥).

ضوابط الرعي والاحتفاء، فإني للذي لزمني من شكر أياديك في صحبتك، ووجب عليَّ من القيام بحقوقك في خلتك، وتأكد عليَّ من الوفاء بشروط محبتك، ولما عَلِمتُك كثير الحب في طريق السالكين، شديد الميل إلى التعرف بمساعي الصالحين، بحَّاثًا عن مشارب أولياء الله العارفين، متشوقًا إلى العلم بأحوال طبقاتهم في السفر إلى رب العالمين، رأيت أن أجري معك في ميدان المذاكرة بطريق يفضي - بفضل الله تعالى - إلى بحبوحة[1] بها ينزل الصديقون[2]، وأفتح بيني وبينك بابًا يشرع إلى عرصات فيها يحط العارفون[3]، وأرسم في طريق القوم كتابًا يترجم عن كيفية سلوك مقامات الدين، ويسفر عن وجه الإعلام بسبيل الارتقاء إلى حضرة المقربين، وأشير فيه إلى بعض أسرار القوم بإيماء وتلويح، مستغنيًا في ذلك بالإشارة عن التصريح.

وليس ذلك بهتك لأستار أسرارهم، ولا خروج عن دائرة مذاهبهم في الكتم وأطوارهم، لكني لما رأيت أكثر المتعلقين بهذا الطريق قد عميت عليهم أنباؤه، وغاب عنهم أساسه وبناؤه، فلم يعرفوا معناه، ولا حلُّوا بمغناه، لكنهم وقفوا في مباديهم، فلم يقدموا رجلًا إلى ما بعد ذلك، وأعرضوا عن مناديهم فحجبوا عن حقائق ما هنالك، ظنًا منهم أن ما بأيديهم ليس بعده مرمى، أو قنوعًا بالقشر عن

---

(١) بَحْبَحَ الرَّجُلُ وتبَحْبَحَ، إذا اتَّسع. والبَحْبَحَة: الاتساع. ومنه قولهم: بُحْبُوحَة الدار، أي ساحتها، ولفلان دار يتَبَحْبَح فيها. جمهرة اللغة (٦٢/١).

(٢) قال القاشاني: «الصديق مبالغة في الصدق، وهو الذي كمل في تصديق كل ما جاء به رسول الله ﷺ علمًا وقولًا وفعلًا، بصفاء باطنه وقربه من باطن النبي ﷺ، لشدة مناسبته له، ولهذا لم يتخلل في كتاب الله تعالى مرتبة بينهما في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]. وقال ﷺ: «أنا وأبو بكر كفرسي رهان، لو سبقني لآمنت به، ولكن سبقته فآمن بي». «اصطلاحات الصوفية ص: ١٣٩». ومنه اشتق اسم مقام الصديقية التي هي عبارة عن حقيقة مقام: من عرف نفسه فقد عرف ربه». معجم المصطلحات الصوفية ص ١٠٩.

(٣) قال الجنيد: «العارف هو الذي نطق الحق عن سره وهو ساكت. وقال القاشاني: «العارف من أشهده الله ذاتَه وصفاتِه وأسماءَه وأفعالَه. فالمعرفة حال تحدث من شهوده. ومثل هذه الأقوال في وصف العارف كثيرة يصعب حصرها. معجم المصطلحات الصوفية ص: ١١٧ - ١١٨.

اللباب الأصفى، خفتُ أن يتوالى على هذا الطريق ما لحقه من العفاء، أو تفقد قادته فيعم العماء ويشمل الجفاء، حتى يكثر فيه المدعون، ويتصدى للإمامة فيه الجاهلون وحتى يسارع إليه بالمطاعن أهل النظر، ويلوموا عليه من سلف من أهله وغبر، لما يرون من تغييره عن سبيله المستقيم والتحريف به عن مهيعه القويم.

فأجمعتُ عزمي بعد أن استخرت الله تعالى على أن أؤلف هذا الكتاب أترجم فيه عن حقيقة طريق القوم جملة وتفصيلًا، وأرتبه على المقامات الثلاث(١) تأصيلًا وتحصيلًا، وأبنيه على الأذكار الخمسة توجيهًا وتعليلًا، وأعضده بالنقل والعقل تصحيحًا وتنزيلًا، وأقصد به التوسط بين الاختصار والتطويل، سالكًا فيه بفضل الله تعالى أقوم قيل وأهدى سبيل.

وسميته بـ «**بغية السالك في أشرف المسالك**» وقدمتُ بين يديه مقدمة تعرب عن المراد، ثم رتبته أبوابًا ستة:

الباب الأول: في الذكر وبيانِه باعتبار العامة والخاصة(٢).

الباب الثاني: في مقام الإسلام، وما يتعلق به من المنازل والأذكار، والمقاصد والثمرات وغير ذلك.

الباب الثالث: في مقام الإيمان، وما يتعلق به من المنازل والأذكار، والمقاصد والثمرات وغير ذلك.

الباب الرابع: في مقام الإحسان، وما يتعلق به من المنازل والأذكار، والمقاصد والثمرات وغير ذلك.

وقعّدتُ قبل أبواب المقامات قاعدة تترجم عن المقصود.

---

(١) مقامات: الإسلام، الإيمان، الإحسان.

(٢) يعتبر مفهوما العمومية والخصوصية من المفاهيم الأساسية التي تأسس عليها الفكر الصوفي. يرى القاشاني أن العامة هم الذين: «اقتصر علمهم على الشريعة، ويسمى علماؤهم: علماء الرسوم. اصطلاحات الصوفية ص: ١٠٧. أما الخاصة، فهم: الذين خصهم الله تعالى من عامة المؤمنين بالحقائق والأحوال والمقامات. قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] فالمقتصد خصوص، والسابق خصوص الخصوص». اللمع ص: ٤١٤.

الباب الخامس: فيما يعرض من العوارض، ويظهر من الكرامات باعتبار منازل المقامات.

الباب السادس: جامع لفوائد شتى، وفيه فصول ستة:

الفصل الأول: في سند هذا الطريق، والتعريف بمن أمكن من شيوخه.

الفصل الثاني: في أحكام المشيخة والتلمذة.

الفصل الثالث: في أحكام اجتماعهم على العبادات من ذكر وغيره.

الفصل الرابع: في أحكام السماع وما يتعلق به.

الفصل الخامس: في أذكار وأدعية يستعملها السالك مع حركاته من حين هبوبه من النوم، إلى حين منامه، وفيه بعض وصايا.

الفصل السادس: في أدعية مختلفة المعاني بحسب أحوال السالكين.

فتناوله يا أخي بكف القبول، وطالعه مطالعة مستخبر أخبار حكم لا تحول، واعمل بمقتضاه تدرك غاية السُّؤْل والمأمول.

واعلم أني اقتصرتُ على ما سمحت به العبارات، ولوَّحت عما دقَّ من الأسرار بالإشارات، فحسب اللسان ألا يجاوز حده ولا يعدو قدره، وحسب الجنان أن يصون أمانته ويكتم سره.

والأذواق يعسر تحديدها والتعريف بحقيقتها، والأسرار يصعب الكشف عن كنهها وماهيتها، مع أن مواهب الله تعالى لا تنحصر بزمام، وأسراره لا تظهر إلا بعد صفاء البواطن من كدرات الأوهام ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤] سبحانه ذو الجلال والإكرام، وما زلَّت أقدام كثير من المتكلمين إلا بتقاحمهم على التعبير عن الأسرار المكنونة، والكشف عن الأمانة المحفوظة المصونة.

أسأل الله تعالى أن يهدينا سبيل السلام، وأن يرزقنا به حسن الاعتصام
وألا يحجبنا عن موارد التخصيص والإكرام، إنه سميع الدعاء
وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا ومولانا
محمد وعلى آله صلاة تبوؤنا من رضوانه أعلى
المراتب وتسوغنا من إحسانه
أزكى المواهب

مقدمة تعرب عن المراد

اعلم رزقني الله وإياك موهبة قدسية تسمو بنا إلى حضرة قدسه، وتحلنا في محل أنسه أن الله ﷻ خلق نفس الإنسان من صفاء صفوة النور، وأحلَّها مكانًا مكينًا وألبسها أثواب الطهارة والزكاة، ثم أهبطها من مكانها ونقلها من قرارها، وأودعها قارورة الجسم لحكمة آدمية قدَّرها وقضاها؛ وليبلونا أينا أحسن عملًا، فيفوز بالفلاح من زكاها، ويبوء بالخيبة من دساها.

وجعل بين النفس والجسم تعلقًا عجيبًا وارتباطًا غريبًا لولاه لم يستقر قرارها فيه للمضادة التي بينهما وبذلك التعلق والارتباط تحلت النفس من كثافة الجسم بأوصاف وتحلى الجسم أيضًا من لطافة النفس بأوصاف، لكن النفس أشد انفعالًا لمقتضيات الجسم وأكثر اتصافًا بأوصافه؛ لبعدها عن عالمها وقربه من عالمه.

والطبع يسرق من الطبع القريب المجاور، فكلما مال الجسم لمقتضى النفس جذبه عن ذلك طبع عالمه القريب فضعف الميل، وكلما مالت النفس لمقتضى الجسم لم تجد وازعًا عن ذلك من عالمها؛ لبعدها عنه، فاتصفت بأوصاف الجسم، وتلوثت بأدران مقتضياته حتى أخرجها ذلك عن طبعها، ونزع عنها أثواب طهارتها، ولوَّثها بأدران الشهوات، وأمرضها بعلل الآفات حتى صار لها من ذلك أعظم حجاب عن خالقها، وأكبر قاطع عن عالمها، فهي مع مرور الأزمان والأنفاس تكثر عللها فيعظم حجابها.

والعبد مطلوب بخلاص نفسه من عللها، وطهارتها من أدرانها، وخرق حجابها عن خالقها حتى يصح مزاجها ويعتدل، وتنقه[1] من غمرة عللها، وتتجرد من أثواب شهواتها، وتتحلى بالأوصاف التي كانت عليها قبل التركيب، فتعود إلى ربها طاهرة زكية مطمئنة راضية مرضية، وهذا هو العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم،

(١) نقه ينقه أي شفي من مرضه، وهو في عقب علته، لم يرجع إليه كمال صحته وقوته.

وذلك هو لباب اللباب؛ لأن العمل لباب العلم، وطهارة النفس لباب العمل، وهي الغاية التي لها شدَّ الأنجاد[١] عرى العزائم، وأملها كل صائم وقائم، وبحسب ما يبقى على الإنسان من طهارة نفسه يكون إخلاده عن الوصول إلى العرصات القدسية والأسرار الإلهية.

ولما عجزت العقول عن إدراك أسباب خلاص النفس من عللها، وكعت[٢] عن معرفة ما يطهرها من دنس شهواتها؛ لأن العقول وإن كان عندها إدراك تتفاضل فيه، فإنها محجورة عن الإحاطة بجميع المصالح، فتجدها في أكثر الأمور كالأعمى الذي لا يهتدي إلا بدليل، ولا يؤمن في تسليم النظر لها في الجملة أن تهوي في مهواة الهلكة من حيث لا تشعر؛ لعدم إحاطتها بجملة المصالح.

ولذلك هلك من سلَّمَ لها النظر من غير تشرع، فبعث الله رسله - صلوات الله وسلامه عليهم - هداة للعقول إلى ما فيه خلاص الأنفس من رق شهواتها، وإنقاذها من أسر غفلاتها، وطهارتها من دنس سيئاتها، وإخراجها من الظلمات إلى النور بطرق سهلة ومآخذ هيِّنة بوحي من الله تعالى، فجاءوا من عنده بوظائف العبادات وشرائع الدين وفنون التكليفات، منها ما يختص بالباطن، ومنها ما يختص بالظاهر.

- أما ما يختص بالباطن: فكـ «الأدوية».
- وأما ما يختص بالظاهر: فكـ «الأغذية».

بيان أن الله تعالى جعل بين أعمال الظاهر وأعمال الباطن مناسبة للارتباط بينهما

وهنا نكتة يجدها كل مُوفَّق إذا تأملها من نفسه وهي:

أن الله تعالى جعل بين أعمال الظاهر وأعمال الباطن مناسبة للارتباط الذي بين الباطن والظاهر، فإذا دخلتْ بشاشة الإيمان الباطن، حرك الظاهر للعمل بموجب ما حصل فيه من إيمان، فإذا تلبس الظاهر بأعمال ذلك الموجب، سَرَت منه أنوار

---

(١) رجل نجد ونجد: أي شديد البأس والشجاعة والنجدة. جمعه: أنجاد.

(٢) كعا الرجل: إذا انهزم. والكاعي هو المنهزم الجبان، جمعه أكعاء. القاموس المحيط (١٧١٢/١).

للباطن أثلجت اليقين[١] وقوَّت الإيمان، فيحرك الباطن الظاهر للعمل بموجب تلك القوة الإيمانية، فيتلبس الظاهر بأعمال ذلك الموجب، فتسري منه أنوار للباطن تزيد بها مادة القوة الإيمانية، ويعظم الثلج اليقيني، فلا يزال كذلك حتى ينتهي الإيمان إلى الغاية التي ليس بعدها مرمى، وينتهي ثلج اليقين إلى غاية: «لو انكشف الغطاء ما ازداد يقينًا» فانظر الحكمة البليغة في أعمال الظاهر والباطن.

واعلم أن الله تعالى كلَّف عباده أن يعلموا ما جاءتهم به رسله منه، وأمرهم أن يعملوا بمقتضى ما علموا، وجعل الله سبحانه العمل الخالص الجاري على مهيع العلم مطهرًا للنفس من أدرانها، مخلصًا لها من عللها.

فطهارة النفس ثمرة العمل، كما أن العمل ثمرة العلم، فالنفس إذا تحلت بالأخلاق الحميدة، وتزكَّت عن الأخلاق الذميمة، فإن حجاب الغفلة يرتفع عنها، أو يرتفع منه بقدر ما نالته من تحلية وتزكية، وإذا ارتفع حجابها تصفت مرآتها فشاهدت الحقائق على ما هي عليه، وأبصرت الأسرار من غير ارتياب، لكن رأس الحكمة الاهتداء إلى معرفة علل النفس وأسبابها، والعلم بوجود الخلاص منها، وكيفية طهارتها، فلا بدّ من طبيب يدبرها ويعانيها، ويخلصها ويداويها، بالأدوية التي توافق، والأغذية التي تلائم حسبما تقتضيه حكمته، ولا شك أن طب الأنفس وعلاج عللها أوكد وأولى من طب الأبدان؛ لأن العاقل إنما يعالج بدنه كي يحصل له البقاء الذي يدرك فيه علاج نفسه، فطب الأبدان سبب لنيل الراحة المنقطعة والحياة المنفصلة، وطب الأنفس سبب لنيل الراحة الدائمة والحياة الباقية فشتان ما بينهما.

بيان أن أطباء الأنفس هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ونبينا ﷺ هو الطبيب الأعظم والإمام الأكبر وكيفية العلاج في الكتاب والسنة

فإن قلتَ: قد تبين بما قلت أن علاج الأنفس أمر ضروري، فهل من طبيب

---

(١) «اليقين هو العلم الذي لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العرف. ولا يطلق في وصف الحق سبحانه، فعلم اليقين هو اليقين». الرسالة القشيرية ص: ٤٧ «وهو من المصطلحات التي كثرت تعريفاتها عند شيوخ التصوف، وتتفرع عنها اصطلاحات أخرى مركبة بحسب ما يضاف إليها، كحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين» عوارف المعارف (ص: ٣٣٢).

أشكو إليه علل نفسي، وأؤمله للخلاص من أمراضها، لعله يصلح منها ما فسد كي استقبل الراحة الكبرى؟

فالجواب: إن الأطباء هم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - ونبينا ﷺ هو الطبيب الأعظم والإمام الأكبر، وأسباب العلاج موجودة في الكتاب والسنة، فيهما الشفاء والدواء، ولم يتوفَّ الله تعالى نبيه سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ حتى أكمل به الدين، وأتم به النعمة، وترك بين أظهرنا كتابه الحكيم وسنة نبيه ﷺ، هما النور لمن أراد الاهتداء، والحكمة لمن أراد الدواء.

وترك الوارثين له، المهتدين بهدايته، أئمة الحق وقادة الهدى، ولم تزل هذه الإراثة قائمة يرثها قوم عن قوم، من عهد الصحابة إلى هلم جرا، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من ضل إلى قيام الساعة**»(١) فالأطباء هم الوارثون، والأدوية وكيفية العلاج بها، في الكتاب والسنة.

فإن قلت: حد لي هؤلاء الأطباء بالأوصاف التي يعرفون بها، وحلِّهم بالحلى التي يمتازون بها؛ لأن الدعوى قد كثرت في هذه الوراثة حتى أشكل الأمر، والتعرض لعلاج من لا يُعرف أمره تغرير منهي عنه.

فالجواب: أن المقصود الأعظم من الشريعة هو تطهير النفس من كدرات متعلقات الجسم بالتزكية عن الأوصاف الذميمة، والتحلية بالأوصاف الحميدة حتى تصل إلى معرفة الله تعالى، وهذا لا يكون إلا بعد معرفة النفس ومعرفة عللها على اختلاف المفرد من ذلك والمركب، ومعرفة الأدوية والأغذية، وما يختص بزوال كل علة مركبة أو مفردة من تلك الأدوية والأغذية.

ولا يحكم ذلك إلا الرباني الذي نوَّر الله ظاهره وباطنه بأنوار معرفته، وخصَّه بآثار حكمته، وأطلعه على أسرار الشريعة، ووقّفه على معاني الكتاب والسنة، ولا يكون ذلك إلا ممن سلك مقامات الدين، وقطع منازل السالكين، وتخلَّص من نفسه على يدي وارث آخر حتى صار على بينة من ربه، وأهَّله الله لهداية غيره، وخصَّه

---

(١) رواه مسلم (١٥٢٣/٣، رقم١٩٢٠)، والترمذي (٥٠٤/٤، رقم ٢٢٢٩) وقال: حسن صحيح وابن ماجه (٥/١، رقم ١٠).

بالقوة المقتضية ذلك وحصل له الإذن الصحيح الصريح في ذلك من قدوته، ومهما قصر عن هذه الأوصاف، فإنه معلول يحتاج إلى طبيب يُطببه، وبما بقي فيه من البقية لا يخلو عن غلط.

فقد عرفتَ الطبيب، وهو الوارث الكامل، وقد يسمى وارثًا من حصل على بعض الأوصاف المذكورة بنوع من المجاز، لكن منفعته مقصورة على نفسه، وقد ينتفع به في القليل الخاص، وأما الانتفاع العام الكثير فلا يكون إلا من الوارث الكامل الذي رسخ علمه، وقَوِي عقله، وتطهرت نفسه، وصدقت فراسته، وترجح رأيه، وسلمت فطنته، وامتحى هواه، وانشرح صدره بأنوار المعارف ونفحات الأسرار، وأخذ عن شيخ وارث بهذه الصفات، وأذن له في الانتصاب لهداية الخلق بتخليص أنفسهم من عللها.

وهذه هي الوارثة الحقيقية فعليك باتخاذ من هو بهذه الأوصاف قدوة ووسيلة إلى الله تعالى في خلاص نفسك وطهارتها، ولتملكه زمام الحكم عليها من غير ارتياب ولا التواء ولا إعراض، بل تكون بين يديه كالميت بين يدي غاسله، وقد قالوا: «من قال لشيخه لِمَ؟ فإنه لم ينتفع به».

و قد علمنا الله هذه الفائدة بالإشارة إليها في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وسأورد الكلام في أحكام المشيخة والتلمذة في الفصل الثاني من باب الجامع إن شاء الله تعالى.

وقد جرى لي كلام في هذا المعنى بسيط في الكتاب الذي سميته بـ «أشعة الأنوار في الكشف عن ثمرات الأسرار».

وأما من لم يبلغ هذه المنزلة من الوراثة، ولم يتخلص من تبعات نفسه، فاشتغاله بصلاح نفسه أولى له وأسلم من فساد الرياسة؛ لأنه - لما بقي فيه من العلل - لا يخلو عن شره، وبالشره تتراكم الظلم، فتغيب الحِكَم فيكثر الخطأ، وقد ينتفع به في القليل إن سلم من حب الرياسة والانفعال لها، فالمتعرض لهداية غيره - الهداية المشار إليها بغير علم - قبل أن تحصل له حقيقة الوارثة، فهو بما عنده من الشره والجهل هالك مهلك، ضال مضل.

وقد أحسن القائل حيث قال:

يَـــا مَـــنْ يَبـــثُّ لِغَيـــرِهِ تَعليمَـــهُ هَـــلا لِنَفْـــسِكَ كـــانَ ذا التَعلـــيمُ
لا تَنـــهَ عَـــن خُلُـــقٍ وَتَـــأتيَ مِثلَـــهُ عـــارٌ عَلَيـــكَ إِذا فَعَلـــتَ عَظـــيمُ
وابـــدأ بِنَفـــسِكَ وَانَهِهـــا عَـــن غِيِّهـــا فَـــإِذا انتَهَـــت عَنـــهُ فَأَنـــتَ حَكـــيمُ
فَهُنـــاكَ يُقبَـــل مـــا وَعَظـــتَ وَيُقتَـــدى بِالفعـــلِ مِنـــكَ وَيَنفَـــعُ التَعلـــيمُ

وقال غيره[1]:

وَكَيـــفَ تُريـــدُ أَن تُـــدعى حَكيمًـــا وَأَنـــتَ لِكُـــلِّ مـــا تَهـــوى رَكـــوبُ
وتَعبَـــثُ دَائمًـــا ظَهـــرًا لِـــبَطنٍ وترتكـــبُ الـــذنوبَ ولا تتـــوبُ

ومن تعرض لهداية غيره بغير معرفة فهو خائن، ومن طبب غيره بغير علم فهو ضامن؛ إذ بما عنده من الجهل ربما أخرج الأدوية عن موضوعاتها، وعدل بها عن مقاديرها، فساق المريض إلى الهلكة، وعاجله بالمنية.

خلاص النفس يكون بالاعتصام بالكتاب والسنة

فإن قلت: فإن لم أعثر على وارث كامل، واجتهدت في طلبه فلم أقع عليه، فكيف يكون العمل؟

فالجواب: أن العمل في خلاص نفسك يكون بالاعتصام بالكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح، والاجتهاد بالمجاهدة على حصول الإخلاص والتزام الصمت، والانفراد عن الناس، واستخارة الله تعالى في جميع الأمور، واتهام النفس في جميع إشاراتها، ومعاملتها بالمخالفة فيما يجهل أصله، ومشاورة ذوي العقول المائلين إلى الاعتدال، مع ملازمة النظر والتثبت والحزم، وإن عثرت على أخ صالح تقي فواصله في الله، وفاوضه فيما أُشكل، واعتضد بمناصحته على دفع الهوى، ولا تمل عن الدعاء والضراعة إلى الله تعالى في صلاح الحال وسداد الأعمال.

---

(١) البيتان ينتسبان لأبي محمد الجريري.

فصل

في بيان مذاهب الناس في اتخاذ شيوخ التربية

والناس في اتخاذ مشايخ التربية والأخذ عنهم طائفتان:

- طائفة قنعت بالتزام الخير جملةً من غير تفصيل مصطلحين مع أنفسهم على حفظ الحدود، لم يتجردوا لخلاصها مما وراء ذلك، فهؤلاء لا بأس أن يُضرب لهم بسهم في النصيحة العامة، فيدلوا على ما يواصلون به حفظ الحدود من غير أن يُنصب عليهم ميزان المحاسبة، ولا يُضيَّقُ عليهم بالمناقشة فيما سوى الحدود من أداء واجب وترك حرام، مع التزام السنن الثابتة، وشيء من نوافل الخير على وجه التوسل للتوصل إلى الأجر والثواب، وهؤلاء هم الأكثرون.

- وطائفة: شدوا حيازيم[1] العزم وقاموا على قدم الجد في طلب الخلاص التام من جميع علل النفس، قاصدين معرفة الله تعالى بطهارة أنفسهم، وتصفيتها بالسلوك على طريق أهل الاختصاص الذين استجابوا لله تعالى حين نادى بهم منادي التخصيص إلى حضرة المقربين، وما أقل هذه الطائفة وأعزَّها اليوم في الوجود.

لكن إذا هيَّأَ الله تعالى لطهارة أنفسهم واحدًا منهم، وتعرض إلى شيخ وارث قدوة رباني، قاصدًا معاناة نفسه من أمراضها، وطبها من عللها، وتصفيتها من كدراتها، وتخليصها من رق هواها، والاهتداء بذلك إلى معرفة الواحد الحق، فينبغي للقدوة أن يلحظه بعين الرعاية، ويعطف عليه بإطناب القبول، ثم يتأمله بنور الكشف، فإن وجد فيه قابلية اختصاصية تعرب عن الأهلية بادر إلى معاناته، وأخذ في إرشاده، فيرتب أحواله وتصاريفه، ويلقي إليه ما يناسبه من الأذكار والمقاصد، وما يوافقه من الحِكَم والفوائد، ويهديه إلى ما يخصه من وظائف الدين، ويرشده

---

(١) الحيازيم جمع حيزوم، وهو الصدر، أو وسطه. وشد الحيازيم كناية عن التشمر والاستعداد للأمر.

إلى الطريق المبين، وينصب عليه ميزان المحاسبة[1] والمناقشة على قدر حاله وقوته وتمكينه، ويسلك فيه مسلك التدريج شيئًا فشيئًا، ويسطع ما يخلق الله تعالى عنده، وما يفتح له فيه من جنبات تصاريفه وأنفاسه، وحركاته وسكناته، من يقظته ونومه حتى إذا أعطى كل ذكر حقه، ولاحت عليه ثمرته، وارتقى من منزل إلى منزل، وصعد من مقام إلى مقام حتى بلغ الغاية من تصفية نفسه ووصل إلى النهاية من طهارتها، وظفر بمعرفة ربه، ولاحت له أنوار الحقائق من جنبات عرصات ثمرات أسرار التوحيد حتى لو كُشِفَ الغطاء لم يزدد يقينًا، فعند ذلك ملَّكَه القدوةُ زمامَ نفسه، وأمَّنه على حفظ سره، وأعلمه أنه على بيّنة من ربه، فإن كان ممن أهَّله الله تعالى لهداية غيره أذن له في ذلك، وإلا قصر نظره على نفسه.

وينبغي للتلميذ في سلوكه ألا يتهم قدوته في شيء، وألا يكتم عنه شيئًا مما قلَّ أو جلَّ، وأن يضيف الكمال له، ويبالغ في تعظيمه وتوقيره، ومراعاة إشارته، والاهتبال بملازمة الأدب معه إلى امتثال أمره ونهيه، والله هو الفتَّاح العليم.

(١) المحاسبة: «عتاب النفس على تضييع الأنفاس في غير أنواع الطاعات، وتكون آخر النهار، كما أن المشارطة تكون أول النهار فالمشارطة أولا، والمحاسبة آخرا، والمراقبة دائما ما دام في السير» (معراج التشوف ص: ٣٠).

الباب الأول
في الذكر وبيانه باعتبار العامة والخاصة

[تمهيد]

اعلم - سقاني الله وإياك من كأس الصفا[1] ولا عَدلَ بي وبك عن مناهج أهل الوفا - أن أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى هو طريق الذكر، وهو أجل الوسائل إلى المعرفة به.

قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] والذكر يقرب إلى الله تعالى قال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] والذكر ينيل المغفرة والأجر، قال ﷻ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذكر مطلوب الإكثار منه، قال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١] ولا شيء أبلغ في ذم الغافل عن الذكر من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٧] ولم يرخص لأحد في ترك الذكر على حال، من قعود وقيام وعلى جنب، وغير ذلك.

خَرّج أبو داود عن أبي الدرداء - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْد مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْر لَكُمْ مِنْ إِنْفَاق الذَّهَب وَالْوَرِق، وَخَيْر لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقهمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقكُمْ؟ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: ذِكْر الله تَعَالَى»**[2].

---

(١) الصفاء: ما خلص من ممازجة الطبع ورؤية الفعل من الحقائق في الحين. قال ابن عطاء: لا تغتر بصفاء العبودية، فإن فيها نسيان الربوبية، لأنها ممازجة الطبع ورؤية الفعل، أما صفاء الصفاء فهو مزايلة الأحوال والمقامات والدخول إلى النهايات، وإبانة الأسرار عن المحدثات، لمشاهدة الحق بالحق على الاتصال بلا علة». اللمع ص: ٤١٤.

(٢) رواه أحمد (١٩٥/٥، رقم ٢١٧٥٠)، والترمذي (٤٥٩/٥، رقم ٣٣٧٧)، وابن ماجه (٢٤٥/٢، رقم ٣٧٩٠) والحاكم (٦٧٣/١، رقم ١٨٢٥).

وخَرّج أيضا أبو داود والترمذي، وابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ النَار مِنْ ذِكْرِ اللهِ**» قَالُوا: وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلا أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ، ثُم تَضْرِبَ بِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ، ثُم تَضْرِبَ بِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ**»(١).

وخرج النسائي والترمذي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه - قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَي الْعِبَادِ أفضل دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله وَمِنَ الْغَازِي في سَبِيلِ الله؟! قَالَ: «**لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ في الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا لَكَانَ الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا أفضل مِنْهُ دَرَجَةً**»(٢).

وخرج الترمذي والنسائي وابن أبي شيبة عن عبد الله بن بشر - رضي الله تعالى عنه - أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ قَالَ: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ الله ﷻ**»(٣) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسُّنَّة من الدليل على شرف الذكر وفضله، ورفيع درجته؛ ولذلك جعله أهل المعرفة وسيلة إلى الله تعالى، فلازموه وحافظوا عليه.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٥٧/٦، رقم ٢٩٤٥٢) وأحمد (٢٣٩/٥، رقم ٢٢١٣٢)، والطبراني (١٦٦/٢٠، رقم ٣٥٢). والطبراني في المعجم الصغير: (٧٧/١).

(٢) رواه أحمد (٧٥/٣، رقم ١١٧٣٨)، والترمذي (٤٥٨/٥، رقم ٣٣٧٦) وقال: غريب، والبغوي في شرح السنة: (١٧/٥).

(٣) رواه من حديث سيدنا عَبْدَ الله بْنَ بُسْرٍ ﷺ أحمد (١٨٨/٤ رقم ١٧٧١٦) وابن ماجه (١٢٤٦/٢، رقم ٣٧٩٣) والترمذي (٤٥٨/٥ رقم ٣٣٧٥) وقال: حسن غريب. وابن أبي شيبة (٥٨/٦، رقم٢٩٤٥٣)، وابن حبان (٩٦/٣، رقم ٨١٤)، والحاكم (٦٧٢/١، رقم ١٨٢٢) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٣٧١/٣، رقم ٦٣١٨). وابن المبارك (٣٢٨/١، رقم٩٣٥)، والطبراني في الأوسط (٣٧٤/٢، رقم ٢٢٦٨)، والضياء (٦٠/٩، رقم ٤٣).

[فصل]

بيان الحكمة في أن أعمال البر كلها دون الذكر درجة

فإن قلت: لم كانت أعمال البر كلها دون الجهاد، وكان الجهاد وسائر أعمال البر دون الذكر؟

فالجواب: إن أعمال البر كلها إنما مقصودها الأعظم تصفية النفس وتطهيرها بإتلافها عن مألوفاتها، وإخراجها عن هواها حتى تلحق بعالمها، خلية عن الالتفات إلى شيء من متعلقاتها، فما كان من الأعمال أقرب لهذا المعنى وأعون عليه فهو أفضل، مع أن علل النفس منها ما يظهر لأول تأمل، ومنها ما هو أخفى من دبيب النمل، وأعمال البر مسلطة على محو هذه العلل، وذهاب آثارها بطهارة النفس.

لكن أعمال البر متفاضلة في أحكام هذه الطهارة:

* منها: ما يذهب من العلل ما ظهر دون ما خفي.
* ومنها: ما يذهب الظاهر والخفي دون الأثر.
* ومنها: ما يذهب الظاهر والخفي وأثرهما حتى تعود النفس إلى نهاية صفائها مطمئنة بربها.

ولا شك أن الجهاد الحقيقي مؤذن بإتلاف النفس عن مألوفها، وإخراجها عن عالم الحس إلى عالم الغيب[1] لكن لا يعرى ذلك عن العلل الخفية المعربة بالإبقاء على

---

(١) يقول ابن عجيبة: «الحس عبارة عن تكثيف الأشياء ظاهرا. والمعنى: عبارة عن تلطيفها باطنا. فحس الكائنات أواني حاملة للمعاني.

قال الششتري ﷺ: لا تنظر للأواني، وخض بحر المعاني، لعلك تراني. فمثال الكون كالثلجة، ظاهرها ثلج وباطنها ماء. كذلك الكون ظاهره حس وباطنه معنى. والمعنى: هي أسرار الذات القائمة بالأشياء. فقد سرت المعاني في الأواني سريان الماء في الثلجة. فلا قيام للحس إلا بالمعنى ولا ظهور للمعنى إلا بالحس. فالمعنى رقيقة لطيفة لا تدرك إلا بتحسسها في قوالب الكائنات، فظهور المعنى بلا حس محال. وشهود الحس بلا معنى جهل وظلمة. معراج التشوف (ص: ٥١).

النفس بعض أوهامها والنفس تتحمل المشاق العظام مع الإبقاء عليها ولو بعض أوهامها وبهذه العبرة قصر الجهاد عن الالتحاق بفضيلة الذكر؛ لأن الذكر إذا استعمل على طريقه المعروف، ومهيعه المألوف، مبنيًا على قواعد الشرع، محفوظًا من خطوات الزيغ، فإنه لا يدع من علل النفس شاذة ولا فاذة ولا أثرًا إلا أتى على ذلك بالذهاب، حتى تبلغ النفس غاية طهارتها، ولا يبقى عندها التفات إلى غير الله تعالى.

كل ذلك عن علم وذوق؛ ولذلك سُمِّيَ طريق الذكر المؤذن بخلاص النفس «جهادًا أكبر» وسُمِّيَ الضرب بالسيوف والطعن بالرماح «جهادًا أصغر» ولما في طريق الذكر من قطع المفاوز والمخاوف التي تخرج النفس عن جميع متعلقات الجسم كخروج الشعرة من العجين، وليس يدرك ذلك بسائر أعمال البر جهادًا أو غيره.

وإن كان من سائر أعمال البر ما يؤذن بخلاص النفس وتصفيتها، فللذكر خاصية في ذهاب الآثار؛ إذ لا يكون تخليص إبريزها من كدرات أوهامها أو أثرها إلا بشعيرة الذكر، فظهر لك أن للذكر اختصاصًا عجيبًا في طهارة النفس الطهارة التامة وتصفيتها التصفية العامة حتى تصير لها الطهارة صفة ذاتية، وغير الذكر قد يبقى معه من علل النفس ما هو حجاب عن الله، وإن كان خفيًا.

وقد تقنع النفس بذلك الخفي وتتحمل لأجله المشاق، وتقتحم المضايق من الطاعات راضية بذلك؛ لأن إخراجها عن جميع هواها هو البلاء العظيم، لكن وراءه من المعارف الإلهية والأسرار القدسية، والحكم الربانية ما تقر به الأعين، وتنتظم به الأفراح، وتذهب به الأحزان، فلا مخلص من علل النفس إلا بالذكر.

وبيان ذلك أن العبد إذا داوم على الذكر حتى انطبع معناه في النفس وقام بها، فإن النفس تنقلب إلى مقتضى الذكر متصفة بمعناه، وإن كانت الأذكار مختلفة المعاني، فلكل ذكر اختصاص بصفة حميدة فأكثر تتحلى بها النفس وتتزكى عن أضدادها، فلا تزال الأذكار تصفي النفس من كدراتها، وتخلصها من عللها، حتى تطمئن لخالقها فلا تجد أنسًا بغيره، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وليس المراد من الذكر هنا دورانه على اللسان فقط، لكن المراد منه تلمح معناه

بعين الفكر حتى ينطبع معناه في النفس، فتتحلى به وتتصف لمقتضاه اتصافًا ذاتيًّا أو كالذاتي، وقد نبسط الكلام في هذا المعنى بعد بحول الله تعالى، حتى يظهر لك بالبرهان أن الذكر يجرد النفس عن كل خلق ذميم، ويحلِّيها بكل خلق حميد، وهذا أمر يصعب على النفوس مذاقه لأنه موتها الأعظم، لخروجها به عن مألوفاتها الجسمانية، ورجوعها إلى عالمها الروحاني ولذلك عظم أمر النفس وإن كان أيسر، وهذا كلام جملي، وسيأتي تفصيله وبيانه بأبسط من هذا في أثناء الكلام على المقامات إن شاء الله تعالى، فتبين لك بما قررته أن الذكر أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى.

فصل

بيان حقيقة الذكر بتلاوة القرآن الكريم، والذكر باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته

فإن قلت: قد ثبت بما قلت أن الذكر أفضل أعمال البر، فهل القرآن الكريم من قبيل هذا الذكر الذي أشرت إليه حتى تتنسم روائح ما ذكرته من معناه أو هو غيره؟ فإن كان غيره، فهل تلاوته أفضل من الذكر، أو العكس، أو هما سيان؟

فالجواب عن ذلك: أن هذه المسألة ربما أشكلت على كثير من الناس حتى أن الخلاف جار بينهم في المفاضلة بين الذكر والصلاة، وبين الذكر والتلاوة، وبين الذكر والفكر إلى غير ذلك من سائر الأعمال، وأنا أبسط هذه المسألة بما يخلق الله تعالى عندي بسطًا أرجو الله ألا يدع إشكالًا، ولا يبقى جدالًا.

فاعلم أن «الذكر» لغة هو: «ضد النسيان» وحقيقته من الشرع هي: «قيام معنى التوحيد في النفس حتى يصير صفة لها لا تغفل عنه».

وهذه الحقيقة هي المطلوب من جميع العباد، ثم هذه الحقيقة قد يقوى قيام معناها في النفس، وقد يضعف بحسب الوسائل التي تمدها، وبحسب البداية والنهاية.

- **أما في البداية:** حين يعتور[1] الاتصاف بحقيقة الذكر على النفس وقتًا دون وقت، فالحقيقة إذ ذاك تستمد من الوسائل.

- **وأما في النهاية:** حين تثبت حقيقة الذكر في النفس وتقوم صفة بها لا تنفك عنه فإذ ذاك تستمد الوسائل من الحقيقة.

والوسائل التي تستمد منها هذه الحقيقة تختلف، فمنها الباطن، ومنها الظاهر، ومنها القريب، ومنها البعيد.

* **أما الباطنة:** فكأعمال الفكر فيما يحرك النفس للاتصاف بتلك الحقيقة من

---

(١) اعتوروا الشيءَ وتعوروه وتعاوروه: تداولوه فيما بينهم.

حكم الموجودات، ونحو ذلك فمنه القريب ومنه البعيد.

* **وأما الظاهرة:** فكأعمال الجوارح أو بعضها فيما يحرك الفكر، لما يحرك النفس للاتصاف بتلك الحقيقة من أعمال الطاعات كحركة اللسان باسم من أسماء الله، أو صفة من صفاته، أو غير ذلك مما يجر إلى اتصاف النفس بتلك الحقيقة من قريب أو بعيد، وكحركة سائر الجوارح بصلاة أو جهاد أو صدقة أو غير ذلك، مما يجره إلى اتصاف النفس بتلك الحقيقة من قريب أو بعيد.

فإذا تأملت هذا وجدت الوسائل الباطنة والظاهرة منها ما هو وسيلة بنفسه، ومنها ما هو وسيلة إلى الوسيلة، فإذا تقرر هذا فالقرآن العظيم من جملة الوسائل التي تجر النفس إلى اتصافها بحقيقة الذكر؛ ولذلك سميت الوسائل بحقيقة الذكر ذكرًا بنوع من المجاز، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان منه بسبب، وما كان من هذه الوسائل أقرب للحقيقة فهو أفضل.

ثم إن كنت أشرتَ إلى المفاضلة بين التلاوة وبين حقيقة الذكر، فهذا مما لا يتصور المفاضلة فيه كالأصل وفروعه، والمسبب وأسبابه، والمتوسل إليه ووسائله.

وإن كنت أشرتَ إلى المفاضلة بين بعض الوسائل وبعض، كحركة اللسان بالتلاوة، أو كحركته باسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته ونحو ذلك، فاعلم أن القرآن الكريم يشمل اسم الذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وهو مشتمل على ما هو وسيلة إلى قيام حقيقة الذكر بالنفس، وما هو وسيلة إلى الوسيلة.

فليس تلاوة الأسماء والصفات ونحوها كتلاوة الأمر والنهي، وليس تلاوة الأمر والنهي كتلاوة القصص والأخبار في سرعة انفعال النفس للاتصاف بحقيقة الذكر.

فإذا تقرر هذا فالكلام في المفاضلة بين حركة اللسان بالتلاوة، وحركته باسم من أسماء الله، أو صفة من صفاته، ونحو ذلك، يكون على الجملة والتفصيل:

أما على الجملة: فتلاوة القرآن أفضل؛ لاشتماله على الأسماء والصفات وغير ذلك من المواعظ والقصص والأخبار والأحكام.

وأما على التفصيل: فالناس باعتبار ذلك على قسمين:

عامة، وخاصة.

- **أما العامة:** فثلاثة أصناف:

١- صنف قائم على تلاوة القرآن بعد أن تعلمه، قاصدًا ما وعد الله في ذلك من الأجر لكل حرف عشر حسنات، فهذا ثابت الأجر رابح التجر.

٢- وصنف قائم على تلاوة القرآن تعلمًا مجاهدًا نفسه، لعله يدرك بذلك بركة أهل القرآن، فهذا له أجر الأول، وزيادة أجر النصب والتعب.

٣- وصنف قائم على تلاوته، ترتيلًا وتدبرًا؛ ليجني ثمار معانيه فيعمل بها، ويعلمها غيره، فهذا أفضل من الأول والثاني، وكلهم له أجر حركة اللسان بالأسماء والصفات، ونحو ذلك وزيادة.

وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم الذين يعاملون الله تعالى ابتغاء أجره وثوابه.

- **وأما الخاصة:** فعلى قسمين:

* أهل بداية.

* وأهل نهاية.

١- أما أهل البداية وهم الذين أخذوا في تخليص أنفسهم من شوائب الأهوية وتطهيرها من دنس الشهوات بطبها من علل متعلقاتها مجاهدة على سبيل الرياضة تربيةً وتدريجًا وسلوكًا على طريق التزكية والتحلية بذكر الله الذي تطمئن به القلوب.

ولما كان سر القرآن ولبابه ومقصده دعوة الخلق إلى المعرفة بالله تعالى؛ إذ كل ما اشتمل عليه القرآن من التعريفات كالتعريف بالله، والتعريف بصفاته، والتعريف بأفعاله، والتعريف بطريق السلوك إليه، والتعريف بوعده ووعيده، والتعريف بأهل التخصيص كالأنبياء والملائكة والأولياء، والتعريف بأهل المقت كإبليس وجنوده من الجن والإنس، والتعريف بالأحكام التي طوَّقها عباده، كل ذلك تعريفات تحرك النفس إلى الاتصاف بمعنى التوحيد الجاذب إلى معنى المعرفة الحقيقية، وهذه التعريفات من جملة وسائل حقيقة الذكر، لكن منها ما هو وسيلة بنفسه، ومنها ما هو وسيلة إلى الوسيلة كما تقدم، ومنها هو وسيلة بالنص، ومنها ما هو وسيلة بالمفهوم.

فمعرفة النفس بالله، هو القطب الذي عليه مدار أفلاك جميع الوسائل القرآنية وغيرها، وهو أقصى أمل السالكين المسافرين إلى الله تعالى، فكان الأولى بأهل البداية دوران أقرب الوسائل على ألسنتهم، مداومة بالتكرار؛ ليسرع التأثير في قيام

حقيقة الذكر بالنفس، ويقرب المرام في رسوخ حقيقة الذكر في النفس؛ لأن النفس ما لم تشرف على بحبوحة الخلاص ولا شربت من عين الصفا، ولا تطهرت من جميع الكدرات، فإنها بما خامرها من الأوهام، وداخلها من الأسقام، لا تجيب دواعي وسائل الذكر لأول وهلة لتوالي خطرات الأهوية عليها.

فإذا أردنا خلاص النفس من عللها، وطهارتها من أوهامها بالطريقة الذوقية والتربية الحكمية، فالعمل في ذلك أن ينظر الأهم فالأهم من علل النفس، ثم ينظر أخص وسائل الذكر وأقربها اقتضاء للمعنى الذي يذهب تلك العلة، وينفيها عن النفس، فنأمره بالمداومة عليه نطقًا باللسان، وتدبرًا لمعناه بالفكر.

فلا يزال كذلك حتى يقوم معنى ذلك الذكر بالنفس، ويرسخ فيها رسوخًا ثابتًا بحيث لا يمكن معه ورود تلك العلة على النفس أصلًا، ثم كذلك في سائر علل النفس يسلط على كل نوع منها ما يختص معناه بذهابه من أنواع الذكر حتى يعود مكان أنس النفس بما قد أذهب الذكر عنها من عللها وحشة، ومكان القبول نفرة.

وقد علمتَ أن العلاج إنما يكون بالضد، فإذا أردنا مثلًا علاج نفس من علة الأمن التي تجر إلى الاسترسال في المعاصي، أمرناه بملازمة ما يقتضي معناه الخوف من تلك الوسائل القريبة التأثير في قيام معنى الخوف بالنفس، وذلك موجود في ذكر الاستغفار.

فلا يزال يردد لفظه باللسان، ويتدبر معناه بالفكر حتى يقوم ما تضمنه من الخوف في النفس، ويرسخ فيها رسوخًا ثابتًا لا يسع معه الأمن، ويستدل على صحة هذا الرسوخ بقيام الظاهر بموجب الخوف، ثم كذلك العمل في سائر علل النفس.

وبحسب تنويع العلة وتركيبها يكون تنويع الذكر وتركيبه، وما قربت ألفاظه وبلغ معناه من الأذكار كان أنفع، وما أسرع لتأثير قيام المعنى المراد بالنفس من الوسائل كان أولى كالوسائل اللسانية فظهر لك أن تلاوة القرآن لا توصل إلى هذا المعنى المراد إلا بطول كلفة؛ لاختلاف ثمراته وتنوع مشاربه؛ لأنه جامع للمعاني التي تعود بالنفع من جهات مختلفات لأمور مختلفات بالطريق العلمي.

وقد يندرج مع ذلك من اختلاف الأذواق ما لا يندرج بترداد المعنى الواحد الخاص بالأمر المهم من علل النفس؛ لأن النفس في بداية الأمر لكثرة ما علق بها

من عالم الحس لا يرسخ فيها المعنى المراد منها لأول وهلة، لا سيما إذا تشعبت عليها المعاني واختلفت عليها المقتضيات كالتلاوة فإن الآية تجري على اللسان، والفكر يتدبر معناها، فلا تلمح النفس ذلك المعنى إلا واللسان قد جاوز إلى آية أخرى لها معنى آخر، فينتقل الفكر لتدبر معنى ما انتقل إليه اللسان ذاهلًا عن معنى الآية الأولى، فلا تلمح النفس معنى الآية الثانية إلا ومعنى الآية الأولى قد غاب عنها، ثم كذلك في آية ثالثة ورابعة وخامسة، وأكثر من ذلك وإن بقي في النفس من ذلك أثر، فإنما هو أثر علمي لا ذوقي.

وربما عسر عليه الاتصاف بتلك المعاني الاتصاف المطلوب رسوخه في النفس حتى لو أمرنا صاحبَ علة الأمن بالإدمان على التلاوة فمر على آية تقتضي الخوف، فما هو إلا أن صرف لها وجه الفكر؛ لتدبر معناها ليرسخ في النفس فتتحلى به، وإذا اللسان قد انتقل إلى آية أخرى ربما اقتضت الرجاء، فينتقل الفكر معه إلى تدبر معنى ما انتقل إليه اللسان، ثم كذلك.

فمتى يحصل معنى الخوف في النفس قائمًا راسخًا فيها، فينتفي عنها نقيضه مع اختلاف الآيات واختلاف معانيها؛ لأنه إذا قرأ آية تخويف استدعى الفكر النفس إلى معنى الخوف، وإذا قرأ آية تأنيس استدعى الفكر النفس إلى معنى الأنس.

وإذا انتقل إلى آية عبرة استدعى الفكر النفس إلى معنى الاعتبار، فلا يزال ينتقل من نوع إلى نوع، والمعاني تخطر على النفس خطورًا لا يحصل لها مع ذلك الاتصاف بها، ولا يتأتى رسوخ ذلك فيها بما عندها من الضعف.

وقد تؤثر التلاوة الاتصاف لكن في الزمان الطويل والأمد البعيد؛ لأن التأثير إنما يكون بحسب تكرار المؤثر، والدوام عليه المرة بعد المرة.

فلذلك كان الذكر الواحد أولى بصاحب هذا المقام، ونعني بالأولوية هنا أن يكون الذكر الخاص بذهاب علته هو الغالب عليه في أكثر أوقاته وأزمانه، مع بقاء حظ من التلاوة وطلب العلم، وسائر أعمال البر مع الإمكان.

٢- وأما أهل النهاية فلهم حالان:

* حال تمكين.
* وحال نهاية.

أما أهل النهاية وهم الذين رسخ سر التوحيد في بواطنهم، فهم يتلمحون ذلك السر من جميع ما يتصرفون فيه، ويصدر عنهم من تلاوة، وغير ذلك من سائر وسائل الذكر؛ لأن الوسائل تستمد من حقيقة الذكر وهي: «**قيام سر التوحيد بالنفس**» فجميع وسائل الذكر، عندهم سواء في استثمار ثمرة التوحيد.

وأما أهل التمكين فلهم حالان:

* حال استغراق.
* وحال صحو.

أما حال الاستغراق: فالمداومة على ما يقتضي استصحاب استغراقهم - وهو الذكر الذي أوردهم معناه ذلك المورد - أولى لهم؛ لشرف أحوال الاستغراق، وما يقتضي من مطالعة الأسرار.

وأما حال الصحو: فجميع وسائل الذكر عندهم سواء، لما حصلوا عليه من رسوخ في معنى التوحيد، وما نالوه من طهارة وزكاة واطمئنان.

فصل

الذكر باعتبار الذاكرين قسمين ذكر أجور، وذكر حضور

ثم إن الذكر باعتبار الذاكرين على قسمين:

* **ذكر أجور**: وهو ذكر العامة.
* **وذكر حضور**: وهو ذكر الخاصة.

أما ذكر الأجور: فهو أن يذكر الإنسان الله تعالى بما شاء من الأذكار، لا يقصد به إلا نيل ما وعد الله الذاكرين من الأجر وأعد لهم من الثواب، من غير التفات لما وراء ذلك، فهذا راتع في رياض الجنة، وأجره ثابت على قدر نيته.

وأما ذكر الحضور: فهو التزام أذكار معلومة بحسب أحوال مخصوصة، على سبيل الاستشفاء من علل النفس، والخلاص من أمراض متعلقاتها؛ ليجردها عن الأخلاق الذميمة، ويحليها بالأخلاق الحميدة، وهو على ثلاثة أقسام:

١- **ذكر اللسان**: في مقام الإسلام، ونعني بذكر اللسان: قيام اللسان بحركة لفظه، مع متابعة القلب لما أمكن من معناه.

٢- **وذكر القلب**: في مقام الإيمان، ونعني بذكر القلب: تمكن معنى الذكر في القلب حتى لا ينفك عنه، مع متابعة اللسان لما أمكن من لفظه.

٣- **وذكر الروح**: في مقام الإحسان، ونعني بذكر الروح: الاستغراق في سر التوحيد، مشرفًا على حقائقه بما نال الروح من الخلاص من الأوهام الجسمانية والطهارة من الآفات الطبيعية حتى لا يغيب عن معنى الذكر لمحة، وإن كان اللسان متحركًا، فإبقاء إجراء الحركة رعيًا لحق بدايته.

وقد يجري لنا في أثناء كلامنا في هذا المجموع ذكر النفس والقلب والروح والسر والباطن فقد يظن الظان أن اختلاف هذه الأسامي لاختلاف مسمياتها،

وليست أريد بها إلا معنى واحدًا، واختلاف أساميه لاختلاف صفاته، وهو الروح الجوهر اللطيف الصافي الشريف الذاكر، العارف مهبط الأنوار الإلهية، الصادر من أمر الله تعالى.

فما دام مائلًا إلى جنبة النقص - في أغلب الأحوال - أعبر عنه بـ«النفس» ولا يزال مع قيامه بوظائف مقام الإسلام تضعف فيه جنبة النقص، وتقوى فيه جنبة الكمال، حتى إذا تخلص بمقام الإسلام، تساوت عنده الجنبتان، فيتقلب بينهما، فعند ذلك أعبر عنه بـ«القلب» ولا يزال مع قيامه بوظائف مقام الإيمان تغلب جنبة الكمال على جنبة النقص حتى إذا تخلص بمقام الإيمان اتحدت فيه جنبات الكمال، لكن يبقى معها أثر من ذلك النقص كما يبقى أثر الجراحات بعد البرء، فعند ذلك أعبر عنه بـ «الروح» فلا يزال مع قيامه بوظائف مقام الإحسان حتى تذهب تلك الآثار، وتتخلص تصفيته، فعند ذلك أعبر عنه بـ «السر» وربما أشكل الأمر فيما رقى إليه أو رقى عنه، فأعبر عنه بـ«الباطن».

وقد أعبر ببعض الأسامي عن مقتضيات بعضها على وجه الاتساع والمجاز، وذلك في القليل، وفي الكتاب والسُّنَّة من ذلك كثير، فإذا تقرر هذا فلنرجع إلى ما يتعلق بذكر الحضور.

فاعلم أن لفظ كل ذكر له اختصاص بمعنى، فالأذكار مختلفة المعاني، كما أن علل النفس مختلفة الأنواع، ولكل معنى من معاني الأذكار اختصاص بزوال نوع من أنواع علل النفس بالمناسبة الضدية التي بينهما.

وقد تقدم أن المقصود الأعظم هو: «طهارة النفس من عللها» فلنسلط على كل علة ما يضاد معناه معناها من الأذكار حتى يؤثر ترداده انفعالًا في النفس، واتصافًا بمعنى ذلك الذكر الذي يطرد ضده من العلل، ويرسخ ذلك الاتصاف فيها حتى تنفر عن ضده وتستوحش منه، ولنبدأ من ذلك بالأهم فالأهم.

والذكر له قوة عجيبة، واختصاص بديع في تحلية النفس بالصفات الحميدة، وتزكيتها عن الأخلاق الذميمة، لكن إنما يكون ذلك مع استعمال الأذكار بشروطها المعروفة على مهيعها المألوف المأخوذ عن المشايخ الربانيين الوارثين العارفين.

فبذلك تنتفي علل النفس بالجملة، وتتخلص من أمراض متعلقاتها، وتتصفى من كدرات مألوفاتها، وتتحلى بحلية عالمها، ولا يوجد هذا في غير الذكر؛ ولذلك عظَّم الشرع أمره، وبالغ في التحضيض عليه والترغيب فيه.

❖ أقرب وسائل الذكر ذكر اللسان:

وأقرب وسائل الذكر:

* «**ذكر اللسان**» أولًا.
* ثم «**ذكر القلب**» ثانيًا.
* ثم «**ذكر الروح**» ثالثًا.

وذلك أن صاحب البداية إذا أدار لفظ الذكر على لسانه، وتابعه الفكر بتدبر معناه المرة بعد المرة، انطبع مقتضى ذلك المعنى في النفس، فحلَّاها ذلك المقتضى بما تضمنه من الصفات الحميدة، وانتفى عنها ما يغايره من الصفات الذميمة، وبحسب الدؤوب والمداومة على الذكر كما ذُكِر، يكون استحكام اتصاف النفس بما يقتضيه الذكر من الصفات حتى يصير ذلك لها طبعًا يصعب عليها العدول عنه، ولا شك أن الجوارح تتبع النفس فيما تتحلى به فتعمل بمقتضاه.

وبذلك يظهر صدق اتصاف النفس بمقتضى الذكر الذي يذكره ويردده، وهكذا يكون العمل في التزكية عن الصفات الذميمة، والتحلية بالصفات الحميدة حتى إذا تصفت النفس من كدراتها، واطمأنت بخالقها، فذلك هو المطلوب.

فإذا تقرر هذا، فذكر اللسان يحرك الفكر لتدبر معناه، وتدبر معناه يحرك النفس للاتصاف بمقتضاه، واتصافها بمقتضاه يؤذن بطهارتها وتصفيتها، وطهارتها وتصفيتها سبب للورود على عين الحقائق، ومطالعة الأسرار مشاهدة حتى يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل.

فانظر ما أعظم ثمرة الذكر، وما أجلَّ شأنها؛ ولذلك كان الذكر أعظم الوسائل إلى المعرفة بالله تعالى، وأشرف الطرق الموصلة إليه.

فصل

في كيفية الذكر على سبيل التربية بمعنى الحضور

وكيفية تناول الذكر على سبيل التربية بمعنى الحضور، وهو أن يسلك به سبيل العلاج، فينظر القدوة الرباني - أولًا - في الغالب على التلميذ من علل نفسه، فيأمره باجتنابه والمجاهدة على تركه، ثم يعمد إلى الذكر الذي يقتضي معناه مضادة تلك العلة فيأمره بالتزام ترداده، والمداومة عليه بوظيفة يوظفها عليه، عددًا يقتضيه حاله.

فإن كانت العلة مركبة من علتين أو أكثر، فليركب له الذكر بالمعاني التي تقتضي مضادة ذلك التركيب من علل النفس تركيبًا بليغًا وجيزًا، بسهولة اللفظ وجزالة المعنى، فما اختصر اللفظ وأجزل المعنى قَوّي التأثير وأسرع النفع بسرعة دورانه على الفكر حتى لا يغيب الفكر عن تلمح الذكر كلما انتهى إلى الآخر، عاد إلى الأول بسرعة، فلا يكاد المعنى يغيب عنه.

وأما إذا طال معنى الذكر وكثرت ألفاظه، تشعبت معانيه على الفكر، فأورثه تشعب ذلك إبطاء عن المقصود كحال التلاوة، فلا يزال يردد ذلك الذكر حتى يثمر فيه، ونعني بالثمرة اتصاف النفس بمقتضاه اتصافًا راسخًا ثابتًا؛ ولذلك أدلة يُستدَل بها عليه من حال السالك، أكبرها وأقواها قيام الظاهر بوظائف أوصاف الباطن التي تضمنها الذكر تحلية وتزكية، وفي كل منزل من منازل المقامات، أبسط الكلام فيما يتعلق به من الأذكار والثمرات والنتائج والعلامات وغير ذلك بحول الله سبحانه.

فإذا وَفَّى وظائف ذكره، وما يتعلق به من تزكية وتحلية، نظر القدوة أيضًا في حال التلميذ إلى الأهم فالأهم من علله، ويفعل في ذلك كما فعل في الأول، ولا يزال معه كذلك ينقله من منزل إلى منزل، ومن مقام إلى مقام، حتى تستتم له طهارة نفسه، وتكمل له تصفيتها، ولا ينقله من منزل إلى منزل حتى يُوَفِي ما عليه من وظائف الأول.

وإن كان من مشايخ هذا الطريق من يرى أن ينقل التلميذ من منزل - وقد بقي

عليه منه اليسير - إلى المنزل الذي يتلوه، ويرى أن تلك البقية تتخلص له في المنزل الثاني حكمًا بالغالب، ورجاء الاستنهاض، فالنظر الأول أولى وأقرب للحزم، وأبرأ للذمة، وأنفع في تصفية النفس، فمن بطيء ومن سريع، بحسب القسمة في الفتح الإلهي، ومن السالكين من إذا بقيت عليه بقية من منزل حجبته عن النفوذ في المنزل الذي يتلوه، وضعف عن حمل أعبائه، فإذا وفَّى السالك وظائف منزله الخاص بحاله قَوِيَ على النفوذ في المنزل الذي يتلوه.

ولا بدّ من ترتيب أحوال السالك في أكله ونومه، وفطره وصومه، وصمته وخلوته وهجيراه[1] وغير ذلك، بحسب قوته ومشربه وحاله، ثم لا يرفع عنه عصا التأديب وميزان المحاسبة والمناقشة والمباحثة، بحسب حاله أيضًا، فرب حسنات قوم تكون سيئات آخرين، ثم لا يعدل به عن سبيل العلاج والتربية حتى يقطع المقامات بتخليص وظائف منازلها، خالصة من عللها حتى تنال النفس الغاية من تصفيتها وطهارتها.

فإذا وجدنا صاحب منزل عاكفًا على ذكره، قائمًا بشروطه، قد أبطأ به العثور على ثمرته أو بعضها، علمنا أنه محجوب بعلة أحاطت به كامنة فيه، عارضته ومنعته من النفوذ فإن عمل القدوة على خلاصه منها بالوجه المذكور، فلم ينفع ذلك فيه حكم له بعدم القسمة فيما وراء ذلك، وانتظر له الفتح من الفتاح العليم.

فظهر لك من سياق هذا الكلام أن استعمال الأذكار بحسب الأحوال من الحِكَم التي لا ينكرها من شم أدنى رائحة من نفحات العلم، ولا يطعن فيها من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢] وإذا تأملت الكتاب والسنة، وجدتهما يتضمنان هذا المعنى، وها أنا ألمع لك من ذلك بلمعة توقفك على التحقيق وتهديك إلى سواء الطريق، وتُبصّرك بما قد خفي على فريق.

(١) هِجّيراه، وإهجيرَاه، وإهجِيرَاءَهُ. بالمد والقصر، وهِجّيَره، وأُهْجُورتَه، أي دأبه وشأنه وعادته وديدنه. المحكم والمحيط الأعظم (١٤٣/٢).

فصل

الشريعة جاءت بموارد الأذكار من استغفار وتهليل وتسبيح وتحميد وغيرها بحسب الأحوال الخاصة بها نفياً لعلل النفس

اعلم - ثبّت الله أقدامنا على طاعته، وأثبتنا في ديوان أهل معرفته - أن الله تعالى أمر عباده باستعمال الذكر مجملًا، ثم أشار إلى تفصيل ذلك بالتنبيه على استعمال الأذكار مفصلًا بحسب الأحوال:

*** أولًا: مما جاء في القرآن من استعمال الأذكار بحسب الأحوال:**

- فمن ذلك: «ذكر الاستغفار».

جعل الله فيه اختصاصًا بمحو الذنوب والأوزار لأهل المتاب في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠] فظهر بذلك أن ذكر الاستغفار له اختصاص بمحو الذنوب ونيل الغفران، فإذًا فالتائب المقبل من طريق المخالفة إلى طريق الموافقة أنسب الأذكار بحاله «ذكر الاستغفار».

- ومن ذلك: «ذكر الصلاة على النبي ﷺ».

جعل الله فيه اختصاصًا برسوخ تعظيمه في النفس، وثبوت محبته، وذلك سبب قوي في وجود النشاط في اتباعه، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فظهر بذلك أن الصلاة على النبي ﷺ لها اختصاص بتيسير القيام في اتباع سبيله.

فإذًا فطالب وجود العزم في نفسه على القيام بوظائف الشريعة، وتسهيلها عليه

أنسب الأذكار بحاله «الصلاة على النبي ﷺ».

- **ومن ذلك: «ذكر التهليل»**.

جعل الله تعالى فيه اختصاصًا بنفي الهموم بما فيه من إمحاض معنى التوحيد، يفهم ذلك من قوله تعالى - بعد أن ذكر أحوال المنافقين، وما كانوا عليه من إبطان المكائد وإضمار الحيل للنبي ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي: استصحب معنى التوحيد حتى لا تكترث بأمر من سواه.

قال بعض حذاق المفسرين: «هذا خطاب عام للنبي ﷺ وأمته فظهر بذلك أن ذكر التهليل له اختصاص بطرد الهموم، وتصييرها هَمًّا واحدًا للواحد الحق.

فإذًا فطالب الإعراض عن الخلق تعويلًا على الواحد الحق أنسب الأذكار له «ذكر التهليل».

- **ومن ذلك: «ذكر التنزيه»**.

جعل الله تعالى فيه اختصاصًا بتصفية مشرب التوحيد من شوائب الأوهام في قوله تعالى، وقد اقترح المشركون على النبي ﷺ تكوين ما لم يسبق به قضاء الله، ولا نفذ به حكمه، خرقًا لحجاب الأدب على سبيل التعجيز ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٣] أي: عمَّا لا يليق به من تبديل حكمه وقضائه، حفظًا لما رسخ في باطن النبي ﷺ وأصحابه من عقائد التوحيد، وصونًا لهم من شوائب الأوهام، وقول موسى عليه السلام وقد حمله الإدلال[1] على طلب ما لم يسبق به قضاؤه في التجلي له في الدنيا، ولما أفاق من صعقته، وظهر له أن طلبه وقع في غير محل ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: عن أن يكون في الأكوان ما لا تريد، فظهر بذلك أن «ذكر التسبيح» له اختصاص بتصفية مشرب التوحيد بتنزيه الواحد الحق الملك المعبود.

فإذًا فطالب تصفية توحيده برفع الإشكال وطرد الأوهام أنسب الأذكار له «ذكر التسبيح».

---

(١) أدل عليه إدْلالًا: انبسط، ووثق بمحبته، فأفرط عليه. والإدْلال يكون على من لك عنده منزلة. ويقال: تَدِلُّ عليه، أي: تجترئ عليه.

- **ومن ذلك**: «**الذكر المفرد**».

وهو الاسم العظيم جعل الله تعالى فيه اختصاصًا بخروج الباطن عن الأكوان تعويلًا على المكون الحق، ورجوعًا إلى الأنس به في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١] فظهر بذلك أن «الذكر المفرد» له اختصاص بالاستغراق في معناه محوًا لما سواه.

فإذًا فطالب فناء نفسه عن تلمح شيء من عالم حسه استغراقًا في سر توحيده أنسب الأذكار له «الاسم العظيم مفردًا».

*** ثانيًا: مما جاء في السُّنَّة المشرفة من استعمال الأذكار بحسب الأحوال:**

وقد ثبت من السُّنَّة ما يدل على استعمال الأذكار بحسب الأحوال حتى لا يجد العاقل عن ذلك مصرفًا.

- **فمن ذلك** قوله ﷺ: «**لا إِلَهَ إِلا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمُ مِنْ رَدْمِ يأجوج ومأجوج مِثْلُ هَذَا**»(١) وعقد الراوي بيده تسعين.

جاء صلوات الله وسلامه عليه في هذه الحالة بـ «ذكر التهليل» بين يدي كلامه مشعرًا بنفي ما يرد على النفس من الجزع والخوف بتوقع خروج يأجوج ومأجوج؛ ليَرُدَ وارد الجزع على نفس قد تمكن فيها معنى التوحيد بنفي ما سوى الله تعالى، فلا يجد الجزع إليها سبيلًا.

واختصاصه ﷺ «ذكر التهليل» بهذا الموضع دون غيره من تسبيح وتكبير، وشكر وتحميد وغير ذلك يؤذن أن التهليل أخص الأذكار بهذه الحال وما يضارعها، فهو الإمام الأعظم والطبيب الأكبر ﷺ.

- **ومن ذلك** قوله ﷺ: «**الله أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ** ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ [الصافات: ١٧٧]»(٢).

جاء صلوات الله وسلامه عليه في هذه الحالة بذكر التكبير بين يدي كلامه، مشعرًا

(١) رواه البخاري (٣/١٣١٧، رقم ٣٤٠٣)، ومسلم (٤/٢٢٠٨، رقم ٢٨٨٠).
(٢) رواه البخاري (١/١٤٥، رقم ٣٦٤)، ومسلم (٢/١٠٤٣، رقم ١٣٦٥).

بتصغير ما وردوا عليه من أمر خيبر وتحقيره؛ ليُذهِب عن النفس عارض استكثار العدو، ويتلاشى ما سوى الله تعالى في جنب كبريائه وعظمته، فيقوي جأش الجيش في استقبال أمر العدو، فيحصل الظفر، وهو سر قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

وأما ليصغر في النفس ما كثر من عدد المسلمين وعددهم، تعويلًا على الكبير المتعال حتى ينتفي عن النفس الركون لغير الله في الاستظهار على العدو، وذلك سر قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] فإذًا فالتكبير أخص الأذكار بهاتين الحالتين وما ضارعهما. ومن ذلك: قوله صلوات الله وسلامه عليه: «**سبحان الله، أو ينقص الرطب إذا جف**»[(١)].

جاء ﷺ بذكر التنزيه إشعارًا بأن الله تعالى منزَّه عن التغيير والتبديل، حفظًا للنفس من طوارق التشبيه، وصونًا لها من لحوق كيد الأوهام، ومن هذا القبيل هي مشروعية استعمال التسبيح للساهي في الصلاة، فإذن ذكر التسبيح أخص الأذكار بهذه الحال وما يضارعها.

- **ومن ذلك** ما شرَّعه - صلوات الله وسلامه عليه - لأمته من الذكر في أيام الأعياد نفيًا للعلل الطارئة عليهم فيها، الطارقة لنفوسهم بسببها.

فـ«**لا إله إلا الله**»: نفي لعلة سكون النفس إلى البسط المشروع في الأعياد، والميل إلى متاع الدنيا.

و«**الله أكبر**»: طرد لعلة استكثار النفس عدد الخلق عند بروزهم، واستكبارها بإظهار التجمل.

و«**سبحان الله**»: إخماد لعلة النفس في انفعالها لما ظهر على الخلق من تحولهم من حال إلى حال.

و«**الحمد لله**»: محو لعلة النفس في نسيان المنعم بالنعم؛ لتقوم بحق المحسن المنان.

---

(١) رواه النَّسائي (٢٦٨/٧).

و«**لا حول ولا قوة إلا بالله**»: إخراج للنفس من علة الركون إلى تدبيرها في تصرفها.

ثم جعل التكبير فيه ثلاثًا، تأكيدًا في محو أغلب العلل في ذلك اليوم، فانظر ما أخص هذا الذكر بحال أيام الأعياد، كل ذلك إخراج للنفس عن عللها حتى يصح لها طريق العبودية، وإلا فانظر كيف كان النبي ﷺ يكبر على كل شرف في سفره، ويسبح الله إذا انحدر.

وقد وقعت الإشارة إلى شيء من هذا المعنى فيما روي من أن داود عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس أوحى الله إليه: «يا داود، ادخل البيت فسبحني وقدسني، واصنع كما تصنع الأمة التي اخترتها على هذا العالم» قال: «يا رب وأخبرني من هذه الأمة؟» قال: «أمة حبيبي محمد ﷺ» قال: «يا رب فأخبرني العلامة» قال: «إذا جزعوا كبَّروني، وإذا غضبوا هللوني، وإذا تنازعوا سبحوني»[(١)].

وإذا تأملت الشريعة، وجدت موارد الأذكار فيها من استغفار وتهليل وتسبيح وتحميد وتكبير وبسملة وحسبلة وحوقلة وغير ذلك من الأذكار، مقصودة بحسب الأحوال الخاصة بها، نفيًا لعلل النفس لتتحلى بالصفات الحميدة، وذلك من الحكمة التي من نالها فقد نال الخير الكثير، وليس من الحكمة وضع الأشياء في غير محلها، فهذه أدلة من الكتاب والسُّنَّة تشعرك بالمراد وتهديك إلى السداد.

* ثالثًا: مما ورد عن السلف - رضوان الله تعالى عليهم - من استعمال الأذكار بحسب الأحوال:

وقد ورد عن السلف - رضوان الله عليهم - ما يدلك على استعمال الأذكار بحسب الأحوال:

- **فمن ذلك**: ما روي من أن هجيرا أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - كان: «**لا إله إلا الله**» وذلك لأنه كان لا يرى في الدارين غير الله تعالى، فكان هجيراه يحفظ عليه مقامه من علل النفس في ذلك.

---

(١) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٤١/١).

- **ومن ذلك:** ما روي من أن هجيرا عمر ﵁ كان «**الله أكبر**»[1] وذلك لأنه كان يرى ما دون الله صغيرًا حقيرًا في جنب عظمة الله، فكان هجيراه يحفظ عليه مقامه من علل النفس في ذلك.

- **ومن ذلك:** ما روي من أن هجيرا عثمان ﵁ كان: «**سبحان الله**» وذلك لأنه كان لا يرى الكمال إلا لله، وأن الموجودات قائمة به، مفتقرة إليه، خاضعة بين يديه، فكان هجيراه يحفظ عليه مقامه من علل النفس في ذلك.

- **ومن ذلك:** ما روي من أن هجيرا علي ﵁ كان: «**الحمد لله**» وذلك لأنه كان لا يرى النعم في النفع والدفع، والإعطاء والمنع، والمحبوب والمكروه إلا من الله، فكان هجيراه يحفظ عليه مقامه من علل النفس في ذلك.

فليس من نفى الموجودات حتى لم يرَ مع الموجود غيره، كمن رأى الموجودات صغيرة حقيرة، وليس من رأى الموجودات صغيرة حقيرة، كمن رآها على حالها لكن ناقصة، وليس من رآها ناقصة كمن رآها وأفعالها لكن حمد عليها الموجد لها.

فاختلاف أذكار الخلفاء الراشدين مما يدلك على استعمال الأذكار بحسب الأحوال؛ لأن كل واحد منهم ﷺ التزم الذكر الذي يناسب حاله الغالب عليه في وقت استعماله ذلك الذكر، ويوافق مقامه في حال استعماله إياه، وهم إن اختلفت أحوالهم، وتنوعت مشاربهم، فكلهم قد بلغ إلى ذروة الفضل، ووصل إلى ربوة التخصيص بصدق اليقين وصحيح التوحيد، فلا يدرك شأوهم ولا يشق غبارهم.

فظهر لك من مجموع هذا الكلام أن استعمال الأذكار بحسب الأحوال هو من الحكمة التي تتضمن صلاح الحال، وتقضي بطهارة النفس وتصفيتها من جميع عللها وأوهامها، وفيما ذكرته دليل على شرف الذكر، وعلى تخصيص استعمال

---

(١) من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في المسند: رقم (٣٠٧) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كنت مع البراء بن عازب ﵁ وعمر بن الخطاب ﵁ عنه في البقيع ينظر إلى الهلال؛ فأقبل راكب؛ فتلقاه عمر ﵁ فقال: من أين جئت؟ فقال: من العرب. قال: أهللت؟ قال: نعم. قال: عمر ﵁: «**الله أكبر**» إنما يكفي المسلمين الرجل».

الأذكار بحسب الأحوال، وغنية لك عن طلب زائد عليه، مع جرينا على سبيل التوسط بين الاختصار والتطويل، والله الموفق إلى أهدى سبيل، وهذان أصلان ينبني عليهما كثير من فروع هذا الطريق حسبما يأتي ذكره وبيانه بعد إن شاء الله تعالى.

فصل

الأذكار وإن تنوعت ترجع إلى خمسة أذكار

واعلم - شرح الله صدرك ويسر في أملك وكان من الله أمرك - أن أذكار طريق السالكين، وإن كثرت ترجع إلى خمسة أذكار:

«**استغفار**» و«**تصلية**» و«**تهليل**» و«**تنزيه**» و«**إفراد**».

❖ النوع الأول الاستغفار:

١ - **فأما ذكر الاستغفار**: فدليله من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠] وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة: ما خرَّجه أبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**مَن لزِمَ الاستغفارُ جعلَ اللهُ لَهُ من كل ضِيقٍ مَخرَجا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ورَزَقَهُ من حيث لا يَحْتَسِبُ**»[1].

وخرّج النسائي أيضًا عن عبد الله بن عمر - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ وجد فِي كِتَابِه استغفَارًا كَثِيرًا**»[2]. وخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيُغفَر لهم**»[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢/٨٥، رقم ١٥١٨)، وابن ماجه (٢/١٢٥٤، رقم ٣٨١٩)، وأحمد (١/٢٤٨) رقم (٢٢٣٤) والنَّسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٥٦)، والبيهقي (٣/٣٥١، رقم ٢١٤)، والحاكم في المستدرك (٤/٢٦٢) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه النسائي: (١٠٢١٧). وابن ماجه: رقم (٣٨١٨).

(٣) رواه مسلم (٤/٢١٠٦، رقم ٢٧٤٩)، وأحمد (٢/٣٠٩، رقم ٨٠٦٨)، وعبد الرزاق عن معمر =

وخرّج أبو داود عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١) إلى غير ذلك من الأحاديث.

❖ النوع الثاني التصلية:

٢ - **وأما ذكر التصلية**: فدليله من القرآن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ومن السنة: ما خرّجه الترمذي عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً**»(٢).

وخرّج النسائي عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ**»(٣).

وخرّج ابن أبي شيبة عن يعقوب بن زيد التيمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني آت من ربي فقال لي: لا يصلين عليك عبد صلاة إلا صلى الله عليه عشرًا، قال: فقال رجل: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: إن شئت، قال: ألا**

=

(١٨١/١١، رقم ٢٠٢٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٠/٥، رقم ٧١٠٢)، وابن عساكر (٢٦٥/٤٩).

(١) رواه أبو داود (٨٤/٢، رقم ١٥١٤)، والترمذي (٥٥٨/٥، رقم ٣٥٥٩) وقال: غريب وليس إسناده بالقوى. وأبو يعلى (١٢٤/١، رقم ١٣٧)، والبيهقي (١٨٨/١٠، رقم ٢٠٥٥٤).

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٧٧/٥)، والترمذي (٣٥٤/٢، رقم ٤٨٤) وقال: حسن غريب. وابن حبان (١٩٢/٣، رقم ٩١١)، والطبراني (١٧/١٠، رقم ٩٨٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٢/٢، رقم ١٥٦٣).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٢٤/١، رقم ٦٤٣)، وأحمد (١٠٢/٣رقم ١٢٠١٧) والنسائي في الكبرى (٢١/٦ رقم٩٨٩١)، وفي «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٢) (٣٦٢)، وابن حبان (١٨٥/٣، رقم ٩٠٤)، والحاكم (٧٣٥/١، رقم: ٢٠١٨) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٠/٢، رقم ١٥٥٤)، والضياء (٢٤٤/٥، رقم ١٨٧٠).

أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: إن شئت، قال: ألا أجعل كل دعائي لك؟ قال: إذًا يكفيك الله هم الدنيا والآخرة»(١).

وخرَّج عبد الرزاق عن عامر بن أبي ربيعة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى علي صلى الله عليه؛ فأكثروا أو أقلوا**»(٢) إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الترغيب في الصلاة على النبي ﷺ.

❖ النوع الثالث التهليل:

٣- وأما «ذكر التهليل» فدليله من القرآن: قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ومن السنة: ما خرّجه مالك بن أنس عن طلحة بن عبيد الله ﷺ أن رسول الله قال: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله**»(٣).

وخرَّج النسائي عن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أفضل الذكر لا إله إلا الله**»(٤).

---

(١) الحديث باللفظ الذي أورده المصنف رواه عبد الرزاق في مصنفه رقم (٣١١٤)، وبلفظ: «**إِنَّ مَلَكًا أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ، يَقُولُ لَكَ: أَمَا تَرْضَى أَوْ أَلا يُرْضِيكَ أَنْ لا يُصَلِّيَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ إِلا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا؟ قُلْتُ: بَلَى**» رواه أحمد (٤/٣٠، رقم ١٦٤١٠)، والنسائي (٣/٥٠، رقم ١٢٩٥)، والدارمي (٢/٤٠٨، رقم ٢٧٧٣)، وابن حبان (٣/١٩٦، رقم ٩١٥)، والحاكم (٢/٤٥٦، رقم ٣٥٧٥)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢١١، رقم ١٥٦٠)، وابن أبي شيبة (٢/٢٥٢، رقم ٨٦٩٥) وللحديث أطراف أخرى منها: «أتاني جبريل»، «أتاني آت»، «إن ملكًا أتاني».

(٢) رواه عبد الرزاق (٢/٢١٥، رقم ٣١١٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٨٠).

(٣) رواه مالك في الموطأ: (١/٢١٤ ٢١٥) من حديث طلحة بن عبيد الله. والبيهقي: (٥/١١٧) وقال: حديث مرسل وقد روي عن مالك بإسناد آخر موصولًا. ووصله ضعيف. والبغوي في شرح السنة (٧/١٥٧).

(٤) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ص: ٤٨١ - ٨٣١.

وخرَّج الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش، ما اجتنبت الكبائر**»[(١)].

وخرّج النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال موسى: يا رب علمني شيئًا أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل: «لا إله إلا الله» قال: يا رب، كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت، إنما أريد شيئًا تخصني به، قال: يا موسى، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، و«لا إله إلا الله» في كفة مالت بهن «لا إله إلا الله»**»[(٢)] إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الترغيب في: «**لا إله إلى الله**».

❖ النوع الرابع التنزيه:

٤- وأما ذكر التنزيه؛ فدليله من القرآن قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١] وقوله ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٨]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣].

ومن السنة: ما خرّجه أهل الصحة عن أبي ذر - رضي الله تعالى عنه -: «أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفاه الله لملائكته ولعباده: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[(٣)]. وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان**

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ص: ٤٨٢ ٨٣٣. والترمذي ٣٦٦٠. وقال حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) رواه أبو يعلى (٥٢٨/٢، رقم ١٣٩٣)، والحكيم (٢٦٤/٣)، وابن حبان (١٠٢/١٤، رقم ٦٢١٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٨/٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣٤)، والحاكم: (٥٢٨/١). وصححه على شرط البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد (٣٦/٤) من طريق الأعمش عن أبي صالح. عن بعض أصحاب النبي عنه ﷺ باختلاف في اللفظ.

حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١].

وخرَّج الترمذي والنسائي عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: «**قولوا «سبحان الله وبحمده مائة مرة من قالها مرة كتبت له عشرًا، ومن قالها عشرًا كتبت له مائة، ومن قالها مائة كتبت له ألفًا، ومن زاد زاده الله»**[٢].

وخرَّج غير واحد من أهل الصحة عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**»[٣] إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على فضل التسبيح والترغيب فيه.

❖ النوع الخامس الإفراد:

٥- وأما ذكر الإفراد، فدليله من القرآن قوله - عز من قائل -: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وهذا الذكر هو لباب الأذكار، وإنسان حدقتها وقطب أفلاكها، وقد أجمع كثير من أهل العلم على أنه اسم الله الأعظم.

فإذا تقررت قواعد هذه الأذكار من الكتاب والسنة، فاعلم أن سائر الأذكار داخل تحت نطاق هذه الخمسة الأذكار، وراجع إلى أصولها، مع أن أهل هذا الطريق يستعملون سائر الأذكار، كل ذكر في الموطن الخاص به، من: حمد، وشكر، وبسملة، وحسبلة، وحَوْقَلةٍ، وغير ذلك لا يعدون بكل ذكر منها، الحالة التي تخصه.

وقولنا أن هذه الخمسة الأذكار هي أذكار طريق السالكين، نعني به أنها غالبة

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩/٢١)، ومسلم (٣٠٢/١٧). والترمذي (٣٥٣٤).

(٢) رواه الترمذي ٣٥٣٧ من حديث ابن عمر. وقال: حديث حسن غريب، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص: ٢١١ - ١٥٩. وتتمة الحديث: «ومن استغفر غفر الله له».

(٣) رواه البخاري (٢٣٥٢/٥، رقم ٦٠٤٢) ومسلم (٢٠٧١/٤، رقم ٢٦٩١)، والترمذي (٥١١/٥ رقم ٣٤٦٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٢٥٣/٢، رقم٣٨١٢)، وابن حبان (١١١/٣ رقم ٨٢٩).

عليهم، بها سلوكهم، وإليها رجوعهم.

وكل ذكر من هذه الأذكار الخمسة، له كيفيات مختلفات، لكل كيفية منها اختصاص بنوع من التحلية والتزكية، ولها أيضًا تركيبات، كل تركيب منها له اختصاص بنوع من التحلية والتزكية فيما تركب من علل النفس، وسيأتي بسط هذا المعنى في موضعه من كل مقام، بفضل الله سبحانه، وبه التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

• **قاعدة تترجم عن المقصود: مسمى الدين يجمع الإسلام والإيمان والإحسان.**

اعلم - نور الله قلوبنا بأنوار معرفته، وبلغنا مراتب أهل ولايته - أن الدين الذي كلف الله عباده إياه، قائم من ثلاث مقامات محتويات على: إسلام، وإيمان، وإحسان.

فجميع وظائف الدين داخل تحت نطاقها، فهي الطريق التي توصل المسافرين إلى الله تعالى والسبيل الذي يهدي إلى المعرفة به، فجدير أن أجلى غرة هذه القاعدة، أوضح من فلق الصبح المبين.

حدثنا الشيخ الراوية المعمر أبو عبد الله محمد بن عياش قال: حدثني صهري أبو القاسم بن الطيلسان[1] المسجد الجامع بقرطبة قال: حدثنا القاضي أبو محمد عبد الحق قال: حدثنا القاضي أبو مروان عبد الملك بن مسرة قال: حدثنا أبو البحر سفيان قال: حدثنا أبو العباس بن دلهاث العذري[2] قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن الحسن الرازي[3] بمكة سنة تسع وأربعمائة، قال: حدثنا

(١) القاسم بن محمد بن أحمد الأوسي القرطبي، يعرف بابن الطيلسان، الفقيه المحدث، متفنن في العربية والقراءات. روى عن جده أبي القاسم الشراط، وعن أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الغساني. له كتاب: «غرائب المسندين»، و«الجواهر» توفي سنة ٦٤٢هـ. تكملة ابن الأبار، ص: ٧٠٣، الذيل والتكملة: ٥٨/٤. الإحاطة: ١٨٢/٤. فهرس الفهارس: ٤٧٦/١.

(٢) الوليد بن مزيد أبو العباس العذري. روى عن الأوزاعي وعثمان بن عطاء الخراساني وسليمان بن بشير، وعبد الله بن شوذب، وطائفة، وعنه: ابنه العباس، وأبو مسهر، ودحيم، كان ثقة. مات سنة ٢٠٧ هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٤١٩/٩.

(٣) أحمد بن الحسن بن بندار بن إبراهيم أبو العباس الرازي. محدث، حدَّث بمكة وبهمذان عن =

أبو أحمد الجلودي[١] عن إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه[٢] قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج، قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري[٣]، قال: حدثنا أبي[٤] قال: حَدَّثَنَا كَهْمَسٌ عَنِ أَبِي هُرَيرَةَ[٥] عَنْ يَحْيَى بْنِ

=

أبي بكر الشافعي، وأبي بكر بن خلاد، والطبراني وعبد الله بن عدي الجرجاني، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الرازي، وأحمد البجلي، وآخرون، توفي سنة: ٤٠٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٩٩/١٧.

(١) محمد بن عيسى بن عمرويه. راوي صحيح مسلم. من أعيان الفقراء الزهاد. سمع من محمد بن إسحاق بن خزيمة، وإبراهيم بن محمد بن سفيان، وعبد الله بن شيرويه، وغيرهم بنيسابور. وعنه أبو عبد الله الحكيم، وأحمد بن الحسن بن بندار الرازي، وعبد الغفار الفارسي من أعيان الفقراء الزهاد، من أصحاب المعاملات في التصوف. توفي سنة: ٣٦٨هـ. ودفن بمقبرة الحيرة وهو ابن ثمانين سنة. الوافي بالوفيات (٢٩٧/٤).

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الزاهد، أحد أصحاب أيوب بن الحسن الزاهد. سمع من مسلم بن الحجاج صحيحه، ومحمد بن مقاتل، ومحمد بن أسلم الطوسي. وعنه: محمد بن عيسى الجلودي، وأحمد بن هارون. قال فيه محمد بن أحمد بن شعيب: ما كان في مشايخنا أزهد ولا أكثر عبادة من إبراهيم بن محمد بن سفيان. توفي سنة ٣٠٨هـ. شذرات الذهب (٢٥٢/٢).

(٣) عبيد الله بن معاذ بن نصر بن حسان العنبري البصري، ثقة حافظ، روى عن أبيه معاذ بن معاذ، وروى عنه: مسلم في صحيحه وغيره، وقد رجح ابن معين أخاه المثنى عليه، مات سنة: ٢٣٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣٨٩/١١). تقريب التهذيب (٥٣٩/١).

(٤) معاذ بن معاذ بن نصر بن حسان التميمي القاضي الحافظ، أبو المثنى العنبري البصري، حدث عن سليمان التيمي، وأشعث بن عبد الملك، وعوف الأعرابي، وكهمس وغيرهم. وعنه: أحمد، وإسحاق، ويحيى، وعلي، وبندار، وابن مثنى، وابن أبي شيبة، والوراق، وأبو خيثمة، وخلق كثير. قال النسائي: معاذ ثقة ثبت. توفي سنة ١٩٦هـ. العبر: (٣٢٠/١).

(٥) أبو هريرة الدوسي، ودوس: قبيلة من الأزد. كان اسمه في الجاهلية: عبد شمس وهو صحابي جليل روى عنه ابن عباس، وأنس، وجابر، وسعيد بن المسيب وخلق كثير، يروى له حوالي خمسة آلاف وثلاثمائة وسبعين حديثا. توفي سنة: ٥٨هـ. الطبقات الكبرى: (٣٦٢/٢)، أسد الغابة: (٣١٥/٥). البداية والنهاية: (١٠٣/٨).

يَعْمَرَ[١] قال: كَانَ أَوَّلُ مَنْ قال فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدُ الْجُهَنِيُّ؛ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ، أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ؛ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ في الْقَدَرِ؛ فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنهما دَاخِلًا الْمَسْجِدَ؛ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وصاحبي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صاحبي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ؛ فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قال: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بريء مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، والذي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، ثُمَّ قَالَ: «حدثني أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. حَتَّى جَلَسَ إِلَى النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقال: يَا مُحَمَّدُ أخبرني عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَال: رَسُولُ الله ﷺ: «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله»، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**. قال: صَدَقْتَ. قال: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قال: صَدَقْتَ. قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قال: «**أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قال: فأخبرني عَنِ السَّاعَةِ. قال: «**مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**». قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قال: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**». قال: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قال لي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ**».

(١) يحيى بن يعمر العدواني البصري، أبو سليمان. ويقال: أبو عدي. قاضي مرو أيام قتيبة بن مسلم. روى عن أبي ذر، وعمار بن ياسر، وعائشة، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر. وعنه: عبد الله بن بريدة، وقتادة، وعطاء الخراساني، توفي قبل ٩٠هـ، الطبقات الكبرى (٣٦٨/٧). وفيات الأعيان: (١٧٣/٦). البداية والنهاية: (٧٣/٩).

قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١). قال أبو عبد الله البخاري حين أورد هذا الحديث: «فسمى ذلك كله دينًا».

فظهر لك من هذا الحديث الجليل، أن الدين قائم من ثلاث مقامات محتويات على إسلام وإيمان وإحسان، كما تقدم، وأن جميع وظائف الدين الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح، وإخلاص المقاصد، والتحفظ من آفات النفس وعللها وغير ذلك داخل تحت نطاقها، فإذا اعتبرتها وجدتها راجعة إلى معنى هذا الحديث.

ثم إن هذه المقامات لها بداية وهو: الإسلام، وتمكين وهو: الإيمان، وغاية وهو: الإحسان.

فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الشهادة، تأنيسًا للطباع البشرية في معاملتها أولًا بما لا تنفر عنه، لما جبلت عليه النفس من الأنس بعالم الشهادة حين علقت به، فبرئت به كأنها لا تعرف غيره.

والإيمان يشتمل على وظائف الباطن، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الغيب، وكأن النفس لما ارتضت بالتكليفات الظاهرة درجت إلى ما وراء ذلك من عالم الغيب، وهي الأعمال الباطنة القلبية، لما انفتح لها باب من أعمال الظاهر للعبادة، وأشرقت عليها من ذلك أنوار، وتعلقت همتها بعالم الغيب، نقلت إلى الوفاء بالأعمال الباطنة.

ثم لما تمكنت في الأعمال الباطنة، واطلعت على عالمها، وأشرفت على طهارتها، وتعلقت همتها بعالم الملكوت، نقلت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية، ومن هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية، وهذه تربية حسنة، وتدريج بديع يفهم من جنبات معنى حديث جبريل عليه السلام ولو كُلِفت النفس أولًا وظائف الإحسان لنفرتْ عنه، لبعد معناه عما علقت به من عالم الشهادة.

---

(١) حديث رواه البخاري: رقم (٥٠)، (٤٧٧٧) مسلم في «صحيحه» رقم (١٠٢)، (١٠٦).

فإذا تبين هذا، فالإسلام له معنى يخصه، وهو: «انقياد الظاهر للعمل بما كلف به من وظائف الدين مع ما لا بدّ منه من التصديق».

والإيمان له معنى يخصه، وهو: «تصديق القلب بجميع ما تضمنه الدين من الإخبار بالغيوب، مع ما لا بدّ منه من شعبه».

والإحسان له معنى يخصه، وهو: «تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكمل شروطها وأتم وظائفها، خالصة من شوائب عللها، سالمة من طوارق آفاتها».

ثم إن الإسلام داخل تحت نطاق الإيمان؛ إذ لا إيمان لمن لا إسلام له، والإسلام والإيمان داخلان تحت نطاق الإحسان، إذ لا إحسان لمن لا إيمان ولا إسلام له.

وهنا نكتة بديعة توضح لك ما ربما لم يزل خافيًا على بعض الناس الشرع نسب كل مقام من الثلاث إلى ما يغلب عليه وذلك أن الشرع نسب كل مقام إلى ما يغلب عليه، فإذا غلبت أوصاف الظاهر على أوصاف الباطن حتى إن الباطن يستمد من أنوار الظاهر، سمي بالغالب عليه وهو الإسلام، فإذا غلبت أوصاف الباطن على أوصاف الظاهر، حتى أن الظاهر يستمد من أنوار الباطن، سمي بالغالب عليه وهو الإيمان، فإذا تصفت النفس وتطهرت، وصارت نورًا، يضيء منها الباطن والظاهر، سمي بالغالب عليه وهو الإحسان.

فأعطي الاسم للغالب على عادة العرب في إعطاء الحكم للأغلب والأكثر، فكل مقام لا بدّ وأن يكون فيه من غيره، فمن مقل، ومن مكثر.

وليس قولنا: مقام الإسلام نعني به أنه عري عن غيره، من إيمان وإحسان، وكذلك مقام الإيمان ومقام الإحسان، فإذا غلبت على السالك أوصاف مقام من هذه المقامات، سمي به، وقد يسمى بالمقام من حصل على بعضه بنوع من الاتساع والمجاز، والأول أقرب للحقيقة.

❖ فصل بيان أن لكل مقام من هذه المقامات الثلاث بداية وتمكين ونهاية:

والعمل في سلوك هذه المقامات، هو الأخذ بالبداية، حتى إذا أحكمها واتصف

بمقتضاها بلغته إلى التمكين، حتى إذا أحكمه واتصف بمقتضاه، بلغه إلى النهاية، ولا يمد قدمًا إلى نهاية حتى يتخلص من وظائف التمكين، كما لا يمد قدمًا إلى تمكين حتى يتخلص من وظائف البداية أو يقارب - على الخلاف المتقدم - إذ لكل مقام من هذه المقامات بداية وتمكين ونهاية.

فبداية الإسلام: التوبة، وتمكينه: الاستقامة، ونهايته: التقوى.

وبداية الإيمان: الإخلاص، وتمكينه: الصدق، ونهايته: الطمأنينة.

وبداية الإحسان: المراقبة[1]، وتمكينه: المشاهدة، ونهايته: المعرفة.

وهذه البدايات والتمكينات والنهايات هي المعبر عنها بـ«المنازل».

ولكل منزل ذكر يقتضي معناه حصول وظائف منزله، ولكل ذكر مقصد يجري عليه معنى الذكر، ولكل مقصد ثمرة، وهي عنوان على الوفاء بحق المقصد، ولكل ثمرة نتيجة، وهي: تحلية النفس بإحدى عشرة صفة حميدة، وتزكيتها عما ينافيها بإحدى عشرة صفة ذميمة. كل ذلك خاص بالمنزل الذي هو سالكه. وكل صفة حميدة أو صفة ذميمة تستتبع ما يناسبها من الصفات الحميدة أو الذميمة، ولكل نتيجة علامة يستدل بها على حصولها ورسوخها.

وقد ختمت كل منزل بوصية تناسب حال صاحبه، كل ذلك على سبيل الاختصار من غير تطويل، فلنبدأ أولًا من مقام الإسلام:

فبدايته وهي: التوبة؛ فإذا قام بشروطها ولازم ذكرها، مبنيًا على مقصده حتى لاحت ثمرته، وأثمرت اتصافه بالصفات الخاصة بمنزل الاتصاف الثابت الراسخ، وقامت على ذلك الدلالة بالعلامة التي يستدل بها على تخليص منزل التوبة انتقل إلى تمكين الإسلام، وهو: «منزل الاستقامة»، ثم كذلك من منزل إلى منزل حسبما ذكر، حتى يبلغ إلى غاية المقامات، وهي: «المعرفة».

(١) المراقبة: «إدامة علم العبد باطلاع الرب، أو القيام بحقوق الله سرًّا وجهرًا خالصًا من الأوهام صادقًا في الاحترام فمراقبة أهل الظاهر حفظ الجوارح من الهفوات، ومراقبة أهل الباطن حفظ القلوب من الاسترسال مع الخواطر والغفلات، ومراقبة أهل الباطن حفظ السر من المساكنة إلى غير الله. معراج التشوف ص: ٢٩.

ولا مطمع في النهايات إلا بتصحيح البدايات، فلا معرفة لمن لا مشاهدة له، ولا مشاهدة لمن لا مراقبة له، ولا مراقبة لمن لا طمأنينة له، ولا طمأنينة لمن لا صدق له، ولا صدق لمن لا إخلاص له، ولا إخلاص لمن لا تقوى له، ولا تقوى لمن لا استقامة له، ولا استقامة لمن لا توبة له، فيظهر لك حسن ترتيب منازل المقامات، وارتباط بعضها ببعض.

وقد يتكرر بعض الأذكار في بعض المنازل لأمر اقتضته الحكمة، لكن تختلف المقاصد في ذلك باختلاف المنازل، وهذه المنازل وإن اختلفت، فبناؤها على قواعد التوحيد، لكل منزل مرتبة تخصه من مراتب التوحيد، بها أساسه، وعليها اعتماده، حتى تؤديه تلك المراتب التوحيدية إلى غايتها المعبر عنها بـ«المعرفة»، وهي المرادة من سلوك هذا الطريق، والمقصودة من ثمرات التصديق والتحقيق مع حفظ ملابس الشرع، والتزام وظائف الأدب، والقيام بأحوال السنة.

وكأن نهاية كل مقام، نتيجة بدايته وتمكينه، فالتقوى نتيجة التوبة والاستقامة، والطمأنينة نتيجة الإخلاص والصدق، والمعرفة نتيجة المراقبة والمشاهدة.

فمن صح له مقام الإسلام بتوفية وظائفه سالمة من عللها، صادقة في رسوخها قيل له: قد حصلت مقام الإسلام، وارتسمت في زمر أهل التقوى، فخذ في سلوك مقام الإيمان؛ فإذا صح له مقام الإيمان بتوفية وظائفه سالمة من عللها، صادقة في رسوخها، قيل له: قد حصلت مقام الإيمان، وحطت بساحة أهل الطمأنينة، فخذ في سلوك مقام الإحسان؛ فإذا صح له مقام الإحسان بتوفية وظائفه سالمة من عللها، صادقة في رسوخها، قيل له: قد حصلت مقام الإحسان ولحقت بأهل المعرفة، فأنت على بينة من ربك.

ولكل منزل من منازل المقامات علامة، يستدل بها على حصوله ورسوخه، حسبما يأتي بيانه في كل منزل إن شاء الله.

وقد بسطت الكلام فيما يتعلق بالثلاث المقامات من الرسوم العلمية حين تكلمت على حديث جبريل في كتاب: «التجر الربيح، شرح الجامع الصحيح»، وليس مرادنا من ذلك هنا إلا ما يرجع إلى الرسوم العلمية الذوقية، حسبما يأتي بسطه بعد بحول الله تعالى.

فصل

الكلام على طهارة النفس الأصلية وما يجب عليها بعد حصول الغفلة لها ومخالطتها عالم الجسمانيات

واعلم أن النفس كانت قبل تركيبها بالجسم، طاهرة صافية زكية متصفة بتسع وتسعين صفة حميدة، تناسب طهارتها وزكاتها، فلما تركبت بالجسم ومالت إلى طبعه كما ذكر، وتخلقت بمقتضياته، اتصفت من ذلك بصفات ذميمة منافية لتلك الصفات الحميدة، وتعلقت بذلك تعلقًا حجبها عن أوصافها الحميدة التي تصل بينها وبين عالمها، حتى نسيته، ميلًا إلى عالم الجسم.

فالسعيد من زكاها عن أوصافها الذميمة، وحلاها بأوصافها الحميدة، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [فاطر: ١٨].

ثم بيَّن تعالى فرق ما بين من زكى نفسه بصفاتها الحميدة، فلاحت له شموس المعارف، فأطلع بها على غوامض الأسرار، وبين من غطى نفسه بصفاتها الذميمة، فحجبته عن موارد التخصيص؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢] وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢] إلى غير ذلك من الآيات المؤذنة بشرف زكاء النفس بالصفات الحميدة، ودناءة تلويثها بالصفات الذميمة.

وللإنسان من عالم الجسم حجاب يحجبه عن الاطلاع على أسرار الغيب، وفرق ما بين الحالتين، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «**وإنما تعرفون عواقب أعمالكم، لو طويت صحائف آجالكم**»(١).

وكان والدي ﷺ يقول: متى جرى ذكر من هذا المعنى: «إذا انقشع الغبار، يعرف من هو على فرس، ممن هو على حمار».

فالنفس إذا فارقت الجسم، وغابت عنه، انكشفت لها عواقب الأمور، فظهر لها قدر ما فاتها من ربها، فندمت حين لا ينفع الندم.

فالرابح من يسر لليسرى بطهارة نفسه وتصفيتها، والخاسر من يسر للعسرى بتلويث نفسه وتكديرها.

وكل ما ورد به الشرع، إنما هو طريق لتحلية النفس بالصفات الحميدة، وتزكيتها عن الصفات الذميمة، فـ«**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»(٢).

وكلما تحلت النفس بصفة حميدة، تزكت لا محالة عما ينافيها من الصفات الذميمة، وعلى قدر ما يبقى على النفس من تحليتها وتزكيتها، يكون إخلادها إلى البعد عن الله تعالى.

وليس المراد هنا بالتحلية والتزكية، ما يوجد في النفس، وقتا دون وقت، وإنما المراد بذلك: ما يرسخ في النفس من الصفات الحميدة، ويثبت فيها حتى تعود مخلقة به، ذاهلة عن ضده ونقيضه، فتتصف بالصفات الحميدة وتتطبع بها؛ حتى يعسر عليها الخروج عنها، أو عن شيء منها، وتخرج عن الصفات الذميمة خروجًا كليًّا لا رجعة لها فيه، وهذا لا مطمع فيه إلا بسلوك طريق التربية بما تقتضيه معاني الأذكار حسبما رسمه الربانيون أطباء الأنفس.

فبسلوك مقامات الدين وقطع منازلها على أكمل أحوالها بتوفية شروطها وآدابها،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه ابن ماجه (١٢/٤٦٧)، والترمذي (٩/٣٣٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٦٩). والحاكم في المستدرك (١/٥٧).

وبناء أذكارها على أساس مقاصدها، تكمل طهارة النفس وتصفيتها، فترجع إلى ربها مطمئنة، راضية، مرضية؛ فتحل في فراديس الفوز، وتتجلى لها حقائق الأسرار.

وها أنا أذكر كل مقام بما يتعلق به من المنازل والشروط والآداب والأذكار والمقاصد والثمرات والنتائج والعلامات وغير ذلك، معتصمًا في ذلك بالواحد الحق الهادي الفتاح، يؤتي الحكمة من يشاء، وهو الحكيم العليم، وحسبي الله ونعم الوكيل.

الباب الثاني

في مقام الإسلام وما يتعلق به من المنازل والأذكار والمقاصد والثمرات وغير ذلك

[تمهيد]

اعلم - جعلني الله وإياك ممن ظفر بقربه، وفاز بمعرفته وحبه - أن الإسلام في اللغة، هو: «الانقياد مطلقًا».

وفي الشرع: «انقياد الجوارح في قيامها بما يخصها من وظائف الدين».

فإما يكون ذلك من باب إعطاء الحكم للغالب، أو حمل الاسم على ما يسبق للأفهام؛ لأن الباطن لا يخلو من مشاركة الظاهر في معنى الإسلام، بما يقتضيه من الانقياد، وبهذا الاعتبار يفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[آل عمران: ١٩] لاحتماله أن يكون المراد بالإسلام وظائف الظاهر، فيعبر عن جميع الدين بها، إجراءً للاسم على الغالب، كما في حديث: «**الحج عرفة**»[(١)] أي: معظم الحج عرفة، أو يكون ذلك عبارة عما اشتمل عليه الظاهر والباطن من أمر الانقياد.

وقد جاء في الكتاب والسُّنَّة ما يدل على عموم اسم الإسلام لأعمال الظاهر والباطن؛ لكن حديث جبريل يقتضي اختصاصه بأعمال الظاهر، ويتصور الجمع بين الأمرين بحمل الاسم على الغالب.

والظاهر أن الشرع وسع العبارة في ذلك، فمرة عبر بالإسلام عن أعمال الظاهر وأعمال الباطن؛ لعموم معنى الانقياد في ذلك، ومرة عبر بالإيمان عن أعمال الظاهر وأعمال الباطن؛ حملًا للفرع على مقتضى الأصل؛ لأن عمل الباطن أصل في عمل الظاهر، ومرة خص كل اسم بموضوعه؛ فعبَّر بالإسلام عن أعمال الظاهر،

---

(١) رواه أبو داود (١٩٦/٢، رقم ١٩٤٩)، والترمذي (٢٣٧/٣، رقم ٨٨٩)، والنسائي (٢٦٤/٥، رقم ٣٠٤٤)، وابن ماجه (١٠٠٣/٢، رقم ٣٠١٥)، وأحمد (٣٠٩/٤، رقم ١٨٧٩٦)، والحاكم (٣٠٥/٢، رقم ٣١٠٠) وقال الحاكم: صحيح، والبيهقي (١٧٣/٥، رقم ٩٥٩٣)، والطيالسي (ص ١٨٥، رقم ١٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٢٢٦/٣، رقم ١٣٦٨٣)، والدارقطني (٢٤٠/٢)، والديلمي (١٤٨/٢، رقم ٢٧٥٩).

وبالإيمان عن أعمال الباطن، كما ورد في حديث جبريل ﷺ. وقد أوردت في كتاب: «**التجر الربيح شرح الجامع الصحيح**»، كلام أهل العلم في ذلك من خلاف ووفاق.

والذي ندرج عليه هنا هو أن الإسلام عريق في أعمال الظاهر، والإيمان عريق في أعمال الباطن، والإحسان عريق في تصفيتهما من جملة شوائب الأغيار والأوهام.

وكل مقام يستتبع من غيره من المقامات أحكامًا ووظائفَ؛ لكن أجري الاسم على الغالب.

وليس المراد من هذا الكتاب إيراد مسائل الوفاق والخلاف، ورسوم المقال بطريق المناظرة والجدال، لكن المراد منه الإتيان بثمرة العلم النافع، تسهيلًا لطريق السالكين، وتقريبًا لمساعي المسافرين إلى الله ﷻ.

فالإسلام مقام، والإيمان مقام، والإحسان مقام، ونهاية كل مقام تشترك مع بداية المقام الذي يتلوه في معنى ما، وفي ذلك سر؛ لأن النفس إذا قطعت مقامًا، لا ترد على الذي يتلوه إلا وعندها بما رقت عنه بعض خبر مما رقت إليه، فيكون لها في ذلك تقريب وترييض، فيستقيم السلوك على سبيل التدريج، وسيظهر لك ذلك من كل مقام عند الكلام فيه بحول الله تعالى، والمنازل كالمقامات في اشتراك النهايات مع البدايات، وبالله التوفيق وحده.

المنزل الأول من مقام الإسلام

منزل التوبة

اعلم - جعلني الله وإياك ممن أسلم وجهه لله، ولم ير في الوجود إلا الله - أن أول منازل الإسلام: التوبة، وهي بدايته؛ لأنها ولوج لأول الأبواب التي تشرع إلى طريق السالكين المسافرين إلى الله تعالى، ونعني هنا بالتوبة، «التوبة العامة» التي فرض الله على جميع أهل الإسلام في قوله ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١] وهي: «الرجوع من المعاصي إلى الطاعات». قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

سمعت أبي رضي الله عنه يقول: للتوبة ثلاث مراتب:

١- توبة في مقام الإسلام، وهي: «الرجوع من المخالفات إلى الطاعات».

٢- وتوبة في مقام الإيمان، وهي: «الرجوع من الغفلة إلى استصحاب الذكر».

٣- وتوبة في مقام الإحسان، وهي: «الرجوع من الأوهام إلى الحقائق».

وخرّج مسلم والبخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه**»(١).

وخرّج الترمذي وابن أبي شيبة عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»(٢).

وخرّج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل، وإن**

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، والبيهقي (١٠/١٥٣)، والحاكم (٤/٢٤٣)، والبغوي (٥/٦٠).

(٢) رواه الترمذي ٢٦١٦، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة. وابن أبي شيبة: (٣/١٨٧).

عاد؛ زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤] إلى غير ذلك من أدلة الكتاب والسنة، المتضمنة الترغيب في التوبة.

وذلك أن العبد إذا هبت عليه نواسم الهداية، فاستيقظ من سنة الغفلة، وأفاق من سكرة المعاصي، أضاء في باطنه قبس من نور الإيمان، فأبصر به عيوب نفسه، واطلع على عوراتها، فتحركت عنده سلسلة الخوف من هول المطلع، فلجأ إلى الله تعالى بخالص المتاب، طالبًا النجاة، وراغبًا في الخلاص، ومتعرضًا للقبول(١).

فصل

التوبة على ثلاثة أقسام

وهذه التوبة على ثلاثة أقسام:

١- توبة من تضييع الواجبات.

٢- وتوبة من التلبس بالمحرمات.

---

(١) يقول الغزالي في الإحياء (١٠٥/٣): اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث. والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابًا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت. أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثمار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندمًا، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسًا، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلًا للجبر.

وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال.

٣- وتوبة من تحمل الظلامات.

❖ الأولى: التوبة من ترك الواجبات:

أما ترك الواجبات: كترك الصلاة أو الزكاة، أو غير ذلك مما أوجب الله ﷻالقيام به على عباده؛ فالتوبة في ذلك: القيام بالواجب عليه حالًا، والعزم على القيام به مآلًا، وتلافي ما يجب القضاء فيه من الفوائت بالقضاء مع الإمكان.

❖ الثانية: التوبة من التلبس بالمحرمات:

وأما التلبس بالمحرمات: كشرب الخمر أو الزنا أو الكذب، أو غير ذلك مما حرمه الله على عباده؛ فالتوبة من ذلك: الإقلاع في الفور من غير توانٍ، والعزم على استصحاب الإقلاع أبدًا.

❖ الثالثة: التوبة من تحمل الظلامات:

وأما تحمل الظلامات، وهي عمارة الذمة بدم أو مال أو عرض، ونحو ذلك؛ فالتوبة من ذلك: الإقلاع عن ذلك حالًا، والعزم على استصحاب الإقلاع أبدًا، واستحلال المظلوم، واسترضاؤه إن عُرِف، وما عجز عنه من ذلك؛ فيُلافيه بكثرة النوافل، وبذل الصدقات، وهبة أجر ذلك للمظلوم، والضراعة إلى الله تعالى في إرضاء الخصوم عنه وإقالة عثراته، وللتوبة شروط وآداب.

فصل

في بيان شروط التوبة الأربعة

* **أما شروطها فأربعة:**

● **الأول:** الإقلاع عن جميع الذنوب التي تاب منها؛ لأن الإقلاع يضاد الإقامة، ولا توبة من ذنب لمقيم عليه، وهو أكبر الكاذبين.

• **الثاني**: الندم على ما فات، وهو عمدة من عمد التوبة، قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**»[١]. والندم: يضاد «الإصرار»، ولا توبة من ذنب لمصرٍّ عليه، وهو أعظم المستهزئين.

• **الثالث**: العزم على أن لا يعود إلى شيء مما أقلع عنه وتاب منه؛ لأن العزم ضده التردد، ولا تصح توبة لا ثبات لعقدها، وهو أسوة المتلاعبين؛ والعزم على توطين النفس على أن لا عودة للذنب البتة، والنفس مهما أرخى لها في زمامها مضت على أولها، واسترسلت في شهواتها، استرسال البهائم في مرعاها.

• **الرابع**: القصد بالتوبة معاملة الحي القيوم بتعظيمه وخوف عقابه؛ لأن التوبة قد يكون الباعث عليها غير ذلك من الأهواء التي ليست من معاملة الله ﷻ في شيء، وهذا الشرط هو قطب سائر الشروط، وعليه مدارها.

فصل

في بيان آداب التوبة الأربعة

* **وأما آدابها، فأربعة:**

• **الأول**: ترك الأصحاب الذين ألفهم على التقصير وصحبهم على العصيان، فيعرض عنهم ويقاطعهم، وكذلك من يتوسم فيه الشر فهم شياطين الإنس، الذين أمر الله ﷻ بالتعوذ منهم؛ فهم وإن لم يدعوا للشر بأقوالهم، فهم يدعون إليه بأحوالهم، والطبع يسرق من الطبع، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٢].

• **الثاني**: مواصلة أهل الخير، ومؤالفتهم، لا سيما الذين أقامهم الله تعالى هداة للخلق كالعلماء، فهم وإن لم يدعوا للخير بأقوالهم، فهم يدعون إليه بأحوالهم،

(١) رواه البيهقي (١٠/١٥٤)، والحاكم: (٤/٢٤٣)، والبغوي: (٥/٩١) وابن حبان (٢/٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: (٤/١٧١) من حديث أبي هريرة، وصححه، ووافقه الذهبي في تلخيصه: ١٧١/٤، وعزاه السيوطي لأبي داود والترمذي وقال: «حسنه من حديث أبي هريرة، وأخطأ ابن الجوزي إذ ذكره في الموضوعات». انظر: الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة: ص ١٧٧، ٣٦٧.

وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ «**الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء**»[(١)].

• **الثالث**: اجتناب مواضع السهو واللهو والغفلة فإن النفس تنبعث بذلك إلى الشهوات، وتسترسل في الغفلة، كالسماع المستعمل الآن بالآلات المطربة، ونحو ذلك، ولا يخدعه في ذلك، ما يجده من تحريك باطنه، وهيجان طباعه، فإن ذلك خدعة طبيعية، وشرك خفي، لا مذاق فيه من طريق السالكين، ولا نفحة من سبيل العابدين، وسأبسط الكلام فيما يتعلق بالسماع منعًا وجوازًا في باب الجامع بحول الله.

• **الرابع**: أن لا يذكر شيئًا من لذاته التي خلت، ولا يخطر بباله شيئًا من شهواته التي سلفت على وجه الاستلذاذ:

فإن النفس تتحرك بذلك لما قد خرجت عنه بالتوبة، وله أن يذكر ذلك ويتفكر فيه مقرونًا بالوعيد عليه، على وجه التخويف بالعقوبة؛ ليسكن شره النفس، وتعلم قدرها بما اقترفته، ولا تسكن إلى الأمن بما هي عليه من وظائف التوبة.

ذكر الاستغفار هو الخاص بمنزل التوبة

واعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو الاستغفار. قالوا: «الاستغفار مرهم جراحات الذنوب، به تداوى كلومها». قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وجاء في بعض الأسانيد عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله، إني ذرب اللسان، وأكثر ذلك على أهلي، فقال له رسول الله ﷺ: **وأين أنت من الاستغفار**»[(٢)]. انظر إلى اختصاص هذا الدواء

---

(١) رواه الحاكم (٣/٣٨٧، رقم ٥٤٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٥٦، رقم ٤٩٩٣). والقضاعي (٢/٢٣٧، رقم ١٢٦٦)، والديلمي (٤/٤٣٤، رقم ٧٢٦٢).

(٢) رواه الدرامي في السنن: (٢/٣٠٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (ط: دار التاج)، ٦/٥٦. كلاهما من طريق أبي إسحاق عن أبي المغيرة عن حذيفة.

بهذه العلة على لسان الطبيب الأكبر ﷺ، وكونه ﷺ لم يقل له: «وأين أنت من التهليل والتسبيح أو غير ذلك من سائر الأذكار»، وإنما دله على ما يناسب حاله من الأذكار، وذلك دليل على استعمال الأذكار بحسب الأحوال.

فإن قلت: لا بدّ في أخذ الدواء من معرفة الكيف والكم، فكيف يكون تناول هذا الذكر، وكم يكون عدد الالتزام منه؟

فالجواب عن الكيف: أن الذكر له شروط وآداب:

بيان شروط الذكر الخمسة

* **أما شروطه فخمسة:**

• **أولها: أن يكون التوجه للذكر على طهارة**؛ لأن التوجه إلى الله بذكره، ينبغي أن يكون على أكمل الأحوال وأشرفها، ومن كمالاتها أن يكون على طهارة، وقد ورد أن النبي ﷺ سلم عليه رجل، فأتى جدارًا فتيمم فيه، ثم رد عليه السلام، فقيل له في ذلك، فقال: «**إني كرهت أن أذكر اسم ربي على غير طهارة**»(١). أشار ﷺ إلى الكمال مع ما في الطهارة من السر الذي يعود على الباطن بصفاء وتنوير.

• **ثانيها: أن يكون جلوس الذاكر للذكر متوجهًا إلى القبلة**؛ لأن الذاكر يناجي ربه، فينبغي أن يكون منتصبًا إلى بيت الله وحرمه. قال النبي ﷺ: «**خير المجالس ما استقبل به القبلة**»(٢). مع ما في التوجه إلى القبلة من السر الذي يعود بصرف الباطن إلى الله تعالى، وجمع الفكر في مناجاته، وهو سر التوجه إلى القبلة في الصلاة.

• **ثالثها: الخلوة، فليقصد الذاكر بتوجهه في ذكره مكانًا خليًا عريًا عن الشواغل**، لما في ذلك من تهيئة الفكر إلى القبول على معنى الذكر، وتهيئة النفس للورود على

---

(١) رواه البخاري ٣٣٧، من حديث أبي الجهم، بلفظ: «أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل، فلقيه رجل فسلم عليه، فلم يرد رسول الله ﷺ، حتى اقبل على الجدار، فمسح وجهه ويديه، ثم رد عليه السلام».

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: (٤/٢٦٩).

موارد الإخلاص، وأسرار الاختصاص، وفي انفراد النبي ﷺ بغار حراء أول أمره دليل لذلك، ولم تزل الخلوات به من شأن أهل العبادات والرياضات، وقلما يرد على سالك فتح، ولا يلوح له سر في غير الخلوة. قال بعضهم: «لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من الخلوة».

• **رابعها: مدافعة الخواطر المغايرة لمعنى الذكر عن الفكر**، ودرؤها على حسب الإمكان، لتصفو مرآة النفس لتلمح معنى الذكر، كي تتصف بمقتضاه، وذلك أن النفس تستمد من الحواس مواد مألوفاتها ومتعلقاتها، فبعد أن تغيب تلك المواد عن الجسم؛ فهي تختلج في الفكر، ولا تشك أن استعمال الفكر لذلك حجاب عن تلمح معنى الذكر، وشاغل عن تأمل مقتضاه، وعلى قدر خروج الفكر عن شواغل الجسم، يكون خرق حجاب الغفلة، والمنجى من ذلك بالمجاهدة على مدافعة الخواطر؛ فهي وإن لم تذهب عنه بالجملة، فستذهب عنه شيئًا بعد شيء، حتى لا يبقى منها أثر.

• **خامسها: المقصد، وهو ما تحصل به الفائدة التي عليها بناء الذكر**، وتختلف المقاصد باختلاف الأذكار، وهذا الشرط آكد سائر الشروط وألزمها؛ لأنه السر الذي عليه يجري معنى الذكر.

وقد علمتَ - أنجح الله سعيكَ في هذا الطريق - أن الذكر يدور على اللسان ليؤثر معناه اتصافًا في النفس بما يقتضيه المعنى؛ فإذًا فلا بدّ من إحضار قصد بين يدي الذكر يبني عليه الفكر تدبره لمعنى الذكر، وبحسب تلمح الفكر معنى القصد أثناء الذكر، تكون قوة التأثير في النفس.

وأهل التمكين في هذا الطريق لا يخلون حركة من حركاتهم، ولا سكنة من سكناتهم عن قصد يتوجهون به إلى الله تعالى، فلا أقل لأهل البداية من تواصل معنى قصد الذكر أثناء الذكر بأبلغ ما يمكنهم، وكذلك سائر العبادات.

روي عن طاوس[١] أنه سُئِلَ الدعاء، فقال: «حتى أجد له قصدًا»، قال: أنا في

(١) طاوس بن كيسان، أبو عبد الرحمن اليماني الجندي، كان من أبناء الفرس الذين سيرهم كسرى إلى اليمن من موالي بحير بن ريسان الحميري، سمع زيد بن ثابت، وعائشة وأبا هريرة، وابن عباس وعنه الزهري، وسليمان بن موسى الدمشقي، وعكرمة بن عمار، توفي =

طلب قصد لعيادة مريض فما وجدته منذ شهر؛ فلا شك أن المقاصد هي أرواح الأعمال، ولا يستقيم عمل لا روح له.

بيان آداب الذكر الخمسة

*** وأما آدابه فخمسة:**

• أولها: خلو البطن من الطعام:

لأن الطعام يستحيل لبابه دمًا، فيسري في العروق حتى يملأها؛ فيثقل بذلك الجسم، ويكثر صعود الأبخرة إلى الدماغ؛ فبذلك يكون الكسل ويستولي النوم، وقد جاء: «لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا»، وعلى قدر الأكل من كثرة أو قلة تكون حياة الفطنة أو موتها، وقد جاء: «**البطنة تذهب بالفطنة**»[1] وجاء: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه**»[2]. فليتحر أن يكون توجهه إلى الذكر على خلاء من بطنه، ولا أقل من هذا لأهل البداية.

• ثانيها: جلوس الذاكر للذكر على هيئة تقتضي الخضوع والانكسار والمذلة:

وليعلم أنه يناجي ملكًا عظيمًا جليلًا، والذاكر يستجدي من ربه النوال، ويستوهب منه الإحسان، بلسان الاضطرار والافتقار؛ فليجلس كجلوس المحتبي[3]، وليجعل رأسه على ركبتيه، ففي هيئات الظاهر تأثير في الباطن بحسب مقتضى

=

سنة ١٠٥هـ بمكة. (سير أعلام النبلاء: ٥/٣٨).

(١) قال في المقاصد: هو بمعناه عن عمرو بن العاص وغيره من الصحابة فمن بعدهم. كشف الخفاء (١/٣٣٨).

(٢) رواه النسائي (٤/١٧٧، رقم ٦٧٦٨) وأحمد (٤/١٣٢، رقم ١٧٢٢٥)، والترمذي (٤/٥٩٠، رقم ٢٣٨٠)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/١١١١، رقم ٣٣٤٩)، وابن سعد (١/٤٠٩)، والطبراني (٢٠/٢٧٢، رقم ٦٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٢٨، رقم ٥٦٥٠)، والحاكم (٤/٣٦٧، رقم ٧٩٤٥) وقال: صحيح الإسناد. وابن حبان (١٢/٤١، رقم٥٢٣٦)، والقضاعي (٢/٢٧١، رقم ١٣٤٠)، والديلمي(٤/٦٧، رقم ٦٢١٠).

(٣) هو أن يَضُمّ الإنسان رِجْلَيْه إلى بَطْنه بثَوْب يَجْمَعَهُما به مع ظَهْره ويَشُدُّه عليها. وقد يكون الاحتباء باليَدَيْن عوَض الثَّوب. النهاية في غريب الأثر (١/٨٨٠).

الهيئة، وذلك أن النفس للعلاقة التي بينها وبين الجسم إذا اتصف الجسم بصفة اتصفت النفس بموجبها.

وإذا تأملت وظائف الظاهر من أمور الدين، وجدت المطلوب منها اتصاف النفس بسر تلك الوظائف وتحليتها بموجب أعمال الظاهر، وإلا فانظر إلى وضع الجبهة على الأرض في السجود، وإلى ما يسري للنفس بسبب ذلك السجود من الذل والخضوع والصغار، فتعلم بذلك أن اتصاف النفس بصفة الذل والخضوع والصغار؛ لعظمة الله وجلاله هو المراد من وضع الجبهة على الأرض، وكذلك سائر ما كُلِّفَ الخلق به من أعمال الظاهر، فإذًا فللهيئة الظاهرة تأثير في اتصاف الباطن بموجبها.

- **ثالثها: تغميض العينين عند التوجه للذكر:**

لأن ذلك يعين على جمع الفكر لتلمح معنى الذكر والعثور على لباب سره، ولا شك أن الفكر يتشعب بحسب شعب الشواغل الواردة عليه من قبل الحواس، وكل شعبة من تلك الشعب تأخذ من الفكر موضعًا على حسبها، فإذا تسلطت الحواس على مقتضياتها من النظر والسمع وغير ذلك، انقسم الفكر شعبًا بحسب مقتضيات الحواس، وقد يكثر ذلك فيستغرق الفكر حتى لا يبقى منه لتلمح معنى الذكر شيء، أو تبقى منه نبذة يسيرة لا تفي بالمراد، ولا تهدي إلى الرشاد؛ ولأجل هذا استحبت الخلوة للذاكر ليبعد عن الشواغل، والذاكر يناجي ربه؛ فحقيق أن يحسم موارد الشواغل عن فكره، والعين أشد الحواس شغلًا للفكر.

- **رابعها: اتخاذ سبحة ليحصر بها عدد التزامه:**

فإن قلت: يكفي من ذلك الحصر بالأصابع.

فالجواب: إن من المطلوب دفع الشواغل عن فكر الذاكر مهما أمكن، لا سيما أهل البداية الذين للشواغل أثر في بواطنهم؛ فإذا كان يحصر الذكر بأصابعه، كان له شغل من حصر الآحاد والعشرات والمئين، وربما لم يحصل بذلك إلى التحقيق، لا سيما في العدد الكثير، كالألف وما فوقه مع ما له بذلك من شغل بال، وتشتيت حال؛ فظهر أن اتخاذ سبحة يحصر بها الذاكر ورده، أسلم له من اشتغال الفكر، وأحفظ لجمع البال، ومن المستحب فيها أن تكون وترًا، فإذا كانت مائة يزيد فيها

واحدة، وأن تكون مما لا يسمع له صوت.

وهذا، وإن كان متأكدًا في حق أهل البداية، فلا يتركه أهل النهاية، فقد روي أن أبا القاسم الجنيد كانت سبحة في يده فقيل له: أنت مع شرفك تحتاج إلى سبحة؟ - يشير إلى عمارة أنفاسه بالذكر - فقال: شيء وصلت به إلى الله، لا أفارقه، وقد جاء أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه، كانت له سبحة من ألف عقدة، لا ينام حتى يتمها، واتخاذ السبحة من الأمر المعروف الذي لا يُنكر، وقد درج على ذلك السلف الصالح، ولا ينكر ذلك إلا أهل البطالة.

• **خامسها: أن لا يقطع في أثناء ورده بشيء من كلام أو غيره:**

وكأن الذاكر إذا توجه لأداء ورده قادم على الله تعالى يخاطبه ويناجيه ويحاضره، فقبيح قطع ذلك بعارض أو الاشتغال عنه بشاغل، وقد جاء أنه: «كان لبعض الأمراء وزير، فكان بين يديه يومًا، فمر بعض الغلمان، فمال الوزير بإحدى عينيه لتلمح ذلك الغلام، فظن أن الأمير شعر بميله عنه إلى غيره، فصار الوزير باقي عمره، إذا كان بين يدي الأمير، ينظر إلى جانب حتى ظن الأمير أن ذلك حول حل بعينه»، ومع ذلك، فكأن المتوجه بورده رابط نفسه للوفاء بذلك العدد، بعهد الوجهة مع الله تعالى، فلا يقطعه إلا لعارض واجب أو كالواجب.

وإذا أردت أن تنظر وجه الحكمة في ذلك، فتأمله من قصد الشريعة في الانضباط والارتباط في الصلاة بالتقييد لما بين إحرامها وسلامها.

ومن الكيف أن يفتتح ورده بالاستعاذة والبسملة، درءًا لخواطر الشيطان، واستنجاحًا باسم الرحمن، وأن يختمه بالحمد والشكر اعترافًا بنعمة الهداية، وإظهارًا لمنة الوقاية، يكون ذلك وترًا: ثلاثًا، أو خمسًا، أو سبعًا.

* **تنبيه: يجب على السالك أن لا يفارق الصلاة على النبي ﷺ على حال؛ فإنها مطلوبة لنفسها ولغيرها:**

وأن لا يفارق الصلاة على النبي ﷺ على خالط؛ فمرة تكون مطلوبة لنفسها، ومرة تكون مطلوبة لغيرها، وهي في «منزل التوبة» مطلوبة لغيرها، ونعني بذلك أنها إذا كانت مطلوبة لنفسها، فلا بدّ فيها من استثمار ثمرتها الخاصة، فلا يبرح السالك حتى تظهر عليه ثمرتها الخاصة، وإذا كانت مطلوبة لغيرها، كاستعمالها في منزل

التوبة قبل الاستغفار، أو بعده، فإن ذلك استثمار لثمرتها العامة، وهي التبرك بها، والتوسل في قبول المتاب وإجابة الاستغفار، وقد جاء: «**ما من دعاء إلا وبينه وبين الله حجاب، فإذا صلى علي انخرق الحجاب واستجيب الدعاء، وإذا لم يصلِّ علي، رجع الدعاء**»[(١)].

والسالك محتاج إلى الصلاة على النبي ﷺ في بدايته ونهايته، ومن الحكمة في تناول الصلاة على النبي ﷺ أن تكون بكيفية تناسب حال ذاكرها، وتقتضي معنى منزله.

كذلك كيفيات أذكار المنازل ينبغي أن تكون موافقة لحال الذاكر، مقتضية معنى منزله، فيُركِّبُ ما يحتاج إلى تركيبه من ذلك، ويجمع، ويفرد، ويختصر، ويطول، وهذا مما لا ينضبط بحصر، ولا يرجع إلى حد، إنما ذلك راجع إلى نظر القدوة الرباني، فيعطي كل سالك ما يناسب حاله ويقتضيه مشربه في منزله.

ومهما وجد المعنى المراد في كيفية من الكيفيات المأثورة عن النبي ﷺ، لم يعدل إلى غيرها، للبركة الخاصة بها من كلامه وتلفظه مع أن الأمر في ذلك واسع، والكمال ما أشرت إليه.

وقد وردت عن النبي ﷺ، كيفيات كثيرة مختلفة لولا التطويل لأوردت أكثرها، وقد ورد أيضًا عن السلف من ذلك كثير.

ولوالدي ﷺ من كيفيات الأذكار ما يعجز عنه الحصر، وليست كيفية من ذلك، إلا بإزاء حكمة واختصاص بأمر؛ فلا تتوهم أن ذلك سدى.

وقد يحدث من علل النفس ما لا بدّ فيه من استنباط كيفية تشاكله وتوافقه، لتعذر وجود المعنى المراد في الكيفيات المتقدمة؛ إذ لا يخلو وقت من نوازل خاصة، وأمور غريبة، ولا مطمع في درك وجه الحكمة في ذلك كله، لغير الوارث الرباني.

ومن الكيف أيضًا: أن يختم ورده بصلاة ركعتين أو أكثر، إن كان وقت صلاة، وينصب يديه إثر الصلاة فيدعو بما شاء، والأكمل أن يدعو بما يناسب حاله، ثم

(١) عزاه المتقي الهندي للديلمي من حديث علي في: كنز العمال: (٨٨/٢) ح ٣٢٧٠.

ليقم متوجهًا إلى القبلة، فيسلم على النبي ﷺ، ثم لينصرف، وإن لم يكن وقت صلاة ختم بالدعاء والسلام.

وكذلك إذا دخل خلوته قاصدًا التوجه بالذكر؛ فليقدم بين يدي ذلك صلاة ركعتين فأكثر، إن كان وقت صلاة، ثم ليتوجه للذكر كما تقدم.

وإن شق عليه مكثه على الهيئة المذكورة في جلوسه للذكر، فليروح نفسه في خاتمة كل دور من سبحته هنيهة، ثم يرجع إلى حاله، ولا سيما أهل البداية الذين لم يرتاضوا لذلك، وهذا كله التزامات لما لا يلزم؛ لأن أهل الله الذين اهتبلوا بمعاملته لا يسامحون أنفسهم في أدب، ولا يتناءون عن كمال ضبط لأحوالهم، ورياضة لأنفسهم، كما أن أهل الدنيا ضبطوا أمور دنياهم، ورتبوا فيها لأنفسهم أمورًا مكملة لأغراضهم ومتممة لأهوائهم، كذلك أهل الآخرة، ضبطوا أحوالهم في وجهتهم إلى الله تعالى بأمور مكملة لمقاصدهم متممة لأحوالهم، لكل فريق منهم شرب معلوم.

بيان الكم المطلوب في الذكر

وأما الكم: فليكن عدد التزام كل أحد على حسب حاله، وأهل البداية معاملون بالرفق والتيسير، والتقريب والتدريج؛ لأن النفس بما علقت به من المألوفات، وتلوثت به من الغفلات، طال أملها، ونسيت عالمها، فإذا أردنا إخراجها عن ذلك دفعة واحدة، أخلدت إلى العجز، وكعت عن الانتهاض، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض لنفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى**»[1].

ولا شك أن الضغط في الخروج عن العادة جملة في فور واحد؛ يعود بالسآمة التي هي سبب الحرمان، والعجز الذي هو سبب الخسران، ولو قصد علاج مريض من علة ما، فجرع من الدواء الخاص بعلته أكثر مما تحمله الطباع، ويقتضيه المزاج؛

---

(١) رواه القضاعي في: «مسند الشهاب»: ٢/١٨٤، ١١٤٧ من حديث جابر، وأيضًا البيهقي في السنن الكبرى: ٣/١٨، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/٤٤: فيه يحيى بن المتوكل، أبو عقيل. وهو كذاب.

لعجلت منيته وقربت هلكته، وذلك منافٍ للحكمة، منافر للطب.

فمن حسن التربية حمل السالك على ما لا يعجز عن القيام به في كل الأحوال؛ لأن المطلوب إثبات أعمال اللزوم، وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا عمل عملًا أثبته.

وقد أشار إلى ذلك بقوله ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل**»[(١)]، ثم إن وجد السالك من نفسه نشاطًا، زاد بحسب نشاطه وحاله.

ولقد قال لي والدي ﷺ يومًا: كم هو الآن عدد لزومك؟ فأخبرته فاستكثره، فقال لي: لِمَ لَمْ تعمل حساب الشياخة وورود الأعذار؟ أما سمعت قول عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ حين كبر سنه وثقل جسمه: «**يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ**»[(٢)]. فيما دعاه إليه من التخفيف.

ثم قال لي: إن عدد لزومي من الذكر خمسمائة مرة، وما اقتصرت عليها مرة قط، ولقد انتهيت إلى ذكر ثلاثين ألفًا، وإن لزومي من الضحى ركعتان، وما اقتصرت عليهما قط، وإن لزومي من التلاوة في الصلاة حزبان، وما اقتصرت عليهما قط.

ثم ذكر لي سائر لزوماته على نحو ذلك، ومع ذلك فإن لزوم كل إنسان يكون على حسب حاله وقوته وعزيمته وجلادته.

وينبغي له أن يتحين بذكره الأحيان الفاضلة، والأزمان الشريفة، فقد ثبت من الشرع اختصاص بعض الأزمان بفضائل، كما خصت بعض البقاع بخصائص.

فأخص الأوقات بذكر الاستغفار وقت السحر، وقد امتدح الله قومًا بذلك فقال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨] وفي «حديث النزول» ما يدلك على هذا.

والسالك مقبل على ربه؛ فينبغي له أن يتحين بذكره مظان القبول، فليورد على نفسه خطاب: «هل من مستغفر فأغفر له» فيقول: «أنا يا رب بتوفيقك» و«السحر»: ثلث الليل الآخر.

---

(١) رواه مسلم، ١٧٧ (١١٥٦) من حديث عائشة.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (٤/٣٠٠).

ومن أفضل الأوقات، ما بين طلوع الفجر إلى بزوغ الشمس، وقد جاء أن النبي ﷺ، كان إذا صلى صلاة الغداة، جلس بمصلاه حتى تطلع الشمس لا يكلم أحدًا[١].

وعن أبي وائل قال: «غدونا يومًا على عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه[٢] بعدما صلينا الغداة، فسلمنا عليه بالباب، فأذن لنا. قال: فمكثنا بالباب هنيهة. قال: فخرجت الجارية فقالت: ألا تدخلون؟ قال: فدخلنا، فإذا هو جالس يسبح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أذن لكم؟ فقلنا: لا، إلا أنا ظننا أن بعض أهل البيت نائم. قال: ظننتم بآل ابن أم عبد غفلة؟ قال: ثم أقبل يسبح حتى إذا ظن أن الشمس قد طلعت، قال: يا جارية، انظري هل طلعت الشمس؛ فنظرت فإذا هي قد طلعت، فقال: الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا، ولم يهلكنا بذنوبنا»، إلى آخر الحديث[٣].

ومن أفضل الأوقات، ما بين العشاءين. قال بعض العلماء: هو: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٦]. وقيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ [طه: ١٣٠] وقال الحسن: «هو المراد بقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦]، يعني في ذلك الوقت.

وفي التزام ما بين العشاءين وما بين طلوع الفجر وبزوغ الشمس من الحكمة أن الإنسان إذا هب من نومه كأنه مقبل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، والنفس ميالة إلى مقتضيات عالم الشهادة، فإذا استقبلها بالذكر في أول أمرها، أثر فيها معناه، ميلًا إلى جنبة الخير، فكان لها في مقتضى الذكر حامل يحملها على الخير أثناء تصرفاته في سائر يومه، وكان لها من ذلك وازع يزعها عن الشر، وإن لم يكن ذلك متصلًا، فقد يكون غالبًا، وإن لم يكن غالبًا، فقد يكون متفقدًا بحسب حال الذاكر.

---

(١) روي من حديث جابر بن سمرة، رواه مسلم: ح ٢٨٦ (٦٧٠).

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب أبو عبد الرحمن الهذلي. شهد بدرا والمشاهد كلها بعدها. كان صاحب نعل النبي ﷺ، فكان إذا خلعها حملها، تلقن من الرسول ﷺ سبعين سورة من القرآن وبعثه عمر إلى أهل الكوفة ليعلمهم القرآن والسنة، توفي بالمدينة، وله ٦٣ سنة. الطبقات الكبرى، لابن سعد: (١٥٠/٣)، المعرفة والتاريخ: (٤٣٩/١)، والاستيعاب لابن عبر البر: (٣١٦/٢)، الإصابة: (٣٦٨/٢).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي وائل، ١٨٦١.

فإذا تم النهار وأقبل الليل، لم يخل من تفريط وتضييع وغفلة بطول النهار، ربما محت من النفس ما ارتسم فيها من ذكر الغداة أو بعضه؛ فكان لها من ذكر العشية تثبيت لما امتحى، وزيادة في مادة ما بقي، مع ما في ذلك من تقديم وسيلة بين يدي خروجه من عالم الحس، وروده على عالم الغيب بالنوم الذي يمكن أن يتوفاه الله فيه.

وأيضًا، ففي لزوم طرفي النهار، ابتداء صحيفة أعماله بالذكر وختمها بالذكر، ولا أقل من هذا لأهل البداية، رفقًا بهم، لعجزهم عن مواصلة الذكر مع الأنفاس، وقد يصلون إلى ذلك بهذا التدريج بفضل الله.

ولا بدّ من هجيرا يرجع إليه الذاكر متمًا؛ فليذكره في سائر أوقات الليل والنهار مع تقلباته وتصرفاته، بحسب إمكانه في المنازل التي لا تقتضي استصحاب الذكر، وسبيل الهجير هو أن ينظر في حال السالك:

فإن كان لم ينتهض في المنزل الذي هو سالكه، فليكن هجيراه ذكر منزله، ليتقوى به، ويستعين على نفوذه وانتهاضه.

وإن كان قد بقي عليه من المنزل الذي رقي عنه بقية - على مذهب من يرى ذلك - فليكن هجيراه ذكر المنزل الذي بقيت عليه منه البقية؛ ليستعين بذلك على الخلاص من تلك البقية.

وإن كان قد انتهض في المنزل الذي هو سالكه، وتخلص من المنزل الذي قبله، فليكن هجيراه، ذكر المنزل الذي يرقى إليه، ليرتاض بذلك لما يرد عليه.

وهذا في المنازل التي لا تقتضي استصحاب الذكر مع الأنفاس؛ وأما في المنازل التي يستصحب فيها الذكر، فذكر المنزل ليس إلا، وبالله التوفيق.

مقصد أو بيان نية ذكر الاستغفار في هذا المنزل

واعلم أن مقاصد الأذكار تختلف باختلاف المنازل، والمقاصد من الأذكار كالأرواح من الأجساد، وكالمعاني من الألفاظ، وهي أساس الأذكار، عليها بناء الذكر، وإليها يرجع عند الحضور الفكر، ومن جنبات صفحات معناه تتلمح الثمرات، ومن تلقائه تهب نواسم الأسرار والبركات، ومن أغمي عليه في معنى

قصده، خاب مسعاه، وبعد مرماه.

والمدخل إلى المقصد في هذا المنزل لذكر الاستغفار: أن يتعوذ قاصدًا التلاوة، ثـم ليقـرأ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠] فليورد هذا الخطاب على نفسه، فيجيب بـ«لبيك ربي وسعديك، عبدك المسرف الخطاء بين يديك، معترف بالتقصير، راغب في القبول، يقول بلسان الانكسار والافتقار، معتصمًا بعونك يا غفار، أعاهدك على لزوم طاعتك، وترك مخالفتك، كل ذلك بإمدادك، فلا حول ولا قوة إلا بك»، ثم يدخل لذكر الاستغفار.

بيان مقصد الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله في هذا المنزل

وأما المدخل إلى مقصد الصلاة على النبي ﷺ، فليتعوذ قاصد التلاوة، ثم ليقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وليورد هذا الخطاب على نفسه، فيجيب بـ«لبيك ربي وسعديك، والعبد بين يديك، متعرضًا لقبولك، متوسلًا بذكر رسولك، يقول ممتثلًا لأمرك، طامعًا في خيرك»، ثم يدخل إلى التصلية، ولا تشاح في ألفاظ المقاصد إذا أحرز المعنى.

وليس ذلك في قوة أكثر أهل هذا الشأن، وهو باب كبير من الحكمة لم يفتح فيه لغير والدي، فما اطلعت عليه من أحوال غيره من مشايخ هذا الطريق.

قلت لوالدي يومًا: اختلاف ألفاظ هذه المقاصد، أشيء نقلته عن شيخك أم شيء اختصت به؟

فقال لي: لتعلم أن ذلك شيء خصني الله به، وما كانت المقاصد عند مشايخ هذا الطريق إلا مقصورة على ألفاظ مخصوصة، لا يزيدون في مقصد الاستغفار على قولهم: «أعاهد ربي على لزوم طاعته، وترك مخالفته، بيده الحول والقوة».

ولا يزيدون في مقصد التصلية على قولهم: «لله أصلي على نبينا سيدنا ومولانا

محمد إيمانًا واحتسابًا لله، وتعظيمًا لحق رسول الله ﷺ وتشريفًا له وتكريمًا».

ولا يزيدون في مقصد التهليل والتنزيه والإفراد على قولهم: «لله أذكر، وبه أستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

«نعم كانوا يبدلون من لام الخفض في قولك «لله» باءه عند إمحاض سر التوحيد، أو ما قاربه، وإنني للذي ظهر لي من اختلاف أحوال السالكين، وتباين طبقاتهم في قطع المقامات، وتنويع مشاربهم وإدراكاتهم، رأيت أن أقرب عليهم سلوكهم، وأجري معهم ما يوافق مشاربهم، ويواتي طبقاتهم، بتركيب ألفاظ على معانٍ في المقاصد، مختلفة باختلاف أحوالهم، تقرب عليهم مسعاهم وتسهل لهم مرماهم؛ فكما أن كيفيات الأذكار لا تنحصر إذ علل النفس تكثر وتتشعب وتتركب؛ فكذلك المقاصد، كيفياتها لا تنحصر، ثم ترجع إلى أصل واحد، كما أن كيفيات الأذكار ترجع أيضًا إلى أصل واحد. اهـ

فقلت له: جزاك الله من مرشد ناصح خيرًا.

وما زال كثير من أهل البداية يعرض لهم إشكال في مقصد الاستغفار، حتى أن بعضهم ليقول: «أجدني عند إيراد مقصد الاستغفار بقولي: «أعاهد ربي على لزوم طاعته، وترك مخالفته» لا أخلو عن نوع من الكذب والاستهزاء في شأن هذا العهد، إذ لا أسلم بعد ذلك من تضييع واجب وارتكاب ممنوع؛ لغلبة هواي على عقلي، وضعف نفسي عن استصحاب الاستقامة في الباطن والظاهر.

وهذا عارض شيطاني يجرُّ إلى اليأس، ويحمل على القنوط، وذلك أن المطلوب من التائب في عقد توبته إنما هو مواطأة نفسه على العزم في القيام بوظائف التوبة، والعهد الذي تضمنه المقصد يشير إلى إبرام العزم بما عاهد الله على التوبة بالعزم، مخلصًا في وقته، حتى لو مات من حينه وفوره عاقدًا على مقتضى العهد بالتوبة؛ لكان قد حصل على الفوز بالغفران بنص القرآن.

ثم من لم تثبت عصمته لا يخلو عن كبوة وعثرة وزلة، لما في ذلك من الحكمة في لزوم افتقار العبودية، وانكسار الاضطرار ومواصلة التوبة، وذلك سر قوله ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر**

لهم»[(١)]. وقد جاء عنه ﷺ: «**ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة**»[(٢)].

فحسب الذاكر أن يجدد العهد مع الله تعالى بالتوبة عند التوجه إليه بالاستغفار؛ إنما الأمر المحظور أن يكون في حين الإتيان بالعهد الذي تضمنه المقصد، موطنًا على المخالفة أو مترددًا في التوطن عليها، فذلك الذي خالف قوله فعله، وهو من خصال النفاق، وإذا عرفت العلة ارتفع الإشكال، والله المستعان.

بيان ثمرة مقصد الاستغفار وهي الخوف

واعلم أن ثمرة مقصد الاستغفار في هذا المنزل هي الخوف بما حركه الاستغفار من أسباب الوعيد. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤] والخوف يحث على الاهتبال بطريق الخلاص.

وقد خرَّج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف البيات أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[(٣)].

والخوف: تألم النفس وتوجعها بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

ويراد به في هذا المنزل، الخوف من العقوبة بسبب سالف المخالفات؛ لأن الخوف على قسمين:

١- **خوف العامة: من العقوبة**، وأصله التصديق بالوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة. وعلى هذا يدور ذكر الاستغفار في هذا المنزل، وهو سوط الله، يقوم به الشاردين عن بابه.

٢- **وخوف الخاصة: من المكر** في جريان البسط، وقد يسمى خشية.

وأما خاصة الخاصة؛ فحالهم عرية عن صدمة الخوف؛ إنما يتجاوز به لفظًا، فيما

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٠٩، رقم ٨٠٦٨)، ومسلم (٤/٢١٠٦، رقم ٢٧٤٩)، وعبد الرزاق عن معمر (١١/١٨١، رقم ٢٠٢٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٤١٠، رقم ٧١٠٢).

(٢) رواه أبو داود (٢/٨٤، رقم ١٥١٤)، والترمذي (٥/٥٥٨، رقم ٣٥٥٩) وقال: غريب وليس إسناده بالقوي. وأبو يعلى (١/١٢٤، رقم ١٣٧)، والبيهقي (١٠/١٨٨، رقم ٢٠٥٥٤).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٣٠٨)، وصححه، والبغوي في شرح السنة (٩/٧).

يغشاهم من هيبة الجلال. وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا تحكم معنى الاستغفار من النفس، وانطبع فيها مقتضاه، بناءًا على ما تضمنه المقصد من سر معناه، فإن الخوف يخامر النفس فلا ينفك عنها، وربما تترجح في هذا المنزل غلبة الخوف على الرجاء، لا سيما لأهل موت العزائم، فإن العلة إذا أفرطت لا يتخلص منها إلا بالدواء الحاد؛ لتكسير سورة ذلك الإفراط، وفي كيفيات الاستغفار ما يزيد في مادة هذه الثمرة، المقدار المراد.

حدثني بعض أصحابنا قال: انتهى بي الخوف في منزل التوبة بذكر الاستغفار، إلى أني كنت لا يقع بصري على جارحة من جوارحي إلا رأيتها تتأجج نارًا، فتحترق لذلك أكبادي، ويطول بكائي ويتصل ذهولي.

فأخبرتُ بذلك والدي فقال لي: «أفرط بك الاستغفار حتى جاوز بك إلى هذا المقدار»؛ فنوّعَ لي كيفية الذكر، فسكن ذلك عني، وملت إلى الاعتدال.

وهذا إنما يُحمد لمن طال خلافه ومات عزمه، واستملكته الشهوات.

وأما إذا تمكن التائب وجرى على أسلوب أهل العزائم؛ فلا يعدو الاعتدال بين الخوف والرجاء، ومن لازم الخوف، الهرب من موجب الخوف، فقد قالوا: «ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، الخائف هو الذي يترك ما يعذب عليه».

فبالخوف ينبرم عقد العزم، ويرتص أساس التوبة، وهو سراج الباطن، به يبصر الخير فيجتهد في تحصيله، ويبصر الشر فيجتهد في الخلاص منه، وهو يطرد التسويف وينفي التردد كما قالوا: «ليس الخوف بتعليل النفس بعسى ولعل وسوف» كيف والخوف يوجب الحذر من الذنوب، كما يحذر الأسد الضاري.

ولا يجدُ طعم الخوف من ادعاه، حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي من كل شيء مخافة طول الألم، حتى إنه ليحتاط في ترك المخالفات احتياطًا يشبه الوسواس، لكنه محمود في براءة الذمة، وبالله تعالى التوفيق.

نتيجة تحلي النفس بإحدى عشرة صفة حميدة، والتخلي عن أضدادها

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة في هذا المنزل، هي تحلية النفس بإحدى عشرة صفة

حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة.

• **الأولى: الحزن**، وهو: «توجع الباطن بما فاته من الخير، وتألمه لما ناله من التضييع»؛ لأن الحزن يحرك رؤية التفريط في العمل، ويثير القلق بإيثار الجفاء، وذلك ينفي عن النفس القسوة في طلب الخلاص، غفلة عن مزعجات الوعيد، وبعدًا عن حزب الله، والقلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا يعلمون.

• **الثانية: الإشفاق**، وهو: «حذر من الوقوع فيما قد علمت هلكة عاقبته، أو فوات ما قد حصل - وقد علم صلاحه»، وبه يتوقى العبد طوارق الهوان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧]، وذلك ينفي عن النفس الإخلاد إلى التضييع الذي هو سبيل الحرمان، وسبب إلى الخسران.

• **الثالثة: الفرار**، وهو: «الهرب من الشر إلى الخير، ومن البعد إلى القرب، ومن الهلاك إلى النجاة»؛ فيستدعي الجد، ويمحو أثر البعد، وهو من أول أبواب الابتهال إلى الله تعالى، والإجابة لأمره، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠] وذلك ينفي عن النفس التشبط[1] مع الشهوات، والتلبس بالمخالفات، والركون إلى اللذات.

• **الرابعة: الإنابة**، وهي: الرجوع بعد الاعتذار إلى صلاح الحال؛ وفاءًا بالعهد الذي يتضمنه المقصد، وقامت به التوبة، وقيامًا بحفظ الحدود عن طيب نفس وانشراح صدر، وقوة عزم»؛ فلا تبعة إلا خرج عنها، ولا فائت إلا استدركه، ولا عثرة إلا استقال منها، ولا فتنة إلا طلب الخلاص منها والفرار عنها مع سوء الظن بالنفس، وإقامة الحجة عليها من مخالفتها المتحققة، وموافقتها التي هي على خطر من قبول أورد، وذلك ينفي عن النفس التفريط في الواجبات، ويشغل عن النظر في حال الغير.

• **الخامسة: السماع**، وهو - من شيم أهل الخير، يراد به -: «الإجابة إلى ما تضمنه الوعد والوعيد، بالمسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الخلاص، استنشاقًا لنواسم الإرادة من جنبات التخصيص»، وذلك ينفي عن النفس الإعراض عن الإجابة بتصامم

(١) التشبط: التريث والتعوق. المعجم الوسيط (١/ ١٩٤).

الغفلة، والتلوي في طريق العلاج ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] والإعراض عن الإجابة دليل المقت.

• **السادسة: المحاسبة**؛ بتقرير النفس على ما فاتها من الخير وما نالته من المخالفة، فيرى التقصير لازمًا، والتضييع ثابتًا؛ فهو يحمل عليها زواجر التوبيخ حتى تشتد عرى العزائم، وتنبعث موارد القرائح، وذلك ينفي عن النفس الانهماك في متابعة الهوى الداعي إلى مهاوي الردى، و«**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»[1].

• **السابعة: المحافظة**، وهي: «لزوم طريق الإنابة تعرضًا لنفحات القبول، وصونًا لعقود العهود، واحتياطًا لشروط المتاب»، وذلك ينفي عن النفس البطالة في الأعمال، والشتات في الأحوال، والهذر في الأقوال، ومتابعة الشره والميل إلى الشهوات.

• **الثامنة: الحذر**، وهو قريب من الإشفاق؛ لكن الإشفاق لا يفارقه الترحم، والحذر - يصاحبه التشمر - يؤذن ببراءة الذمة، ويفصح عن ارتفاع الهمة، ويقضي بالخلاص من التبعات، وذلك ينفي عن النفس الاسترسال المؤدي إلى الوبال والنكال، وهو من صفات البهائم في عدم العزائم.

• **التاسعة: الرفق**، الذي يزين أهل الإسلام، ويحفظ أخوة الإيمان، ويصون شمل الألفة من شتات الأغيار، وذلك ينفي عن النفس طوارق العدوان، بإطفاء سورة الشره، فيكف عن البغي.

• **العاشرة: الثبوت**، وهو: عقد التوبة بروابط الإنابة قيامًا بحفظ الحدود على الدوام، بنسيان الجريرة، وإصلاح السريرة، وذلك ينفي عن النفس التردد بأوهام

---

(١) رواه أحمد (١٢٤/٤، رقم ١٧١٦٤)، والترمذي (٦٣٨/٤، رقم ٢٤٥٩) وقال: حسن. وابن ماجه (١٤٢٣/٢، رقم ٤٢٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٧/١)، والبيهقي (٣٦٩/٣، رقم ٦٣٠٦)، والطبراني (٢٨١/٧، رقم ٧١٤١)، والحاكم (١٢٥/١، رقم ١٩١) وقال: صحيح على شرط البخاري. وابن المبارك (٥٥/١، رقم ١٧١)، والطيالسي (ص ١٥٣، رقم ١١٢٢)، والبزار (٤١٧/٨ رقم ٣٤٨٩)، والقضاعي (١٤٠/١، رقم ١٨٥)، وابن أبي عاصم في الزهد (٣٨/١)، والديلمي (٣١٠/٣، رقم ٤٩٣٠).

الهوى، وقلق الطباع ؛ لخروجها عن عوائدها الذميمة.

• **الحادية عشرة: الوفاء**، وهو: من شعار صدق العزائم، وعلامات أهل الإخبات وأمارات القبول، وذلك ينفي عن النفس الميل إلى الشهوات والتشوف إلى المخالفات، ويقطع عنها مواد الانتكاث والانتكاص.

فإن قلت: هذه الصفات كلها باطنية، والإسلام عبارة عن الوظائف الظاهرية.

فالجواب: أنه قد تقدم لنا أن جميع أعمال الإسلام والإيمان والإحسان، إنما المراد منه تزكية النفس وطهارتها، فتأخذ النفس من التزكية والطهارة في كل مقام بحسب ما تقتضيه وظائفه، وقد مضى لنا أن الإسلام في العرف الشرعي ليس مقصورًا على أعمال الظاهر دون الباطن؛ فذلك صفة النفاق، فإذا تقرر هذا، فاعلم أن الاستغفار إذا تحكم معناه بالباطن بناء على أساس مقصده، وأثمر الخوف فتمكن معناه من النفس، وامتزج بها، أثمر بذلك في النفس اتصافًا بالصفات المذكورة، حتى تتحلى بها تحلية ثابتة راسخة لا انفكاك لها عنها، ما لم يعرض عارض مؤذن بالمقت مفصح بالطرد ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩] جعلنا الله ممن شملته عواطف إحسانه، وحفظه من عواصف حرمانه، بمنه وكرمه.

❖ علامة قطع هذا المنزل:

واعلم أن من علامات قطع هذا المنزل: الحزن الدائم لتحقق الجزاء، والبكاء الطويل لتوقع العقوبة، والتأثر للمواعظ، تصديقًا بالوعيد، حتى كأنه هو المراد بجميع الزواجر.

والفرق من الموت حرصًا على استدراك الخلاص من قَبل الفضيحة.

والاجتهاد في أداء الحقوق للخالق والمخلوقين براءة للذمة من غير ترجيح ولا تأويل، والفرار من الكبائر بغضًا فيها كفراره من الأسد الضاري.

والانتهاض لأداء الفرائض من غير مراعاة شاغل وإن عظمت أوهامه.

ومواصلة الأتقياء الأخيار، ومجانبة الأشقياء الأشرار.

وقلة الحرص في طلب الدنيا، تشاؤمًا بسوء عاقبتها حين لمحها بترك الهلع فيها، والرغبة في طلب الآخرة تصديقًا بحسن عاقبتها، بترك الكسل فيها، إلى غير ذلك من الفروع التي تتبع هذه الأصول.

فإذا ظهرت هذه العلامات على ظاهره، استدل بها على صحة الاتصاف بتلك

الصفات، التي صدرت عن الخوف، الذي طلع من تلقاء معنى الاستغفار القائم على أساس المقصد.

وإذا لم تظهر هذه العلامات، أو تخلف أكثرها أو بعضها، فاتصافه معلول، وخوفه ناقص، وذكره مخدوع، وما قد يبدو عليه من أثر تلك الصفات، فذلك مزلزل الثبوت، معلول الرسوخ، فليعكف على ذكره بناء على مقتضى مقصده حتى تنجلي عنه عمايته، ويرتفع عنه حجابه، وقد يعان على خلاص أمره في ذلك بلزوم ما يقتضي انتهاضه من كيفيات الاستغفار، والله الموفق الهادي.

❖ وصية في وجوب ملازمة المجاهدة لصاحب هذا المنزل وعدم مفارقتها:

واعلم: أن من اللازم لصاحب هذا المنزل أن لا يفارق المجاهدة في حفظ أحواله، وإقامة حدوده، وليحافظ على الصلوات الخمس لأوقاتها المختارة، وليؤدها بأحسن أحوالها من التؤدة في أركانها، وإحضار الفكر؛ لتدبر القراءة والأذكار فيها، وليبادر إلى الجماعة عند النداء لها.

ولا يترك النوافل الراتبة المتصلة بها، كأربع ركعات قبل الظهر، وركعتين بعدها، وأربع ركعات قبل العصر، وست ركعات بعد المغرب، والوتر بإحدى عشرة ركعة، أو تسع ركعات، أو سبع ركعات، أو خمس ركعات بعد العشاء الأخيرة، وركعتي الفجر قبل صلاة الصبح، وليحسن الطهارة لها، فإن كان عليه قضاء صلوات، فليقتصر على ثلاث ركعات: الوتر وركعتي الفجر، وليجعل مكان سائر نوافله، قضاء صلواته.

وإن كان ذا مال، فليحافظ على أداء زكاته.

وإن كان له أبوان، فليبالغ في مبرتهما، والتماس رضاهما، والصغير من عقوقهما كبير.

وإن كان ذا رحم فليصله، ولو بالزيارة والسلام.

وإن كان من أهل البيع والشراء، فليحافظ عل براءة ذمته من التبعات في ذلك، فليؤد الأمانة، وليبذل النصيحة وليؤت كل ذي حق حقه، ولا يبخس من حقوق

المسلمين شيئًا من الأهل والعيال وكافة أهل الإسلام.

وليطهر قلبه من جميع الأحقاد للمسلمين، ولا ينطوي على مكر ولا خديعة ولا كبر ولا حسد، وليحفظ جوارحه، وليقيدها بقيود الشرع؛ فليحفظ البطن من الحرام، واللسان من الكذب، والغيبة والنميمة، ونحو ذلك من الفحش، والعين من النظر فيما لا يحل، والأذن عن الإصغاء إلى ما لا يحل، واليد عن البطش فيما لا يحل، والرجل عن السعي فيما لا يحل، والفرج عن جميع ما لا يحل.

وليحاسب نفسه على ذلك كله، ولا يسامحها في الخطرات التي ترجع إلى ذلك.

وليتعلم من العلم الضروريّ الذي لا تقوم فرائضه إلا به، وأؤكد ما على أهل الأسواق تعلم فقه البيوع والصرف.

وإن كان من أهل القرآن، فليلتزم وظيفة من تلاوته، وإن كان في صلاة، فذلك أحسن، وإن لم يكن من أهل القرآن، فليتعلم منه ما تقوم به فرائضه، وإن تعلمه كله، فهو أحسن وأكمل وأفضل.

وليجعل لنفسه حظًّا من صيام التطوع، ليكسر بذلك من شره النفس، وأقله ثلاثة أيام من كل شهر، مع ما اشتهر فضله وكثر أجره من سائر الأيام، كعشر ذي الحجة، ويوم عاشوراء، والتاسع قبله والحادي عشر بعده، وأول خميس من رجب، والسابع والعشرين منه، ويوم النصف من شعبان، وستة أيام من شوال.

وأؤكد ما عليه لزوم الكتمان، والتستر بالأحوال عن جميع الخلق ما عدا قدوته، فهو الطبيب لعلله، وليتجافَ عن الحرص على الدنيا، والهلع فيها، وليجمل في التكسب وطلب الرزق، وليجاهد على حضور الفكر لمعنى الذكر عند التوجه بورده، بمدافعة الخواطر، ودرء الشواغل وسعه وجهده.

وليس على أهل البداية زائد على ذلك، لقرب عهدهم بالشهوات، والاسترسال في اللذات والركون إلى المألوفات؛ فليكن كلما مال فكره إلى شيء من علق الأوهام والخيال زجره ورده إلى شأن الذكر، كذلك المرة بعد المرة، حتى يدخل عليه الحضور شيئًا بعد شيء، فينعكس عنده الأمر، فتأنس النفس بالحضور في الذكر، وتستوحش من الغفلة، وذلك درج لما بعده، ولا ينال ذلك إلا بالمشاق

ومجاهدة النفس؛ كيف لا، وقد «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[(١)].

فإن هو جاهد على الحضور فكره في معنى ذكره عند توجهه، وقام بهجيراه متى ما غفل في سائر أوقاته، فإن العمارة تتصل بالعمارة، ولا يزال حاله في صلاح حتى يبلغ الغاية، وإن هو أرخى للنفس زمامها، ووافقها في استرسالها في خطراتها أثناء ذكره، ثم لم يفارقه الذهول في سائر أوقاته، فإن الخراب يتصل بالخراب، ولا يزال حاله في انتكاص.

وهو وإن لم يخب من أجر في حركة اللسان بالذكر، فوا بُعد مرماه من هذا الطريق ويا خيبة مسعاه، وليس من أراد بناء منزل فأسس أساسه ورص بناءه، وحفظه من آفات الريح والمطر ونحو ذلك، كمن أراد بناء منزل فلم يجعل له أساسًا، ولا رص له بناء، ولا حفظه من السقوط؛ هذا أسرع بناء للسقوط، وذلك أثبت بناء للدوام.

وحفظ العمل هو دوام العمل وإن قل، كما أن فساد العمل بضياعه وإن كثر.

والله يحملنا على منهاج التائبين، ويفتح لنا في اقتفاء أثر المفلحين، ويقرب علينا السعي لرب العالمين بفضله وكرمه.

---

(١) رواه مسلم، ١(٢٨٢٢)، والترمذي: ٢٦٨٤، وقال: حديث حسن، غريب صحيح من هذا الوجه، والدرامي في السنن: (٢/٣٣٩)، والبغوي (١٤/٣٠٦).

المنزل الثاني من مقام الإسلام

الاستقامة

اعلم - رزقني الله وإياك من المواهب أسناها، ومن المنح الدينية أعذبها موردًا وأصفاها - أن الاستقامة هي ثاني منازل مقام الإسلام، وهي تمكينه.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] وقال ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا**»[(١)]. والاستقامة: «اعتدال السير من غير ميل».

بيان أقسام الاستقامة:

وهي على قسمين: استقامة خاصة، واستقامة عامة.

١- **أما الخاصة:** فهي: «استقامة السر في منهج المشاهدات من غير التفات إلى شيء غير الله، محفوظًا عن رؤية الرسوم[(٢)]، مطهرًا من شوائب الأوهام، مغمورًا في بحار أسرار الحقائق»، وسيأتي بيانها في موضعه إن شاء الله تعالى.

٢- **وأما العامة:** فهي المشار إليها في هذا المنزل، وهي: «اعتدال السير على نهج السُّنَّة من غير تحريف، واستواء السلوك على سبيل الشرع، من غير تبديل ولا تغيير».

والحكمة في الإتيان بهذا المنزل أول المنازل، هي أن يرسخ في نفس السالك

---

(١) رواه الدرامي في السنن: (١٦٨/١) والبيهقي في السنن الكبرى: (٨٢/١) والحاكم: (٣٠/١) والطبراني في المعجم الكبير: (٩٨/٢).

(٢) المقصود بالرسوم هنا تجليات الحس من كلام وحركة ومادة وغيرها. يقول الطوسي: «الرسم ما رسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق، فيمتحي بإظهار سلطان الحق عليه (اللمع ص: ٤٢٧). ويعرفها القشاني بأنها: «الخلق وصفاته؛ لأن الرسوم هي الآثار، وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله (اصطلاحات الصوفية ص: ١٥٠).

معنى الاتباع بالمحافظة على السنة، فيكون ذلك واقيًا له وقت ورود حقائق النهايات عليه، من الغرق في لجج التعطيل عند ركوب بحار التحقيق.

فالاستقامة: الاستواء مأخوذة من قولهم: «قومت العود»، إذا عدلته، وهو زوال الاعوجاج، كذلك الاستقامة: عدول عن بُنَيَّات الطريق، والسعي على المنهج الواضح.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[1].

وقال عمر ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] أي: «لم يزوغوا زوغان الثعالب»؛ لأن الثعلب بخبثه إنما يطلب بنيات الطريق[2].

فالاستقامة حافظة من الزيغ، هادية إلى الطريق المستقيم، وبها يسهل السير، ويقرب المقصد؛ فمن لم يمل عن السُّنَّة فقد استقام، وخرج عن قسم الهلاك من الاثنين والسبعين فرقة، ونزع إلى النجاة مع الفرقة الناجية التي أخبر النبي ﷺ أنها

---

(١) رواه أبو داود في السنن، ٤٥٨٣، وابن ماجه، ٤٢، والبيهقي في السنن الكبرى: (١١٤/١٠).

(٢) قال القشيري: سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق - رحمه الله - يقول: الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها: التقويم، ثم الإقامة، ثم الاستقامة؛ فالتقويم، من حيث تأديب النفوس. والإقامة: من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة: من حيث تقريب الأسرار.

وقال أبو بكر ﷺ في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: لم يشركوا، وقال عمر ﷺ: لم يزوغوا زوغان الثعالب. فقول الصدّيق ﷺ محمول على مراعاة الأصول في التوحيد. وقول عمرﷺ محمول على طلب التأويل والقيام بشرط العهود.

وقال ابن عطاء: استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى.

وقال أبو علي الجوزجاني: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربُّك، عزّ وجل، يطالبك بالاستقامة. الرسالة القشيرية (٩٤/١).

في الجنة، كما أخبر عن سائرها أنهم في النار؛ فلا مطمع في الترقي في منازل التخصيص لمن لم يصف له مشرب هذا المنزل، ومن حرمه ضاع عمره، وخاب سعيه، وانقطع أمله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النحل: ٩٢].

فصل

في بيان باطن الاستقامة وظاهرها

ولهذه الاستقامة ظاهر وباطن:

أما ظاهرها: «فتحلية الجوارح بحلية السنة، وتعديلها بقانون الشرع، وتهذيبها بآدابه، وطهارتها من جميع المخالفات والعصيان»، إذ لا مطمع لمخالف في البلوغ إلى حضرة التخصيص.

وأما باطنها: «فتحلية الباطن بأخلاق الشرع، وتهذيبه بآداب السنة»، واستقامة الباطن أصل في الاستقامة الظاهر؛ لأن الباطن هو المنفق على الظاهر المشير عليه؛ فالظاهر خديم الباطن، عن رأيه يتحرك، وعن إشارته يسكن، وإن كان قد يصل إلى الباطن من استقامة الظاهر أنوار تقوي مادة عزمه، وتبرم عقد انتهاضه، فالباطن أصل في أعمال الظاهر، وقد مضى لنا التنبيه على شيء من هذا المعنى، فلا حاجة لنا في إعادته هنا.

فصل

في بيان شروط وآداب الاستقامة

وللاستقامة هنا شروط وآداب:

* **أما شروطها فخمسة:**

• **الأول: مواصلة أهل السُّنَّة ومجانبة أهل البدعة،** قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ

تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

• **الثاني: تعلم العلم النافع الهادي إلى وظائف الشرع، والداعي إلى أحكام السنة،** قال النبي ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[(١)].

قال مالك: أما كل العلم فلا، لكن ما لا بدّ للإنسان منه، ولا يسعه جهله، فعلم الشريعة مقرب إلى الله، داعٍ إلى الخلاص والنجاة، كما أن غيره من العلوم مبعد عن الله تعالى فاتح أبواب الضلال، مؤذن بالبوار والهلاك.

• **الثالث: تسليم النظر للشارع صلوات الله وسلامه عليه، في جميع ما صدر عنه** - من قول أو فعل - بحسن ظن، وصدق طوية، وانشراح صدر، من غير تأويل عن السبيل، ولا نظر مانع من اقتفاء أثر الدليل.

وليس للعقل نظر دون الشرع، إذ لو كان للعقل نظر دون الشرع؛ لسلم إليه النظر، ولم يحتج إلى الرسول يبين عن الله تعالى ﷺ؛ فالعبد إذن محجور عليه في نظره، فما وافق الشرع قُبِل، وما خالفه طُرح ونُبذ وتُرك.

قال أبو سليمان الداراني[(٢)] رضي الله عنه: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين، وهما: «الكتاب والسُّنَّة»، وإلى هذا المعنى أشار إمام هذه الطريقة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه بقوله: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن أمورنا مقيدةٌ بالكتاب والسُّنَّة».

واعلم: أن أمور الشريعة ووظائف السُّنَّة منوطة بنسب بينها وبين سعادة الآخرة وشقاوتها، منها ما فتح الله تعالى للعقل في إدراكه والمعرفة به، ومنها ما حجبه عنه، ولم يجعل له سبيلًا إلى العثور عليه إلا بإخبار من الشارع - صلوات الله وسلامه عليه - فيما أخبر به عنه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٦٩/١)، والطبراني في المعجم الصغير: (٩٢/١).

(٢) عبد الرحمن بن أحمد أبو سليمان الداراني العنسي. روى عن سفيان الثوري، وعلي بن الحسن، وصالح بن عبد الجليل، وعنه هاشم بن خالد وحميد بن هشام العنسي وآخرون، توفي سنة٢١٥هـ، وقيل: ٢٠٥. الثقات لابن حبان: (٣٧٦/٨).

فإمحاض العبودية، الإجابة بالسمع والطاعة لله ولرسوله من غير بحث ولا نظر في وجه الارتباط والتناسب؛ إذ الإخلاد إلى العجز فيما لم يُعرف من ذلك أولى لمن ألقى زمام تعبده بيد الشرع؛ إذ لعل من أمور الشرع ما لا نسبة له ظاهره، أو لعل درك السعادة به بحكم الخاصية التي جعلها الله في ذلك، وفي الشريعة من ذلك أمور كثيرة مما يرجع إلى الأوامر، ومما يرجع إلى النواهي؛ فحسب السالك أن يتلقى أحكام الله تعالى، الواصلة إليه على لسان رسول الله ﷺ بالقبول، ويقول: سمعتُ وأطعتُ.

• **الرابع: استعمال آثار السُّنَّة من قول أو فعل أو مقصد باعتدال**، من غير تغيير ولا تحريف، ولا ميل مع أوهام الوسواس؛ لأن ذلك مما يخرج العبادة عن مقصودها الشرعي، وما أصاب الإنسان من ذلك، فسبيله إما دخل[(١)] في العقل واختلال في الذهن، وفساد في التصور، وإما جهالة قادحة بأحوال السنة، وفي كلا الوجهين، للشيطان عون على فساد الدين، وذلك مما يجب العدول عنه وطلب الإقالة منه. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال عز من قائل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج ٧٨] وقال النبي ﷺ: «**ديننا هذا يسر**»[(٢)].

• **الخامس: بناء كل حركة أو سكون من أمور الشريعة على قاعدة قصد القربة وحسن المعاملة لله تعالى**؛ ليجني من ذلك ثمرة حسن الوجهة إلى الله تعالى؛ لأن الأشياء التي لا يصحبها قصد القربة والمعاملة، لا أثر لها في تنوير الباطن، وما ذلك إلا هباء لا أثر له في تنوير الباطن؛ فبالتزام المقاصد بين يدي الأعمال الشرعية يتنور الباطن، فيأنس بالله ويستوحش من غيره.

---

(١) الدخل: عَيْبٌ في الحَسَب، وما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم، المحيط في اللغة (٣٥٥/١).

(٢) رواه النسائي من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدكم إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة». السنن: (١٢٢/٨).

بيان آداب الاستقامة

* **وأما آدابها فخمسة:**

• **الأول:** متابعة النبي ﷺ في جميع ما ورد عنه من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات، مما يرجع إلى العبادات أو إلى العادات؛ إذ بذلك يحصل مطلق الاتباع المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وبقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فاتباعه في جميع حركاته وسكناته سعي إلى محل السعادة.

تنبيه: الأولى بالمؤمن متابعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله في حتى العادات.

فإن قلت: هذا في العبادات ظاهر، فما بال العادات؟

فالجواب: إن عدوله ﷺ عن بعض المباحات إلى بعضها يستروح منه القصد لفعل المعدول إليه وترك المعدول عنه؛ ولعل في المعدول إليه سرًّا استأثر الله بعلمه، وأطلع عليه نبيه ﷺ، أو من شاء دون من شاء، ويستحيل أن يكون فعل من أفعاله - صلوات الله وسلامه عليه - أو قول من أقواله، أو حال من أحواله، عبثًا لا عبودية فيه؛ كيف وهو إمام أهل المراقبة، وسيد العابدين، وقد وجدنا من خيار أمته، من لم يصدر عنه فعل، ولا قول إلا على سبيل معاملة الله.

وقد روي أن بعضهم كان لا يأكل البطيخ، فقيل له في ذلك، فقال: «ما يمنعني من أكله إلا أنه لم يبلغني كيفية أكل النبي ﷺ إياه».

وروي أن بعض الفضلاء لبس يومًا خفه؛ فذهل ولبس الشمال قبل اليمين، فكفر عن ذلك بكيل طعام، فحسب السالك أن لا يتساهل في ذلك حتى يقول: «ما يرجع إلى العادات لا معنى للاتباع فيه»؛ فإن هذا القول مما يغلق بابًا عظيمًا من أبواب السعادة.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ قد أطلعه الله ﷻ من سر غيبه على ما لم يطلع عليه غيره، وأن أعماله وأقواله كانت جارية على سبيل العدل المبلّغ إلى أعلى الفراديس؛

فالميل عن اتباعه فيما قلّ أو جلّ لا يخلو عن خسران.

وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه كان يومًا يدير ناقة في موضع؛ فقيل له في ذلك، فقال: «لا أدري إلا أني رأيت النبي ﷺ يدير ناقته هنا؛ فأنا أحب متابعته»(١).

• **الثاني**: الأخذ بالأعم فالأعم من أقواله وأفعاله ﷺ، فهو الأحوط، وإن كان الأخص أصح، لا سيما فيما يرجع إلى الترغيب والترهيب؛ فذلك أحرى على سبيل الاتباع، ومن هذا المعنى نظائر كثيرة في الشرع، كعدد ركعات الوتر، وعدد ركعات الضحى، وغير ذلك، وكذلك ما كان عليه - صلوات الله وسلامه عليه - آخر عمره، إذ لعله انتقل عن المتقدم إلى المتأخر لحكمة ظهرت له من جانب الغيب.

• **الثالث**: أن يقصد بمتابعته ﷺ: تعديل الحركات والسكنات؛ حتى تنفعل النفس لذلك التعديل؛ فتتصف به، وقد تقدم لنا ارتباط الباطن مع الظاهر، والعدل: «وضع الأشياء في مواضعها من غير ميل ولا تحريف»، ولا يتوصل إلى حقيقة ذلك إلا بمتابعة النبي ﷺ في العبادات والعادات، وذلك أن حركات الجوارح لا تكون إلا بعد أن تصورها النفس وتكيفها، فإن كانت تلك الحركات معتدلة، أبقت في النفس أثرًا معتدلًا، وإن كانت معوجة، أبقت في النفس أثرًا معوجًا.

فمهما استطاع السالك أن لا تصدر عنه حركة ولا سكنة إلا على سبيل العدل، فهو اللائق به، المعين على قصده، ولا يصل إلى تحقيق الأمر في ذلك إلا بمتابعة النبي ﷺ، الدليل الأكبر والطبيب الأعظم؛ لأن الإدراكات تقصر عن العثور على وجه العدل في أكثر الحركات والسكنات، فلا سبيل لذلك إلا من قبل الشارع ﷺ، وهذا مما يؤكد حكم اتباعه فيما قلّ وجلّ، وذلك باب للسعادة الأبدية.

• **الرابع**: أن يبني أمره في اتباع النبي ﷺ على أن يضبط نفسه بضابط شرعي

---

(١) رواه بمعناه أحمد في المسند، ٥٣١٥.

يقمعها عن هواها، ويربطها برابط الاقتداء بالنبي ﷺ، ويخرجها عن أنظارها.

ولا شك أن هذا يخرج عن التشبه بالأنفس المهملة، المرخاة الرسن[١]، المسترسلة في اتباع هواها بحسب الطبع من غير حاجز، ومهما تعوّد الإنسان أن يفعل ما شاء، أَلِف اتباع مراده، وغلبت عليه صفة البهائم، فعسر عليه الخروج عن الهوى.

فمصلحته أبدًا أن يكون في جميع حركاته وسكناته ملجمًا بلجام الاتباع للنبي ﷺ، مقيدًا بقيود الاقتداء به، ليخرج من طريق هواه، إلى طريق العبودية؛ بلزوم العدل حتى يكون أثر العبودية لائحًا عليه، فليس من ألقى زمام نفسه في تصاريفه للسُّنَّة، كمن ألقاه لهوى نفسه، وفي هذا سر بديع في تزكية النفس؛ لأن الخروج عن بعض المباحات إلى بعضها، فيه نزوع عن الهوى، هذا في المباحات؛ فأحرى في الخروج عن المباحات إلى السنن.

وإذا تأملت الحكمة في تحويل القبلة، ونسخ الشرائع، وجدتها تومئ إلى هذا المعنى.

قال سهل بن عبد الله التستري[٢]: «كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء، وإن كان طاعة، فهو عيش للنفس بهواها، وكل فعل يفعله بالاقتداء، فهو عذاب للنفس» لكن فيه تشحير لها.

وحال الاتباع له مراتب:

منها: ما يحمل على تركه الكفر والزندقة، كالفرائض.

ومنها: ما يحمل على تركه ضعف الإيمان كالسنن المؤكدة.

ومنها: ما يحمل على تركه العجز والكسل والحرمان كالرغائب والنوافل.

ومنها: ما يحمل على تركه ضعف الفطنة، وعمى البصيرة على تلمح البركات

---

(١) الرسن: الحبل. والرسن: ما كان من الأزمة على الأنفس (لسان العرب/رسن).

(٢) سهل بن عبد الله التستري أبو محمد الصوفي، روى عن خاله ابن السوار، وصحبه ذو النون المصري، وروى عنه، عمر بن واصل وأبو محمد الحريري، وعباس بن عصام، من أشهر أعلام التصوف، يعد في طبقة الجنيد. توفي سنة: ٢٨٣هـ أو٢٨٤هـ. اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (٢١٦/١).

من جنبات أحواله وعاداته، كعوائده في المباحات.

والاتباع المطلق يكون على جميع ذلك بالقيام والاقتداء.

• **الخامس**: مدافعة الخواطر العارضة عند التلبس بالاتباع بأن يمضي على قصده ويلغي جميع الأوهام؛ لأن العزم يدفع جميع العوارض بالمقصد المبلغ إليه رضي الله تعالى عنه؛ فالحزم: أن لا يعدل عن شيء مما يريد الاتباع فيه إلا بنص جلي لا معارض له، وكذلك ينبغي أن يكون في مدافعة العوارض الدنيا؛ فإن تأكدت، فليجعلها تبعًا لحال سلوكه في اتباعه؛ لأن المحبة الصادقة تقضي باتباع المحبوب على كل حال، كفعل ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وغيره من الصحابة، وسائر السلف ﷺ.

❖ تنبيه: كل من يذهل عن الشريعة من السالكين يهلك.

فإن قلت: لقد أبلغت في أمر هذا المنزل، وأكدت في شأن الاتباع للنبي ﷺ بما لم يسبق لغيرك ممن تكلم في المقامات.

فالجواب: أن حاملي على ذلك ما قصدته من توطئة حال الشريعة عند السالك لئلا يذهل عنها، أو عن شيء من رسومها عند صدمات الحقائق، كما قد جرى لبعضهم فهلك، مع ما بلغني من أن أناسًا من أهل زماننا ممن يدعي في سلوك طريق القوم، ويتكلم في التحقيق، حملهم ما هم عليه من الجهل على أن حلوا أيديهم من العروة الاتباعية، ومرقوا من الأحكام الشرعية، وركنوا إلى ما لاح لهم، أو توهموه من سراب الجهل في قيعة البواطن؛ فظنوا أنه ينبوع من الحقائق، ولو تأملوه لم يجدوه شيئًا؛ فمالوا بذلك إلى الحرمان، وركبوا به طريق الخذلان، ونعوذ بالله من الهوان والخسران، فقالوا: إنما تبلغ الغاية بذكر الله، وذكر النبي ﷺ حجاب عن الغاية.

وقد ترد على السالك في بداية أمره خواطر من هذا القبيل، وواجبٌ عليه أن يدفعها عن نفسه، ويعلم أنها من قبيل الشيطان، يزخرف بها هذا المأخذ الخسيس، ويبرقش بها هذا المسلك الوعر؛ ليمكر بذلك، ويستدرج إلى الكفر الصريح أو الزندقة المحضة؛ فمن حفظه الله من ذلك، أظهر له فيه أثر الشر والمكر، فتعوذ منه ودافعه عن نفسه، ومن خذله الله بذلك؛ فزين له شيطانه سوء عمله حتى رآه حسنًا، اتخذه دينًا وسلكه طريقًا.

فلذلك بسطت الكلام في هذا المنزل - رافعًا فيه الإشكال، وداعيًا إلى محض السعادة الأبدية باتباع النبي ﷺ، وليس ذلك من خواص البدايات دون النهايات؛ بل حالة الاتباع من الأمر الذي يعم السالكين في بداياتهم وتمكيناتهم ونهاياتهم؛ لكن إذا أحكموا ذلك في هذا المنزل حتى تشرب فيهم معناه، تحلوا بوظائف السُّنَّة باطنًا وظاهرًا، حتى إذا وردوا على مشارب الحقائق، واستغرقوا في لجج الأسرار بما يقتضيه معنى التوحيد، ثبتوا عند صدمات الحقائق على ما حصلوه في هذا المنزل من وظائف السُّنَّة، وأحكام الاتباع، وأمور الشريعة؛ فثبتت أقدامهم ولم تزل ولم تزغ، فسهل عليهم الجمع بين الحقيقة والشريعة، ولم تجد تلك الخواطر الردية مدخلًا ولا محلًا ترد عليه من الباطن.

❖ فائدة: الإسلام اسم يعم جميع وظائف الثلاث مقامات الدينية:

فإن قلت: أوردت في مقام الإسلام ما قد عده بعضهم من شعب الإيمان كالتوبة والاستقامة.

فالجواب: أن الإسلام اسم يعم جميع وظائف الثلاث مقامات؛ لما فيها من معنى الانقياد، ثم كل ذلك داخل تحت نطاق الإيمان؛ لأنها عن التصديق قامت، وبه ظهرت، فسميت باسم أصلها؛ لأنه موجبها، وهي موجبه، حتى إذا أردنا تخصيص كل مقام بوظائفه جمعنا له ما يناسبه ويختص به، مما لا يقوم إلا به، ولما كان الإسلام أول المقامات، طلب المكلف أولًا به، وبما لا يقوم الإسلام إلا به، فافهم.

ذكر الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله هي المناسبة لحال طالب اتباع السُّنَّة

اعلم: أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو الصلاة على النبي ﷺ بالمناسبة التي بينها وبين حال طالب اتباع السُّنَّة، والموافقة التي يقتضيها اقتفاء آثار الشرع.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ففي تقديم الإخبار بصلاة الله وملائكته على النبي ﷺ قبل طلب الصلاة عليه من المؤمنين: إشارة إلى ثبوت محبة الله والملائكة إياه، وطلب ذلك من المؤمنين، ثم دلوا على ما تحصل به محبته ﷺ، وهي الصلاة عليه، وقال ﷺ: «**أقرب الناس مني مجلسًا يوم القيامة أكثرهم علي صلاة**»[1]، «وهل يكون القرب منه إلا على قدر اتباعه والتزام طاعته، وهل يكون اتباعه إلا على قدر محبته، وهل تكون محبته إلا على قدر ذكره ﷺ».

واعلم أن الله ﷻ أوجب علينا محبته واتباعه، والناس في محبته واتباعه على درجات: فمن ناقص، ومن كامل.

ومن المعلوم أن الذكر يؤكد محبة المذكور، وأن المحبة تؤكد أمر الاتباع للمحبوب؛ فذكر النبي ﷺ وسيلة إلى حبه، وحبه وسيلة إلى اتباعه، واتباعه واجب، ووسائل الواجبات واجبة.

تكميل: الإيمان مرتبط بذكر ومحبة النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - وعلى قدرها يكون كمالًا ونقصًا.

فإذا تقرر هذا؛ فالمحبة تكون بحسب ذكر المحبوب من الإقلال أو الإكثار، أو الغيبة أو الحضور، وقد جاء: «**من أحب شيئًا أكثر من ذكره**»[2]. وكذلك: «**من أكثر من ذكر شيء أحبه**».

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[3].

---

(١) رواه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٥/٢٠٥).

(٢) عزاه السيوطي لعائشة. ورمز له بالضعف، انظر الجامع الصغير: (٣٠/٦) وقال المناوي في فيض القدير: (٣٠/٦): اجتمع عند رابعة علماء وزهاد، وتفاوضوا في ذم الدنيا، وهي ساكتة فلاموها فقالت: من أحب شيئا أكثر من ذكره، إما بحمد أو بذم، وأورده الطوسي كذلك في اللمع، منسوبا إلى سمنون المحب، ص: ٨٦.

(٣) رواه الإمام البخاري (١٤/١، رقم ١٥)، ومسلم (٦٧/١، رقم ٤٤) وفي حديث عند الطبراني =

فإذا حصلت محبة النبي ﷺ في الباطن، وخالطت بشاشتها القلوب، دعت ضرورة إلى اتباع سنته وطريقته بحسب محبته.

ولذلك تأكد أمر الصلاة عليه، لأنها تستلزم محبته، ومحبته تستلزم اتباعه.

قال بعض أهل العلم - رضي الله تعالى عنهم -: «من علامة حب النبي ﷺ كثرة الثناء والصلاة عليه، والدعاء له، واتباع سنته، ومعاداة من خالفه ومحبة من وافقه».

مع ما في الصلاة عليه من سر آخر في اتباعه، وذلك أن اتباعه هو العبادة، ولا بدّ في العبادة من موافقة الباطن بالتصور لها، والقبول عليها، وبذلك يؤكد القيام بها، والعمل بمقتضاها.

فالباعث عليها محله الباطن، وقد يَحجب الباطن عن التصور والقبول - الباعثين على القيام بمقتضى العبادة - ما تراكم فيه من ظلم الأهواء وسحائب الأوهام.

وصل بيان خصوصية الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله في تنوير الباطن

وللصلاة على النبي ﷺ خصوصية في تنوير الباطن، فإذا صلى العبد على النبي ﷺ داخل باطنه منها نور تشرق به أرجاؤه؛ فتذهب الظلم بإشراق ذلك النور، فيظهر للباطن إذ ذاك من الاهتداء للقيام باتباع النبي ﷺ ما كان عنه غائبًا قبل ذلك، فيتجرد الباعث، ويقوى العزم على الاتباع، ويشتد الحرص على الاقتداء؛ فيستقيم عمود الدين، وتشتد عرى العبودية.

ومع ذلك فالسالك طالب طريق النجاة وسبيل المعرفة بالله، ولا مطمع في ذلك

=

والبيهقي: «**لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذاتي أحب إليه من ذاته**» رواه الطبراني في الكبير (٧/٧٥، رقم ٦٤١٦)، وفي الأوسط (٦/٥٩، رقم ٥٧٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/١٨٩، رقم ١٥٠٥).

إلا بدليل، ولا دليل كرسول الله ﷺ، فلا بدّ له من التمسك بركابه والتعلق بأذياله.

وبهذا المعنى يتقرر أن الصلاة على النبي ﷺ مطلوبة في كل مقام ومع كل حال، وسيظهر لك برهان ذلك فيما بعد إن شاء الله، ولا يطمع في كمال اتباعه من قَصَّر في محبته، كما لا يطمع في كمال محبته من قَصَّر في ذكره.

بيان بعض وجوه وجوب محبته صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله

واعلم: أن حبه ﷺ يتأكد علينا من وجوه، أعظمها وأعلاها محبة الله تعالى إياه، إذ من اختصه الله لمحبته العظمى؛ فواجب على كل قلب وروح إخلاص المحبة له؛ ليتألف مع روحه الكريمة، في عالم غيب الغيب؛ لأن: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[1]، وتعارف الأرواح بروحه ﷺ لا يكون إلا بإخلاص المحبة له، وإخلاص المحبة له لا يكون إلا بالإدمان على ذكره، والإكثار من الصلاة عليه.

وفي الاتصال بروحه من الأسرار التي تولج في محل الاختصاص ما لا يدرك بغير ذلك؛ لأن مقامه أرفع المقامات، والمتعلق به يظفر بكل مطلوب ومرغوب؛ فلا يزال صاحب هذا المنزل يصلي على النبي ﷺ، حتى تظهر عليه ثمراتها، وتلوح له أسرارها.

فإن قلت: كيف يكون تناول ذلك، وكم يكون عدد الالتزام منه؟

فالجواب: إن صاحب هذا المنزل، وإن كان قد جاوز منزل التوبة، فلم يخرج بعد عن أهل البداية، أما الكيفية في الوجهة، فقد تقدمت بذكر الشروط والآداب وغير ذلك، فلا إعادة.

---

(١) رواه مسلم (١٣/٨٨)، وأبو داود ٤٨١٣، والطبراني في المعجم الكبير (٦/٣٢٣)، والبغوي في شرح السنة (١٣/٥٧).

وأما كيفية الذكر، فلكل حال من أحوال صاحب هذا المنزل اختصاص بكيفية من كيفيات التصلية، وكيفياتها كثيرة، منها ما جاء عن النبي ﷺ، ومنها ما جاء عن غيره من الصحابة وغيرهم.

ولوالدي ﷺ من كيفياتها شيء لم يسبق إليه، ومع ذلك فلا حصر ولا حد؛ إذ من أحوال السالك ما يعرض؛ فيستدعي كيفية ربما لا توجد، فيدعو الحال إلى تكييف كيفية يكون لها اختصاص بذلك العارض؛ إذ العوارض تختلف إلى قيام الساعة.

لكن ما وجد من تلك الكيفيات النبوية، فيه مناسَبَةٌ لحال السالك، فاستعمالها أولى للبركة المرجوة في ذلك.

والنظر في المناسب من ذلك، وفي عدد اللزوم، مقصور على القدوة، لاختلاف الأحوال والعلل وكثرتها، حتى فاقت الحصر؛ وليحافظ على التماس البركة بإيقاع الذكر في أشرف الأوقات وأشرف البقاع مع الإمكان، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأوقات الفاضلة.

وأما البقاع الشريفة، فأعلاها المساجد، وأقلها مكان طاهر وخال، بعيد عن الشواغل، ومن الأدب أن يتخذ السالك من منزله خلوة تكون معدة لذكره وصلاته.

ولا بدّ في كل حال من استعمال الاستغفار؛ إذ لا تعرو حالة من الأحوال عن سببه: أما في منزل التوبة: فمِن الكبائر، وأما هنا: فمن الصغائر، وفيما بعده فمن الغفلات أو من الخطرات أو من اللحظات، أو من التقصير بسبب الارتقاء في درجات الولاية؛ كل معامل بالاستغفار، وقد قيل: «سيئات المقربين حسنات الأبرار».

وقد يعرض لبعض أهل النهايات حال يلزم فيها الاستغفار من الاستغفار، وسيأتي بيان ذلك كله في موضعه إن شاء الله.

أما صاحب الاستقامة؛ فيلتزم الاستغفار لما بقي فيه من أثر الكبائر؛ فإن الجرح إذا زال عينه لا بدّ وأن يبقى أثره، وللأثر تأثير يلزم العمل على إذهابه، ولما لا يكاد

ينفك عنه من الصغائر، فجدير أن يستعين على محو ذلك بالاستغفار، فهو مرهم كلوم الذنوب، وغاسول أدران التقصير.

❖ فائدة: فيما يبدأ به الورد ويختم:

فليبدأ أولًا بذكر الاستغفار بناء على مقدماته التي خلت في منزل التوبة، ما عدا المقصد، فله هنا مقصد آخر؛ فليذكر من ذلك عددًا يكون سبعين فأكثر، ثم ليدخل بعده إلى ذكر التصلية بالكيفية التي تناسب حاله، عددًا يوافق شأنه، وليبدأ ورده، وليختمه بما قد مضى ذكره من الاستعاذة، والبسملة، والحمد، والشكر، والصلاة والسلام، والدعاء. لا يفارق هذا الترتيب على حال.

وصل

تنوع الأذكار بتنوع الأسماء الإلهية والمحمدية لأنها مفاضة منها

وتنويع كيفيات الأذكار أبدًا، يكون بإضافة اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته، يكون في ذلك الاسم أو الصفة معنى مختص بزوال علة الذاكر، وقد يكون التنويع بأسماء النبي ﷺ وصفاته؛ لأن أسماءه وصفاته أنوار فاضت من حضرة الاختصاص.

وأسرع كيفيات الأذكار فتحًا، وأقربها نجاحًا، ما أعرب عن صريح المناجاة، بكاف الخطاب، أو تائه، أو بالنداء، ونحو ذلك؛ فإن ذلك مما يحرك دواعي الإجابة، لداعي الافتقار الذي يسلك به طريق العبادات.

وليتعاهد نفسه في سائر أوقات ليله ونهاره بالهجيرا، كلما غفل رجع إليه، ويكون الهجيرا كما تقدم: إما ذكر المنزل الماضي، أو ذكر المنزل المأخوذ فيه، أو ذكر المنزل الآتي، منوطًا ذلك كله بالأحوال المفسرة قبل.

ونعني بذكر المنزل، الذكر الغالب عليه، المقصود له؛ لأن الأذكار منها ما هو مقصود، ومنها ما هو لاحق، ومنها ما هو سابق، فأذكار المنازل هي المقصودة لها،

وقد تستتبع غيرها من الأذكار حسب ما تقتضيه الحكمة، مهما كانت كيفية الذكر أجمع معنى وأخصر لفظًا أسرع التأثير، لا سيما لأهل البداية.

وصل وجوب

وليتصور الصورة الكريمة النبوية في مرآة فكره

وليجتهد في إحضار فكره لتلمح معنى الكيفية التي يذكرها، فعلى قدر تدبر المعنى يكون التأثير، وليدافع الخواطر الواردة عليه حال الذكر، المغايرة لمعناه، وليتصور الصورة الكريمة النبوية في مرآة فكره، كأنه بين يديه، سائلًا من الله تعالى الصلاة عليه، وكلما خرج عن هذا المعنى عاد إليه، حتى يستصحبه ولو في أغلب الأحوال. إذ ليس في وسع أهل البداية التجرد عن جميع متعلقات الأفكار الوهمية.

وصل

الصلاة على النبي ﷺ ذكر من ذكر الله تعالى

واعلم أن الصلاة على النبي ﷺ ذكر من ذكر الله، فلا يختلج في فكرك ما يفوه به بعض المحجوبين عن تلمح معنى الشريعة، المطرودين عن تحقيق وجوه العبادات؛ فقالوا: الصلاة على النبي ﷺ ليست من ذكر الله، توطئة على ترك الصلاة على النبي ﷺ، أو استدراجًا للإقلال منها، وهنا - والعياذ بالله - خروج عن دائرة العلم، وإخلاد إلى حضيض الحرمان.

وقد جاء في بعض الآثار أن الله تعالى قال: «يا محمد، من أحبك فقد أحبني، ومن ذكرك فقد ذكرني».

وصل الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله متضمنة ذكر الله تعالى من وجوه

وليست كيفية من كيفيات الصلاة على النبي ﷺ إلا وفيها اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته، فكيف يكون ذاكر اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من

صفاته غير ذاكر لله؟!!

ومع ذلك، فالقيام بالصلاة على النبي ﷺ، قيام بأمر الله تعالى حين أمر بالصلاة عليه، والقيام بالأمر ذكر للأمر، وهل المصلي على النبي ﷺ إلا يناجي ربه، يطلب منه الصلاة على النبي ﷺ؟!!

فقد تضمنت الصلاة على النبي ﷺ ذكر الله من وجوه.

ولمولاي الوالد تأليف اختص بهذا المعنى، بديع المأخذ، جليل الفائدة.

وللصلاة على النبي ﷺ في تنوير الباطن وتزكية النفس عجائب يجدها السالك ذوقًا، سوى ما تضمنته من الأسرار والفوائد.

وقد هممت مرة بحصر فوائدها، فأربت على مائة فائدة، ثم انفتح علي في ذلك باب من الفوائد يعجز عنه الحصر والاستقصاء، وقد أشار مولاي الوالد إلى بعضها في تأليفه المذكور.

فحسب السالك إخلاص القصد في الوجهة إلى الله تعالى بالصلاة على نبيه ﷺ حتى يجني ثمرتها، وتلوح له بركتها، وما هي في جميع منازل هذا الطريق إلا مصباح يهتدي بها، ونور يستبصر به.

ومثل ذلك كبيت فيه أنواع من الذخائر والأعلاق والفوائد النفيسة، وذلك البيت له باب منه يدخل إلى البيت، ومنه يصل الضوء لمن أراد الدخول إليه؛ لينال من ذخائره وأعلاقه، وفي ذلك البيت حيات وعقارب، ولذلك الباب مفتاح؛ فمن تحيل ودخل البيت من غير بابه؛ ليصيب من تلك الذخائر والفوائد لم يبصر منها شيئًا؛ لكون الباب مسدودًا، فلم يكن له عثور على ما أراده من تلك الذخائر إلا بالحس، فربما وقعت يده على حية أو عقرب؛ فلدغته فأهلكته قبل العثور على مطلوبه، ومن عمد إلى المفتاح، ففتح به الباب دخل البيت، فأبصر بضوء الباب ما فيه من الذخائر والعقارب، فأخذ ما أراد، واستمتع بما شاء، وتحفظ من تلك الآفات، حتى سلم منها، ونال بغيته بأمن وسلامة.

فالبيت هو القلب، والذخائر والأعلاق هي أسرار الحقائق، والعقارب والحيات هي العلل والآفات الطارئة على القلب الداعية للفتن، المهلكة بانبعاث

الهوى، والباب هو اتباع النبي ﷺ، والمفتاح هو الصلاة عليه، والضوء هو نورها.

فمن عمر قلبه بالصلاة على النبي ﷺ، اطلع بأنوارها على أسرار حقائق التوحيد، وأبصر مختلفات الآفات، ومن دخل البيت من غير بابه، أفضى ذلك به إلى الكفر والزندقة، فهلك مع الهالكين، والعياذ بالله.

فانظر ما احتوت عليه الصلاة على النبي ﷺ من الفوائد، ومحلها من هذا الطريق. أعاننا الله على توفية الواجب في إيرادها بفضله.

ولا مطمع في درك الحقائق بالترقي إلى حضرة التخصيص لمن أعرض عن ذكره والصلاة عليه، أو تكاسل في ذلك. جعلنا الله ممن أخلص في محبته، وواصل ذكره وظفر بقربه.

مقصد

نية الصلاة على مركز الأنوار

صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله

اعلم: أن مقصد التصلية يختلف باختلاف المنازل، واختلاف أحوال السالكين، أما ما داموا في حال التفرقة مشاهدين لأحوالهم في معاملتهم، فالمقصد في ذلك جارٍ على ما يقتضي المعاملة، وإذا حصل المعنى، لا تشاح في الألفاظ.

ولقد جرى بيني وبين مولاي الوالد يومًا كلام في ثمرة مقصد التصلية على النبي ﷺ، فقال لي: كيف هو المقصد الذي تعقد عليه ذكرك الآن من الصلاة على النبي ﷺ.

فقلت له: «لله أصلي على سيدنا محمد إيمانًا واحتسابًا لله، وتعظيمًا لحق رسول الله ﷺ، وتشريفًا له وتكريمًا».

فقال لي: ألا أدلك على ما هو أجمع وأنفع، وأبلغ في استثمار ثمرة الصلاة على النبي ﷺ؟ فقلت له: وما ذاك؟

فقال لي: إذا قرأت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ

عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فأورد هذا الخطاب على نفسك، فأجب بـ«لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد الضعيف بين يديك يتوجه إليك، بالإجلال لنبيك والتعظيم، والصلاة عليه والتسليم، ويقول: بإمدادك ومنتك، وبما وهبته من نعمتك: اللهم صل على سيدنا محمد...» إلى آخر دور سبحتك، أو إلى آخر وظيفتك من ذلك.

فما هو إلا أن استعملت ذلك، فوجدته يشير إلى حال الجمع بما فيه من التبري عن الأفعال، فضعفتُ عن حمل أعبائه؛ فذكرت ذلك له.

فقال: أضف إليه المقصد الأول، فإذا قلت: «ويقول: بإمدادك ومنتك، وبما وهبته من نعمتك...»؛ فصل به «لله أصلي على سيدنا محمد إيمانًا واحتسابًا لله، وتعظيمًا لحق رسول الله ﷺ، وتشريفًا له وتكريمًا»؛ ففعلت ذلك، فوجدت له أثرًا حسنًا؛ ومن الحكمة وحسن التربية، حمل كل إنسان على ما يقتضيه حاله ويقوى؛ ومتى ضعف السالك عن حمل أعباء ذكر أو مقصد، علم أن ذلك لبقيةٍ بقيت فيه؛ فليقهقر إلى ما يناسبه، ترفقًا وتلطفًا، وليبق عليه شاهده محفوظًا من طوارق الثبات.

والشيخ العارف الرباني أدرى بالأحوال وما يناسبها من الأذكار والمقاصد، وقد تقدم لنا أن الاستغفار مطلوب في كل المنازل؛ لكن تختلف موجباته كما تقدم، فتختلف مقاصده، وإن كان مقصد الاستغفار المأثور عن مشايخ هذا الطريق يعم أحوال مقامي: الإسلام والإيمان، لكن لا يخلو عن بعض إشكال لمن ارتفع عن الكبائر، فيحتاج إلى مؤونة في رد حاله إلى مقتضاه، وتقريب المعاني وأحكام المقتضيات، عون على تحصيل الفوائد وتسهيل المرام.

فإذا توجه للذكر صاحب هذا المنزل، وأراد أن يبدأ بذكر الاستغفار، فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليقرأ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠]، فيورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ«لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، والعبد يعاهدك على لزوم المتاب، عازمًا على ترك الصغائر، ومحو آثار الكبائر»، ويقول بلسان الاعتذار: «أستغفر الله...» إلى آخر الكيفية التي تناسب حاله.

فإذا أتم عدده - من الاستغفار - يستحب له تقديمه بين يدي التصلية، ليهيئ له

محلًّا طاهرًا لورود ورد التصلية عليه، أدبًا مع الجناب النبوي؛ فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب بـ«لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد الضعيف بين يديك يمتثل أمرك في الصلاة على نبيك والسلام، والإجلال له والإعظام»، ويقول بلسان الضراعة: «لك أصلي على سيدنا محمد إيمانًا واحتسابًا لك، وتعظيمًا لنبيك، وتشريفًا له وتكريمًا: اللهم صل على سيدنا محمد...» إلى آخر الكيفية التي تناسب حاله.

وليجتهد في صرف باله وفكره إلى مقتضى مقصده ومعنى ذكره، فإن الألفاظ قوالب المعاني، والسر في المعاني لا في القوالب، وحرام ورود الأسرار على قلب غافل عن تدبر المعاني.

فالمقاصد أساس الأذكار، والأدب حلية الخدام، واللزوم سبب الفتح، ومتابعة السُّنَّة قائد إلى الفلاح، وحرز الأعمال نجاح الآمال، والافتقار داعي الأسرار.

❖ ثمرة نية الصلاة على سيد الوجود صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله انطباع صورته الكريمة في النفس:

اعلم أن ثمرة مقصد الصلاة على النبي ﷺ انطباع صورته الكريمة في النفس انطباعًا ثابتًا متأصلًا متصلًا، وذلك أن المداومة على الصلاة على النبي ﷺ - بإخلاص القصد، وتحصيل الشروط والآداب، وتدبر المعنى، حتى يتمكن حبه من الباطن تمكنًا صادقًا خالصًا توصل بين نفس الذاكر وبين نفس النبي ﷺ، وتؤلف بينهما في محل القرب والصفاء تأليفًا، بحسب تمكن حبه من النفس، فـ«**المرء مع من أحب**»(١)، والحب يوجب الاتباع للمحبوب، والاتباع يؤذن بالوصل. قال

(١) رواه البخاري (٢٢٨٣/٥، رقم ٥٨١٦)، ومسلم (٢٠٣٤/٤، رقم ٢٦٤٠)، وأبو داود (٣٣٣/٤، رقم ٥١٢٧)، والترمذي (٥٩٥/٤، رقم ٢٣٨٥) وقال: صحيح، والطبراني =

الله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، و«**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[1]، فإذا تمكن حب النبي ﷺ من النفس لم تغب صورته الكريمة عن عين البصيرة لمحة، وهي الرؤية الحقيقية؛ لأن رؤية البصر إنما هي لتؤدي حقيقة المبصر إلى عين البصيرة، فيحصل عند البصيرة الاطلاع على حقيقة ما أداه إليها البصر من المبصرات.

ولا شك أن الصلاة على النبي ﷺ، إذا خلص مشربها، سطعت أنوارها في الباطن؛ فصارت النفس مرآة لصورته ﷺ، لا تغيب عنها، وهو العلم اليقيني الذي لا شك فيه، وما قَرَّب السَّند أبعد عن العلم تطرق الظنون، وفرق بين من يروي عن بصره، ومن يروي عن بصيرته.

ومع ذلك، فرؤية البصر ربما داخلتها الأوهام، ورؤية البصيرة الصافية لا وهم فيها ولا خيال، فافهم هذه الإشارة، واعلم حقيقة هذه العبارة.

فصل

طبقات المؤمنين في مشاهدة الصورة المحمدية الكريمة وانطباعها في الأنفس

ثم الناس في انطباع الصورة الكريمة في النفس على طبقات بحسب مشاربهم وأذواقهم في الصدق والحضور:

فمنهم: من لا تثبت الصورة الكريمة في نفسه إلا بعد تأمل وتثبت وإعمال فكر، وهذا أضعف القوم؛ لتعلق بعض البقايا الخاصة بهذا المنزل بالنفس، وهذا قليل

=

(١٢/١٠، رقم ٩٧٨١).

(١) رواه البخاري (١٢١٣/٣، رقم ٣١٥٨) ومسلم (٢٠٣١/٤، رقم ٢٦٣٨)، وأبو داود (٢٦٠/٤، رقم ٤٨٣٤)، وأحمد (٢٩٥/٢، رقم ٧٩٢٢). وأبو يعلى (٣٤٤/٧، رقم ٤٣٨١)، والقضاعي (١٨٥/١، رقم ٢٧٤). وابن حبان (٤٢/١٤، رقم ٦١٦٨).

الرؤية إياه في النوم، وإن رآه فإنما يراه على غير كمال الرؤية.

ومنهم: من تثبت الصورة الكريمة في نفسه أحيان ذكره إياه، لا سيما في الخلوات عندما يتمحض الفكر في معنى التصلية، فإذا فتر غابت عنه، وهذا أنهض من الأول؛ لكن مع بقية فيه مما يقتضيه منزله، وهذا يراه في النوم على صورته الكاملة، راغبًا به عن رؤيته بحسب استصحاب حضوره في فكره.

ومنهم: من إذا سَدَّ عينيه بالنوم، وغاب قليلًا عن الحس، رآه في أغلب أحواله.

ومنهم: من إذا سد عينيه يقظةً أو نومًا، رآه بعين بصيرته، وعلى كل حال، وهم أهل النهايات الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله، حتى رقت نفوسهم إلى فراديس التقريب، وظفروا بمجاورة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

ولا يبعدُ عليك هذا المرمى، ولا يُشكلُ عليك هذا المسلك إذا فهمت سر قوله ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(١).

ووراء هذا ما هو أعلى درجة منه، وهو أن يراه بعين رأسه عيانًا في عالم الحس، ولا تنكرْ هذا، فقد يكرم الله من يشاء من عباده بإقامة صورته الكريمة له حتى يشاهدها، وهذا من جائز الكرامات التي يتحف الله بها أولياءه.

وما يختلف من أحوال رؤيته ﷺ من خفاء ووضوح، وقرب وبعد، وتغيير وتعديل، إنما ذلك راجع إلى حال السالك بحسب قوة الحب وضعفه، واعتدال الاتباع وميله.

وصل

أهل الصلاة على الجناب النبوي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله يعرضون الأحاديث على حضرته عليه السلام

حدثني أبي رضي الله عنه قال: حدثني شيخي أبو القاسم المريد(٢) قال: «كان من جملة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قاسم بن محمد بن يحيى اللخمي اللوشي، أبو محمد، إلا أنه عرف بأبي القاسم، ولقب =

أصحابي الذين أخذوا عني رجل يقال له أبو عبد الله بن الخطيب، بلغ بكثرة الصلاة على النبي ﷺ درجة القرب منه واتصال مواصلته، حتى أن الفقيهين المحدثين كانا إذا اختلفا في الحديث من أحاديث النبي ﷺ، فقال أحدهما: هو صحيح، وقال الآخر: هو ضعيف، أتيا إلى أبي عبد الله بن الخطيب، فيرغبان منه أن يسأل النبي ﷺ عن الحديث المختلف فيه، ثم إنه إذا نام رأى النبي ﷺ، فيسأله عن ذلك الحديث، فيقول له إما: «نعم أنا قلته»، وإما: «لم أقله»، فيعرفهما بذلك؛ فيفيدهما ذلك قوة ظن لما علم من صدق أبي عبد الله بن الخطيب، واشتهر من حاله في العدالة.

وهذا وإن لم يفد قطعًا، فلا يقصر عن تغليب الظن، وكان ﷺ، بحيث لا يتصرف في أمر إلا عن إذن النبي ﷺ. وحدثني أبي ﷺ، عن شيخه أبي القاسم عن شيخه أبي عمران[1] أنه قال في حكاية طويلة: «أيظن أصحاب محمد ﷺ أنهم اختصوا به من دوننا؟ والله لأُزاحمنهم فيه حتى يعلموا أنهم قد خلفوا بعدهم رجالًا»، وهذا إشارة لتمكن وصلته به، بكثرة ذكره، والعكوف على حبه.

❖ نتيجة ثمرة ملازمة الصلاة والسلام على الجناب المحمدي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، وبيان الصفات الحميدة التي تحلت بها النفس:

واعلم أن نتيجة هذه الثمرة، اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة، تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة:

• **الأولى: إيثار محبة النبي ﷺ** عزمًا وإخلاصًا، وذلك ينفي عن النفس العدول عن العمل في اتباعه وهي علة في هذا المنزل.

=

بالمريد لشدة نسكه وزهده، ولد سنة ٥٩٥هـ، وستأتي ترجمته مفصلة عند المؤلف فيما بعد، ولم يذكره صاحب الإحاطة إلا عرضا: ٣/٢٣٩.

(١) الشيخ أبو عمران موسى البردعي من أعيان فاس وأغنيائها في القرن ٧هـ، وهو شيخ أبي القاسم المريد له كرامات ومرويات. جامع كرامات الأولياء للنبهاني - ص: ٣٨٠.

• **الثانية: محبة الأمة لمحبته ﷺ إياهم**، فيستر عيوبهم، ويظهر فضائلهم، ويرعى إخوتهم في الغيب والشهادة، وذلك ينفي عن النفس الحقد والنميمة، والحسد، والغيبة، والبغي، وسائر الإيذاءات الحسية والمعنوية.

• **الثالثة: الرجاء** بحسن الظن بالله تعالى، ثقة بالتعلق بأذيال الشفيع، وميلًا إلى جاهه المنيع، من غير ميل إلى الأمن، إذ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، وذلك ينفى عن النفس اليأس والقنوط الكائنين من إفراط الخوف. إذ ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

• **الرابعة: الحرص** على نيل الإنابة بالسعي على سبيل السُّنَّة بقوة عزم، وصدق توجه، وذلك ينفي عن النفس الكسل عن النوافل، والميل إلى اللهو والباطل.

• **الخامسة: الرعاية**، أعني بها: رعاية الأعمال من شوائب الإخلال القادح في العلم، وذلك ينفي عن النفس نفثات البدعة، ويخلصها من ربقة الضلالة.

• **السادسة: الحرمة**، وهي تعظيم الأمر والنهي؛ تهيبًا لعظيم أمر الشريعة ونهيها، وذلك ينفي عن النفس مد العنق إلى المخالفات والمجاسرات باستسهال المكروهات.

• **السابعة: المحاسبة**، وأصلها إساءة الظن بالنفس: في الخروج عن المحظورات والمكروهات، وذلك ينفي عن النفس الاقتحام فيما لا يعنى، إذ «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**»(١).

• **الثامنة: التحمل**، أصله الصبر عن حمل مشاق الدين؛ التي منها: حسن المعاشرة مع الخلق بحمل أذاهم، وكف الإذاية عنهم، وهو تكميل لبقايا الصفة الثانية، وذلك ينفي عن النفس الجزع الحامل على التورط في لجة الهلك، والداعي

---

(١) رواه أحمد من حديث الحسين بن علي به بلفظ: «إن من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه»، ١٧٣١، وابن ماجه من حديث أبي هريرة به، بلفظ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، ٣٩٧٦.

إلى خصال ذميمة، أدناها إساءة الظن بالمسلمين.

• **التاسعة: الصمت،** صيانة للنفس عن الهفوات التي يتفوه بها اللسان؛ فتهدم مراقي الإنسان، وذلك ينفي عن النفس شتات قواعد الكلام، ويخلصها من العتاب والملام.

• **العاشرة: التواضع في غير مهَوَّنَة،** علمًا بنزارة أمر الدنيا، ودناءة أسبابها، وشَكًّا في ثبوت أعمال الصلاح وقبولها، وذلك ينفي عن النفس رذائل الكبر ونحوه.

• **الحادية عشرة: الشفقة،** التي من أثرها توقير الكبير ورحمة الصغير، وذلك ينفي عن النفس القسوة التي يكون عنها تضييع حقوق الإسلام والمسلمين.

وهذه الصفات قواعد ترجع إليها فروع تناسبها، وكل صفة منها يتعلق بها كلام يؤول إلى التطويل، وقصدنا من ذلك هنا التنبيه على فوائد المنازل ومقتضيات المقامات، وكثرة الرسوم بتطويل الكلام، يعود بشغب الفكر، وبالله التوفيق.

علامة حصول نتيجة ثمرة ملازمة الصلاة والسلام على مولانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله:

وعلامة حصول هذه النتيجة، تدرك من وجوه:

- **منها: المثابرة على الفضائل، وشرف الهمة بالتنزه عن الرذائل؛** تطهيرًا للظاهر، مع ما أمكن من الباطن، حتى إذا تمكن في المنازل، يتمكن في طهارة الباطن إلى أن يستكملها. ومنها المواظبة على أفعال السنن، والحرص على التخلق بأخلاق الشرع، حتى يرى أن جميع ما يصده عن شيء من ذلك - وإن عظم - لا خطر له ولا قدر في جنب ما يثيره العزم من حال الاتباع.

- **ومنها: ملازمة الأدب مع الجناب النبوي ﷺ؛** بإقامة العدل ما بين جنبتي الغلو والتقصير، جامعًا في ذلك بين مراعاة جلاله بالهيبة والتعظيم، ومراعاة جماله بالسرور والمحبة، والمصلي على النبي ﷺ في الحقيقة مشاهدٌ سرَّه بِفِكْرِه، ومباشرٌ روحَهُ بروحه.

فجدير أن لا يفارقه الأدب بملازمة دواعي المحبة؛ فلا يخرق حجاب الوقار

بفتح باب الإدلال، ولا يفل حسام الهيبة بهامة وارد الانبساط.

- **ومنها: تحرك الطباع عند سماع ذكره والتصريح باسمه ﷺ**؛ فيتحرك الباطن حنينًا واشتياقًا، حرصًا على اجتماع شاهد الحس بشاهد المعنى؛ لأن النفس لا تقنع بدون الغاية، فمن الأدب في ذلك سكوت الظاهر بلزوم الوقار كأنه بين يديه، وما أزعج في ذلك من صياح أو حركة جارحة ونحو ذلك؛ فهو نقص لا يخلو عن شوب هوى بسبب ضعف عن حمل أعباء واردات المحبة.

- **ومنها: استحلاء ذكره والتلذذ به ﷺ**، حتى أن بعضهم ليجد الحلاوة ويحسها كأحلى شيء يكون، فتراه لا يكاد يفتر عن ذكره.

- **ومنها: السلوة عن جميع سائر المحبوبات ميلًا إلى الله**، حتى يستحسن جميع مألوفات الشرع في العادات والعبادات، متحليًا بذلك، لا يرى به بدلًا.

ولقد بلغني أن رجلًا - أحسبه ملكًا - كان له ابن محبوب عنده، لم يكن له ولد غيره، فيومًا كان يأكل معه لحمًا بدباء، قال له: يا والدي لا أحب الدباء، والعجب من حب النبي ﷺ إياها، فتغير الوالد لذلك واستقبل ابنه فضرب عنقه على الفور، فصاحت أم الولد، فقال لها: «قبيح بمن يدعي حب النبي ﷺ أن يسامح أحدًا في تنقيص شيء من نظره ورأيه في شي من الأشياء».

- **وأكبر العلامات في هذا المنزل**: شدة المثابرة على حب النبي ﷺ ومتابعته في الحركات والسكنات، فيما قلّ أو جلّ، ولا يخفى على القدوة شيء من علاماته الجلية والخفية، إذ لا ينقله من منزل إلى منزل إلا بعد وضوح علامات تخليص المنزل الذي ينقله عنه، وبالله تعالى التوفيق.

❖ وصية في وجوب حضور الفكر لتدبر معنى الذكر:

وليجتهد صاحب هذا المنزل في حضور الفكر؛ لتلمح معنى الذكر، مضافًا إلى ما يقتضيه المقصد، مستروحًا منه نفحات ثمرته، دافعًا عن فكره جميع الشواغل معرضًا عن جميع الخطرات، مجاهدًا على ذلك مع إمكانه؛ إذ ليس في وسع أهل البداية زائد على ذلك، لكن بالمداومة والمواظبة تضعف الخواطر الردية حتى

تضمحل، وللذكر اختصاص في ذهاب عين ذلك وأثره[1].

❖ وصية أخرى في عدم اشتغال اللسان بغير الذكر:

واعلم: أن ذكر اللسان يشغل عنه الكلام بغيره، مع ما في الكلام بغير الذكر من شتات في الباطن؛ فليقلل من الكلام، وليجعل عوضًا عنه هجيراه دائرًا على لسانه، كلما غفل وتذكر رجع إليه؛ ليحفظ به على نفسه ما نالته من أثر ذكر ورده، ويحرسها به من الأغيار الطارئة عليها، كي تتصل عمارتها، فيقوى التأثير ويتمكن معنى الذكر منها، وقد تقدم لنا سبيل كيفية الهجيرا، فلا معنى لإعادته.

والهجيرا أبواب البواطن يدفع عنها أسباب الغفلات، ويحفظ عليها ما حصل فيها من الحضور، ولا يزال يتتبع سير النبي ﷺ وسننه وأخلاقه، فيجاهد نفسه على التحلية بها؛ ليحصل له صدق الاتباع.

❖ وصية أخرى في عدم ترك المجاهدة:

ولا يترك المجاهدة ما بقيت فيه بقية من هوى نفسه اعتدادًا بمجرد الذكر، فإن المجاهدة كالحمية للمريض، والذكر كالدواء له، ووظائف الدين كالغذاء، ولا شك أن فعل الدواء يكون عند المزج بالغذاء، ولا يزال في سلوكه بين مجاهدة ومكابدة حتى يسهل عليه الصعب ويقرب منه البعيد، وهذا جارٍ في كل منزل. وبالمداومة على ما تضمنه هذا المنزل، يحصل الاتباع الحقيقي الذي لا نقص فيه ولا تقصير، وبذلك يستعين على النفوذ في باقي المنازل، وكل وصف حصل عن ذوق وتربية،

---

(١) قال الواسطي مشيرًا إلى هذا المقام: الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره؛ لأن ذكره سواه يعني أن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضي وجود النفس، وهو شرك والشرك أقبح من الغفلة، هذا معنى قوله: لأن ذكره سواه؛ أي: لأن ذكر اللسان يقتضي استقلال الذاكر، والفرض أن الذاكر محو في مقام العيان. قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور وعن كل شيء سواه، لقوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ [المزَّمل:٨]. وقال القشيري ﷺ: الذكر اندراج الذاكر في مذكوره، واستظلام السر عند ظهوره. إيقاظ الهمم (٦٢/١).

فهو الثابت المتأصل؛ لأنه يصير كالأمور الذاتية، وما يناله الإنسان بغير ذلك، لا يعدم فيه تزلزلًا وتفلتًا وضعفًا واعتلالًا.

ومثاله: كمن صبغ ثوبًا بعد غسله وإنقائه، وانتقاء أصبغته، وتعديل أوزانها، وجرى في صبغه على قوانين أهل الصنعة أولي المعرفة، فلا جرم أن هذه الصبغة تكون ثابتة بهية جميلة، بخلاف من عمد إلى صبغ ثوب فلم يغسله ولم يعبأ بانتقاء أصبغته، ولم يحفل بمقاديرها وأوزانها، ولا سلك سبيل المعرفة في صبغه؛ فلا مرية أن هذه الصبغة تكون قليلة الثبات والبهاء، وربما لم تمض أيام يسيرة إلا وهو قد اضمحل وزال، فشتان ما بين الفريقين، وكذلك من سلك طريق التربية حتى تَخلَّقَ عن ذوق، ومن اقتصر على مجرد العلم، فتَخَلَّقَ بمقتضى طبعه وهواه.

❖ عدة وصايا لا بدّ للسالك منها:

وليجعل وظائف توبته أساسًا؛ فيقيم عليها بناء استقامته، وليورد السنن والفضائل والرغائب على أكمل وجوهها وأتم أحوالها، بعد إقامة الفرائض بوظائفها وشروطها بإمحاض إخلاص القصد فيها، وليواصل الطهارة تكريمًا للذكر وسائر وظائف الخير؛ وليجعل أكثر دعائه للنبي ﷺ، وليسارع إلى المساجد في أوائل أوقات الصلاة حرصًا على أن يكون أول داخل لها وآخر خارج منها، وليحافظ على عوائد النبي ﷺ في أكله، وشربه، ولباسه، وكلامه، ومشيه، ونومه، ويقظته، وغير ذلك من تصرفاته.

وليتجنب الدَّيْن، فإنه شين الدِّين، والحذاق من أهل هذا الطريق أولوا الحزم فيه، لا يسامحون أنفسهم في الدَّيْن، ولا يترخصون بما فعله بعضهم ممن غمره بحر اليقين، فاستدان، مستندًا في ذلك إلى قوة يقينه ورسوخ إيمانه؛ بل اكتفوا بمضمن قول النبي ﷺ: «**صلوا على صاحبكم**» [1] يعني الميت الذي كان عليه دين.

وقد كان الشيخ أبو عمران ﷺ، لا يأكل طعام الشيخ أبي القاسم، لما علم أنه

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. ١٦١٩/١٤ وأحمد من حديث زيد بن خالد الجهني، ٢١٦٦٥ والترمذي، ١٠٧٥، وقال: حسن صحيح، والدارمي: ٢٦٣/٢، كلاهما من حديث أبي قتادة، وابن ماجه من حديث أبي هريرة. ٢٤٠٧.

كان عليه دين، حتى قضاه، وكان يقول له: «دينك أولى عليك، فاجتهد في قضائه».

وفَرقٌ بين حال من لا تفارقه الأوهام، وبين من يستمد من بحر اليقين ثقة بضمان القدوة، ولينفق كما أمره الله تعالى، إن كان ذا سعة؛ فمن سعته، وإن كان مقدورًا عليه؛ فمما أتاه الله، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقد رأيت ناسًا يعاتبون علي الدَّيْن، فيقولون: «إنما نأخذه على ذمة الله»؛ فيشيرون إلى ذروة اليقين، ثم بعد ذلك، ربما ضغطهم الدَّيْن؛ فتبدو عليهم شواهد التلوين، ولعل ذلك يذهلهم عن الفرائض فضلًا عن النوافل، والمقصود خلاء الفكر عن جميع ما يشغل عن معنى الذكر؛ ولا شاغل كالدَّيْن.

وليبسط وجهه بالقبول للمسلمين، قريبهم وبعيدهم، مع سلامة الصدر والتحفظ والتيقظ، وقد كان رسول الله ﷺ يتحفظ من الناس ويتحذر منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه والرحم مؤكدة الصلة، فليواصل صلتها، ولو بتعاهد الزيارة، وإفشاء السلام.

وليسع في طلب الحلال جهده، فهو مصباح باطنه، وإن كان صاحب دنيا، فليعمل على محو الميل إليها من باطنه، بترك الرغبة فيها، والإعراض عن الهلع والحرص على التكاثر، وليثابر على صدقة التطوع زيادة على الزكاة الواجبة؛ ليجاوز حد البخل.

وإن كان ذا فقر، فليرض بما قسم الله له، ولا يستعجل الرزق؛ فيطلبه من غير وجهه، وليعلم أن الله تعالى قد اختار له ما اختار لنبيه ﷺ من الفقر، واختصه بخلاء السر في الدنيا، وتخفيف الحساب في الآخرة، وليتبع الحوبة[1] التوبة، وليمحها بالاستغفار، وليطلب العلم النافع الذي لا تحصل له الاستقامة إلا به، فقلما يستقيم عمل دون علم، وليتجاف عن العلوم التي ضرها أقرب من نفعها، وليقلل الخلطة، وليقصر على صحبة الأخيار الذين تدعوه إلى الله أقوالهم وأفعالهم، والعمل اليسير

---

(١) الحُوْبُ: الإِثْمُ الكَبِيرُ، والحَوْبَةُ: مِثْلُها. وأَحْوَبَ الرَّجُلُ: جاء بالحُوْبِ، وحابَ يَحُوْبُ حِيَابَةً وحَوْبًا وحُوْبًا وحابًا: أي أثِمَ، وتَحَوَّبَ تَحَوُّبًا، وتَحَوَّبَ الرَّجُلُ: أَلْقى الحُوْبَ عن نَفْسِه. المحيط في اللغة (١/٢٥٦).

مع حرزه وحياطته، خير من العمل الكثير مع تضييعه.

وبتحصيل هذا المنزل يقرب مرام ما بعده من المنازل، فإنه الأساس الذي عليه بناء طريق السالكين، والقطب الذي عليه تدور أفلاك مقامات الدين، ولم يحجب أكثر الخلق إلا بما نالوه من تضييع لبعض وظائف هذا المنزل؛ فشُدّ عليه يد الضِّنَّة واسع إلى توفية وظائفه وشروطه، تُشرِفُ منه على بحابيح الاختصاصات والعنايات، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المنزل الثالث من مقام الإسلام

منزل التقوى

اعلم جعلني الله وإياك من خلصاء أهل التقوى، وسلك بي وبك على منهاجه الأرضي وسبيله الأهدى:

أن هذا المنزل هو نهاية مقام الإسلام، وهو التقوى. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]، والتقوى أول درج من أحوال الرعاية، قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣]، ومن كان الله معه صَحِبَتهُ الإعانة وسهل عليه المرام.

والتقوى سبب في صلاح الأعمال، قال الله تعالى: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٧١]، ومن صلح عمله زَكت أحواله.

والتقوى وسيلة في القبول. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: «**جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أوصني. قال: عليك بتقوى الله، فإنه جامع كل خير**»[1].

والتقوى في اللغة: من الاتقاء، مأخوذ من وقاية الشيء.

وهي في الشرع: «التحرز والتحذر من مواقعة المخالفات»، وذلك أن التائب في أول الإسلام حظه حفظ الحدود، بالإقلاع عن المحرمات، والقيام بالواجبات، والمستقيم في تمكين الإسلام حظه التلبس باتباع النبي ﷺ في جميع العبادات، والمتقي في نهاية الإسلام حظه القيام بمعاملة الله تعالى بطاعته توقيًا من واردات

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة باختلاف في اللفظ، ٣٥٠٨، وقال: حديث حسن.

العقوبات، فلا يتم له مقام الإسلام إلا وعنده مذاق من معاملة الله تعالى بالتوجه إليه، وبعبادته أمرًا ونهيًا؛ ليرد على منزل الإخلاص أول منزل من منازل مقام الإيمان، وعنده في معاملة الله تعالى ما يسهل عليه به مرام الإخلاص، وتتقعد به قاعدة التوحيد.

❖ من كلام العارفين بالله تعالى في الوقوف على حقيقة التقوى:

قال بعض العارفين: «التقوى: قاعدة النعوت والصفات، وبها تحفظ الظواهر والبواطن من الممنوعات والشبهات».

وقال النوري[1] - وقد ذكرت بين يديه التقوى -: «عند الصباح يَحمد القوم السرى، وعند الممات يحمد القوم التقوى»، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

ورأيت لبعض الناس كلامًا في التقوى معناه أن الناس ثلاثة أقسام:

«رجل تلبس بالذنوب والمعاصي ولم يقلع، فذلك هو الفاجر.

ورجل قارف الذنوب والمخالفات، ثم أقلع عنها وندم، فذلك هو التائب.

ورجل حصل عنده من يقين التوحيد ما صده ووقاه عن الوقوع في المعاصي والتبعات، فذلك هو التقي. أشار هذا القائل إلى أن التقي لا يكون متلبسًا بذنب؛ إنما من تحفظ من الذنوب، ولم يتقدمه تلبس بها، بخلاف التائب الذي أقلع بعد المقارفة والملابسة.

وفي هذا نظر؛ لأن عموم معنى التقوى يشمل الصنفين معًا، وقد قال النبي ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[2]، فصارا معًا في التحفظ والتوقي من الذنوب بما حصلا عليه من معنى التوحيد سيَّيْن[3]، والتقوى لها عموم يشترك فيه جميع

---

(١) أحمد بن محمد أبو الحسين النوري الزاهد، شيخ الصوفية، يقال أنه كان أعلم أهل العراق بلطائف القوم، صحب السري السقطي، وكان الجنيد يعظمه، قدم الشام وأخذ عن أحمد بن أبي الحواري، توفي سنة ٢٩٥هـ. (الطبقات الكبرى: ١/ ١٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه ٤٣٣٩ من حديث أبي عبيدة بن عبد الله عن أبيه، والبيهقي في السنن الكبرى: ١٠١٥٤.

(٣) أي: متساويين

المقامات؛ لكن المراد بها هاهنا ما وقعت إليه الإشارة.

❖ بيان أقسام التقوى:

سمعت والدي ﷺ يقول: «التقوى ثلاثة أقسام:

فتقوى أهل مقام الإسلام: حراسة الجوارح من العصيان، اتقاء سخط الديان.

وتقوى أهل مقام الإيمان: حراسة الباطن من العدوان، ابتغاء مرضاة الرحمن.

وتقوى أهل مقام الإحسان: حراسة السر مما سوى الله مع الأنفاس.

وفي كل منزل تقع الإشارة إلى ما يخصه من ذلك بفضل الله سبحانه.

فتقرر إذن أن التقوى في نهاية الإسلام هي: «حراسة سبيل العبادة بما يقتضيه التوحيد، ميلًا إلى طاعة الواحد الحق - من الميل عن مخالفته»، فتكون بذلك تهيئة في الباطن لما يرد عليه من مقام الإيمان من أسرار التوحيد، وذلك كالحمية الصالحة لأخذ الدواء، إذ قد ينبغي أن يستعد بطهارة الباطن من أدناس المخالفات، تنزهًا وترفعًا لما يرد عليه من أسرار التوحيد المؤذن بخالص العبودية.

فصل

في بيان شروط التوبة وآدابها

واعلم أن للتقوى في هذا المنزل شروطًا وآدابًا:

* **أما شروطها فأربعة:**

الأول: الإعراض عن جميع المخالفات رأسًا، بالباطن والظاهر؛ تنزهًا عنها وترفعًا إلى ما قصده من حضرة العبودية، باستحضار الفكر في معنى الربوبية، والحذر من فضيحة السؤال على رؤوس الأشهاد.

الثاني: الإعراض عن جميع أسباب المخالفات؛ إذ للسبب حكم مسبِبُه، كمواضع الفتن ومراتع الشهوات، ومؤالفة أهل التضييع.

الثالث: مواصلة الطاعات؛ فهي المجن الواقي من الخذلان والحرمان. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أطيعوه حق طاعته»، وقال مجاهد: «معناه: أن يطاع فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر»[١].

الرابع: إمحاض القصد في التقوى لله تعالى؛ لأن بواعث التقوى تختلف، ولا تأثير لما كان منها لغير الله تعالى، ولا يستقيم عمود التقوى إلا بإمحاض القصد في عقد أمورها للواحد القيوم؛ لأن المقاصد هي الأسس التي يقوم عليها بناء حائط الوجهة إلى الله تعالى.

وأما آدابها فأربعة:

الأول: التحفظ من الشبهات، وهي: «الوسائط المُشكَلة التي بين طرفي الحلال والحرام»، وهي حمى الحرام، والراتع في حمى الحرام وشيك بالحرام؛ فالاحتياط

(١) قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات»: مقام تقوى الله مكتسب للعبد ولهذا أمر به وهكذا كل مأمور به فهو مقام يكتسب ولهذا قالت الطائفة: إن المقامات مكاسب والأحوال مواهب، والتقوى الإلهية على قسمين في الحكم فينا أي انقسم فيها الأمر قسمين: قسم أمر الله أن نتقيه حق تقاته من كوننا مؤمنين. وقسم أمرنا فيه أن نتقيه على قدر الاستطاعة، وما عين في هذا التكليف صفة تخص بها طائفة من الطوائف مثل ما عينها في ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وإن كان المؤمنون قد تقدم ذكرهم فأعاد الضمير عليهم، ولكن مثل هذا لا يسمى تصريحًا، ولا تعيينًا فينزل عن درجة التعيين فيحدث لذلك حكم آخر فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ابتدأ آية بفاء عطف وضمير جمع لمذكور متقدم قريب أو بعيد، فإن المضمرات تلحق بعالم الغيب والمعينات تلحق بعالم الشهادة؛ لأن المضمر صالح لكل معين لا يختص به، واحد دون آخر فهو مطلق، والمعين مقيد. فتقوى الله حق تقاته هو رؤية المتقى التقوى منه، وهو عنها بمعزل ما عدي نسبة التكليف به، فإنه لا ينعزل عنها لما يقتضيه من سوء الأدب مع الله، فحال المتقى لله حق تقاته كحال من شكر الله حق الشكر، وهذه الآية من أصعب آية مرت على الصحابة وتخيلوا أن الله خفف عن عباده بآية الاستطاعة في التقوى، وما علموا أنهم انتقلوا إلى الأشد، وكنا نقول بما قالوه، ولكن الله لما فسر مراده بالحقية في أمثال هذا هان علينا الأمر في ذلك، وعلمنا أن تقوى الله بالاستطاعة أعظم في التكليف، فإنه عزيز أن يبذل الإنسان في عمله جهد استطاعته لا بدّ من فضلة يبقيها، وفي حق تقاته ليس كذلك، وعلمنا أن الله أثبت العبد في الاستطاعة، فلا ينبغي أن ننفيه عن الموضع الذي أثبته الحق فيه، فإن ذلك منازعة لله، وفي حق تقاته أثبت له النظر إليه في تقواه، وهو أهون عليه فما كان شديدًا عندهم كان في نفس الأمر أهون، وعند من فهم عن الله، وما كان هينًا عليهم كان في نفس الأمر شديدًا. الفتوحات المكية (٣/٢٤٣).

للدين - في معاملة رب العاملين - التنزه عن المشكلات، فذلك أبرأ للذمة وأقرب للسلامة والنجاة؛ إذ لعل العاقبة تنكشف في ذلك عن العقول. قال النبي ﷺ: «**الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَقِعَهُ، ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَلا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ**»(١).

ومن هذا القبيل ما روي عن ابن سيرين(٢) من أنه: كان له أربعون جبًّا مملوءة سمنًا فأخرج غلامه من أحدها فارة، فسأله: من أي جب أخرجها؟ فأشكل عليه، فصبها كلها.

وكان بعضهم لا يجلس إلى ظل شجرة غريمه، ويرى ذلك انتفاعًا بمال المداين.

الثاني: التحفظ من فضول الحلال، في الأكل، والشرب، واللباس، والكلام، والسعي، والبطش، وغير ذلك، وروي أن النبي ﷺ قال: «**إنما سُمِّيَ المتقي متقيًا لتركِه ما لا بأس به حذرًا مما به البأس**»(٣) كما روي أن أبا يزيد دخل يومًا الجامع، فغرز عصاه في الأرض، فسقطت ووقعت على عصا شيخ كانت إلى جانبها، فسقطت عصا الشيخ إلى الأرض؛ فلما قام الشيخ منصرفًا انحنى حتى أخذ عصاه فانصرف، فمضى أبو يزيد لدار الشيخ فاستحله، وقال: كنت السبب في انحنائك لأخذ عصاك.

الثالث: سلوك الاعتدال في سبيل التقوى من غير تفريط ولا إفراط؛ لأن التفريط

---

(١) رواه الإمام البخاري (٢٨/١، رقم ٥٢)، ومسلم (١٢١٩/٣، رقم ١٥٩٩)، وأبو داود (٢٤٣/٣، رقم ٣٣٢٩، رقم ٣٣٣٠) أحمد (٢٧٠/٤، رقم ١٨٣٩٨)، والترمذي (٥١١/٣، رقم ١٢٠٥) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٢٤١/٧، رقم ٤٤٥٣)، وابن ماجه (١٣١٨/٢، رقم ٣٩٨٤)، والدرامي (٣١٩/٢، رقم ٢٥٣١)، والبيهقي (٢٦٤/٥، رقم ١٠١٨٠).

(٢) ابن سيرين: أبو بكر محمد الأنصاري البصري، مولى أنس بن مالك، كان من سبي جرجرايا، أدرك ثلاثين صحابيًّا وسمع منهم، كان إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، واشتهر بالورع وتعبيرًا لرؤيا، توفي سنة ١١٠هـ (ترجمته في طبقات ابن سعد: (١٩٣٢٠٦/٧).

(٣) رواه ابن ماجه من حديث عطية السعدي، بنحوه، رقم ٤٢١٥.

تقصير، والإفراط غلو، فلا يفارق في تقواه ميزان الشرع ومعيار السُّنَّة وحدود العلم.

وقد شدَّدَ بعض الناس في استعمال التقوى حتى جاوزوا الحد المراد، إما جهلًا، وإما غلبه وسواس، وتراخي آخرون في ذلك حتى قصروا عن المقصود جهلًا أو ترخصًا.

وحدقة إنسان التقوى هي: «صفاء الباطن» مما عسى أن يكون قد علق به من آثار المخالفات، «**فالإثم ما حاك في النفس**»[1]، ومتى سُومح الباطن في شيء مما يحبس في الباطن - من القوادح بشيء من الرسوم العامة، عدولًا عما يقتضي التخصيص ونحو ذلك - فآثار المخالفات باقية، وهي قادحة في الورود على مقتضى التوحيد، مخلدة عن العثور على فوائد الإخلاص، والموحّد أخو الموافقة.

الرابع: التستر بذلك وسع الإمكان؛ ليسلم بذلك من أمرين أحدهما: الرياء، والثاني الوقوع فيه؛ للخروج عن مألوف العامة من الترخص، وله في التورية متسع حين يعدل عن الفضول، ويترك المشتبهات التي لا يعلمها كثير من الناس؛ فظاهره بذلك يوقع غيره في حيرة مما لا يعلمه، ويفتح له باب الاعتراض والجدال، إذ ليس كل الناس يفهم فقه الورع، ولا كلهم منصف، والسالك عامل أبدًا على حفظ باطنه وباطن غيره مما يوجب المقت.

فإن قلت: لقد أكدت أمر هذا المنزل، وأطنبت في تبيينه، وما كنت أظن إلا أن التقوى من وظائف منزل التوبة.

فالجواب: أن أمر التقوى صعب المرام؛ لأنها حافظة لما تقتضيه التوبة والاستقامة من أمر العبودية من شوائب الفساد، ولكثرة تشعب أمور الفساد، واختلاف موارده، احتاجت التقوى إلى يقظة دائمة وفطنة صحيحة متصلة، وقوة صادقة إيمانية في مدافعة خطرات الشيطان، واجتناب خطواته؛ لأن الإنسان بملابسة العوائد وغلبة الهوى تسترسل الطباع مع مألوفاتها، فلا يوقظها إلى النظر في الصلاح والفساد منها إلا فطنة تبعث الحذر، وتُحدُّ النظر وتصفِّي الفكر، وما هو إلا كالماشي

---

(١) من لفظ حديث رواه مسلم من طريق النواس بن سمعان ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» (٢٥٥٣).

في الماء يطلب التحفظ من بلله! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وذلك أن النفس تخدع بموافقة العادات، وتستفز بميل الطباع إلى الشهوات؛ فلا بدّ وأن يكون الباعث على مدافعة المكروه من ذلك - عن النفس - مادة إيمانية، وقوة يقينية يدرأ بهما في نحر الشيطان، ويفل بهما حسام الخسران، وينفي بهما طوارق العدوان، والنفس قد تتحمل المشاق العظام من وظائف العبادات ولا تتحمل ذرة من الخروج عن هواها؛ ولذلك كان الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الطاعة.

فالتقوى جامعة لخيرات كثيرة في الدنيا والآخرة حسب ما تضمنه الكتاب والسنة، وفيما ذكرته غنية عن استقصاء جميع ما يتعلق بالتقوى، وبالذكر تنال غايتها وتدرك ثمراتها، وبالله التوفيق.

ذكر
منزل التقوى هو التهليل

اعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو التهليل، فقد علمت أن التقوى ولوج لأول أبواب العبودية، وأول قدم من أقدام المعرفة، وأول جرعة من مذاق التوحيد، والتوحيد هو الباعث على القيام بما يرضاه الواحد الصمد من حفظ وظائف الدين من طوارق الفساد وعوارض الشتات، باتحاد الوجهة له؛ فلا بدّ وأن يكون الذكر مناسبًا لهذا المعنى، فالذي يحرك الباطن للانبعاث إلى التوحيد الذوقي هو التهليل.

ولا بدّ لنا هنا من ذكر مقدمة تشرق من جنباتها أشعة أنوار معاني التوحيد؛ توطئة لما يأتي بعد، فأقول معتصمًا بالله:

بيان أقسام التوحيد الثلاثة

إن التوحيد على ثلاثة أقسام: تقليدي، ونظري، وذوقي.

❖ أولًا التوحيد التقليدي:

أما التقليدي، فهو الظاهر الجلي الذي يقي من الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة، وحقنت الدماء والأموال، وصحت به الملة للعامة، وإن لم يقوموا بحق الاستدلال؛ إذ ليس في وسع كل إنسان الاهتداء لطريق النظر والاستدلال، لاختلاف الفكر وتباين الطباع، لا سيما لأول وهلة، وقد كان الداخلون في الإسلام من الأعراب وغيرهم على عهد رسول الله ﷺ يدخلون في الإسلام، فيحسبون من أهله لمجرد التقليد، ثم لا يزالون يباشرون أحوال الدين ووظائف الإسلام، ويعملون بها حتى تستمكن بشاشة الإيمان من قلوبهم؛ فيقوى إيمانهم ويرتص بناء توحيدهم، فهذا النوع من التوحيد أقل ما يجزي لأهل التوبة، وإن فتح لهم في زائد عليه، فهو أحسن وأكمل.

❖ ثانيًا التوحيد النظري:

وأما النظري، فهو ما يحصل من اليقين عند النظر في المخلوقات فيستدل بها على الخالق، وفي المصنوعات فيستدل بها على الصانع، وفي المحدثات فيستدل بها على القديم، بتحقيق جواز الجائز ووجوب الواجب، واستحالة المستحيل، بقوانين علمية ومقاييس عقلية، تفيد القطع بوجود الباري تعالى وصفاته وأفعاله، ثم لا يدخله في ذلك تشكيك ولا احتمال.

وليس من شرط هذا النوع من التوحيد إفصاح لسان كل أحد ممن يدعيه بحجج المناظرة على صحة ذلك، ولا تجويد العبارة عن حقائقه؛ إذ ليس كل إنسان يقدر على الوفاء بالتعبير عن المعاني القائمة في نفسه.

وهذا النوع من التوحيد أقل ما يجزئ لأهل الاستقامة؛ لأنهم قد أعذر لهم بما زاولوه من أمور الدين، ووقفوا عليه من آثار الشرع، وباشروه من وظائف السنة، مع ما واصلوه من محبة النبي ﷺ وذكره، والصلاة والسلام عليه، حتى قام لهم من ذلك نور ينشرح له الصدر لتدبر العبر، والاهتداء لطرق الاستدلال والنظر، ولا شك أن العقل تشحره وتجوهره وتصفي مرآته أعمال الطاعات، ووظائف العبادات، حتى

يهتدي بذلك إلى سبيل النظر والاستدلال.

❖ ثالثًا: التوحيد الذوقي وله سبع مراتب:

وأما الذوقي فله سبع مراتب:

• **المرتبة الأولى:** تفيد حسن الاهتداء بالباطن؛ لنيل مذاق يفيد الزيادة في مادة ما أفاده النظر والاستدلال من ثلج اليقين في التوحيد القطعي، وتختص هذه المرتبة بمنزل التقوى؛ لأن التقوى كما قلناه: «تنزيه القلب عن الذنوب بملاحظة حق الله تعالى»، فكلما خطرت بباطنه همة شيطانية، تذكر ما لديه من أمر العبادة، فظهر له بنورها أن معبوده واجب أن يطاع، فلا يُعصَى، فيطرد بذلك عن باطنه جميع واردات الشر؛ فيذهب عنه بذلك من الكدرات التي تحجب عن استبصار الحقائق، ما يفيده ذهابها زيادة من ثلج اليقين، وقوة في نور التوحيد؛ فهو بما حصل عنده من ذلك مستغنٍ عن مؤونة النظر والاستدلال، ومنزّه عن معرة[(١)] التقليد.

• **والمرتبة الثانية:** تفيد تحصيل بداية توحيد الأفعال، وتختص بمنزل الإخلاص أول منازل مقام الإيمان.

• **والمرتبة الثالثة:** تفيد تحصيل نهاية توحيد الأفعال، وتختص بمنزل الصدق ثاني منازل مقام الإيمان.

• **والمرتبة الرابعة:** تفيد تحصيل بداية توحيد الصفات، وتختص بمنزل الطمأنينة ثالث منازل مقام الإيمان.

• **والمرتبة الخامسة:** تفيد تحصيل نهاية توحيد الصفات، وتختص بمنزل المراقبة أول منازل مقام الإحسان.

• **والمرتبة السادسة:** تفيد تحصيل بداية توحيد الذات، وتختص بمنزل المشاهدة ثاني منازل مقام الإحسان.

• **والمرتبة السابعة:** تفيد تحصيل نهاية توحيد الذات، وتختص بمنزل المعرفة ثالث منازل مقام الإحسان، ونهاية كل مرتبة تشترك مع بداية المرتبة التي تليها.

---

(١) المعرة: الجناية والإثم، وكل ما هو مكروه.

ونعني بتوحيد الأفعال: «العثورَ على ما تقتضيه أفعاله تعالى من سر التوحيد».

وبتوحيد الصفات: «العثورَ على ما تقتضيه صفاته تعالى من سر التوحيد».

وبتوحيد الذات: «العثورَ على ما تقتضيه ذاته المقدسة من سر التوحيد».

واعلم: أن الله تعالى حجب ذاته المقدسة بصفاته، وحجب صفاته العلية بأفعاله، وحجب أفعاله الجميلة بمألوفات طباع الإنسان، وقد أفصح بهذا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما حين تكلم في التوحيد فقال: «حجَبَ الذات بالصفات، وحجَبَ الصفات بالأفعال»، فبقدر ما يخرج الإنسان عنه من مألوفات طباعه، يبدو له من حقائق توحيد الأفعال، وبقدر ما يحصل عليه من توحيد الأفعال يظفر به من أسرار توحيد الصفات، وبقدر ما يلوح له من أنوار توحيد الصفات، يشاهد من عجائب توحيد الذات.

وذِكْرُ غاية ذلك إنما هو بنسبة أقصى ما يحمله عقل الإنسان؛ لأن أسرار التوحيد لا غاية لها ولا نهاية، فهي تستغرق العقول، وتكتنف الأذهان، وتقطع نياط مجال الأفكار.

● **ضرب مثل لحال الخلق في توحيد الحق سبحانه وتعالى:**

وأضربُ لك مثلًا - لما تقدم من مراتب التوحيد، وهو - «أن ملكًا ضخم المملكة، عظيم الشأن، باهر الصفات، جميل الأفعال، له حضرة بديعة العجائب كثيرة الأعلاق والذخائر، يعمرها من اصطفاه - من عبيده - لنفسه واختاره لأسراره؛ فأراد هذا الملك أن يتعرَّفَ لمن في بلاده وتحت إيالته من عبيده وأصناف رعيته؛ ليقوموا بوظائف خدمته؛ فينالوا من إحسانه، فوجّه لهم من خواص عبيده من عَرَّفهم به، وقرر لديهم من أوصافه وأفعاله ما يرغب في خدمته والتعرض لمعرفته، وأقام هذا الملك مبنى عظيم الهيئة، حسن الوضع، بهي المنظر، جميل الأوصاف، يعلم جميع من يراه بتأمل وتدبر بما احتوى عليه ذلك المبنى من العجائب، ما هو عليه مالكه من عظيم الشأن وجميل الصفات، ونصب من هذا المبنى طريقًا سالكة تفضي إلى حضرته، ووكَّل به من خواص عبيده من يعرف هذا الطريق بما احتوى

عليه من مناهل، ومراحل، وعقبات، وقُطَّاع، وآفات؛ ليدلوا من أراد الوصول إلى حضرة الملك على هذا الطريق، وجعل في كل مرحلة بابًا يشرع إلى رياض من رياضات الملك، محتوٍ على صنوف من العجائب، معدٍّ لنزول المسافرين على هذا الطريق، فيه يستريحون ويتنزهون، ومنه يتزودون إلى المرحلة التي يقدم عليها المسافر بعد ذلك، فهو يجدّد الزاد من رياض منزل إلى رياض المنزل الذي يتلوه، والملك مشرف من حضرته، لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته وعبيده.

فمنهم: من سمع تعريف أولائك الخواص بالملك، فلم يعرج عليهم ولا قَبِلَ منهم؛ استغراقًا فيما هم فيه من العمل لأنفسهم.

ومنهم: من سمع خطابهم، وعقل تعريفهم، فصدّقهم ثقة بأمانتهم ومعرفتهم، ولم ينظر فيما وراء ذلك.

ومنهم: من صدّقهم؛ لكن نظر في ذلك المبنى الذي علم أنه ملكُ الملك وصنعه، وتفكر فيما احتوى عليه من العجائب؛ فحصل له بذلك زيادة يقين، ومعرفة بالملك، وما هو عليه من الصفات التي يشهد لها ذلك المبنى، ولم ينظر فيما وراء ذلك.

ومنهم: من حصل عنده ما حصل عند الرجلين بالوجهين المذكورين، لكن حمله شرف الهمة وقوة العزم على أن يسعى كي يدرك الغاية من معرفة هذا الملك؛ فسأل هل له إلى حضرته من سبيل، فدُلَّ على ذلك الطريق، فتعلق بدليل من أولائك الخواص ليدله بذلك الطريق على حضرة الملك؛ ليتصل بغاية معرفته، فينتظم في سلك خواصه وأحبابه في حضرته، فشد حزامه، وأزمع رحله، ورافق ناسًا في السفر إلى الحضرة، كلهم متعلق بهذا الدليل الذي يهديهم، ثم سافروا: فمنهم من أعرض عن دليله واستبد بنظره وخاض في السفر برأيه، فما هو إلا يسير حتى تعرض له أسد أو لص أو غير ذلك من الآفات، أو أغمي عليه في الطريق حتى انقطع به دون الرفقة.

ونهض الباقون مع دليلهم في السفر إلى الحضرة، كلهم متعلق بهذا الدليل الذي يهديهم، فنزلوا في المرحلة الأولى في رياض الملك ليتنزهوا ويستريحوا ويتزودوا:

فمنهم: من اشتغل في ذلك الرياض - بالنظر في ظلال مبانيه وأشجاره - عن أن ينظر في عجائبه، أو يتزود من ثماره، حتى نهض أصحابه وخلّفوه.

ومنهم: من زاده ما نظر فيه من عجائب ذلك الرياض يقينًا في معرفة الملك، وحرصًا على لقائه، ورغبة في الورود على حضرته، وعلم أن الزاد ضروري له في بلوغه الحضرة؛ فتزود ولازم الدليل.

فلم يزل المسافرون يتخلفون في كل منزل، حتى لم يبق مع الدليل إلا الأنجاد والأكياس، الذين حصل عندهم بما شاهدوه في رياض كل منزل قوة اليقين في معرفة الملك، وشدة الحرص على الانتظام في خلصائه في حضرته، حتى إذا أشرف على باب الحضرة، أطرف من صفات الملك ما مَلَكَ قلبه، فلم يستطع عنه اصطبارًا ولا آثر عنه قرارًا، فجدَّ في السير ملازمًا الدليل، حتى إذا دخل باب الحضرة، واطلع على عجائبها وذخائرها، وأبصر باهر صفات الملك، استغرق في حبه لما حصل عنده من معرفته، فحين حصل في الحضرة انتظم مع خلصاء الملك، فهو معه لا يفارقه مدى الأحيان، ومن شأن هذا الملك أن يتولى من تولاه، ويعطف على من أتاه، ويستخلص من حصل في حضرته، حتى لا تكون منهم حركة ولا سكنة إلا بإشارته وإمداده، فعنه ينطقون، وبه يتحركون ويسكنون، ومنه يصدرون، وإليه يرجعون، وعليه يعتمدون».

- زيادة لتوضيح المثل:

فالملك هو الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، والخواص هم: الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وورثتهم؛ والمبنى هو: هذا الوجود؛ والطريق هو: ما اشتملت عليه مقامات الدين، والأَدِلّاء هم: المشايخ الربانيون؛ والمراحل: هي منازل المقامات، والرياضات هي: مراتب التوحيد الذوقي، والزاد هو: ما يختص به كل منزل من وظائف الأعمال.

والطائفة الأولى هم: أهل الكفر والضلالة، **والطائفة الثانية** هم: أهل التقليد، **والطائفة الثالثة**: هم أهل النظر والاستدلال. **والطائفة الرابعة** هم: السالكون

على طريق الأذواق، ثم هم أصناف:

فصنف عدل عن رأي قدوته وشيخه اعتدادًا بنظر نفسه؛ فأحاطت به علله، فانقطع به.

وصنف: اجتهد حتى إذا ما بلغ منزلًا من منازل المقامات، لعب به هواه وشغله ببعض الأوهام عن النفوذ إلى قدام.

وصنف - وهم الأقلون، جعلنا الله منهم - كلما بلغوا إلى منزل من منازل المقامات، واطلعوا على ما اختص به من مراتب التوحيد، قَوِيَ يقينهم واشتدَّ حرصهم، وعَظُمَ عزمهم، فهم منتهضون إلى قدام، رَافِضُوا ما يعرض لهم أو يقطع بهم من الأوهام.

والحضرة هي: ما اشتمل عليه مقام الإحسان، وبابها: المراقبة، والموضع الذي أشرف منه على بعض الصفات: هو الطمأنينة، والحاصلون في الحضرة هم أهل المعرفة، الظافرون بأعلى درجات التوحيد.

وإن كانت المرتبة الأولى من مراتب التوحيد - وهي التقليدية - يحصل عنها اليقين الذي تبرأ به الذمة، ولكن ليس من علم بموجود ما بإخبار المخبرين، كمن علمه بسماع كلامه، ولا من علمه برؤيته إياه من وراء حجاب و- إن كان رقيقًا - كمن علمه برؤيته إياه من غير حجاب، فمراتب العلم تختلف باختلاف أسبابها، وإن كان مطلق العلم حاصلًا بأدناها.

وقد بسطت الكلام في مراتب الإيمان في كتاب: «**التجر الربيح شرح الجامع الصحيح**»، ولم يكن لنا بد من إيراد هذه النبذة هنا؛ لنبني عليها كثيرًا من أصول المنازل وفروعها فيما يأتي بعد بفضل الله سبحانه.

فإذا تقرر هذا، فالذي يختص به منزل التقوى من مراتب التوحيد هو ما يفيد ثلج اليقين الزائد على ما يفيده النظر والاستدلال بأن الله تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد، وبما هو عليه من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ويغلب ذلك على الباطن حتى تتشعشع أنوار ذلك في الباطن، وتثبت قاعدته في النفس، وتلوح دلائله على الظاهر، وتتجلى حقيقته للبصيرة سافرة عن وجه

الدلالات، رافعة حجب الإشكالات والشبهات، موضحة جبين اليقين، ويتمكن ذلك من سويداء القلب تمكنًا لا تقدح فيه التشكيكات، ولا تفله الإشكالات، حتى يصير هذا المعنى قائمًا بالنفس لا يفارقها على حال، ولا يغالط أهل النظر والاستدلال في هذا، فيقولون: قد يتوصل إلى هذا المقدار من التوحيد بالنظر والاستدلال.

كيف؟! وبين أظهرهم الكتب التي فيها من الإشارات إلى بعض الشبه ما حيّرت الأفكار، وشَغَفت الأذهان، فهم يتداولونها عصرًا بعد عصر، كل يقول بما عنده ويحوم حول الحمى، ولا يظفر بالمقصود، وأما هذا الطريق، فتدخل فيه الحقائق على السالك أوضح من الشمس، وأجلى من البدر بلا شك ولا ريب، وليس كل إنسان يقدر على التعبير عما في نفسه كما تقدم.

ولذكر التهليل اختصاص بهذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ومن أكبر الأدلة على أن للتهليل قوة في تثبيت معنى التوحيد في النفس، الدخول في الإسلام به، والحض عليه، وإذا تأملت موارد هذا الذكر من الكتاب والسنة، وجدتها مؤذنة بفتح أبواب أسرار التوحيد.

فإن قلت: قد أشرت إلى أن باقي منازل المقامات تختص بباقي مراتب التوحيد، وأن التهليل يختص بمراتب التوحيد، فيه تستثمر ثمرتها، فهل استعمال التهليل في جميع المنازل يكون على حد سواء؟ أو تختلف ألفاظه باختلاف معاني المنازل؟ فإن اختلفت ألفاظه، فكيف يكون استعماله في هذا المنزل؟

فالجواب: أنه تقدم أن المراد من التوحيد هنا ما ينيل ذوق مبادئ أسرار التوحيد، ليخرج به من معرة التقليد، وليرقى عن شغب النظر والاستدلال، والاعتراض والانفصال، إلى اليقين الذي لا يسع معه تردد ولا تلجلج، وذلك بأن يجني من معنى التهليل ثمرة يستطعم منها أن الله واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، لا يشبه شيئًا، ولا يشبهه شيء؛ أول بلا غاية، وآخر بلا نهاية ﴿لَا

تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، خلق جميع المخلوقات بقدرته التي قهر بها جميع المفطورات، عليم بجميع المعلومات ما دقّ وجلّ، وظهر وخفي، مريد جميع الكائنات على ما هي عليه، لا يجري في ملكه إلا ما يريد، سميع جميع المسموعات وإن خفيت، بصير جميع المبصرات وإن دقت، متكلم بالكلام الأزلي القديم من غير صوت ولا حرف، صفاته أزلية قديمة قائمة بذاته.

وهذا أقل ما يجزئ في سكون الباطن لإفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بنفي الأضداد، والأشباه والأنداد، بلا تشبيه ولا تكييف، ولا تصوير ولا تمثيل؛ فلا يزال يذكر التهليل مشيرًا به إلى إثبات الوحدانية له وسلبها عن غيره، حتى يرسخ معنى ذلك في نفسه رسوخًا ثابتًا لا تزلزله الأوهام، ولا تحل عقده الشبهات، ولا يحتاج معه إلى نظر ولا إلى تأمل، بل تصير كل جارحة وكل شعرة منه ممتزجة بهذا المعنى معربة بحالها عنه، وإذا حصل له هذا، تقعدت له قاعدة تقوم عليها أركان توحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات.

ومهما اختل عليه من هذه القاعدة شيء، أو بقي عليه منها بقية، فلا مطمع له في درك ما وراءها من مراتب التوحيد.

❖ فائدة في بيان كيفيات وصيغ التهليل:

وكيفيات التهليل كثيرة، أنسبها لصاحب هذا المنزل: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**[1]، **محمد دليله ورسوله** ﷺ»، مع أن كيفيات الأذكار إنما هي بحسب أحوال الذاكرين، وأحوال الذاكرين لا تنحصر؛ فإذن فالنظر في المناسب من الأذكار لحال الذاكر راجع إلى نظر القدوة ﷺ، وكذلك يرجع إلى نظره مقدار عدد اللزوم.

وليثابر على إيقاع لزومه في الأوقات الفاضلة، كالأوقات المذكورة أولًا، ولا بدّ

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩١)، وابن ماجه عن عمر بسنده (٣٠٧٤)، والدارمي: (٢/٢٩١) والترمذي (٣٤٨٨). وقال: حديث غريب.

له من ذكر الاستغفار، يستعمل منه عددًا أقله مائة مرة، يبدأ بها أولًا ليطهر به من باطنه محلًّا لما يرد عليه من الذكر بعد ذلك.

ثم يأتي بالصلاة على النبي ﷺ، وليكثر منها؛ فإنها نوره الذي تنقشع به ظلم باطنه، ولا أقل من خمسمائة مرة بكيفية تناسب حاله، كذلك الاستغفار، فللمناسبة التي بين الأحوال والأذكار تأثير قوي في تحلية الباطن وتزكيته، ثم ليأت على إثر ذلك بذكر التهليل، يلتزم منه عددًا يقتضيه نظر قدوته بحسب حاله وقوته وجلادته وعزمه، وليجر ذلك كله على ما تقدم من شروط الذكر وآدابه، لا يفارق شيئًا من ذلك.

بيان

تبعية ظاهر الإنسان لباطنه والعكس

في الحث على القيام بالتكاليف الشرعية

وليعط الذكر حقه من التدبر والتفكر بتلمح المعنى، فهو وإن كان مقامه الإسلامي خاصًا بذكر اللسان، فإن قلبه لا يزال يتابع لسانه من أول منزل التوبة، فلا يصل إلى منزل التقوى إلا وقد تساوت جنبة الباطن وجنبة الظاهر في إيراد الذكر وتدبر معناه، ولا يزال يرتقي شيئًا بعد شيء، وجنبة الباطن تستمد من جنبة الظاهر، فلا يصل إلى آخر مقام الإيمان، إلا وسلطان الحضور قد استولى على قلبه، فبعد أن كان الباطن تابعًا يصير متبوعًا.

ونعني بالتبعية ما يكون من ثقل مؤونة الذكر وخفتها؛ لأن الظاهر هو الذي يتبع الباطن في الانبعاث على العمل على الإطلاق، ولكن تارة تكون المؤونة في ذلك ثقيلة على الباطن خفيفة على الظاهر، وتارة يكون العكس، إذ الأعمال كلها - العرية عن الذهول والغفلة - لا تقوم إلا بإشارة الباطن، فتجده في بعض الأحوال يستصحب مقتضى تلك الإشارة، وفي بعض الأحوال يعطي الإشارة حقها، ثم يغفل عن مقتضاها، فربما قامت الجوارح بالعمل بمقتضى تلك الإشارة، والباطن ذاهل غافل وإلى هذا المعنى الإشارة بـ«ذكر اللسان وذكر القلب»، واتباع اللسان للقلب، واتباع القلب للسان.

فإذا تقرر هذا، فذكر القلب لا يحصل لأول وهلة، لأنه إخراج له عن مألوفه من الغفلة والذهول، والإخراج عن المألوف لا يكون إلا بالمجاهدة والمكابدة، فالمراد من صاحب هذا المنزل، دفع الخواطر عن فكره جهده، حتى تستوي مؤونة القلب مع مؤونة اللسان في إيراد الذكر، ثم لا يزال كذلك حتى يعود الذكر في آخر مقام الإيمان يجري من قلبه مجرى الخواطر التي لا تنفك، كما حدثني أبي ﷺ - وقد سألته عن أحوال السالكين في سرعة إيراد الذكر وإبطائه - فقال: «للذاكر أربع حالات في تناول الذكر:

أولها: في بداية أمره، يثقل عليه ذكر اللسان وحضور القلب لخروجهما في ذلك عن عادتهما، فيأتي بالعدد اليسير في الزمن الطويل.

ثانيها: في تمكين بدايته، يخف عليه ذكر اللسان، لكن له من مؤونة تدبر المعنى بالقلب شاغل عن الإكثار والتعجيل.

ثالثها: في بداية نهايته عند موافقة القلب اللسان، يأتي بالعدد الكثير في الزمن اليسير، حتى أنه لا ينطق بالحرف الواحد من أول حروف الذكر، إلا والقلب قد استوعب جميعه.

رابعها: في نهايته حين يستغرق الفكر فيما ينبلج له من أسرار الذكر حتى يود أن لا يخرج عن اللفظة الواحدة من الذكر كلما تأملها انبلجت له منها المعاني والأسرار؛ فهو كماضغ الحلوى، كلما زاد مضغًا زاد طيبًا؛ فتجده لا يوفي من الذكر عشر مرات إلا في الزمن الطويل، وبالله التوفيق.

مقصد نية ذكر التهليل،
وبيان اختلافه باختلاف منازله

اعلم أن مقاصد التهليل تختلف باختلاف منازله؛ لأن المقاصد هي التي تجذب معاني الأذكار بحسب المشارب، وإن كانت قاعدة المقاصد واحدة، لكن لا بدّ وأن يكون في مقصد كل منزل ما يشير إلى ثمرته تيسيرًا وتقريبًا، وهو مذهب والدي.

ونقل لي عن أشياخه أنهم كانوا يستعملون في الاستغفار مقصدًا واحدًا في

جميع المنازل، وفي التصلية مقصدًا واحدًا في جميع المنازل، وكذلك لا يزيدون في مقصد التهليل والتنزيه على قولهم: «لله أذكر، وبه أستعين» في جميع المنازل التي يستعمل ذلك فيها، وكذلك الذكر المفرد»).

نعم كانوا يبدلون اللام من قولهم: «لله» بباء، فيقولون: «بالله»، عند استشرافهم على مبادئ الجمع، وكذلك يختمون سائر المنازل، وربما استدعى ذلك كلفة في رد مختلفات الأحوال إلى معنى هذا المقصد الواحد، وهو مما يعسر ويقتضي بالإبطاء، وليست الفِطر واحدة، ولا الطباع متفقة، فالأحسن في ذلك تقريب معنى ثمرة كل منزل بالألفاظ التي تدل عليها لتهتدي القرائح إلى المراد، فتسهل على الأفكار موارده.

وليس هذا بتعقب على من سلف من المشايخ قدس الله أرواحهم، إنما ذلك من باب التكميلات والتتميمات، بناء على أصلهم، وجريًا على أسلوبهم، وربما سنح للمتأخرين ما لم يسنح للمتقدمين من الفروع التي ترجع إلى الأصول المعروفة.

بيان كيفية ذكر التهليل
وما يصحبه من أذكار مع مقاصدها

❖ أولًا: بيان كيفية ذكر الاستغفار مع مقصده:

فليبدأ أولًا بالاستعاذة قاصدًا التلاوة، ثم ليتل: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠]، وليورد هذا الخطاب على نفسه؛ وليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، عبدك ضارع فقير بين يديك، معول في صلاح حاله عليك، يقول - معاهدًا على الوفاء بالمتاب، ملازمًا باب توفيقك يا وهاب، مستعينًا بك على لزوم الحق والوفاء بالعهد: أستغفر الله الذي لا إله إلى هو الحي القيوم الواحد الأحد من كل ما قلته وفعلته وقصدته»، أو غير ذلك من كيفيات الاستغفار التي يقتضيها حاله، ولا يُخلِها عن تهليل، وإن كانت الكيفية مؤذنة بالخطاب، فذلك أبلغ في التأثير بضمير من ضمائر الخطاب.

❖ ثانيًا: بيان كيفية ذكر الصلاة على الجناب النبوي - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - مع مقصده:

ثم إذا فرغ من لزوم اسغفاره، حمد الله وشكره ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا كما تقدم،

ثم ليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فليورد هذا الخطاب على نفسه وليجب بـ: «لبيك ربي وسعديك، أمر الدنيا والآخرة في يديك، عبدك ممتثل أمرك في الصلاة على أكرم الخلق عليك، يعاملك بتعظيمه وتوقيره، ويتوسل إليك بإجلاله وتعزيره، ويقول - داخلًا في حرمة جنابه - «اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، الدال عليك، الكريم لديك، صلاة ننال بها كرامة المزيد، ونبلغ بها خالص التوحيد، وسلم»»، أو غير ذلك من الكيفيات التي يقتضيها حاله.

❖ ثالثًا: بيان كيفية ذكر التهليل مع مقصده:

فإذا فرغ من عدد لزوم التصلية، حمد الله وشكره كما تقدم، ثم يدخل إلى ذكر التهليل، فيتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتلُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، وليورد هذا الخطاب على نفسه فيجيب بـ: «لبيك ربي وسعديك، أشهد أنك الواحد الأحد، وأذكرك كما أمرت في التنزيل مرددًا ذكر التهليل، فأقول: «لا إله إلى الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، محمد حبيب الله ودليله»»، أو غير ذلك من كيفيات التهليل التي يقتضيها حاله.

فإذا تم عدد لزومه، فليختم بالحمد والشكر، وإن أعاد المقصد في أول كل دور من أدوار سبحته، فذلك أبلغ وأنفع، وإلا فيجزيه في أول عدد اللزوم، وهنا نكتة تظهر في تعيين عدد السبحة أو عدد اللزوم في المقصد.

ولكل مرتبة من مراتب التوحيد معنى يخصها، تتنسم نفحاته من جنبات معنى المقصد، حسب ما يأتي بيانه إن شاء الله، ومن الحكمة وضع الأشياء على وفاق المناسبة والإتيان بها على أوزان الموافقة ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ولا يزال الذاكر مستحضرًا معنى المقصد مستثمرًا منه ثمرة ذكره بنفي الخواطر وتطهير الأفكار، حتى يبلغ مقام الولاية.

ولا مطمع في العثور على ما أشرت إليه إلا بالذوق، بعد التشمير والعزم،

والسلوك على سبيل القوم؛ فبذلك يصل السالك إلى استطعام أذواق أسرار الأذكار، وقصدنا من هذا الكتاب الإشارة إلى العمل بموجب درك تلك الحقائق والأسرار، من غير كشف عن مصون ما ستروه، ولا إظهار لما حفظوه وكتموه، وبالله التوفيق.

❖ ثمرة:

اعلم أن ثمرة مقصد التهليل في هذا المنزل تعلق القلب بعبادة الله تعالى، والميل إلى طاعته بقوة عزم وشدة رغبة، وذلك أن المطلوب من التهليل في هذا المنزل هو تحريك الباطن إلى المعرفة بالله تعالى، بما تضمنه مقصده من دواعي الإرادة، واقتضاه من أسباب القرب، وهو باب تلج عليه النفس إلى بحبوحة مختلفات ثمرات التوحيد؛ فتطالع الأسرار الربانية، وتشرف على الألطاف القدسية.

❖ فائدة نهاية الإسلام توصل إلى بداية الإيمان:

فإن قلت: جميع ما أشرت إليه في هذا المنزل يشير إلى أمور باطنية، وهذا المنزل من مقام الإسلام الذي أكثر وظائفه ظاهرية.

فالجواب: أنه قد تقدم أن الإسلام وإن كان يتعلق بوظائف الظاهر، فلا يعرو عن أعمال الباطن التي بها تقوم تلك الأعمال الظاهرة، وبقدر ما يتمكن السالك في مقام الإسلام، يقرب من مقتضى مقام الإيمان؛ فيتمكن صلاح باطنه، فلا يصل إلى غاية مقام الإسلام إلا بتساوي جنبتي الباطن والظاهر، فإذا دخل في مقام الإيمان لا يزال الباطن يغلب على الظاهر حتى يصير إلى عكس ما كان عليه في أول توبته من استيلاء الظاهر على الباطن، فالسالك لا يزال من حين بدايته يعالج باطنه على الخروج عن واردات الغفلات، حتى إذا بلغ نهاية مقام الإيمان، تخلص له هذا المشرب من جميع العوارض واطمأن قلبه بذكر الله الذي به تطمئن القلوب، فنهاية الإسلام توصل إلى بداية الإيمان، كما أن نهاية الإيمان توصل إلى بداية الإحسان.

ثم إن التوبة والاستقامة مقدمتان صالحتان نتيجتهما التقوى، والإخلاص

والصدق مقدمتان صالحتان نتيجتهما الطمأنينة، والمراقبة والمشاهدة مقدمتان صالحتان نتيجتهما المعرفة، وفي كل مقدمتين هيئة لما يرد عليه من موارد التوحيد، وقد تقدم لنا أن نهاية كل منزل تشترك مع بداية الذي يليه، فيشتركان في معنى السر الذي تقدم لنا التنبيه عليه، وبالله التوفيق.

❖ نتيجة ثمرة التهليل تحلي النفس بإحدى عشرة صفة حميدة والتخلي عن أضدادها:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة.

• **الأولى: الإرادة**، وهي: «إجابة داعي الحق حيث كان، من غير خروج عن سبيل العلم، ولا عدول عن السُّنَّة»، وذلك ينفي عن النفس وارد الغفلة بالركون إلى الفانيات في الأغلب والأكثر، بعد الكشف عن حقيقة عواقب الدنيا وشؤمها.

• **الثانية: العبادة**، وهي: «قيام الظاهر - مع تعلق الباطن - بالطاعات مع استحلاء الذكر»، وذلك ينفي عن النفس موت العزيمة المؤذن بالحرمان المؤدي إلى الخسران.

• **الثالثة: الصبر**، ونعني به: «ما يعم أقسام الصبر في الطاعة والمعصية والمصيبة».

❖ فائدة الإسلام بعض الإيمان وداخل فيه:

فإن قلت: كيف والصبر مضاف إلى الإيمان في قوله ﷺ: «**الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر**»؟[1].

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٩٣٨٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٥٢)، والخرائطي في «كتاب فضيلة الشكر» (١/١٢٩ من مجموع ٩٨)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٦١/٢/١) عن يزيد الرقاشي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه مرفوعًا.

فالجواب: أن الإسلام بعض الإيمان وداخل فيه، والإيمان لا يقوم إلا بالإسلام ووظائفه، فقوله: إن الإيمان قائم من شكر وصبر» ليس على ظاهره، إنما معنى ذلك أن الصبر والشكر أعظم ما يقوم به الإيمان، وقد قال بعضهم: الصبر والشكر يتضمنان جميع وظائف الإيمان إشارة إلى الرهب والرغب اللذين يحثان على العمل، فلا مانع من قيام الإيمان بوظائف الإسلام.

• **الرابعة: الورع**، وهو: «صيانة النفس في حفظ الحدود بترك ما لا بأس به، إبقاءً على صيانة التقوى، وصعودًا إلى التخلص من اقتحام الحدود»، وذلك ينفي عن النفس الهلع، ويصونها من الطمع، وكلا الأمرين داعٍ إلى المكاره، وموقع في المحارم.

• **الخامسة: الخشوع**، وهو: «سكون النفس بهدوء الطباع للواردات الحق، تلذذًا للأمر واستئناسًا للحكم ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وذلك ينفي عن النفس القسوة، والقلب القاسي بعيد من الله؛ لأنها تخمد نار الفكرة، وتذهب بطعم العبادة.

• **السادسة: الرغبة**، وهي التي تبعث على الاجتهاد في طلب الحرية، وتعمل على التعلق بالمعارف الحقية، وذلك ينفي عن النفس الإخلاد إلى وهن الترخص الذي هو مدرجة إلى حل عقود التقوى، ومطعن في سبيل الورع.

• **السابعة: القناعة**، وهي: الاقتصاد والاقتصار على الضروري، توسطًا بين طرفي الزهد والتكاثر، والضرورات تختلف باختلاف الأحوال، وذلك ينفي عن النفس الميل إلى الترفه بالفضول.

• **الثامنة: الأدب في طريق العبادة مع الملك المعبود**، بالتزام العدل بين حالتي الإفراط والتفريط، جريًا على قانون الهدي المستقيم، وذلك ينفي عن النفس الميل إلى الوقب[1] بين أهداب الهوى عدولًا عن العلم.

---

(١) الوَقْبُ: المَجِيءُ والإِقبال، والوقُوبُ: الدُّخُولُ، ومنه حديثُ أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: «**تَعَوَّذِي باللهِ من هذا الغاسِقِ إذا وَقَبَ**» أَي: الليلِ إذا دَخَلَ وأَقبل بظَلامه، ويقال: وَقَبَتِ الشَّمْسُ: غابَتْ ودخَلَت مَوضِعهَا، والمعنى المقصود هنا: الدخول في متابعة الهوى =

• **التاسعة: الإذعان**، وهو: «الإصاخة بسمع العقل لأمر الله، انقيادًا وتسليمًا»، وذلك ينفي عن النفس معارضة المنقول بالمعقول، ولا بينة لمن لا حجة له، بل لله الحجة البالغة، ومن حق المقيد بقيود الأحكام أن يقول: سمعت وأطعت وأنبت.

• **العاشرة: التهذيب**، بلزوم الحق ومتابعة الهدي، وذلك ينفي عن النفس الإباءة، والشرود عن مشاقِّ وظائف العبادة، وذلك يحرم من الوصول إلى محل الصفاء.

• **الحادية عشرة: العزم على بذل النفس عوضًا في رضا الله معاملة لله**، وهو أول التوكل. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فقدِّمَ العزم، وهو: «تحقيق القصد طوعًا أو كرهًا»، وذلك ينفي عن النفس الإجابة لداعي الهوى والمسارعة إلى سبيل الردي.

علامة حصول نتيجة ثمرة التهليل:

واعلم: أن من علامات حصول هذه النتيجة: إيثار الآخرة على الدنيا، فيجعلها تبعًا لها، بموطأة القلب على معنى الذكر ومقتضاه من التوحيد.

ومنها: التشمير عن ساعد الجد في طلب الغاية التي وصلت إلى خياشيمه روائح مباديها، وما هو إلا كمن دخل من باب قصر عظيم الشأن، بديع الحسن، فلم يطلع منه إلا على ما في أسطوانه من العجائب الدالة على عظيم عجائب ما في القصر، لكن منعه عن الدخول إليه علائق تعلقت به عاتقه بثقلها عن الدخول، فهو بما وقف عليه من حسن الأسطوان شديد الحرص والتعطش، قوي الطمع، عامل على قطع العلائق، آخذ في ترك العوائد. **ومنها**: استحقار الأعمال في جنب عظيم الأمر والنهي، مع الجزع من فوات القبول بطروء العلل.

ومنها: تصاعد الأنفاس، وضيق العطن عند ذكر الله، لضعفه عن حمل أعباء ما يرد عليه من نفحات أسرار التوحيد؛ فتجده يتضاءل وينكمش، فيزفر الزفرات، ويصيح الصيحات، وذلك في بعض الأوقات عند سطوع بعض بروق توحيد

=

وترك العمل بما دل عليه علم الشرع.

الأفعال، وإن كان ذلك نقصًا، لكن لا يحمل منزله واردات منزل الإخلاص، وإن كان دليلًا على تحصيل منزل التقوى، إلى غير ذلك من العلامات التي لا تخفى طلائعها، ولا تجهل مواردها ومصادرها.

❖ وصية جامعة تتضمن جملة مما يجب على السالك في منزل التقوى:

وليجتهد صاحب هذا المنزل في حضور القلب لمعنى الذكر عند نطق اللسان به، دافعًا للخطرات عن فكره، وإن كان ذهاب جميع الخطرات عسيرًا؛ لغلبة الطباع البشرية عليه، لكن يقنع منه في هذا المنزل بتصفية الباطن للحضور وقت التلبس بالعبادات، مع المدافعة بالهجيرا قدر الإمكان في سائرها، وليلجأ إلى الله تعالى بالدعاء والضراعة - متطارحًا في الأسحار وعند هبوب نفحات القبول - في رفع حجاب الغفلة وسدل أطناب الوصلة.

ومما يحصل به الحضور وتضعف به الخواطر: إسماع الأذن لفظ الذكر شغلًا لبعض الحواس عن متعلقاتها من غير الذكر، ومهما بقيت عليه بقية في هذا المنزل سلط عليها ما يقتضي زوالها من الأسماء والصفات، مضافًا إلى ذلك ذكره إضافة تركيب، ولا يُحْسِن هذا غيرُ القدوة، وملاك الأمر حفظ الأعمال من طوارق الآفات وعوارض الضياع.

وليقصد الحق في شؤونه، والرفق في معاملته، والتخلق في أحواله، والصمت عن ما لا يعنيه، والانقباض عما يؤذيه ويرديه.

وليحافظ على قيام وهن من الليل، والسحر أفضل.

وليُقَدّر أكله بالتوسط بين الجوع والشبع.

ولا يسترسل في النوم، ولا في الأكل، ولا في النظر، ولا في الكلام، ولا في الاستماع، ولا في البطش، ولا في السعي، ولا في الخواطر.

وليقم على نفسه بعصا التأديب بآداب الشرع، ولا يرفع عنها ميزان المحاسبة على سبيل العبادة، فما نفذ الناس إلا على قدر ضغط النفوس بتدقيق المحاسبة.

وليقلل من المباحات، فإنها درج إلى الغرق في بحر الشهوات، المؤذنة بالهلكات.

وإن كان عزبًا فلا يقدم على التزوج، وليعالج نفسه بالصوم، وإن كان متزوجًا فلا يقدم على العزوبة، وإن كان مقيمًا لا يسافر اختيارًا، وإن كان متسببًا لا يخرج عن سببه، وليثق بالله مجملًا في طلب رزقه، وإن كان متجردًا فليتعلق بالسبب، ولو بما يقيم به أوده؛ ليتعفف بذلك عن عمارة باطنه بما في أيدي الناس، وإن كان طالب علم، فليقتصر على طلب العلم النافع الضروري، وليجعل لذلك وقتًا غير أوقات ذكره، وإن كان أميًّا، فليواظب على حلق العلم النافع، وليثابر على السؤال عما ينفعه.

وإن هزته عواصف التوحيد إلى الخروج عن ماله؛ فليثبت، ولا يخل يده، إذ لعل ذلك معلول لقلة رسوخ التوحيد عنده، وليس بموضع التجريد، وربما استفزه الشيطان بذلك ليفتنه بالفقر فما دام يخوض بحار الأوهام، فإبقاء معتاداته المباحة عليه، أولى له وأسلم، نعم ليؤدِّ حقَّ الله في ماله.

وليكثر من صدقة التطوع، وليجاهد على مدافعة رذيلة البخل، وليبدأ بالقرابة والجيران وأهل الخير المتعففين.

وليدقق البحث في كسب الحلال، فإن لم يكن الحلال المحض فماله وللشبهات؟! فإن عُدِم الحلال فليقتصر على ما يقوم به أوده من الضروري كالميتة.

وليفر من التعظيم والترؤس كفراره من الأسد، إذ ليس له من القوة ما يدفع به غوائل ذلك.

وليتجاف عن الميل إلى طلب الجاه واستحلاء الظهور، فذلك يجر إلى الفتن، ويدعو إلى الباطل.

وليشكر إحسان المحسن من غير غلوٍّ، وليتحمل جفوة المسيء من غير حقد ولا مذلة، وليجعل الأمة كرجل واحد، وذلك الرجل من أهل مودته، يحميه من الشر ويعينه على الخير على قدر طاقته ووسعه.

ولا يطو على إساءة ظن بمسلم، ولا يبت طالبًا له بحق ولا باطل.

وليعرض على فكره أعمال يومه عند مسائه، وأعمال ليله عند الصباح، فما وجد من ذلك من قبيل الحسنات شكر الله عليه، ورغب فيه القبول، وما كان غير ذلك استغفر الله منه وإن كان مباحًا، فالاستغفار خير كله إلى غير ذلك من الأحوال التي يقتضيها منزله، ويدعوه إليها ذكره، وبخلاصه من مؤونة منزل التقوى، يمد قدمه إلى منزل الإخلاص أول مقام الإيمان، والله المستعان.

الباب الثالث

في مقام الإيمان وما يتعلق به من المنازل والأذكار والمقاصد والثمرات وغير ذلك

[التمهيد]

اعلم - جعلني الله وإياك ممن قام بوظائف التصديق، ولازم الاهتداء على سواء الطريق - أن:

بيان حقيقة الإيمان لغة وشرعًا:

الإيمان في اللغة هو: «التصديق». قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق لنا.

وهو في عرف الشرع: يتألف من أصل، وهو: «التصديق بالغيوب»، وفرع، وهو: «العمل بما يقتضيه التصديق»، خلافًا للمرجئة[1] الذين قالوا: «لا يحتاج مع التصديق إلى عمل»، وذلك كفر وضلال، فلا يقوم الإيمان إلا على دعائم أعمال الطاعات، ولذلك سُمِيَت الأعمال إيمانًا، للتلازم الذي بينها وبين التصديق؛ ولأن الأعمال من دلائل الإيمان، لا تقوم إلا به، ولا يصح دونها، وإنما مدح الشرع بتلك الفروع من كان قائمًا على أصلها، محافظًا على شروطها، حتى لو كان عاملًا غير مصدق، لم ينفعه عمله، كما لو كان مصدقًا غير عامل، لم ينله شيء من المدح الشرعي خلافًا للمعتزلة، فبهذا الاعتبار صح أن يطلق على الأعمال الظاهرة إيمان.

---

(١) يقول الشهرستاني: «المرجئة من الإرجاء. وهو على معنيين: أحدهما التأخير: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾ [الأعراف: ١١١] أي: أمهله وأخره. والثاني إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والقصد. أما بالمعنى الثاني فظاهر. فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وقيل: الإرجاء تأخير صاحب الكبيرة إلى القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. فعلى هذا: المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان، والمرجئة أصناف أربعة: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة (الملل والنحل: ١/١٥٥).

ذكر

الحكمة في أن مرتبة الإسلام تسبق مرتبة الإيمان مع أنه الأصل

فإن قلت: قد ظهر أن الإيمان هو الأصل في سائر وظائف الدين، فهلا كان الأصل مقدمًا لتتقعد الفروع على أصل متقدم؟

فالجواب: أن الإسلام لما كان الغالب عليه الأعمال الظاهرة، وهي من عالم الشهادة، وكان الغالب على الإيمان الباطنة، وذلك من عالم الغيب، وكان الإحسان الغالب عليه أسرار الروح، وذلك من عالم الجبروت، كان من الترتيب الحسن البليغ أن يبدأ الإنسان من وظائف الدين بالأقرب فالأقرب لطباعه، ليستأنس بما يرد عليه أولًا ثم لما يرد عليه ثانيًا.

ولا شك أن ما كان من عالم الشهادة، فالنفس تأنس به ولا تنفر عنه؛ للعلاقة التي بينها وبين الجسم، فإذا تلبس الجسم بالوظائف الإسلامية، انقدح بذلك في النفس بشاشة إيمانية، فلا يزال ذلك يقوى عندها ويتزايد ما دامت وظائف الإسلام قائمة متزايدة، حتى يغلب معنى الإيمان على النفس فتأنس به؛ فعند ذلك تتذكر عالمها بالسبب الذي بينها وبين معنى الإيمان؛ فتتشوف إلى أسرار الروح، فحينئذ تسهل عليها وظائف الإحسان.

وبذلك تبدو لك الحكمة في كون الإسلام لا بدّ وأن يكون معه من الإيمان ما لا يقوم إلا به، والإيمان لا بدّ أن يكون معه من الإحسان ما لا يقوم إلا به.

ومتى اختلف عليه شيء من بداياته الإسلامية والإيمانية، حِيلَ بينه وبين الأسرار الإحسانية؛ فظهر بذلك أن مرتبة الإسلام بداية، وأن مرتبة الإيمان تمكين، وأن مرتبة الإحسان نهاية، ولو عكس الأمر فعوملت أولًا بالوظائف الإحسانية أو بالوظائف الإيمانية؛ لعسر عليها ذلك، ولبعد عنها مرماه.

وإذ تقرر هذا، فمرادنا هنا من الإيمان تكميل ما يتعلق بالتصديق من الأمور الباطنة والظاهرة، بإتمام وظائفه وشروطه، حتى يحصل السالك على كمال الإيمان، ويتصف بمقتضاه كما قد جرينا عليه في مقام الإسلام أولًا، وبالله التوفيق وحده، عونك اللهم.

المنـزل الأول من مقـام الإيـمان

الإخلاص

اعلم - جعلني الله وإياك ممن أخلص ضميره لربه، وظفر باختصاصه وقربه -: أن الإخلاص هو بداية مقام الإيمان، وأول منزل من منازله. قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ونعني بالإخلاص هنا ما يعم النيات التي تقوم بها الأعمال، وغيرها من الأمور الباطنة[(١)].

بيان أقسام الإخلاص:

فإن الإخلاص على قسمين: عام، وخاص:

١ - **أما العام:** فهو ما يتعلق بالنيات المصححة للأعمال، وهو عام من جهة أن

---

(١) قال الجنيد: الإخلاص سرٌّ بين الله تعالى وبين العبد، لا يعلمه مَلكٌ فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقال رويم: الإخلاص من العمل هو: الذي لا يريد صاحبه عليهِ عوضًا من الدارين، ولا حظًّ من الملكين.

وقيل لسهل بن عبد الله: أيُّ شيء أشدُّ على النفس؟ فقال: الإخلاص: لأنه ليس لها فيها نصيب.

وسئل بعضهم عن الإخلاص: فقال: أن لا تشهد على عملك غير الله عز وجل.

وقال بعضهم: دخلت على سهل بن عبد الله يوم جمعة قبل الصلاة بيتًا.. فرأيت في البيت حيَّة. فجعلت أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، فقال: ادخل، لا يبلغ أحدٌ حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شيء يخافه. ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟ فقلت: بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة.. فأخذ بيدي، فما كان إلا قليل حتى رأيت المسجد، فدخلناه؛ وصلينا الجمعة. ثم خرجنا؛ فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون، فقال: أهل لا إلهَ إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل. الرسالة القشيرية (٩٦/١).

كل المكلفين مطلوبون به بحسب الإمكان، فهم فيه درجات، وأحكامهم فيه مختلفة، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

٢ - **وأما الخاص:** فهو ما يعم النيات وغيرها من أعمال الباطن، وهو خاص من جهة القائمين به هم الأقلون، وهو المشار إليه في هذا المنزل، وهو تصحيح الوجهة إلى الله تعالى في جميع الحركات والسكنات، جريًا على سبيل العبودية.

وثَمَّ إخلاص ثالث اختص به أهل النهايات، وهو: «الخروج بالسر عن الأكوان، حتى عن تلمح الإخلاص، استغراقًا في مشاهدة الواحد الحق»، وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

❖ فائدة النية والإخلاص شيئان على التحقيق:

وقد جعل بعض الناس النية والإخلاص شيئًا واحدًا، وإن كان هذا يصح من وجه ما، فالصحيح من كل الوجوه أنهما شيئان، فالإخلاص غير النية، لكن النية بعض الأشياء التي تفتقر إلى الإخلاص؛ لأن النية روح الأعمال الظاهرة، والإخلاص روح الأعمال الباطنة، والنية من الأعمال الباطنة، فصح بذلك أن الإخلاص روح الروح.

وذلك أن الباطن يصور صورة ما، فيتحرك الظاهر إلى العمل بمقتضاها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ثم إن جنبة الخير في ذلك لا تخلو في الغالب عن الشوائب التي منها ما يمحو أثر الخير بالجملة، ومنها ما يؤثر فيه نقصًا، ولا يعتريه عن الخيرية.

والإخلاص يذهب جميع الشوائب رأسًا، ويخلص جميع النيات وأعمالها للواحد الحق بما اقتضته حقيقة الإيمان من إمحاض الوجهة إلى الله تعالى، وتصفية معاملته من شوائب الشرك. قال سهل بن عبد الله التستري ﷺ: «النية مقدمة العمل».

فالموقنون المؤمنون الموفقون المسددون إذا أرادوا فعل شيء فكروا في عاقبته، فإن كان رشيدًا صححوا النية التي هي فعل القلب بالإخلاص، حتى تقوم صورة العمل في النفس مجردة من الشوائب والآفات، وبحسب ذلك يكون سطوع نورها

على الجوارح، حتى إذا طرأت آفة أماطوها عن النفس بأشعة الإخلاص المنبعثة من نور الإيمان، المحركة للعزم على القيام بأمر العبودية، حتى يتم العمل على أساسه من الصحة.

والمقصود هنا من الإخلاص، تعديل النفس به للوجهة إلى الله تعالى، تصحيحًا لمعنى التوحيد، وتهيئةً لما يرد عليه بعد ذلك، وفي هذا المنزل تصير سكنات السالك وحركاته جارية على مهيع العبودية، تكليفية كانت أو إباحية، وذلك حين يتمكن معنى الإخلاص من القلب، ويستحكم فيه بالمزاولة للذكر الذي يقتضيه، وبالمداومة عليه، حتى يصير مستحضرًا معنى القربة في كل حركة وفي كل سكنة.

فالإخلاص عبارة عن: تجريد الأعمال من جميع الشوائب، ويضاده الإشراك. قال النبي ﷺ: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل**» [(١)]. فيلزم من هذا أن الإخلاص أيضًا أخفى من دبيب النمل، إذ لا يتوصل لخفي الإشراك، إلا بخفي الإخلاص، فما ظهر من الإشراك سلط عليه ما يظهر من الإخلاص، وما خفي من الإشراك سلط عليه ما يخفى من الإخلاص، وذلك من الحكمة في معالجة العلل.

وإن كان الإخلاص يبدو في الجملة سهلًا هينًا، فهو في باطن الأمر صعب المرام، متعذر المنال، لا يُحكِمُه إلا من تشجّر باطنه بأسرار الأذكار التوحيدية، واعتدل بالأنوار النبوية، وجرى في مضمار المجاهدة؛ ولذلك الإشارة بقول النبي ﷺ: «**يا معاذ أخلص العمل يجزيك القليل منه**»[(٢)].

وقال بعضهم: «في إخلاص ساعة نجاة الأبد».

وقد حدَّه بعضهم فقال: «الإخلاص: إفراد النية وتصفيتها لله تعالى من جميع الأشياء الحاجبة عنه، حتى عن رؤية الإخلاص».

قلت - بتوفيق الله تعالى: «الإخلاص: تصحيح الوجهة إلى الله تعالى مع

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ١٩٥٥٣، من حديث أبي موسى الأشعري بلفظ: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل».

(٢) إحياء علوم الدين ٣٩٧/٤. وقال العراقي: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ. وقال: إسناده منقطع، (المغني عن حمل الأسفار ٣٩٧/٤).

الحركات والسكنات»، وإن كان المعنى واحدًا، فهذا أبلغ وأخص، وبالله التوفيق.

فصل

في بيان شروط وآداب الإخلاص

وللإخلاص في هذا المنزل شروط وآداب.

* **أما شروطه فأربعة:**

• **الأول:** إيجاد معنى العبادة في القلب؛ عريًا عن واردات الخواطر المنافية للإخلاص، استئناسًا بما احتوى عليه الذكر من لذيذ المناجاة، وترفعًا عن دناءة ما يتعلق بالفكر من ضروب شواغل الآفات، يكون ذلك متصلًا باتصال ذكره وسائر عباداته دون فتور.

ثم لينفق من الأثر الباقي عن ذلك في حال فتوره في الأغلب والأكثر من أحواله، حتى إذا حصل في منزل الطمأنينة - آخر مقام الإيمان - اتصل معنى الإخلاص مع أنفاسه.

• **الثاني:** غيبة القلب في أعمال الطاعات عن الالتفات لغير الله، والإعراض عن الأعراض الطارئة على الإخلاص؛ حتى لا تمتزج الطاعات بما يغايرها من المباحات، ولا تختلط القربات بما تقتضيه العادات، ومهما فعل ذلك تكدر عليه مشرب الإخلاص.

• **الثالث:** الصبر على تجرع مرارة ما ينافي الطباع وينافر الهوى من أمور الإخلاص بربط النفس لقوانينه، وحملها على سبيله، والمحاسبة على خطراته وإن دقّت؛ لأن الإخلاص من أشد الأشياء على القلب وأصعبها على النفس، إذ ليس لها فيه حظ تميل إليه من أجله، إنما هو خروج عن حظوظها بالرجوع إلى خالقها، وهو من مفاتيح المراقبة.

ولذلك أشار سهل بن عبد الله ﷺ بقوله: «أهل لا إله إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل».

• **الرابع:** عدم المبالاة بغير الله تعالى؛ تعويلًا على أنه المولى الذي يجب أن يكون له الدين الخالص، ومن فعل ما وجب عليه، لم يبق له إلا انتظار المنة، وهي ورود ألطاف المعارف على قلبه شيئًا فشيئًا.

بيان آداب الإخلاص

* **وأما آدابه فأربعة:**

• **الأول:** الجزع من سلب الإخلاص بسابقة الإهمال؛ فتصير الوجهة هباء، وذلك من المقت المستعاذ بالله منه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، ومن أخسر صفقة ممن ساء حظه من الله.

• **الثاني:** اتهام النفس فيما تدعيه من توفية حق الإخلاص؛ لأنها ذات بخس ومكر وتغليط فيما لا يُشكَل، فأحرى فيما يخفي من أمر الإخلاص ويدق من شعب الشرك وما يخفى، فقد يعسر إدراكه، فلا بدّ من قوة عقلية، وفطنة ذكية، تبرز الإخلاص من بين أَسَجاف(١) بَهرَجة الأعمال، إلى جنبة إمحاض الوجهة إلى الله تعالى.

• **الثالث:** أن يلجأ إلى الله تعالى بالضراعة، ويفزع إلى الدعاء مع مرور الأزمان واتصال الأنفاس بإسقاط حوله في تخليص إخلاصه بالخلاص من شوائب نفسه، وخطرات فكره. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]، فالافتقار إلى الله تعالى دليل الإخلاص، ومن ذهل عن شيء من هذا المعنى لم تتخلص عبادته من رق مراعاة الأوهام.

• **الرابع:** مطالبة النفس بالإخلاص في المباحات والعادات مع إحضار نية القربة في ذلك التزامًا لوظائف العبودية في كل حال؛ ليكون له بذلك مرقى إلى منزل الصدق مع الله تعالى في معاملاته في كل الأنفاس، وذلك أن المباحات إذا أُخلِصَ فيها المقصد، كان الإخلاص في العبادات، وبالله التوفيق.

ذكر

اعلم أن الإخلاص ينبو عن بداية توحيد الأفعال الذي هو ثاني مرتبة من مراتب التوحيد الذوقي، فقد تقدم لنا أن تقسيم التوحيد ليس باعتبار حقيقته وماهيته، وإنما تقسيمه باعتبار ثمراته وأذواقه.

---

(١) السَجْفُ والسِجْفُ: السِتْرُ. والجمع: أسجاف وسجوف. البَهْرَجُ: الباطِلُ والرديءُ من كل الشيء والبهرج: التعويج من الاستواء إلى غيره، والمقصود هنا: دقت وصعوبة الوصول إلى حقيقة الإخلاص لما يكتنفه من حجب العلل والأهواء.

ومما تقدم لنا أيضًا: أن الله ﷻ، حجب ذاته بصفاته، وحجب صفاته بأفعاله، وحجب أفعاله بما اشتملت عليه طباع الإنسان من الركون إلى المألوف والاستئناس بالعادة، فإذا تجرد الباطن عن الالتفات إلى المألوف الظاهري بما يقتضيه سر التهليل، انبلجت له مبادئ أسرار أفعال الله تعالى القائمة بصفاته، فتحلت النفس بموجب تلك المبادئ، فإذا تجرد الباطن عن الالتفات إلى أوهام الباطن الباقية - أثرًا عن المألوف - بما يقتضيه سر التنزيه فاضت عليه أنوار كمالات توحيد الأفعال، فتحلت النفس بموجب تلك الكمالات، فإذا تجرد الباطن عن جميع الأكوان بما اقتضاه سر الإفراد، سطعت له بروق مبادئ أسرار توحيد صفات الله تعالى القائمة بذاته العلية، فاتصفت الروح بمقتضى تلك المبادئ، فإذا تجرد الروح عن أثر الأكوان الباقية تبعًا لمقتضى الجسمان، غمرته بحار أسرار كمالات توحيد الصفات، ثم هو بعد ذلك مستعد لما يرد عليه من معارف توحيد الذات.

بيان وجه مناسبة ذكر التهليل نفياً وإثباتاً لمنزل الإخلاص

وإذا تقرر هذا، وعلمت أن الذي يختص بمنزل الإخلاص من مراتب التوحيد هو مبادئ توحيد الأفعال، فلا ذكر أنسب له هنا من التهليل نفيًا وإثباتًا؛ لأن الإثبات والنفي بما اقتضياه لأول وهلة يهديان القلب إلى إثبات أفعال الله تعالى بنفي أفعال من سواه، حتى يرسخ ذلك المعنى في القلب ويثبت فيه، فيتحلى بموجبه تحلية لا ينفك عنها، فتجده لا يتأثر لشيء من أفعال الخلق، ولا يكترث بها، بخلاف ما يحصل من ذلك بمجرد العلم، فإن صاحبه لا يخلو عن التأثر لإساءة المسيء وإحسان المحسن، والناس في هذا التأثر طبقات: أبعدهم من الحق من ينسى المُسَبِّب بالأسباب، والغالب من سائر طبقاتهم الميل مع الأسباب، فمن قوي ميله ومن ضعف ميله.

وأما ما يحصل عن الذوق المشار إليه، فلا يبقى معه نسيان ولا ميل، بل يرى الأفعال كلها من الله، وإن قام ظاهره في ذلك بما يقتضيه من الوظائف الشرعية، فباطنه ثابت على ما اقتضاه ذكره من نفي وإثبات، كما حدثني أبي قال:

«كان الشيخ أبو القاسم المريد رحمه الله تعالى يومًا يمشي ما بين السور والدور في بعض أزقة «مالقة»، فالتفت فإذا قدامه رجل من أهل العلم المشاهير المدرسين، وهو يقول لرجل كان معه: «والله لو وجدتُ من يضمن لي القوت الضروري ما اقتحمت على شيء من أمور المعاش هذا الاقتحام»، قال الشيخ: فعجبت له من استرساله مع الميل إلى مألوفاته، حتى نسي الآيات والأحاديث التي تقتضي ضمان الرزق، ثم قال: واه أبعد ضمان الله تعالى يطلب ضمان غيره؟!

قال والدي ﷺ: فحركني ذلك إلى الاغتباط(١) بطريق الأذواق، والملازمة على استثمار ثمرات الأذكار، والعدول عن الجمود على مجرد العلم من غير نظر فيما وراء ذلك، فإن الذوق يقود الطباع إلى مقتضاه، والطباع تجر مجرد العلم إلى مقتضاها وشتان ما بين الفريقين، والقاعدة التي بنى عليها أهل هذا الطريق أمرهم هي التحلية بالصفات التي تقرب من الله، والتزكية عن الصفات التي تبعد عن الله.

تكميل لا غنى ولا بدّ من ذكر الدليل ﷺ وإلا كان للغافل عنه المكر الإلهي

وإذا تبين لك ما لكلمة النفي والإثبات التوحيدية من الاختصاص بمنزل الإخلاص، وعلمت أن لهذه الكلمة وظائف تكليفية واردة من قبل الله تعالى على لسان رسوله ﷺ الدال عليه، وأنه من نسي الدليل ضل بذهوله عما دل عليه، فلا غنى ولا بدّ من ذكر الدليل؛ لأن نسيانه سبب لنسيان ما دل به من الشروط في معرفة الله تعالى، فلذلك وصلوا ذكر الدليل بذكر المدلول عليه، حتى ينحفظ المدلول به، فقالوا: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**»، خلافًا لمن طبع الله على قلبه

(١) الاغتباط بالشيء: شدة السرور به، وحسن الحال به، والمقصود: فرحه والد المصنف ﷺ بمنة ورحمة الله تعالى له بأن جعله في طريق القوم رضي الله تعالى عنهم وعنا بهم، وكيف لا؟! وهم الذين جمعوا بين ظاهر الدين وباطنه في حين وقف غيرهم مع ما فهمه في جزء من بعض الظاهر، وظن أن ليس ثم إلا ما عرف، وأن خزائن الجود والوهب والعلم الإلهي مقصورة على ما هو فيه، هيهات هيهات، اللهم من علينا بالتصوف وأهله بجاه سيدهم عليه صلوات الله تعالى وتسليماته.

فلم يهتدِ سبيلًا، ومكر به شيطانه فأضله تسويلًا، وهي الطائفة الخاسرة، والزمرة الفاجرة، الذين يقولون: الإكثار من ذكر النبي ﷺ حجاب عن الله.

وسبك بعضهم هذه العبارة، فقال: إذا أفرد التهليل عن إثبات الرسالة كان أبلغ وأسرع في تأثير معنى التوحيد، واحتج لذلك - فيما بلغني - بأن قال: «للتهليل معنى ولإثبات الرسالة معنى، وإذا اختلفت المعاني على الباطن، ضعف التأثير وبعدت الثمرة، قال: «وإنما يكون وصل الذاكرين عند الدخول في الإسلام»».

وهذا - والعياذ بالله - من الفتن التي لا مورد لها غير النار، ولا عقبى لها سوى دار البوار، وما ذلك إلا مكر واستدراج إلى رفض الشريعة، والانحلال من ربقتها، وتعطيل رسومها، ولو علم هذا القائل ما تحت قوله: «**محمد رسول الله**» من الأسرار التوحيدية والحكم التهليلية، لانقشع عنه ذلك العمى، فأصاب المرمى.

الانتصار لبيان وجوب وحتمية ذكر الجلالة المحمدية مع الحق سبحانه وتعالى في جميع المواطن

فمن الواجب أن نفيه هنا بنبذة تحمله على الهداية، وترفع عنه ظلام العماية والغواية، فأقول مختصرًا، وبالله منتصرًا:

إن الله ﷻ أودع في ذكر نبيه مع ذكره فوائدَ وأسرارًا:

منها: أن رسول الله ﷺ الباب العظيم إلى معرفة الله ﷻ، فمن قصد معرفة الله تعالى من بابها، نالها ووصل إليها، ومن تعرض إليها من غير بابها، حرمها ومنع من الدخول إليها.

ومنها: أن التوحيد لا ينال سره إلا بالإيمان، والإيمان لا يصح إلا بإثبات الرسالة، فكما يطلب السالك بما يحرك عنده قوة الإيمان بذكر التهليل، كذلك يطلب بما يحرك عنده قوة شرط الإيمان بإثبات رسالة الدليل، ولأنها أحد أصلي التوحيد.

ومن تأمل - بتحقيق النظر - سر الرسالة وجده من التوحيد، وذلك أن النبي ﷺ، لم يكن نبيًا ولا رسولًا بنفسه، بل بسر أُسِرَّ فيه دون غيره، وذلك السر هو

من الغيب الذي خُصَّ به وأُهِلَّ له. قال الله ﷻ حاكيًا عن الرسل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ ولذلك السر الوجداني الصادر عن الغيب، وجب التعظيم والتوقير، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فجعل طاعته في طاعة رسوله.

ومنها: **أن ذكره ديدنًا**[1] **يؤكد أمر اتباعه الذي هو فرض على الأعيان**، وبه النجاة والخلاص، حسب ما وقعت الإشارة إليه في منزل الاستقامة من أن ذكره يقتضي حبه، وحبه يقتضي اتباعه وطاعته.

ومنها: **حفظ العهد للواسطة بأن يُذكر ولا يُنسَى**، والنبي ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى والدال عليه؛ فمن حسن العهد أن لا يُنسَى وأن يُذكر، كيف لا؟! ولم ينسنا في حياته، ولا عند مماته، ولا عند النشر، ولا في الحشر.

ومنها: **أن ذكره نور يسطع في أرجاء قلوب محبيه وذاكريه**، أترى يبقى مع النور إشكال؟! أو يوجد مع الضياء ظلام؟! فما انبهم في الباطن من أسرار التوحيد أو غاب عنه من معنى العبودية، لا شك أن بيانه وظهوره يدركان بذكره ﷺ.

بيان أن لذكر الجناب النبوي – عليه صلوات ربه وتسليماته وآله وكل من والاه – في كل مقام اختصاصاً

وبذلك يظهر لك ويتبين أن لذكره عليه السلام في كل مقام اختصاصًا:

فاختصاصه في مقام الإسلام: بالاهتداء إلى أعمال الطاعة.

واختصاصه في مقام الإيمان: بالاهتداء إلى حقائق المعتقدات.

واختصاصه في مقام الإحسان: بالاهتداء إلى أسرار المشاهدات.

فمن عدل عن ذلك، حرم موارد الاختصاص، ومن أحله من باطنه المكان المكين، بلغ فيه مراتب التمكين.

فلا بدّ من ذكره في كل المقامات، متصلًا بذكر الله، ومنفردًا؛ ليدخل السالك في

---

(١) الديدن: الدأب والعادة.

قدم دليله ﷺ موارد التخصيص، فقد يدخل الخديم حضرة الملك في قدم مخدومه، فيُكرَم من أجله، ويُقرَب بسببه.

بيان كيفية ذكر كلمة التوحيد «لا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله»

فإن قلت: قد عرفتُ بما قررتَ أن ذكر هذا المنزل هو ذكر: «**لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله**»، فكم يكون عدد الالتزام منه، وكيف يكون تناوله؟

فالجواب: إن مقدار لزومه راجع إلى نظر قدوته، فيوظف عليه عددًا يقتضيه حاله؛ لأن أحوال الناس تختلف، وقرائحهم تتفاضل، وعزائمهم تتنوع، ومن الحكمة وضع الأشياء على مقاديرها، ومراعاة التناسب فيها، فلا يكون بحيث تفل كثرته حسام العزم، ولا بحيث تقدح قلته في الانتهاض ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

وليتحين بإيراد أوراده الأحيان الفاضلة والأوقات المخصوصة، وليفاتح ورده أولًا بالاستغفار ولو مائة مرة؛ ليهيئ بذلك طهارة في باطنه لما يرد عليه بعد ذلك من تصلية وتهليل، ثم ليتحين إثر ذلك صلاة على النبي ﷺ، ولو خمسمائة مرة، يستنير بها باطنه لتلمح ما يرد عليه بعد ذلك من سر ذكر التهليل.

والكيفيات في ذلك لا تنحصر، غير أنه ينبغي أن تكون كيفيات أذكار السالك مناسبة لعلله المأخوذ في علاجها، إذ قد يظهر عليه من صفات نفسه التي يلزم تطهيرها بالذكر ما هو مفرد وما هو مركب؛ فينبغي أن تكون كيفية الذكر الذي يستعمله مناسبة لعلته، ولله سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العلى، مختلفات المعاني، لكل معنى منها اختصاص بتحلية وتزكية، فالنظر في نسب ذلك وتركيبه موكول إلى نظر القدوة، ولا يمكن الكشف عن حقائق ما وراء هذه العبارة بأكثر مما أشرت إليه.

ولا يفارق شروط الذكر وآدابه على حال، حسب ما تقدم، ولا يعدل عن الأوقات الفاضلة بورده إلى غيرها إلا من ضرورة، ففي بعض الأوقات من الأسرار ما يعين السالك على فتح أبواب القبول، ولهيئات الظاهر تأثير بموجبها في الباطن؛ فليثابر على ما لا يفارقه الخضوع، ولا يعدل عن الذل والافتقار.

وقد تقرر غير مرة أن المراد من الذكر انطباع معناه في النفس حتى يتصف

بمقتضاه، ولا يصل إلى ذلك إلا بالتفكر والتدبر، وهو وإن كان لم يبلغ هذا المنزل إلا وعنده من رطوبة اللسان في إيراد الذكر ما يحمله على الإسراع والهذ، فمن الأمر الضروري له أن يجعل هذه تبعًا لتدبره؛ فإذا حصل المعنى فلا بأس بالإسراع، وأما إذا كان الإسراع مخلًّا بشيء من التدبر، فلا خير فيه، وبالمحافظة على هذه النكتة يحصل له الأمران: الهذ والتدبر، حتى يكون اللسان كأنه عارية، ومعنى الذكر معتورًا على الباطن، لا ينقطع ولا يفتر، وذلك من علامات مبادئ الوصلة، ولا يكمل له هذا المشرب من الحضور إلا في آخر منزل من الصدق، وبه يرد على منزل الطمأنينة، ولا يفتر عن هجيراه على كل حال من قعود أو قيام، أو حركة أو سكون أو غير ذلك، وقد تقدم لنا سبيل استعمال الهجيرا، ومن أي الأذكار يكون، فلا معنى للإعادة، وبالله التوفيق.

مقصد

و قد تقدم لنا أن المقصد الذي كان من سلف من المشايخ يستعمله في التهليل والتنزيه في كل المنازل هو: «**لله أذكر وبه أستعين**». لا يعدلون عن ذلك إلا بتعويض اللام باء كما تقدم، والذي ذهب إليه والدي - أبقاه الله - في ذلك هو تنويع المقاصد بحسب المنازل، وقد أشرت فيما مضى إلى مقصده من ذلك.

بيان مقصد الاستغفار

والذي يدخل به صاحب هذا المنزل إلى ذكر الاستغفار أولًا، هو أن يتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتلُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠]، فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، وعبدك الذليل معول عليك، في طهارة باطنه وظاهره، راكن إلى الاستغفار من هفوات خواطره، يعاهدك على لزوم الطاعة، ويقول بلسان الضراعة: اللهم إني أستغفرك يا مولاي وأتوب إليك من جميع الكبائر والصغائر، وهفوات الخواطر...» وغير ذلك من كيفيات الاستغفار التي يقتضيها حاله.

بيان مقصد أو نية الصلاة على سيد الوجود صلى الله تعالى عليه به

والذي يدخل بـه إلـى ذكر التصلية هو أن يتعوذ قاصدًا التلاوة ثم ليتل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «**لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، والعبد راكن إلى جنابك، متوسل إليك بأفضل أحبابك**، يقول - موقرًا له ومعظمًا، ومصليًا عليه ومسلمًا -: **اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد رسولك ودليلك، صلاة أرقى بها مراقي الإخلاص، وأنال بها غاية الاختصاص، وسلم تسليمًا**»، أو غير ذلك من كيفيات التصلية التي يقتضيها حاله.

بيان مقصد التهليل

والذي يدخل به إلى ذكر التهليل، هو أن يتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والعبد بين يديك، يوحدك بالتهليل، منخلعًا عن التغيير والتبديل، ويقول مخلصًا من قلبه، ذاكرًا لربه: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله» إلى آخر دور سبحته من التهليل، وليعده في أول كل دور منها، وإن اجتزأ بمرة واحدة في أول لزومه من التهليل، فلا بأس به، والأول أحسن.

وإن كان صاحب هذا المنزل أقوى قدمًا وأثبت يقينًا، فلا بأس أن يستنهض بمقصد أقوى من الأول، وهو: «أهلل ربي وأخلص له، وأشهد أن كل شيء منه وبه وله، وأقول بإمداده ومنته، وبما وهب لي من نعمته: لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله»، وهذا المقصد وإن كان جاذبًا إلى جنبات مقام الإحسان، بما احتوى عليه من الإشارة إلى معنى الجمع - وصاحب هذا المنزل الإخلاصي م يفارق حال التفرقة - لكن فيه تصفية لمشرب الإخلاص من كدرات الأغيار[1].

---

(١) التهليل يصل إلى الله من غير حجاب بينه وبينه، وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عن =

وقد يكون في معنى اللفظ الواحد من الجزالة[١] ما يتفق منه كل إنسان بحسب حاله، وقوة كل سالك تجذب من حقائق التوحيد ما يناسبها، ولذلك اقتصر شيوخ هذا الطريق على مقصد واحد في ذلك، وإن اختلفت الأحوال والمنازل، وما ذهب إليه والدي ﷺ في ذلك أقرب وأيسر وأسهل.

وقد يستعمل صاحب هذا المنزل المقصد الأول في ابتداء منزله، حتى إذا لاحت عليه شواهد الانتهاض، درج إلى المقصد الثاني، وهذا كله موكول إلى نظر القدوة، لا يدركه في تحصيل حقيقة حكمته غيره، وأحوال السالكين تختلف إلى ما لا يضبطه التقييد، ولا يحصره التقسيم، لاختلاف الأخلاق والأمزجة والفطر والأطوار، وليحافظ المخلص على تتبع معنى المقصد بفكره، وليُقعّد منه قاعدة في نفسه، وليجعله قطبًا يدور عليه معنى الذكر، وبحسب محافظته على ذلك مع محاسبته نفسه يكون نفوذه، وبالله التوفيق.

❖ ثمرة شهود أن الوجود جارٍ على سبيل الكمال والجمال مرتبط بعضه ببعض:

اعلم أن ثمرة مقصد التهليل في هذا المنزل، سكون الباطن إلى جريان الأحكام

=

النبي ﷺ قال: «ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر» وقال أبو أمامة: «ما من عبد يهلل تهليلة فينهنهها شيء دون العرش وورد أنه لا يعدلها شيء في الميزان» في حديث البطاقة المشهور، وقد خرَّجه أحمد والنسائي، وفي آخره عند الإمام أحمد: «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم» وفي «المسند» عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: إن نوحا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله وفيه أيضا: عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله قال كل عبادك يقول هذا إنما أريد شيئا تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله

(١) الجزالة: القوة والغلظة. ومنه قيل: حطب جزل. ورجل جزل. وكلام جزل (اللسان/جزل).

الإلهية الواصلة إليه بسبب أو غيره، وذلك أن أفعال الله، جارية في جميع الموجودات، لا تفارقها الحكمة البالغة، من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة، وإمراض وإسقام، وإعطاء ومنع، وإضرار ونفع، وغير ذلك من أفعاله تعالى، جارية في موجوداته، كل ذلك على إرادته وعلمه وحكمته وقضائه وقدره، مسطور في كتاب مبين، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، له الخلق والأمر، والتدبير والحكمة، ولو كشف الله ﷻ عن بصائر خلقه، فوقفوا على أسرار موجوداته، ثم أفاض على عقولهم من مواهبه ما ترتقي به إلى غاية قوتها، لظهر لهم بالنظر التام المعتدل السالم من الأوهام، أن جميع ما احتوى عليه الوجود من صنوف الموجودات، على اختلاف أحوالها من موت وحياة، وصحة وسقم، وغنى وفقر، ونفع وضر، وبسط وقبض وغير ذلك كله، جار على سبيل الكمال والجمال، بحيث أن لو تبدل ذلك أو شيء منه عن حاله، لانخرم الوجود ولفسد نظامه؛ فجميع ما تجري به الأحكام الإلهية، وتنفذ به المقادير الأزلية، كمال لا نقص فيه، حتى لو قدر شيء منه صدر على غير الوجه الذي وقف عليه العقل، لكان فساد أمر مرغوبًا عنه لا خير فيه.

وقد ربط الله ﷻ جميع الكائنات بعضها ببعض، ورتب بعضها على بعض؛ فربما ظهرت من الأمور مبادئها، فاستعجل الإنسان بما ركبت عليه طباعه من العجلة، فاضطرب وتلون قبل وقوفه على نهاياتها.

والأمور كلها لها ظاهر وباطن، وقد تكون الحكمة في الظاهر دون الباطن، أو في الباطن دون الظاهر، والنفس بما جبلت عليه من الجزع، لا يكاد يفارقها سوء الظن، ولذلك تميل حيث يجرها الجزع من ظاهر أو باطن، ولو تصفت النفس غاية من عللها التي حجبتها عن رؤية الحقائق؛ لارتفع عنها الإشكال، ولذهبت عنها الأوهام، حتى تقف على حقائق الموجودات، بما هي عليه من جميل ترتيب وحسن ارتباط؛ لكن وظيفة صاحب منزل الإخلاص، أن يحصل عنده يقين جملي بحسن أفعال الله ﷻ، وجميل عوائده، حتى لا يبقى عنده اعتراض ولا سخط، وما يبقى عنده في ذلك من البقايا الوهمية والآثار الطبيعية ففي منزل الصدق يتخلص منها.

وإذا قام معنى التهليل بنفس صاحب هذا المنزل قيامًا يقتضيه منزله، حتى يرسخ

فيه ويثبت، وحتى لا يرى في الوجود فعلًا إلا لله ﷻ، ويرى أفعال الخلق مسلوبة عنهم، ليس لهم فيها إلا ما للآلة المصرفة، فتنتفي عن نفسه جميع تأثيرات أفعالهم، لتحققه أن ذلك صادر عن الله ﷻ وحده ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فلا اشتراك لأحد مع الله ﷻ في الموجودات والكائنات.

❖ فائدة المراد من التهليل قيام الاتصاف بمقتضاه بالنفس وليس المراد العلم به خاصة:

وإذا رسخ هذا المعنى في نفس السالك رسوخًا تامًّا ثابتًا، حتى تعرب عنه جميع حركاته وسكناته، ويترجم عن حقيقته جميع ظواهره وأنفاسه، فلا يتأثر لإساءة مسيء، ولا لإحسان محسن، وتذهب عنه الأحقاد بالجملة - كل ذلك مربوط بالروابط الشرعية - عُلِمَ أن صاحب هذا المنزل قد وفَّى ما عليه من وظائف التهليل، ومهما بقي عليه شيء من ذلك، عُلِمَ أنه معلول، فليجد حتى يتم ما بقي عليه من ذلك، وحينئذ يرتقي إلى ما بعده، إذ ليس المراد من هذه الثمرة قيام العلم بها خاصة، إذ لعل أكثر الناس لا يجهلونها، إنما المراد منها قيام الاتصاف بمقتضاها بالنفس، ورسوخه فيها حتى لا يتكلف التصاريف بمقتضاها.

فقد نجد من يعلم علم يقين أن الله ﷻ خالق جميع الموجودات على ما هي عليه، ومريد الكائنات، ومدبر أمور الأرضين والسماوات، لكنه يتأثر لبعض الواردات المخالفة لهوى طباعه البشرية، تأثرًا ربما رفع عنه حجاب الوقار، وحرمه مورد الاصطبار، وكساه أثواب الانزعاج، فأوقعه فيما يُحظَر أو يُكره، وذلك لغلبة الطباع البشرية على ما يقتضيه التوحيد، ومن حُرِمَ مذاق ثمرته التوحيدية أحاطت به ظلم الأغيار، وكاد لا ينفك عن غوائل الأحقاد، ولا يبرح من قيود الأنكاد، ومن رزق مذاق طعم التوحيد، استراح من شره الطباع، فخلا سره، وتنزه باطنه، وانشرح صدره، وخفت مؤونته، وخلصت وجهته.

وإن كانت الطباع البشرية لا يخلو صاحب هذا المنزل عن نفرتها عما يخالفها، وسكونها لما يوافقها، فالفرق بين صاحب الذوق وغيره، أن صاحب الذوق

المستأنس بأسرار التوحيد، كلما ورد على طباعه وارد مؤثر، حرك في نفسه دواعي التوحيد بما اقتضاه ذكر التهليل، فاتصفت النفس بمقتضاه، وخنس الطبع، ورجع خاسئًا مذعنًا لمعنى التوحيد، ولم يبق عنده من الشره ما يحمله على هتك أستار الحدود، وخرق حجاب الأدب، وزمام الطباع بيد النفس، فإما بما اتصفت به من الكمال، تمنع الطباع من الرذائل، وإما بما اتصفت به من النقص، تصد الطباع عن الفضائل.

وإذا انحفظت في النفس قاعدة التوحيد، لا يضر ما يظهر بعد ذلك من مباحات مقتضيات الطباع.

وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ حين مات ابنه إبراهيم عليه السلام: «**القلب يخشع، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»[1]، حفظ ﷺ قيامه في العبودية بأتم حال الأدب، ثم أرسل الطبع فيما يقتضيه مما لا بأس به، فلا يُنكَر تأثير الطباع البشرية مع حفظ أدب العبودية، لا سيما حال الصحو بالرجوع إلى الطبع، اللهم إلا إن كان قد غلب عليه حال من أحوال الاستغراقات في بحار أسرار التوحيد، فإن ذلك يخرجه عن مقتضى الطباع بالجملة، حتى لا يبقى عندها تألم بشيء، ولا تلذذ بغير ما هو فيه من الحال الغالب عليه في استغراقه، واستغراق القلب في سر التوحيد مع حفظ الأدب في مقتضى الطبع، أعلى مقامًا وأثبت معرفة، فليس من ملك الأحوال كمن ملكته.

وأما من قنع بمجرد العلم ولم يتعرض إلى سبيل الذوق، فإن طباعه تتأثر لما يرد عليها من الواردات التي تضادها تأثرًا يغلب عليها حتى يذهب عنه الترجيح، فيقع في هتك أستار الأدب بأنواع من التسخطات، وضروب من التقلبات والتلوينات، إذ لم يكن في النفس من الاتصاف بمقتضى التوحيد ما يزم الطباع عن مقتضياتها الذميمة، حتى تورطت في التبعات، وتلوثت بالهفوات، وإذا تأملت من هذا حاله، وجدته يناقض بأعماله وأقواله ما يدعيه من حقيقة علم التوحيد.

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس ١٢٧٧. بلفظ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» وأبو داود في السنن، ح ٣١١٠.

وإما إذا اتصفت النفس بمقتضى حقيقة التوحيد، فإن الجوارح تتبع النفس بالقيام بوظائف ذلك المقتضى، ولا شك أن الجوارح تتبع النفس فيما تتصف به ولا تخالفها، وإلا فانظر إلى من قامت بنفسه صفة الكرم حتى غلب عليها، كيف تسرع اليد للبذل من غير توقف، ومن قامت بنفسه صفة البغي، كيف تسرع جوارحه إلى العدوان والظلم، فالجوارح تتبع النفس، فتعمل بمقتضى اتصافها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ومتى كانت النفس خلية من الاتصاف بشيء، استرسلت الطباع في مألوف هواها.

العدل والحق في الجمع بين الحقيقة والشريعة وما عداه باطل

فظهر لك من هذا كله أن النفس إذا اتصفت بما اختص به منزل الإخلاص من معنى التوحيد حسب ما دل عليه التهليل، فإن صاحب هذا المنزل لا يبقى عنده من التلوين ما يحمله على تسخط أو حقد أو غضب أو نفور أو ميل أو اعتراض بوجه، كل ذلك قائم على قواعد الشرع، ثابت مع رسوم السُّنَّة من إقامة الحدود، وإنفاذ الأدب، والحب في الله، والبغض في الله، وشكر المحسن، فتجده قائمًا بأمر الله تعالى في ذلك كله، مع سكون باطنه إلى حقيقة التوحيد.

ومهما تعدت الحقيقة طور الشريعة، فتحقيقه معلول، ومشربه مشوب، إنما العدل في لزوم الاعتدال بالجمع بين مقتضيات الحقيقة ومقتضيات الشريعة.

حدثني أبي ﷺ قال: «كان رجل ممن يدعي التحقيق يومًا ببعض الأزقة، وإذا برجل مضروب الظهر، وشرطي ينادي عليه تحذيرًا من جريرته، فجعل ذلك المحقق يقول: «سبحان الله، هذا المسكين - يريد المضروب - عري عن الجريرة التي أصابها لأنه كالآلة المصرفة تحت القهر الإلهي»، كأنه يعتب معاقبه. قال: فسمعه بعض الأذكياء؛ فقال له: «يا سيدي هذا الذي جئت به حجة عليك، فإن الحاكم الذي أمر بضربه، والشرطي الذي ضربه، والمنادي الذي ينادي عليه، آلات مصرفات تحت القهر الإلهي والحكم الشرعي». قال: فبهتَ ذلك المدعي وانقطع به.

والجمع بين الحقيقة والشريعة من الأمور التي يدق معناها ويصعب مرامها، والعثور على ذلك بسرعة وسهولة، إنما يكون بالإدمان على ذكر النبي ﷺ، فبه تفيض أنوار الهداية على البصائر فتنجلي مرآة الباطن، ويتشحر إبريز الذكر، وتصحو سماء الإدراك، فيسهل الجمع بين الحقيقة والشريعة، فيقيم العدل في ذلك بتوفية وظائف الحقيقة، والقيام برسوم الشريعة.

حدثني أبي قال: حدثني الشيخ أبو القاسم المريد ﷺ قال: «كان الشيخ أبو عمران ﷺ في داري يومًا، فقلت في نفسي: ما الضر أن لو أخرجتُ زوجتي تتبرك بهذا الرجل وتلتمس من دعائه، وربما كانت من المتجالات، قال الشيخ أبو القاسم: فما هو إلا أن أطرف الشيخ أبو عمران ﷺ بعض ثيات زوجتي جائية نحوه، فقطب وجهه، وأظهر الغضب وانتهرني، ثم قال لي: يا أبا القاسم: أتخرق حدود الشريعة؟! لئن عدت إلى مثلها لأقطعن حبل ودك. قال: فزجرت زوجتي حتى رجعتْ ولم يرها».

فإذا تقرر هذا، فأقل موارد هذا المنزل، إسقاط حظوظ النفس في الاعتراضات بسبب الواردات حسًّا ومعنًى، ومهما صدرت عنه بادرة اعتراضية بسبب فعل من أفعال الخلق؛ فليتلاف أمرها بالعلاج.

فإن قلت: هذا الذي أشرت إليه مما يصعب على الطباع البشرية تناوله، وقد قال رسول الله ﷺ: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**» (١)، فخروجها عما جبلت عليه أمر عسير.

فالجواب: أن المقصود من سلوك هذا الطريق هو: «طهارة النفس من كل خلق ذميم، وتحليتها بكل خلق حميد»، ولا شك أن النفوس تختلف صفاتها باختلاف جبلاتها، فمنها ما الغالب عليه الزكاء، ومنها ما الغالب عليه الدناءة، وكل ذلك جبلات جُبلت النفوس عليها.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث ابن مسعود ٦/٤٨١، ٨٩٨٤، وابن عدي في الكامل: ٢/٢٨٧. وأورده القاضي عياض في الشفا. ولم يرفعه إلى الرسول ﷺ (الشفا: ٢/٢٩).

فما جُبلت عليه من الفضائل أراح من مؤونة معاناته ومعالجته. نعم، يفيد هذا الطريق تحسين الوجهة بذلك إلى الله تعالى.

وما جُبلت عليه من الرذائل لزم الأخذ في معاناته والعمل على معالجته بكل وجه يمكن الوصول إلى ذلك به، ومعنى التخلق - من: تَفَعَّلَ - وهو تكسب الأخلاق الحميدة، ولا تكسب الأخلاق الحميدة إلا بالعدول عن أضدادها، ولا يكون العدول عن أضدادها إلا بالأمور التي تشق على النفوس من رياضة ومجاهدة وغير ذلك.

فإطلاق الجبلات في حب المحسن، وبغض المسيء، وغير ذلك، من غير تقييد بضابط الشرع وقانون السنة، وحفظ الأدب مع الله تعالى، من الجبلات التي يلزم النزوع عنها، وطهارة النفس منها، والحديث، إنما أشار إلى بعض ما جبلت عليه النفوس إخبارًا لا حكمًا، كقوله: «الرضاع يغير الطباع» والنظر في المذموم من ذلك والمحمود شيء آخر.

فوظيفة من ذاق طعم مبادئ توحيد الأفعال في منزل الإخلاص، أن يرى الأفعال كلها - ونعني بالأفعال جميع حركات الموجودات وسكناتها - صادرة عن الله، واردة منه، نافذة بقدرته وإرادته وحكمته، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه ولا غالب لقدرته، ولا ناقض لحكمه، يفعل ما يريد، ويحكم ما يشاء، تعالى أن يكون في هذا الوجود ما لا يريد، وتقدس عن أن يظهر في الأكوان ما لا يشاء، رؤية يقينية باطنية ثابتة، حتى يصير ذلك صفة قائمة في نفسه، لا يشغله عنها شاغل، ولا يمنعه عن التصرف بمقتضاها مانع، وهذا هو المعبر عنه بالذوق. وإذا حصل الاتصاف بهذا المعنى لصاحب هذا المنزل، فقد حصل على قاعدة عظيمة من معنى التوحيد، وظفر بحظ كبير من أسراره، والله يفتح له فيما وراء ذلك، وهو الفتاح العليم.

❖ نتيجة:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة، اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة:

• **الأولى: الزهد**، ونعني بالزهد: «خلو الباطن من الميل إلى فانٍ، وفراغ القلب من الثقة بزائل»؛ تنزهًا عن الاشتغال بمضمون؛ لأن ذلك مما لا يعني، وتفرغًا إلى عمارة الوقت بالمهم الباقي الثابت، وإن كانت اليد معمورة بمتاع حلال؛ فعلى سبيل العارية المحضة، وتصرفه فيه تصرف الوكالة الخاصة، ينتظر العزل مع الأنفاس، وذلك ينفي عن النفس التعلق بما يزول، وهو حجاب يجلب الأفكار ويدعو إلى الأغيار، ويصد عن الأسرار.

• **الثانية: التوكل**، وهو: «ثقة القلب بالوكيل الحق، تصديقًا بوعده، وسكونًا عن الاضطراب مع اضطراب الأسباب، تعويلًا على المسبب»، ولا يقدح في التوكل تلبس الظاهر بالأسباب، إذا كان القلب فارغًا منها حال وجودها وعدمها، وقد أثنى الله تعالى على من لا تشغله تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وذلك ينفي عن النفس الركون إلى الخلق ذهولًا عن الحق، والتعويل على الأسباب غفلة عن المُسَبِب، والجنوح إلى تأثير العادة.

• **الثالثة: الحياء**، وهو: «تعظيم الله ﷻ بدوام ذكره، والتزام نهيه وأمره، والإمساك عن الشكوى به إلى غيره»، وذلك ينفي عن النفس السخط فيما يضاد الطباع، مما تجري به الأحكام، والانبساط الباعث على تضييع الحرمات، وتبديد الأوقات.

• **الرابعة: الغنى**، وهو: «غنى القلب بسلامته من فتن الأسباب، والإذعان لمسالمة الحكم، والخلاص من الخصومة»، وذلك ينفي عن النفس الاعتراضات على أحكام الخالق بتعليلات فارغة وشرك خفي: «لو كان كذا لكان كذا»، و«لو» عند السالكين، حرف مهجور؛ لأنه يجذب مواد الشرك ويدخل في دهليز الفضول.

• **الخامسة: الفقر**، وهو: نفض اليد من الدنيا، ضبطًا أو طلبًا، وسكوت اللسان عنها مدحًا أو ذمًّا»، وإن كان الظاهر يشير إلى الغنى، فالمعنى في المعنى، فكم من فقير غني، وكم من غني فقير، وذلك ينفي عن النفس الميل إلى الإكثار بالتأويل، ويصونها من موارد الأنكاد والأغيار.

• **السادسة: الإيثار**، وهو: إيثار الخلق على نفسه بما لا يذمه الشرع، وذلك ينفي

عن النفس رعونة الشح، وسموجة[1] المقاشحة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩] حتى لا يأسى على فائت، ولا يفرح بآت.

• **السابعة: الفتوة**، وهي: «التجافي عن الخلق، والإحسان لهم ولو ببذل السلام، وتصفية الباطن لهم على كل حال»، وهي فوق المسالمة، وذلك ينفي عن النفس تراكم سحائب الأحقاد في سماء إخلاص القلوب، وتخاطم سيوف المعاتبة في ميدان حقيقة التوحيد، والانفعال إلى حادثات الأسباب.

• **الثامنة: الشكر**، وهو: إفراد القلب بالثناء على المنعم الواحد الحق، بإمحاض القصد، وتصفية السعي من شوائب عثرات الخطرات، هذا في السراء خاصة، وأعلى من ذلك جريانه في السراء والضراء على حد سواء، بتلمح النعم في طي النقم، وصاحب هذا المنزل يضعف عن حمل أعبائه، وفي منزل الصدق يستكمله، وذلك ينفي عن النفس التناوم عن تلمح حكمة الأحكام، والتعامي عن استبصار أسرار نظم الوجود بما لا مطمع فيه للعقل.

• **التاسعة: العبودية**، وهي فوق العبادة، ودون العبودة؛ لأن العبادة صادرة عن علم اليقين، سبيلها مقام الإسلام، والعبودية واردة من عين اليقين، طريقها مقام الإيمان، والعبودة آتية من حق اليقين، منهجها مقام الإحسان، فالعبودية تكليف الباطن أحكام ما وقف عليه القلب بعين اليقين من حقائق التوحيد، وذلك ينفي عن النفس عوارض الشكوك وطوارق الأوهام.

• **العاشرة**: الخُلُق، وهو أعلى من التخلق الخاص بمنزل الاستقامة؛ لأن التخلق تفعل، وهو طلب الخلق بما لا يخلو عن كلفة وحمل مشقة، أصله الاقتداء وسبيله العلم، وأما الخلق، فهو صادر عن ذوق وتحقيق بأن: الخَلق بأقدارهم مربوطون، وفي طاقتهم محبوسون، وعلى الحكم الإلهي موقوفون، وإن جميع تصاريف الخلق على اختلافها، اقتضتها حكمة نظم هذا الوجود وارتباطه، ومع ذلك فلا تتحرك ذرة فما فوقها، ولا تسكن إلا بالقدرة القديمة، والإرادة الأزلية، والحكمة البالغة، وإذا تحكم هذا المعنى في النفس، وقام وصفًا بها، أثمر الخلق الجميل والحمد الحسن،

---

(١) سماجه وسموجة: قبح، فهو سميج وسمج وسمج. المعجم الوسيط (١/٩٢٦).

وذلك ينفي عن النفس وهن الشرك وشعب الإشراك.

• **الحادية عشرة: الموافقة**، ونعني بها: استعظام تصديق القلب بالغيوب، سكونًا إلى الأحكام، وذلك ينفي عن النفس التعلق بالأماني، وإرسال الفكر في الآمال.

❖ علامة:

واعلم أن من علامة هذه النتيجة: استواء المدح والذم من العامة.

وطهارة الباطن من الأحقاد من غير كلفة، ويعلم ذلك بالمجازاة على الإساءة بالإحسان، ونسيان الجزاء على الأعمال، لتعلق القلب بمن يصعد إليه العمل.

وتجرد الفكر عن الالتفات لاستحلاء نظر الخلق وإطلاق الثناء؛ لأن المخلص مطلوب بالتزام طريق العبودية مخلصًا من شوائب الآفات.

ولا أقول إن هذا خاص بتخليص النيات فقط، بل النيات بعض العبادات الباطنة التي تفتقر إلى الإخلاص في معاملة الواحد الحق، كما أن الإخلاص لا يختص بالخلاص من مؤونة الرياء فقط، لكن الرياء فرد من أفراده، لكنه أعظم تلك الأفراد وأكبرها.

ومنها: خروج القلب عن أوهام الخلق، إنسهم وجنهم، حيهم وميتهم، حتى لا يبقى للقلب تعلق بغير الله تعالى، و«الإخلاص سر من أسرار الله، يخص به قلب من شاء من عباده» كما قد جاء في الخبر[(١)].

وقد ينتهي الإخلاص إلى حد نسيان العمل والذهول عنه، استغراقًا في الوجهة إلى الله ﷻ، وأعلى من هذا: الغيبة عن رؤية الإخلاص في مناجاة الله تعالى، وذلك حين يكون مُخلَصًا لا مخلِصًا، فليس إخلاص أهل المشاهدات كإخلاص أهل المعاملات، هذا يتقلب في أوهاد التفرقة، وذاك يتبختر في حلل الجمع، وشتان ما بين الفريقين.

---

(١) أورده القشيري بسنده عن حذيفة على أنه حديث قدسي بلفظ: «الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي» الرسالة، ص: ١٠٤. عوارف المعارف ص: ٨٩ وص: ١٦٢ إحياء علوم الدين: ٣٩٧/٤.

❖ وصية:

وينبغي للمخلص في هذا المنزل أن تكون همته الآخرة، وهمه لله، وأمله في الله، وأن يقتصر على الضروري الذي لا بدّ منه من أمر الدنيا وما يتعلق بها من معاملات الخلق، وأن يؤثر الخلوة والصمت فيما يفضل له من أوقات ليله ونهاره عن ضرورات معاشه، وأن يتباعد عن أهل الدنيا، وأن يهرب من مخالطة أهل الغفلة، وأن يتهم النفس فيما تسارع إليه، وإن كان من أمر الآخرة، لما جبلت عليه من الخديعة والمكر، فرب شر لبسته بخير، وأن يدقق محاسبته إياها على النقير، والفتيل والقطمير، وأن يجتنب الأعمال الجهرية فيما لم تشرع فيه الجماعة، وأن لا يتعدى طور الخلق وعادتهم في الملبس والزي ونحو ذلك مما لا يجاوز حد الإباحة، فرب شخص خالف الكافة في بعض المباحات فاستدرجته النفس بذلك للشرك الخفي، وأن لا يعدل عن الاستخارة في جميع أموره، وأن يديم الفكرة في عجائب الوجود لتشتد بذلك عرى توحيده: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] إذ كل ما اشتمل عليه الوجود من صنوف الموجودات بما هي عليه من أفعال وصفات وذوات، يفصح بلسان الحال، ويترجم في كل الأحوال بصريح وحدانية الكبير المتعال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ﴾ [الإسراء: ٤٤] لواحد صنعها، ما الصنع لاثنين.

وليجمع بين طهارة الباطن وطهارة الظاهر، فلكل واحدة منهما تأثير في الأخرى، وليحذر الميل لغير الله تعالى، ومهما عاجلت الطباع إلى شيء مما يقدح في حال من أحوال منزله، ردها بزاجر الاستغفار، والحقير من ذلك خطير، والصغير كبير، مانع وحاجب عن فوائد ثمرة الإخلاص.

ولا يستبد بنظره في شيء من أحواله إلا بمطالعة قدوته والعمل بإشارته. كيف لا، وشعب الإخلاص مما يخفى على الأكابر، وتحار في تصوره البصائر، ليكون أبدًا ناظرًا فيما يصلح قلبه وفيما يفسده؛ فليلازم المصلحات، وليتباعد عن المفسدات، وليعلم أنه دخل في هذا الأمر مقدّمًا ما بين يدي نجواه قلبه لربه، وقبيح

أن يجعل في قلبه شركًا لربه، أو يأتي بالهبة ناقصة، أو يعامل الله بموهوب رديء، ومن الحكمة أن تكون المعاملة تناسب المعامَل بها، فليمط الأذى عن قلبه، وليهيئه بالطهارة لربه: «لن تسعني سمائي ولا أرضي ويسعني قلب عبدي المؤمن»(١).

ولا يترك أسباب معاشه بالوجه الجائز الحلال «فأطيب ما أكله المؤمن من كد يمينه» (٢) وفي رواية: «**من كسبه**»(٣) إنما يترك تعلق ذلك من قلبه، ومهما تعذر عليه سبب انتقل إلى سبب آخر حتى إذا تعذرت عليه جميع الأسباب، علم أن ذلك هو المراد منه ليواصل الوجهة إلى الله تعالى ظاهرًا كما واصلها باطنًا، وليكمل له سلوان الباطن عن الفكر في مضمون الرزق، ولا يحمله ما دخل قلبه من نور التوحيد على قطع الأسباب ثقة بالمسبب؛ فذلك خمار من النفس واستدراج من الشيطان، ليفسد عليه مشرب الإخلاص وفي بقاء ظاهره على أسبابه، تشحير وتخليص لما يدعيه من التوحيد، فمن تطهر باطنه من أدران أوهام الأسباب مع وجودها خير ممن تطهر باطنه من أدران أوهامها مع عدمها.

وليعلم أنه من أخذ في السفر إلى ربه، فليعد الزاد، وليحسن الاستعداد، فالقلب مركبه والذكر زاده، والفكر ريحه، والجوارح آلته، والمجاهدة بحره، والإخلاص سلعته، والله بغيته، والهدى نوؤه، والصبر مرساه، ومهما تعطل السير بعد المرمى.

فلا يرفع عن نفسه عصا التأديب، ولا يمهلها في الرياضة، ولا يسامحها في المجاهدة ولا يقبل منها خدع التأويل ومكر التسويل حتى يطمئن قلبه بالله، ويحصل على أمله من رضاه.

ولا يذهل عن حال جريان الذكر بين اللسان والقلب، فكلما تروح القلب إلى ما كان عليه قبل هذا في المنازل الفارطة من متابعة اللسان، أشار عليه بسوط

---

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» (١٦/٣).

(٢) رواه أحمد في المسند من حديث عائشة. ٢٤٠٢٥ و٢٤١٤١ ٢٥٥٩٩ وابن ماجه في السنن. ٢١٣٧ والدارمي في السنن: (٢٤٧/٢)

(٣) رواه النسائي (٢٤١/٧، رقم ٤٤٥٢)، وابن ماجه (٧٢٣/٢، رقم ٢١٣٧)، وأحمد (٣١/٦، رقم ٢٤٠٧٨)، وعبد الرزاق (١٣٣/٩، رقم١٦٦٤٣)، والبيهقي (٤٨٠/٧، رقم ١٥٥٢٥)، وإسحاق بن راهويه (٨٨٦/٣، رقم ١٥٦١).

الإخلاص ورده إلى مورد الاختصاص، حتى يكون اللسان هو الذي يتبع القلب في الذكر، وبالمواظبة على هذا المهيع، يصير ذكر القلب هو الغالب.

ولا يفارق الجد والحزم والمجاهدة على مكروهات النفس، فليس هذا الأمر الذي دخل فيه بالسهل الهين، ناهيك من أمر يزري بحالة الموت، لكن وراءه المُلك الدائم والعز المسرمد عز الهدى، ولذلك عز المطلب.

ولا يفارق العلم الذي به يُقوِّم طريقه، ويُسهّل سلوكه، وحذار حذار من التسامح في المتشابه فضلًا عن الحرام، والترخص في المباحات فضلًا عن المكروهات.

والصمت والخلوة والذكر والجوع أرفع دعائم النفوذ والوصول، فليصمت إلا عن الحق، وليخل إلا عن جماعة الدين، وليذكر متصلًا على كل حال، وليجع إلا عن مقدار ما يقوم به الأود ويقيم الظهر، ولا سبيل له إلى الوصال في الصوم، فذلك منهي عنه، وليقلل من الغذاء على سبيل التدريج الذي لا يخل، لئلا يسرع بالجسم إلى الهلاك، فيقع في الحظر، ولا باس أن ينقص من عادته التي كان عليها في منزل التقوى في الأكل قليلًا، بحيث لا تشعر به الطباع فتتأثر، و«**إِنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»[(١)] ثم لا يزال كذلك في كل منزل حتى يصل إلى منزل المشاهدة بأقل ما يمكن.

وللقوم في هذا ترتيبات ومقادير ينبغي ألا يركن السالك إلى شيء منها، ولا يعول على حال غيره؛ لأن الأمزجة تختلف، فرب مزاج يصلحه الصوم، ورب مزاج يصلحه الإفطار، ورب كثير من الغذاء لسالك يكون قليلًا في حق غيره، والمرجع في تقدير الأكل والشرب، والصوم والإفطار، وغير ذلك إلى نظر القدوة ﷺ؛ إذ لكل شخص اختصاص في ذلك بحال دون غيره.

وقد أدركت ناسًا ممن تعلق بهذا الطريق، واستبد في أكله بنظره ورأيه، متابعًا شره نفسه، حتى أنه بلغ يومًا مبلغ الهلكة، حتى سوي إلى القبلة، وحضره الموت من كثرة ما أكل، فبقي على ذلك حتى فرج الله عنه فعاش، ولو مات لم يأمن وعيد الله ﷻ لمن قتل نفسه، وأدركت آخرين في الطرف الآخر ممن استبد في صومه إلى نظر نفسه، وعمل في جوعه بشره هواها، حتى بلغ مبلغ الهلاك، ففقد

(١) رواه البخاري (٥٥٦٥) ومسلم (٤٠٢٧).

عقله، حتى جعل يتعرض للمحرمات ويلقي بنفسه إلى التهلكة، فبقي على ذلك حتى فرج الله عنه فعاش، ولو مات لم يأمن من عقاب الله المعد لقاتل نفسه؛ ولذلك وأشباهه جعل السالك الموفق زمام نفسه بيد قدوته ليجري به على سبيل العدل، ولم يكل ذلك لنظر نفسه؛ لئلا يوقعه شره هواها في المهالك فينقطع به.

وهذه الترتيبات التي أوردتها في أخريات المنازل ليست على معنى الحصر لما يلزم كل ذي منزل إنما ذلك إشارة لبعض المهم الوكيد من وصاياه النافعة له، الخاصة به وبنور منزله، يهتدي إلى سائرها فيعمل بها؛ لأن استقصاء جميع ما يختص بكل ذي منزل يؤدي إلى التطويل، وربما لم يحصل به الحصر لاختلاف الأحوال وتباين الواردات، وبمطالعة القدوة فيما جل أو قل يبلغ إلى المقصود، وينال المرغوب، ويظفر بالمطلوب، وبالله سبحانه التوفيق.

المنزل الثاني من مقام الإيمان

الصدق

بيان حقيقة الصدق وإيضاح معناه

اعلم جعلني الله وإياك ممن صدّق الله في معاملته، فظفر بأوفر حظ من عنايته أن الصدق هو تمكين الإيمان، وثاني منازله، قال الله ﷻ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] وقال النبي ﷺ: «**إن المؤمن ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»[١].

وليس المراد بالصدق هنا ما يعرفه العامة من صدق اللسان خاصة إنما المراد به قيام معنى الصدق بالنفس الذي يكون عنه العدل، وللعدل أفراد فروع وأحدها: صدق اللسان

فالصدق المشار إليه هنا هو صدق الباطن بتصفية مشرب التوحيد في معاملة الواحد الحق، ويقال لصاحبه في أول هذا المنزل: «صادق» وفي آخره: «صدّيق».

وحالة الصدق تنشأ عن كمال الإخلاص، وبينهما فرق، وهو أن الإخلاص يختص بنفي صفات الإشراك، والصدق يختص بنفسي صفات النفاق، ومعناهما متقارب، قال بعض العارفين: «الصدق عماد طريق السالكين، وباب حضرة العارفين»[٢].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/١٤٠، رقم ٣٨٦) ومسلم (٤/٢٠١٣، رقم ٢٦٠٧)، والترمذي (٤/٣٤٧، رقم ١٩٧١) وأحمد (١/٣٨٤، رقم ٣٦٣٨) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (١/٥٠٨، رقم ٢٧٤)، والشاشي (٢/٣٩، رقم ٥١٣)

(٢) قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁: لَأَنْ يَضَعَنِي الصِّدْقُ - وَقَلَّمَا يَفْعَلُ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرْفَعَنِي الْكَذِبُ وَقَلَّمَا يَفْعَلُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الصِّدْقُ مُنْجِيك وَإِنْ خِفْته، وَالْكَذِبُ مُرْدِيك وَإِنْ أَمِنْته.

=

قال: «وإن كان الإخلاص عبارة عن تصحيح عقد التوحيد بالتنزه عن دناءة الشرك، فالصدق له بمنزلة التشحير للذهب ينفي عنه عوارض النفاق، ويصفيه من كدرات الأوهام، وذلك أن الإخلاص لا يخلو عن مداهنة للنفس ومسامحة للهوى والصدق يذهب المداهنات ويدفع المسامحات؛ إذ لا يشم رائحة الصدق من داهن نفسه أو غيره فيما دق أو جل».

شرط كمال الصدق

ولا يكمل للصادق صدقه حتى يكون بحيث يموت، ولا يستحيي من سره لو كشف عنه، وإلى هذا أشار بعضهم بقوله: «الصدق صحة التوحيد مع القصد» وقيل: «لأن يبيت ليلة يعامل الله تعالى بالصدق خير من أن يضرب بسيفه في سبيل الله».

فالصدق من أسنى أحوال السالكين، وأنفعها في الخلاص من عوارض التوحيد، وهو عبارة عن صفاء في معاملة الله ﷻ من امتزاج الخواطر الجلية والخفية يقال: «هذا صادق الحلاوة، وهذا صادق الحموضة» إذا صفا طعم كل واحد منهما من شوب، وبلغ الغاية في نوعه، وبالله التوفيق.

فصل

في بيان شروط وآداب الصدق

وللصدق في هذا المنزل شروط وآداب:

* **أما شروطه فأربعة:**

• **الأول:** طرح العلائق القادحة في سبيل الصدق خروجًا عن الشواغل القاطعة عن الوفاء بإمحاض تصفية مشرب التوحيد من غير ترخص ولا تأويل؛ لأن الصدق أول صفقة يعقدها السالك مع الله ﷻ في بيع نفسه منه، ولا تحتمل صفقة البيع

=

وَقَالَ الْجَاحِظُ: الصِّدْقُ وَالْوَفَاءُ تَوْأَمَانِ، وَالصَّبْرُ وَالْحِلْمُ تَوْأَمَانِ فِيهِنَّ تَمَامُ كُلِّ دِينٍ، وَصَلَاحُ كُلِّ دُنْيَا، وَأَضْدَادُهُنَّ سَبَبُ كُلِّ فُرْقَةٍ وَأَصْلُ كُلِّ فَسَادٍ. أدب الدنيا والدين (١/٣٢٥).

من الله بخسًا ولا فسادًا، ولا يحمل فيها التواني والتثبط والارتياب؛ لأن ذلك ينافي صدق العزم، وينافر صحة القصد، ويذهب بشعاع مبادئ أنوار اليقين، فما يعرض من الشواغل أو يصد من القواطع، وإن كان مزخرفًا ببهرجة الجواز الملائم للطباع، فتلك بلية تذهب بوميض أنوار العزمات، وتشج جبين صحة القصد، وتجر إلى ركيك متابعة الهوى، وينبغي لمن باع نفسه من الله ﷻ وجاهد في الله حق جهاده أن يشد عرى عزائمه بلزوم ما لا يلزم، ذريعة لما يلزم، ويتجافى عن ما ينقص صفقته الرابحة من شعب الأهوية، وشعب الأوهام.

• **الثاني**: إسقاط حظوظ النفس في الوجهة إلى الله تعالى بإخماد نار الأهوية، وانقشاع سراب الآمال، ركونًا إلى نور الصدق، وتعويلًا على ثلج اليقين، ووقوفًا مع الواحد الحق من غير كسر لميزان الشرع، ولا عدول عن سبيل العدل، ولا خرق لحجاب الأدب، ولا إصغاء لحديث النفس.

• **الثالث:** تصحيح العزم، بإمحاض القصد في معاملة الرب، وسداد السعي بموافقة القلب، حتى يجتمع القصد والسعي على منهاج مقتضى التوحيد، ويتوارد الظاهر والباطن على سواء السبيل، وفاء بصحة العزم من غير ارتياب ولا التواء، ولا رجوع إلى ما رقي عنه حسًا ولا معنى، فإن الصدق لا يستقيم إلا على حرف واحد، مشدود الأزر برضا الله تعالى في الأعمال والأحوال والأوقات، وهي حالة من أحوال الصدق أرق من الشعرة وأحد من السيف، لكنها توصل إلى منزل الطمأنينة، إذ بضاعة مشرب الصدق تبلغ إلى لذيذ مشرب الطمأنينة، والشهد لا يدرك إلا بعد لسع النحل.

ولصعوبة أمر الصدق، وقف عنده أكثر السالكين، فلم يتمكنوا فيه، فضلًا عن أن يجاوزوه، لضعفهم عن القيام بوظائفه، لأنه عند نهايته يشير إلى توحيد الصفات الذي تحيرت فيه ألباب الأكياس، ودهشت عنده صافيات الأذهان.

الرابع: ملازمة الكتمان، غيرة على أسرار الرحمن، واحتياطًا لمداخلة الأوهام، فإن الصدق لله تعالى عمدته ترك الفضول بشخوص[1] بصر البصيرة في مطلع سر

(١) الشَخْصُ: سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد. يقال: شَخَصَ بصرهُ، فهو شاخِصٌ، إذا فتح عينيه
=

التوحيد. ولا شك أن هذا شاغل عن القيل والقال.

* **وأما آدابه فأربعة:**

• **الأول:** حفظ الوقت من الخواطر، وتصفية القلب باتحاد الضمائر، وتعلقه بعالم الأسرار.

• **الثاني:** تلمح الحِكَم من مختلفات الوجود عاقله وبهيمه، وناطقه وصامته، في طرفي السراء والضراء، باسترواح هبوب الأسرار من جنبات مختلفات الموجودات، تعاميًا عن كل هوى، وتصاممًا عن كل شاغل.

• **الثالث:** اتهام النفس مع وفائها في توفية حقوق الخلق من الذرة إلى الفيل، وما فوقهما من إنس وجن وملك، وناطق وصامت، وهي حقوق جاوزت حد العد، وأربت على الحصر، وبنور الصدق يهتدي إلى أصولها وفروعها بملاحظة حق الله في ذلك، وحفظ الأحوال وخلاص الأعمال.

• **الرابع:** ترك الاجتهاد بالتأويل، حفظًا لرسوم القوم من التغيير والتبديل. فهو وإن كان له نظر من وجه ما، فنظره مقصور، وعمله محجور وعقله مبتور. وبالله التوفيق.

ذكر التنزيه هو الذكر الخاص بمنزل الصدق

اعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو التنزيه. فقد علمت بأن المراد بالصدق هنا: هو تصفية مشرب توحيد الأفعال، حتى يبلغ غايته، وتصفيته تكون بطرد الأوهام ونفي العلل والأسقام؛ لأن توحيد الصفات لا يدرك إلا بعد حصول كمال توحيد الأفعال. وإن كان توحيد الصفات دون توحيد الذات، فأمره عظيم وخطبه جسيم، ومرقاه رفيع، وستأتي الإشارة إليه في موضعه إن شاء الله.

فإن قلت: وهل يبقي النفي والإثبات المستفادان من معنى التهليل نقصًا في توحيد الأفعال حتى يحتاج إلى تكميله بالتنزيه؟

=

وجَعلا لا يَطرِف، الشخوص: الارتفاع، والمقصود هنا: أن يطمح السالك ببصيرته في مطلع سر التوحيد بحيث لا تنصرف ولا تتوجه لغيره.

فالجواب: أن مطلق النفي والإثبات، وإن كان مقتضيًا من حيث العموم تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، فقد يبقى مع ذلك من الأوهام ما لا يذهب به إلا خصوص مقتضى التنزيه، لأنه الذكر الذي يتضمنه صريحًا بوجوب ما يجب لله، وجواز ما يجوز عليه، وإحالة ما يستحيل عليه، وهذه أحكام يفيدها ذكر التسبيح، خصوصًا وإن كانت مندرجة تحت عموم كلمة التهليل، ومع ذلك فقد تذهل الفكرة بما تقتضيه الطباع البشرية عن استصحاب معنى الأفعال الأحدية ميلًا إلى المألوف البشري، ولا شك أن ذلك ينفي أوهامًا تكدر مشرب توحيد الأفعال، فلا يخلص من ذلك إلا ما اقتضاه ذكر التسبيح من تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، حتى يبرز إلى الفعل ما كان حاصلًا بالقوة، وحتى تثبت رسوم توحيد الأفعال في النفس، وترسخ فيها خالصة من الكدرات، صافية من الأوهام، صادقة في الاتصاف بمقتضاها، قال بعضهم: «التنزيه توحيد خاص يسلط على تصحيح التوحيد العام»، ومعنى الخصوص هنا والعموم راجع إلى ما يقتضيه النفي لا إلى ما يقتضيه الإثبات؛ لأن المُثبَت واحد والمنفِي أعداد.

فظهر أن منزل الإخلاص يختص برسوخ قواعد توحيد الأفعال في النفس، وأن منزل الصدق يختص بتصفية مشرب ذلك التوحيد من كدرات الأوهام، ويطرد سحائب الآفات.

وإذا تأملت موارد ذكر التنزيه من الكتاب والسُّنَّة وجدتها تشير إلى هذا المعنى، فليلازم صاحب هذا المنزل ذكر التنزيه حتى يثمر فيه الاتصاف بمقتضاه. وقد تختلف أحوال أهل هذا المنزل:

فمنهم: من يذكر التنزيه مركَّبًا مع ذكر التهليل، وهم الذين بقيت عليهم من منزل الإخلاص بقية - على مذهب من يرى استنهاض السالك لمنزل وقد بقي عليه شيء من المنزل الذي قبله - وهو مذهب مرجوح، لأنه خارج عن الحزم، وقد يذكر التهليل منفردًا والتنزيه منفردًا، من كل ذكر عددًا يقتضيه حاله. ولا يكون هذا إلا مع الضعف عن درك حقيقة الذكر في وصلهما.

ومنهم: من يذكر التنزيه من غير تركيب بغيره، والذي درج عليه أهل هذا الطريق تركيبه بذكر التصلية لمعنى، وهو توسل بالنبي ﷺ في فتح أبواب غوامض الصدق،

وأكثر ما يستعملونه في ذلك: «**سبحان الله العظيم وبحمده، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله**»، وليس في ذلك حصر ولا حد؛ لأن أحوال السالكين تختلف، وعللهم تتنوع، فقد يركب لهم التنزيه على اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته مما يقتضي نفي ما يعرض له من العلل، وطرد ما يعتريه من الأوهام، وهذا موكول إلى نظر القدوة ﷺ، فلا مطمع في الكشف عن جزئيات ذلك لتعذر الإحاطة به.

التحذير من ترك صلة الجناب النبوي ﷺ بذكر الله تعالى:

سمعت أبي ﷺ يقول: «إياك وترك الدليل في كل مقام»، يريد بذلك صلة ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى.

فقلت له: «وبالذكر المفرد»؟

فقال لي: «نعم وبالذكر المفرد، ولم يزل شيخي أبو القاسم المريد ﷺ يحض على هذا ويقول: هو مذهب شيوخ هذا الطريق».

ثم قال لي والدي: «وهل تنحفظ الرسوم الشرعية عند ورود الاستغراق في أسرار التحقيق إلا بذكر النبي ﷺ. مع ما في ذلك من تيسير الفتح وتسهيل الارتقاء، فبذكره تدرك الآمال وتقضى الحاجات». وهذه نكتة لم أر من تعرض إليها من أهل هذا الشأن، ولا أدري أذاك منهم كتمان على سبيل الصيانة لهذه الحكمة النفيسة، أم جهلًا بها؛ فجزى الله أبي ﷺ خيرًا، فلقد أرشد وبيَّن وأوضح.

فليفاتح صاحب هذا المنزل ورده بشيء من الاستغفار ولو بسبعين مرة، بكيفية تقتضي طرد الأوهام ونفي الأغيار،، ثم ليدرج إثر ذلك صلاة على النبي ﷺ، عددًا أقله خمسمائة مرة بكيفية تقتضي ذلك، ثم ليدخل لذكر التنزيه، وليلتزم منه عددًا يوظفه عليه قدوته، بحسب حاله وقوته ومزاجه، ولا يغفل عن الاستعاذة والبسملة في الافتتاح، والحمد والشكر في الاختتام.

وزبدة هذا المنزل الاقتحام على مواصلة الذكر وعمارة القلب به في كل الأزمان، متصلًا مع جميع الأحوال، وهو وإن استعمل لزومه محفوظًا بشروط الذكر

وآدابه، فليواصل الذكر في سائر أوقاته ليله ونهاره. ولا يحصل هذا إلا بالمواظبة والإدمان على تلمح معنى الذكر بالباطن مع الأنفاس ديدنًا وعادة، سواء كان ظاهره متلبسًا بعمل من أعمال ضروراته أو غير ملتبس.

وليكن هجيراه ذكر التنزيه، إلا إن كانت عليه بقية من منزل الإخلاص بالتهليل، أو كان قد استنهض ونفذ بذكر من منزل الطمأنينة حسبما وقع التنبيه عليه فيما مضى، ولا يزال كذلك حتى تظهر عليه شواهد قطع منزل الصدق، وتلوح عليه علاماته، وتهب من جنبات أحواله روائح ثمراته، والناس في النفوذ والفتح مختلفون، فمن بطيء ومن سريع بحسب الفتح الإلهي، بالهداية إلى محو العلل والإبلاغ في الخلاص منها؛ فطوبى للأكياس النجباء.

حدثني أبي ﷺ قال: «جئت الشيخ أبا القاسم يومًا، فقصصتُ عليه من أمري ما أوجب نقلتي من الذكر الذي كنت فيه إلى ذكر آخر على سبيل الارتقاء».

قال: «فقمت من بين يديه منصرفًا إلى منزلي، ذاكرا ذلك الذكر الذي أعطاني بناء على مقصده الخاص به، فما وصلت من رابطته إلى منظرة باب الخوخة، وبينهما نحو مائة باع، حتى ظهر لي من جنبات ذكري ما أوجب رجوعي من فوري إلى الشيخ لأخبره به، فرجعتُ إليه وأخبرته بما ظهر لي. فقال لي: هنيئًا لك يا ولدي، فقد فتح الله عليك في هذا الذكر بشيء لم يفتح به لغيرك ممن له في هذا الذكر عشرون سنة وأكثر».

قال: «فما برحتُ من عند الشيخ حتى رقَّاني إلى ذكر ثالث، وينبغي للسالك أن لا يسأم من طول مقامه في الذكر الواحد، فالسالك بخير على كل حال».

حدثني أبي ﷺ قال: «كان بعض أصحابنا ربما أبطأ به حاله فبقي على ذكر واحد زمانًا طويلًا؛ فقال يومًا للشيخ أبي القاسم: يا سيدي، كم أبقى في هذا الذكر؟

فقال له الشيخ: عمرك، حتى توفي ما عليك من وظائفه.

ثم قال له: وما الذي يقلقك من الدوام على ذكرك، وهل أنت إلا من الذاكرين الله الذين امتدحهم بذكره؟! والفتح إنما هو بيد الفتاح العليم».

فالمقصود إنما هو إخلاص كل منزل، تزكيةً وتحليةً. وهل الأذكار إلا أدوية

لعلل النفس، تخلص من أمراضها؟! فحسبُ السالك الاجتهاد في اعتدال العلاج، بحفظ الأعمال، وشدة المحاسبة مع الأنفاس. وبالله التوفيق.

مقصد ذكر التنزيه

اعلم: أن مقصد التنزيه في هذا المنزل هو القطب الذي عليه مداره، وإليه تنجذب أسراره، فليبدأ أولًا بالدخول إلى ذكر الاستغفار، بالاستعاذة قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «**لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، والعبد راكن إليك، في محو آثامه، ونفي أوهامه، يعاهدك على صدق المتاب، ويطلب منك الإعانة يا وهاب، ويقول متعلقًا بالصدق، متمسكا بالحق: اللهم إني أستغفرك يا مولاي وأتوب إليك من جميع الهفوات والخطرات، ومن جميع السيئات والغفلات**»، أو غير ذلك من كيفيات الاستغفار التي يقتضيها حاله، وليمض على ذلك إلى تمام عدده. ثم ليدخل إلى ذكر التصلية، فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] فليورد هذا الخطاب على نفسه وليجب عنه بـ: «**لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، والعبد متعلق بالنبي الصادق، متوسل به في درك الحقائق، يقول معظما لجنابه، متعلقا بركابه: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، صلاة تدخلني بها في زمر الصادقين، وتفتح لي بها باب الفائزين، وسلم تسليمًا**»، إلى غير ذلك من كيفيات التصلية التي يقتضيها حاله، وليمض على ذلك إلى تمام عدده، ثم ليدخل إلى ذكر التنزيه، فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: ١] فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، والعبد ينزهك صدقًا، ويوحدك حقًا، ويقول بإمدادك، وبما وهبته من إسعادك: سبحان الله العظيم وبحمده، وصلوات الله وسلامه على رسوله وعبده، وعلى آله»، أو غير ذلك من كيفيات التنزيه التي يقتضيها حاله، وليمض على ذلك إلى تمام عدده.

وقد تقدم لنا أن إعادة المقصد في أول كل دور من أدوار السبحة أولى، فإن اقتصر على مرة في أول عدد لزومه، فلا بأس بذلك، وإذا تمكن صاحب هذا المنزل وأشرف على تخليصه، فلا بأس أن يركّب له مقصده على معنى يشير إلى جنبة الجمع، ليستيقظ وسنان[١] باطنه، فيظهر له شرف مقتضى الجمع، فيرغب فيه ويتضح له دناءة معنى التفرقة، فيرغب عنها؛ فهو وإن كان بحيث يضعف عن حمل أعباء الإشارة إلى الجمع، فليمزج له بما يبقي عليه أثرًا من التفرقة، وذلك أن حال الجمع حال جليل الخطر، عظيم القدر معدنه منزل المشاهدة.

فإن لم يرتض السالك له قبل وروده عليه، وإلا ربما اعتاص[٢] عليه مدركه وتعذر عليه مناله، وأعدل المنازل في تربصه لذلك منزل الطمأنينة، وأقواها تأثيرًا في ذلك منزل المراقبة، وأولاها بذلك منزل المشاهدة.

فإن قلت: وبما تكون الإشارة في المقصد إلى جنبة الجمع؟

فالجواب: أن من سلف من مشايخ هذا الطريق، كان لا يزيد في مقصد التوحيد، مهللًا أو منزهًا أو مفردًا، على قوله: «لله أذكر وبه أستعين»، شيئًا، فإذا أرادوا الإشارة بذلك إلى جنبة الجمع قالوا: «بالله أذكر وبه أستعين»، فعوضوا من لام الخفض باءه. وقد تقدم لنا أن ذلك وإن كان يقتضي المعنى المراد في كل الأحوال، فَردُّ جميع الأحوال إلى معناه ربما عسر على بعض السالكين؛ لأن اتفاق المعاني الكثيرة من اللفظ الواحد يحتاج إلى قوة تصور واعتدال فطنة. ولذلك ظهر لوالدي ﷺ أن يقرّب لكل واحد من السالكين ما يخصه من معنى المقصد بلفظ يدل عليه بسهولة، كتنويع كيفيات الأذكار، وتركيب الألفاظ على المعاني بحسب الأحوال، من الحِكَم التي قلّ اليوم من يُحكِمها؛ لأنها تستمد من بحار المعرفة التي مثالها الكبريت الأحمر[٣]، يُسمع به ولا يُرى.

فحسب السالك، أن يتلقى من قدوته قسطه الخاص به من الأقوال والأعمال،

---

(١) الوسنان: النائم الذي ليس بمستغرق في نومه. والوسن: أول النوم.

(٢) اعتاص الأمر: التوى وتشدد. الصحاح (٦/٢)

(٣) الكبريت الأحمر لغة: من الجوهر، ومعدنه خلف بلاد التبت، وادي النمل الذي مر به سيدنا سليمان ﷺ ويطلق هذا التعبير كناية عن ندرة الشيء ورفعة شأنه.

ويشد يده عليه، ويستثمر ثمرة مقصده بالتدبر والتفكر؛ فإن أُغمي عليه وأُغلق دونه، فذلك عن شيء من علل نفسه التي كسبتها يده، واقتضاها هواه، وعلل النفس منها ما يخفى إلا على أهل البصائر المنشرحة صدورهم بصرف هممهم إلى معاملة الحي القيوم جَدًّا وحزمًا، واعلم أن أسرار الأذكار خلف أستار الأفكار مفتاحها المقصد. والله هو الفتاح العليم، وبه التوفيق.

❖ ثمرة مقصد التنزيه:

اعلم: أن ثمرة مقصد التنزيه في هذا المنزل، هي رؤية جميع الواردات والكائنات كمالًا وجمالًا، بنفي التلوين، وطرد الأوهام، والخروج عن الاضطراب، سكونًا إلى الواحد الصمد، وعدولًا عن جميع الأغيار، مهما طمح بصر البصيرة إلى نظر بترجيح هوى؛ فنظره معلول مخدوع؛ لأن القلب إذا داخله الصدق الثابت الراسخ الصحيح، لا تزحزحه الأوهام، ولا تطرقه الأغيار، ولا تعتريه الإشكالات، كيف وصاحب ذكر التنزيه يروم الحلول بساحة الاستراحة حين يرمي عن ظهره أعباء الأوهام، فجميع الواردات عنده سواء، ولا فرق عنده بين حالة الموت وحالة الحياة، لتمسكه بطرف من الحياة الدائمة لما استنشق عبير نفحات الطمأنينة، ولولا ما بقي من آمال هذه الدار من تخليص ما بقي عليه من علل نفسه ليرد الأمانة إلى ربها طاهرة كحالها قبل التركيب، لاختار الموت؛ لتعلق قلبه وأمله بالله ﷻ، مع أن منزل الصدق يقتضي التنزه عن الأكوان؛ وقد قال بعضهم: «لا يبغض الموت إلا صاحب ريبة»، والصدق ينافي الريب، قال الله ﷻ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾ [البقرة: ٩٤].

وقد قال بعض أهل هذا الشأن: «ثمرة الصدق إيثار لقاء الله ﷻ على المكث في الدنيا؛ لأن الصدق يثير التعطش إلى لقاء الله ﷻ».

وقال بعضهم ﷺ: «ومهما أحب الصادق البقاء للازدياد من العمل، فذلك عقوبة ما فاته من الصدق؛ لميله عن الله إلى رؤية العمل».

وهذا القول عندي مرجوح، إلا إن أراد بالصدق ما هو أخص مما أشرنا إليه هنا،

وهو الذي ينشأ عن المحبة؛ لأن الصادق في هذا المنزل مشربه التسليم، فلا يختار على الله شيئًا من حياة أو موت أو غير ذلك، إلا ما اختاره الله له. غير أنه - للبقية التي بقيت عليه من نفسه - يجنح إلى إيثار الإمهال لقضاء ما بقي عليه من بقية نفسه على خجل؛ لأن التسليم والتفويض يأبيان إيثار شيء غير ما تجري به الأحكام.

وبهذا يظهر لك أن قول القائل: «ثمرة الصدق إيثار لقاء الله ﷻ...إلى آخره»، يُومئ إلى صدق أهل النهاية؛ لأن الصدق، وإن كان له خصوص بهذا المنزل، فهو عام في سائر المنازل كما هو غيره من سائر أسامي المنازل. فأهل المشاهدة الذين لم يتمكنوا حتى بلغوا منزل المعرفة - لورود أنوار المشاهدة عليهم وقتًا دون وقت - قد يغلب عليهم وارد الشوق، فيريدون تواصل تلك الأنوار بمفارقة الجسوم التي هي قواطع عن تواصل تلك الأنوار.

وإذا عُرِضَتْ إرادتهم هذه على محك النظر، لا تخلو عن شائبة قادحة في مشرب أهل المشاهدات؛ لكنهم مسامحون في نفحات المحبة الصادرة عن الشوق، مع أن إرادة وجهه الكريم لا قدح فيها؛ فقد امتدح الله بها قومًا؛ لأنه المقصود الذي عليه مدارهم وإليه ابتدارهم، وللصادق دلائل على صدقه غير ما أشرت إليه، كالأسرار المكتمة التي تلوح لهم، فيلزمه كتمها إلا عن سائر صنفه الصادقين. وبالله التوفيق.

❖ نتيجة:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة:

• **الأولى: التفويض**، وهو أعلى من التوكل، فإن التوكل إنما يكون عند وقوع السبب، والتفويض يكون قبل وقوع السبب وبعده، وهو: «تحقيق لازم الاضطرار من غير التفات إلى جنبات صفحات الأسباب»، وذلك ينفي عن النفس التأثر لآثار الحوادث، والالتفات إلى حركات التقلبات.

• **الثانية: الثقة**، ومعناها: «ثلج اليقين بما دارت عليه الأحكام، وثبت في أم الكتاب من توزيع الأقسام على الأنام، وجريان الأقدار في الوجود». وذلك ينفي عن

النفي تلجلج الأفكار فيما حكمت به الأقدار، ومشت الأقدام لما جرت به الأقلام.

• **الثالثة: التسليم**، وهو: «نزوع العقل من شغب التدبير فيما غابت عاقبته خلف أستار الغيوب»، وذلك ينفي عن النفس رعونة الميل إلى تحدث الهوى عما لعله يفوت فلا يحصل، أو يحصل فلا يفوت.

• **الرابعة: الرضا**، وهو: «سكون القلب بجريان الأقدار ونفوذ الأقضية، بترك انكماش الباطن لهبوب رياح المكاره، وإن عظم أمر الوارد»، وذلك ينفي عن النفس التقلب مع تقلب الواردات، والانفعال إلى ما خالف الطباع أو وافقها ميلًا إلى المألوف.

• **الخامسة: اليقين**، وهو: «توطن القلب على كل مضمون وموعود من قِبَل الحق تعالى، وهدوؤه من خفقان التقلب عند جريان الأحكام حين يسطع فيه نور التوحيد»، وذلك ينفي عن النفس مصادر الشكوك فيما ضُمن، وموارد العتاب على ما لم يُخلَق. سبحان الله أن يكون في ملكه ما لا يريد.

• **السادسة: القصد**، وهو: «الإزماع على التجرد عن القواطع والشواغل، استعدادًا للسفر إلى الله تعالى بخفة ظهر، والقدوم عليه بلا علاقة». وذلك ينفي عن النفس التواني مع الإلف، والتثبط مع العادة.

• **السابعة: الفهم**، وهو: «نور يضعه الله في قلوب الصديقين، يطلعون به على أسرار وحِكَم، وهو دون الفراسة، وأعلى من الظن». وذلك ينفي عن النفس كثافة الاستبصار المتولد عن توارد الخواطر.

• **الثامنة: حسن الظن بالله ﷻ**، وهو رأس بضاعة السالكين، ولا يصح ذلك مع الغفلة، كيف وحسن الظن يترجم عن صرف الهمة إلى الله تعالى! ولا يكون ذلك إلا برؤية جميع أفعال الله تعالى في الغاية التي لا غاية بعدها من الجمال والكمال، وقد جاء في الصحيح فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «أنا عند ظن عبدي بي»[1]. وذلك ينفي عن النفس تردد الأفكار بمراعاة الحظوظ، ميلًا مع الأوهام.

(١) جزء من حديث قدسي رواه البخاري من حديث أبي هريرة به. (٧٤٠٥) وأحمد من حديث واثلة بن الأسقع (١٦٩٥٠) وابن ماجه (٣٨٢٢) والترمذي (٣٦٧٣)

• **التاسعة: الحكمة**، وهي صادرة عن اعتدال عمود الفهم بفتح أبواب المعاني، وحل مقفلات أسرار أبواب الخطاب الحسية والمعنوية. وذلك ينفي عن النفس الجمود على الظاهرية المحضة العرية عن أوصاف الربانيين، وهو ضرب من ضروب الجهل.

• **العاشرة: الاستبصار**، وهو: «العثور على حقيقة العدل في التصاريف الإلهية من إعطاء ومنع، وقبض وبسط، وإماتة وإحياء، ونفع وضرر، وغير ذلك من الأضداد النافذة أحكامها في الخلق» وقد قيل: «إذا عاملت الله بالصدق أعطاك مرآة تبصر بها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة» وذلك ينفي عن النفس العماية عن تلمح أسرار الوجود وحكمة جريان الأحكام.

• **الحادية عشرة: التعظيم**، وهو تعظيم الحق سبحانه، بقطع الشواغل عنه، وتسليم الحكم له من غير عوض، وهذه الصفة تشهد للصادق ببذل النفس لله من غير عوض؛ لأن الأعواض حظوظ النفس، فحين بذل الأصل استتبعته جميع الفروع وذلك ينفي عن النفس الركون للحظوظ، طلبًا للأعواض، ومدافعة الأحكام بالعلم، وهذا مما ينافي الصدق.

❖ علامة حصول نتيجة ثمرة ذكر التنزيه في منزل الصدق:

ومن علامات حصول هذه النتيجة: استواء السر والعلانية، مع القيام بالعدل في كليهما في الحركات والسكنات، وذلك أن منزل الصدق يذهب بخصال النفاق ودقيقها وجليلها، إذ من شعب النفاق ما يخفى على غير الصديقين، وللمباحثة بالمناقشة في ذهاب ذلك تأثير، وقد كان عمر رضي الله تعالى عنه يسأل أحد الصحابة، وهو حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه فيقول له: أتظهر لك فيّ شعبة من شعب النفاق؟ وهذا من الحزم في اتهام النفس.

وإن كان من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل، فمن النفاق ما هو أخفى من خفي الشرك؛ لكن منزل الإخلاص إذا استعمل على شرطه فإنه يذهب بجميع شعب الإشراك، كما أن الصدق إذا استعمل على شرطه، فإنه يذهب بجميع شعب النفاق.

- **ومن علاماته أيضا:** الهيبة، قال بعضهم: «ثلاثة لا تخطئ الصادق: الحلاوة والهيبة والملاحة».

- **ومنها:** التنزه عن جميع الموجودات والمعدومات ثقةً بالمُوجِد المُعدِم.

- **ومنها:** السلوة عن الحذر والخوف، والرجاء واليأس، ونحو ذلك مما يتعلق بالخلق، لتعلق قلب الصادق بالله ﷻ.

- **ومنها:** قوة العزم على القيام بحقوق الله ﷻ بطرح حقوق النفس مع اتهامها بالتضييع مع الأنفاس.

- **ومنها:** استحلاء جميع الواردات باتساع الباطن، صيانةً له عن الانفعال للحادثات.

- **ومنها:** لزوم الكتم عن جميع المخلوقات، ما عدا القدوة ﷺ، حفظًا للصدق من شوائب الهوى.

- **ومنها:** حب الخلوة، استيحاشًا من الناس، وطلبًا للحرية بطهارة الباطن من الانفعال لشيء من الأعراض؛ لاستغراق قلبه في الشأن الذي شغله وأذهله عن ذلك كله.

- **ومنها:** غلبة الذكر على القلب، حتى لا يلهيه عن ذلك سمع المسموعات، ولا إبصار المبصرات، ولا سائر صنوف الحركات، حتى إن حركة اللسان بالذكر إنما هي بالفيض الذي يغلب عليه من القلب، ومع هذا الاستغراق في الذكر، فلا يخلو صاحب هذا المنزل عن بقية لا مخلص له منها إلا في منزل الطمأنينة؛ لطروق لمحات من الذهول عليه. لكنه كلما استشعر بشيء من ذلك من نفسه، فكأنما قارف كبيرة لما يحدث ذلك عنده من الانكسار والندم لكنه لا يخلو من ذلك في هذا المنزل كما قلناه، حتى يستكمل مقام الإيمان.

وفي ورود تلك الفلتات من الغفلات على قلوب أهل الصدق من الحكمة ما يحرك فيهم دواعي العزمات، ويقوي عندهم الحذر من المكر. ولأجل هذا ونحوه، لم يفارقوا الاستغفار على حال. وبالله التوفيق.

❖ وصية:

وينبغي للصادق أن لا يأخذ من الدنيا غير الكفاف، وأن لا يدخر إلى غد إلا إن

كان معيلًا، مع كونه لا يفارق ما يقوم به عيشه من الأسباب الظاهرة، ما لم تفارقه أو تُشِر إلى فراقه باعتياص مجاريها؛ فعند ذلك يعلم أن المراد منه تجريد الظاهر موافقة لتجريد الباطن.

وأن يلازم الخلوات والصمت مع إقامة رسوم الشرع في الخلطة والخلوة والصمت والكلام، وأن لا يفارق رؤية التقصير من نفسه على كل حال، وأن لا يعطي زمام انقياده لصاحب هوى، وما دعا إليه الأبوان من غير معصية فليعاملهما فيه بالموافقة، ولا يعصهما في معروف، ومن رزق حسن سياسة يتأتى له الجمع بين موافقة الأبوين وبين ما هو بصدده، فيحصل له الأمران ويثبت الحقان.

وإن فتح عليه بشيء من مرافق المعاش، نظر في أصوله وفروعه، فما وافق حاله قَبِل منه مقدار كفايته، وصرف الباقي على صاحبه، وإن خالف مشربه الصديقي ردَّه على صاحبه. كما حدثني أبي قال: «بلغتْ بي في بداية أمري فاقة شديدة، أدركتُ أنا وأمي منها الجهد؛ فجئتُ يومًا من زيارة المقابر، فوجدتُ في منزلي وعاء فيه مجبنات بسكر في غاية احتفال[1] العمل، فقربتها والدتي إليّ، فقلتُ لها: من أين لك هذا؟ قالت: أهداه لنا رجل يزعم أنه يعرف بفلان.

قال والدي: فنظرت فإذا في مال ذلك الرجل شائبة ضعيفة، لكنها تكدر مشربي الذي كنت فيه من الصدق.

قال: فأخذت ذلك الوعاء بجميع ما كان فيه، وخرجت به لبعض أصحابي فقلت له: رد هذا لفلان، فإن تعذر عليك، فتصدق به فيمن يظهر لك. قال: وربما وجدت والدتي لذلك شيئًا؛ لكنها وافقتني على نظري. فما كان إلا أن بقينا على حالتنا من الجهد ذلك اليوم إلى المساء. فبينما أنا متوجه أذكر في المسجد الذي كنت أؤم فيه بين العشائين، وبابه علي مسدود، وإذا بالباب قد فتح، فدخل عليّ شخص حتى جاء حذائي، فجعل بين وجهي وركبتي شيئًا. فلما أتممت وظيفتي نظرت، فإذا قرطاس فيه دينار ذهب وقطعة من العود الرطب. فقلت في نفسي: هذا فتوح يشير بحليته هذا العود الطيب.

(١) الاحتفال: المبالغة.

قال: فدخلت بذلك على والدتي، فدفعته لها وقلتُ لها: قد عوضنا الله بخير مما خرجنا عنه من أجله، خذيه وصرفيه فيما يظهر لك.

وينبغي له أن لا يداخل أحدًا من أهل الدنيا في غير شأنه الضروري الشرعي، ولا يسترسل في خلطتهم. وكد من ذلك، مجانبة أهل الغفلة والفتن واللهو، وليُجْرِ أحواله كلها على منهاج الترتيب من أكل ونوم وقيام وذكر وغير ذلك من تصاريفه، حتى لا يميل عن العدل، ولا يخرج عن العزم والضبط.

ولا يلهج بما يلوح له من اللوائح ونحوها، وليصرف همته عن ذلك إلى ما وراءه، وليعمر أوقاته بتواصل الذكر على كل حال، وليكشف بقدوته عما يظهر له بوصف معتدل عري عن الميل إلى شيء من الأوهام، وليعلم أن ما يَرد عليه من الواردات، منه ما يكون عن فساد خيال، ومنه ما يكون عن مكر من الشيطان، ومنه ما يرد مورد المحنة والاختبار.

والشيء الخالص الصافي من ذلك، إنما هو شيء مضاف إلى ما تضمنه ذكر الله من الخيرات التي ظهرت على الذاكر، يشبه العارية، والواثق بشيء من ذلك مغرور مفتون محجوب، والحق وراء ذلك كله، وقد ضل كثير من الناس من هذا الوجه. نسأل الله تعالى الوقاية من العماية، والسلامة بدوام الاستقامة.

وفي الموجودات من العجائب الجارية مجرى الكرامات، ما يذهل العقول، ويشد عرى التوحيد ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] لكن الركون إلى الإلف والعادة غطى بصر البصيرة عن تلمح ما يجري به الليل والنهار من العجائب الإلهية، والأسرار الربانية. جعلنا الله من خواص عباده، ولا عدل بنا عن رشاده بمنه.

المنزل الثالث من مقام الإيمان
منزل الطمأنينة

اعلم رزقني الله وإياك في الطمأنينة قدمًا راسخًا، ومقامًا شامخًا، أن ثالث منازل مقام الإيمان: الطمأنينة، وهي نهايته، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

والطمأنينة: «سكون القلب إلى ثلج يقين يشبه العيان، عار عن التقلب والاضطراب»، وفي هذا المنزل ينفض السالك رجله من قيود الغفلة، ويحصل في مأمن الاختصاص، ويشم روائح الوصلة، وهو أول منزل من منازل المراد، وأول لبسة ينالها من الاتصاف الملكي، وفيه تهب عليه نواسم حقائق توحيد الصفات وفي أول منزل من منازل مقام الإحسان يكمل له توحيد الصفات - حتى لا يَرِد على منزل المشاهدة إلا بتوحيد الذات، وقد تقدم لنا أن توحيد الأفعال وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات، كل ذلك راجع إلى اختلاف مراتب التوحيد، وإشارة إلى أن بعض هذه المراتب يسبق بعضها وورود معارف ذلك على السالك، أعني المعارف الذوقية؛ لأن الإيمان لا يقوم إلا بالعلم اليقيني الذي لا شك فيه أن الله تعالى واحد في أفعاله، واحد في صفاته، واحد في ذاته.

والعلم بهذا، لا يتبعض ولا يتجزأ، إنما المراد بأقسام العلم الثلاثة أن معارفها الذوقية لا ينالها السالك دفعة واحدة، لكن تَرد عليه أولًا معارف من معاني أفعاله تعالى، ثم تَرد عليه ثانيًا معارف من معاني صفاته، ثم تَرد عليه ثالثًا معارف من معاني ذاته.

ولا شك أن معارف صفاته تعالى غير معارف أفعاله، كما أن معارف ذاته غير معارف صفاته؛ لكنه بالعثور على معارف الأفعال يتقوى على درك معارف الصفات، وبالعثور على معارف الصفات يتهيأ لنيل معارف الذات.

والسالك إذا خرق حجاب هواه: انبلج له شعاع من أنوار التوحيد يدرك به آثار أفعال الله في مجاري حكمها، وإبداع تصاريفها، فإذا تمكن في ذلك ورسخت قدمه فيه؛ انفتحت له أبواب يطلع منها على حقائق معاني صفاته بالعلم اللدني، إلى ما تقصر عنه العبارة، وتدق فيه الإشارة.

فإذا تمكنت أسرار ذلك كله من الروح، وتقعدتْ كل التقعيد بالاطلاع القطعي والفتح الرباني؛ أورثت الروح ثباتًا، وأكسبه قوة، فأشرف على البحر الزخار من معنى توحيد الذات المقدسة، وبحسب قوته يكون تلججه في ذلك البحر، وبقدر تلججه فيه يكون غوصه على يواقيت أسراره، وجواهر حقائقه. وعند ذلك يفنى الوجود بأسره، ولا يبقى غير موجده القديم. وإن كانت هذه الحالة - مشارًا إليها بالذكر - مسطورة في الكتب، فهي أغرب وجودًا من الكبريت الأحمر. وسأستقصي ذكر ما تسمح به العبارة من ذلك في موضعه من منزل المشاهدة إن شاء الله ﷻ.

وإذا عرضتَ هذا كله على قواعد الكتاب والسنة، تجده موافقًا غير مخالف، ولولا العدول عن التطويل؛ لأوردت لذلك من الأدلة ما يشفي العليل، ويبرد الغليل، مع أنا لم نَبْنِ الأمر في هذا الكتاب، على نصبه نصب الجدال واستقصاء حجج المقال، إنما هو مجموع لإفادة أهل هذه الطريقة، الموافقين عليها، المحبين فيها، بناء على ما أسسه السلف وأوصله المشايخ رضوان الله عليهم.

من الحكمة مخاطبة كل إنسان بما يحمله عقله:

ومن الحكمة: أن لا تفتح أبواب المذاكرة بعلم مع غير أهله؛ لبعدهم عن اصطلاحاته وجهلهم بقواعده، وأصوله وفروعه، وكذلك أهل البدايات، ينبغي أن لا يفاتحوا بأحكام النهايات؛ لأن حالهم تأبي القبول على ما لا يعرفون له ذوقًا، ولا يفهمون له إشارة؛ فالأحق والأولى مخاطبة كل إنسان بما يحمله عقله، وتقتضيه معرفته. وإلى ذلك الإشارة بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**خاطبوا الناس على قدر عقولهم**».

فإذا تقرر هذا، فطمأنينة القلب بذكر الله تعالى هي غاية مقام الإيمان، كما أن طمأنينة الجوارح بحفظ حدود الله، هي غاية مقام الإسلام، وهي المعبر عنها بالتقوى، كما أن طمأنينة الروح بالله ﷻ هي غاية مقام الإحسان، وهي المعبر عنها بالمعرفة.

وذلك أن القلب إذا تعمّر بذكر الله ﷻ متصلًا مع الأنفاس على سبيل الإخلاص ومهيع الصدق، فإن كل حركة أو سكنة، ظاهرة أو باطنة تُعرب عن حقيقة الذكر الذي عمر قلبه، فلا يظهر عليه إلا ما يقتضيه ذكره الدائم اللازم، وهذه حقيقة الذكر التي تشير إليها جميع وسائله. فهو ذاكر وإن صمت اللسان، كما قال القائل: «**فنحن صموت والهوى يتكلم**».

لكن حسن العهد من الإيمان، واللسان عهد بما وصل إلى القلب من الذكر بسببه، فينبغي أن يحفظ له عهده، فيصرف بحركة الذكر ليحصل له حظه من الأجر. وهو مع ذلك بتواصل حقيقة الذكر في قلبه لا يمر على سمعه أو بصره أو فكره شيء إلا وهو متلمح سر حقيقة الذكر من جنبات ذلك كله، لا يشغله عن ذلك ما تلبس به ظاهره من أعمال ضرورات معاشه ونحو ذلك؛ لأن سعيه لذلك جار على مهيع الذكر، راجعة إليه مقاصد تصرفاته. وبهذا المعنى يستصحب حال الذكر، وهي علامة اختصاصية ونفحة قدسية تعرب عن القبول، وتفتح بابًا للوصول.

فصل

في بيان آداب وشروط الطمأنينة

واعلم أن للطمأنينة في هذا المنزل آداب وشروط؛ أما شروطها فأربعة:

الأول: نفي جميع الهموم عن القلب حتى يصير همه واحدًا للحي القيوم. والهم أعظمه الاستغراق، وأقله خطرة واحدة. فإذا تصفى القلب بالذكر حتى يحل منه محل الخطرات، ويعود الذكر جاريًا مجرى حديث النفس؛ فعند ذلك يطمئن القلب بذكر الله، ويحصل له من ذلك تهيئة لمطالعة الأسرار الربانية والحقائق الإلهية والمنح القدسية. وذلك سر قوله ﷻ: «لن تسعني أرضي ولا سمائي، ويسعني قلب عبدي المؤمن».

الثاني: غسل القلب من تبعات الأوهام، وطهارته من آثار الهوى، فإن منزل المراقبة التالي لهذا المنزل، يأبى إلا الطهارة والتخلق بالأخلاق الملكية، حتى لا يبقى عنده تشوف، ولا أمل إلا لمطالعة جمال الحضرة الربانية، ولولا ما له في الذكر من الشفاء من مزعج الشوق، لا نفطر فؤاده بتصاعد الأنفاس.

الثالث: نبذ هواجس الآراء، تعويلًا على الحق، واتهامًا لنفسه، فقد يغر صاحب الطمأنينة ما فتح له فيه من طهارة نفسه، فيعول على آرائها، وهو بالبقية التي بقيت عليه من آثار الأوهام البشرية، ينبغي له أن لا يأمنها ما لم تبلغ قُنَّة ربوة الخلاص الحاصل في آخر منزل المراقبة، حين يلقي عصا التسيار في تصفية النفس. وقد انخدع بعضهم بما بدا لهم من وميض رونق الطمأنينة، ولم يشعروا بخفي البقية التي بقيت عليهم حتى ضلت أحلامهم، فوقعوا في عقوق قدوتهم؛ فكان حدهم، بل انتكسوا ورجعوا القهقرى.

والسالك محجور في نظره، ما لم يحصل على بينة من ربه. فينبغي له أن لا تطمح نفسه للاستبداد بما يهب على قلبه من نفحات الأسرار؛ فذلك مكر يجر إلى الوبال ويدعو إلى الخسران، والحق وراء ذلك كله.

الرابع: مراعاة الرسوم الشرعية قيامًا بالوظائف الدينية، وتحكيم أحكامها في الباطن والظاهر، حتى لا يتحرك حركة ولا يسكن سكنة إلا على أصل شرعي، وأساس سني.

قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] وذلك أن منزل الطمأنينة هو مبدأ مطالع أسرار الحقائق، فقد يذهل القلب بورود ما يرد عليه من الحقائق، عن التلبس بأمر من أمور الشريعة، وذلك فتنة.

لا يجمع بين الحقيقة والشريعة إلا من أيّده الله بذكر نبيه ﷺ:

ولا يجمع بين الحقيقة والشريعة إلا من أيده الله بروح قدسه، واهتدى لذكر نبيه ﷺ؛ لأن القلب عند توالي سلطان الحقيقة عليه، يُملَك أمره ويهد أركانه، فربما ضاق نطاقه عن حمل أعباء وظيفتي الحقيقة والشريعة وصعب عليه، لا سيما لأول

وهلة في هذا المنزل، لورود ذلك عليه فجأة واحدة، تصدمه فتذهله، وفي طي ذلك فتنة لا عاصم منها إلا من رحم الله وقد ضل ناس بهذه الفتنة عن سواء السبيل، حين فارقوا الدليل، ووقعوا في التغيير والتبديل.

بيان آداب الطمأنينة

* **وأما آدابها فأربعة:**

• **الأول:** الحرص على العمل الظاهر والباطن بالتزام الأدب وحفظ الوقت، ولا شك أن من الأدب التشمير في طريق العبودية عن ساق الجد، وإن كان صاحب هذا المنزل قد شم أول روائح الحرية، فأعظم الناس حرية أعظمهم اجتهادًا وأشدهم عزيمة، ولو لم يبق إلا شكر المنعِم، وإلى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ - وقد قيل له في تورم قدميه من طول القيام في الصلاة -: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(١). وأكيس الناس وأنجبهم من لم يحمله إدلال المحاضرة على هتك أستار العبودية، فعلى قدر القرب يكون الاجتهاد في العمل والتزام الأدب. فليس ما يطلب به الوزير من القيام بالخدمة والتزام الأدب مثل ما يطلب به سواه ممن هو دونه في الرتبة، كما أن الذي يؤاخذ به من الذنوب، ليس كالذي يؤاخذ به غيره. وقد قالوا: «سيئات المقربين حسنات الأبرار».

• **الثاني:** مباحثة الأنفاس بالتصفية خشية الفضيحة عند ورود سلطان المراقبة، إذ لا يحمل أعباء المراقبة إلا باطن صاف من كدرات الخطرات النفسية، وكأن منزل الطمأنينة هو المنزل الذي يتهيأ فيه المسافر إلى الله تعالى بالطهارة والتجمل للدخول إلى الحضرة الإلهية؛ لأن مقام الإحسان كله مقام الوصلة بما تضمنته المراقبة والمشاهدة والمعرفة. فلا بدّ من المبالغة في التصفية والإجادة في التطهير مع الأنفاس في الخطرات واللحظات.

• **الثالث:** أن لا يشغله سكون الطمأنينة عن حركة الانتهاض إلى مبادئ المراقبة، والسعي إلى مرقاها؛ لأن طالب الله لا يقنعه دونه شيء، فلا يزال يدرج إلى

---

(١) رواه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم: (٧٩).

الهضبات الإحسانية حتى يحصل في حضرة المقربين.

• **الرابع**: خمود نار الفكرة بوارد نور معنى الذكر من غير أن يبلغ به مبلغ السكر، والمراد منه أن يرد على معنى الذكر مورد اعتدال من غير قوة إقدام ولا ضعف توان ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وليعلم أن صدمة التوحيد في هذا المنزل ربما جاءت على فجأة من غير استعداد، فيخرق ستر الوقار، وذلك من دلائل ضيق العطن، والكمال أن تتراكم عنده أمواج بحار توحيد الصفات وهو ساكن، وإن ضعف عن هذا، ففي منزل المراقبة يحصل عليه بسهولة. والانزعاج أسرار الأذكار، ويذهب بنشاط الأفكار.

ذكر الذكر المفرد: هو الذكر الخاص بمنزل الطمأنينة:

اعلم أن الذكر الخاص بهذا المنزل هو الذكر المفرد، ونسبة هذا الذكر لهذا المنزل كنسبة التهليل لمنزل التقوى، كما استعمل التهليل في منزل التقوى ليستأنس بمعناه لما يرد عليه في منزل الإخلاص من التوحيد، كذلك هنا يستعمل الذكر المفرد ليستأنس بمعناه لما يرد عليه في منزل المراقبة وما بعده على سبيل المفاتحة بالذكر الذي يؤذن بالجمع، ويعرب عن الوصلة، ويقتضي القرب.

وإن كان هذا الذكر خاصًا بمقام الإحسان؛ فقد قلنا أن نهاية كل منزل تشارك بداية المنزل الذي يليه، تتلوه في وجه ما، فلا بدّ أن يقع هذا الاشتراك هنا بمعنى ذكر واحد.

وأيضًا؛ فإن كان للذكر المفرد اختصاص بتوحيد الذات، فيندرج تحت معناه توحيد الصفات، فما يَعرِض له في ذلك من العوارض التي تكدر مشربه سلط عليه ذكر صفة من الصفات التي تقتضي نفي ذلك العارض مضافة إلى الذكر المفرد، حتى لا يرد على توحيد الذات إلا وهو قد تخلص من جميع الأوهام بما تقتضيه الصفات.

وقد تقدم لنا أن توحيد الصفات يختص منزل الطمأنينة ببدايته، كما يختص منزل المراقبة بنهايته، وإن كان توحيد الصفات أقرب مرامًا من توحيد الذات، فلا مطمع لأحد في الإفصاح عن أسراره والكشف عن حقائقه؛ لقصور العبارة عن

ذلك، ولا مطمع في دركه بغير الذوق لخفاء معناه وغموض أسراره، ولذلك وقف كثير من السالكين في أول هذا المنزل حتى لم يقطعوه ولم يجاوزوه، لما فيه من البحار الزاخرة والطامات العظام، وقد تسمح العبارة بالإشارة إلى طرف من بدايته، والإشعار بصبابة يسيرة لا يجاوزها اللسان، ولا يسمح بغيرها الكتمان.

وذلك أن الله امتن على عباده - بعد منة إيجاده إياهم - بأن أوجد لهم في الوجود عن كل معنى من أسمائه وصفاته، صفات كثيرة خلقهم بها، وأمرهم بالتخلق بمقتضاها، وجعلها مع ذلك سبيلًا إلى فهم معاني صفاته، وينهى العقل عن ارتكاب مهوى الزيغ، والعدول عن العدل في ذلك؛ فأخذ العقل قسطه المقسوم له من معرفة ذلك في الأزل، فلم يجاوزه بالصفات التي خلق الله بها عباده، وأمرهم بالتخلق بها، كالعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والرحمة، والرأفة، والكرم، والجود، والإحسان، والملك، والقوة، وغير ذلك من الصفات. كلها أدلة واضحة يستدل بها على صفاته تعالى.

فلولا ما جبلت عليه طباع الآدمي من السكون للأوهام البشرية، حتى كان للإنسان من ذلك حجاب يصده عن الاطلاع على غوامض الحقائق، لتجلت شمس معاني صفاته تعالى ضاحية في أفق سماء القلوب، مصحية من سحائب الأوهام.

فلا جرم أن يُوحَّد الله ﷻ بصفاته القائمة بالذكر الذي يقتضي معناه: إفراد ذاته وصفاته بما هي عليه من القدم والكمال؛ حتى تنتفي الأوهام المنبعثة من جنبات صفات المخلوقين، ويستقيم عمود حقيقة ذلك من غير ترجيح وصف من أوصاف ذاته العلية على وصف، تعالت صفاته العليا المقدسة عن الزيادة والنقصان، هو: «الواحد الذات، الواحد الصفات، الواحد الأفعال، باينت صفاته صفات خلقه كما باينت ذاته ذواتهم»، ومن وراء هذه النبذة التي لا تسمح العبارة بما فوقها أسرار من توحيد الصفات، لا يعثر عليها إلا بسبيل الذوق والخلاص من كل شوب، ومهما طمحت البصائر إلى العثور على حقيقة السير الفائض على صفات الخلق من أنوار صفاته ﷻ، فينبغي لها أن تطرق حياء ممن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

بيان كيفية الذكر بالذكر المفرد ووصله بذكر الدليل صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله

فإن قلتَ: قد ظهر أن الذكر المناسب لهذا المنزل هو الذكر المفرد، فكيف يكون تناوله؟

فالجواب: أنه تقدم لنا أن وصل ذكر النبي ﷺ بذكر ربه، من الأمر الضروري، لا سيما في المواضع التي يحذر فيها من صدمات الحقيقة؛ لتنحفظ عليه إذ ذاك الرسوم الشرعية؛ فالوجه في وصله هنا بالذكر المفرد، أن يُنظر في حال صاحب هذا المنزل:

فإن اقتضتْ حاله وصله بإثبات الرسالة، فيقول: «**الله، محمد رسول الله**».

وإن اقتضت حاله وصله بالتصلية؛ فيقول: «**الله، صلوات الله وسلامه على رسوله محمد وآله**»، وهذا أعم من الأول، ولكل وجه معنى.

وقد تقدم لك أن ما يعرض من العوارض، يسلط على نفيه ما يضاده من الصفات، مركبًا مع الاسم العظيم، وربما اقتضت حال السالك إفراد الإفراد وذكر النبي ﷺ على حدة قبل أو بعد، وقد يعرض له التفات لغير الله ﷻ بما بقيت عنده من البقايا الخفية، فليرجع إلى النفي والإثبات، حتى إذا زال ذلك العارض، رجع إلى الإفراد؛ إذ لا يصلح بالإفراد إلا قلب عار عن التقلبات، صاف من الالتفاتات.

ولا بدّ أن يقدم بين يدي ذكره استغفارًا بكيفية يقتضيها حاله، ولو بسبعين مرة، طهرةً للباطن من أثر الأوهام والخطرات، ثم ليأخذ إثر ذلك في الصلاة على النبي ﷺ بالكيفية التي يقتضيها حاله، عددًا يناسبه، توسلًا به في تسهيل المرام وتيسير الترقي، ثم ليدخل لذكر الإفراد حسبما ذُكر.

❖ استحباب ذكر الورد في الأماكن والأوقات الفاضلة:

وليقصد بعدد لزومه الأماكن الفاضلة الخالية والأوقات الشريفة، قائمًا على شروطه وآدابه، ثم ليستصحب حال الذكر بهجيراه سائر أوقات نهاره وليله، لا يفتر

مع تصرفاته وحركاته وسكناته، وقد مضى لنا التنبيه على سبيل استعمال الهجيرا، فلا فائدة في إعادته. فلا يزال على هذا حتى تظهر عليه شواهد الاطمئنان، وتلوح من جنبات حركاته وسكناته طهارة الجنان. والله هو الفتاح المنان العليم.

مقصد أو بيان نية الذكر بالذكر المفرد

اعلم أن تناول المقصد في هذا المنزل، هو أن يبدأ أولًا بالاستعاذة قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠] فليورد هذا الخطاب على نفسه، وليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، وعبدك يقول بإمدادك، معاهدًا على حفظ الأوقات، بالخروج عن الغفلات: استغفر الله الشاهد الرقيب، الحاضر القريب، من كل ما يجر إلى الغفلات، من جميع الخطرات»، أو غير ذلك من الكيفيات التي يقتضيها حاله. فإذا فرغ من عدد استغفاره، فليدخل إلى ذكر التصلية، فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد بك يعمر جنانه، ويحرك لسانه، ويقول مصليًا على الدال بك عليك: اللهم صل على سيدنا محمد رسولك الدليل عليك صلاة نرقى بما خصصتنا بها مراقي الاختصاص»، أو غير ذلك من الكيفيات التي يقتضيها حاله. فإذا فرغ من عدد التصلية، فليدخل إلى ذكر الإفراد فليتل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الإنعام: ٩١]. فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، أمتثل أمرك وأواصل ذكرك، فبك أذكرك إفرادًا، وبك أستعين استنجادًا، فأقول بإمدادك: الله محمد رسول الله»، ثم ليمض مستصحبا ذكره.

واعلم أن جميع ما مضى من المنازل، سبيله سبيل المعاملات المشيرة إلى حال التفرقة، فهي تومئ إلى شعور العبد بنفسه في مراعاة سعيه، ولذلك كانت المقاصد

فيها مبنية على لام الجر، وأما منزل الطمأنينة، فمن لاحت له أعلام أمارات الخلاص من نفسه، وسطعت أنوار طهارتها، وهبت عليه نواسم الجمع، فجدير أن يكون مقصده من الآن، وإلى بلوغ النهاية، مبنيا على باب الجر. كقوله: «**بالله أصلي وبالله أذكر**»، ونحو ذلك، إيماء إلى الخروج عن الالتفات لحظ من حظوظ النفس. فأصحاب المعاملات مقاصدهم باللام، وأصحاب الأحوال مقاصدهم بالباء، وتحت ذلك سر يظهر لأولي البصائر النافذة جعلنا الله منهم، ولا قطع بنا عنهم.

فإذا تقرر هذا، فللباء خصوصية تلوح لأهل الاختصاص، وتظهر لهم من جنبات أسرار الباء وذلك جار لهم في جميع الأذكار، إذا بلغوا ذلك المبلغ؛ لأنهم يشاهدون منها لباب أسرار التوحيد، فلا يذكرون ذكرًا من الأذكار إلى على مقصد الباء؛ لئلا يخرجوا عن مقتضى حالهم.

وهذا الموضع يحتمل الكشف عن أسرار الباء بأبسط من هذا، لكن اقتصرنا على هذا لئلا يخرجنا عن الاقتصاد إلى التطويل، وبالذوق تنال أسرارها، وبالعيان تشاهد أنوارها؛ لكن لا جرم أن تنفث بنبذة من هذا المعنى تشير إلى طرف من هذه الحكمة:

قال النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ: «**لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، فبي يسمع وبي يبصر**»(١)؛ فجعل تعالى هذه المرتبة الخاصة لأهل النهايات - الصادرة عن ذكره بنوافل الخير - سببًا إلى تحقيق توحيده حتى أورثهم خالص محبته تعالى، حمله إياهم في جميع الأحوال، وأهل السلوك لهم حالان: حال فرق وحال جمع.

فصاحب الفرق: لا يخلو في حال عبادته أو عبوديته عن تلمح الاكتساب البشري حين يشعره الله تعالى أفعاله من طاعته أو مخالفته، فحين يرى ذلك بنفسه من نفسه، أو يراه بنفسه من ربه؛ فذلك دليل الفرق؛ لأنه لم يفارق بعد تلمح العادة

---

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥، رقم ٦١٣٧)، وابن حبان (٥٨/٢، رقم ٣٤٧)، والبيهقي (٢١٩/١٠، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

بعين الطبع البشري. فما دام السالك بهذه المثابة، فمقاصده كلها باللام؛ لأنه صاحب معاملة، وإلى ذلك الإشارة في قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] لما فيه من إضافة العبد فعله لنفسه، وإن كان يعتقد أن الله ﷻ هو الخالق الفعال، مُصَرِّف الخلق فيما هم فيه من حركات وسكنات، فأوهام الطبع البشري غالبة عليه، وما دامت النفس تختلس آثار العادات؛ لم يكمل له مشرب حقيقة التوحيد.

وأما صاحب الجمع: فلا يفارقه الإصغاء بالسر إلى ما يتصرف به سلطان الحقيقة في الوجود، بقطع الإشارة إلى غير الله ﷻ، تبريًا من الوجود إلى الموجِد، وهو الذي رفض الأكوان واستغنى عنها بالمكون الحق، ولم يبق عنده أثر لغيره، ولا عمل بسواه، فإذا رقي السالك لهذه المرتبة، أو قارب الارتقاء إليها، فمقاصده كلها بالباء، لأنه صاحب حال راق عن المعاملة، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فالأول: أثبت لنفسه فعلًا، **والثاني:** سلب الأفعال كلها عن نفسه؛ لتحققه أنه محمول لا حول له ولا قوة، حال استفادها من عين اليقين السامي عن علم اليقين.

وإن كان صاحب منزل الطمأنينة لم يبلغ الغاية المشار إليها، فهو قد أشرف على مباديها، ولاحت عليه أنوارها؛ فحقيق أن يتمرن في الأوائل بما يقدم به على الأواخر، وعلى هذا المشرع درجنا في جميع المنازل للاشتراك الذي بين النهايات والبدايات حسبما وقع التنبيه عليه غير مرة.

فظهر أن الباء في المقاصد من خاصية أهل النهايات، وإلى ذلك أشار الشيخ أبو مدين[1] أحد كبار شيوخ هذا الطريق رضي الله تعالى عنه بقوله: «ما رأيت شيئا إلا

(١) الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني الصوفي الشهير بالغوث (٥٢٠هـ - ٥٩٤هـ) ولد في قطنيانة من أعمال إشبيلية، ثم رحل إلى العدوة طلبًا للعلم، أخذ التصوف عن شيخه أبي الحسن بن حرزهم وأبي يعزى، ثم انتقل إلى مكة حيث لقي عبد القادر الجيلاني، واستمع إليه، ثم عاد واستقر في بجاية، وهو يعتبر أصلا تتفرع عنه معظم المدارس والطرق الصوفية بالمغرب والأندلس. كان ابن عربي محيي الدين الحاتمي يلقبه بشيخ الشيوخ، وقبره معروف بالعباد قرب تلمسان. ترجمته في عدد كبير من مصنفات التصوف، والمناقب، والتراجم وغيرها. نفح الطيب (١٣٦/٧).

رأيت الباء عليه مكتوبًا، كأن الله تعالى يقول: بي قام كل شيء».

وقيل للشبلي(١) يومًا: أنت الشبلي؟ فقال: «أنا النقطة التي تحت الباء».

يشير إلى أنه كما تدل نقطة الباء على الباء وتخصصها من أختيها التاء والثاء، كذلك دل الشبلي بحاله على السبب الذي به قام ومنه وجد، وعنه ظهر، وفيه بطن.

فالباء في المقاصد تدل على صحة التمكين في بحر التوحيد، والتجريد عن الأكوان، وإذا عُرِف المعنى لا تشاح في الألفاظ، وهذه المواضع قل من تعرض لبسطها فتجد العبارة مقصرة في الكشف عن حقائقها. وبالله التوفيق.

❖ ثمرة الذكر المفرد في منزل الطمأنينة:

واعلم أن ثمرة هذا المقصد في هذا المنزل: استغراق القلب في انتظار إنجاز الوعد بالكشف عما تضمنه الاسم العظيم من الحقائق التي يضيق عنها نطاقه ولا يحملها مقامه. لكن مبادئ الأنس تحرك قلبه فيَتُوقُ إلى ذلك، وله في الرجوع إلى نفسه راحة لولاها لمات دهشًا وهيبة؛ لكن من فضل الله ﷻ على صاحب هذا المنزل أن يردّه من حينه إلى شاهده؛ فيستريح من ضغطة ذلك الوارد إلى عالم الحس.

وقد كان بعضهم إذا ورد عليه مثل هذا يوصي بعض جلسائه أن يشغله بشيء من علاقات الحس؛ كي يرجع بذلك إلى الطبع البشري، ولا تظن أن هذا هو المعبر عنه بالفناء؛ إنما هو سكر سببه الصدمة التي فاجأت الطباع بشيء لم تعتده؛ فلا تحمله ولا تقوى عليه والفناء أعلى من هذا، فإن صاحبه مستأنس به طامع في دوامه واتصاله. فالسكر من أحوال نهاية الطمأنينة، والفناء من أحوال نهاية المراقبة،

---

(١) أبو بكر الشبلي الصوفي المشهور. اسمه دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس. وقيل غير ذلك، ولد ببغداد، وبها نشأ وتعلم، كان فقيها مالكي المذهب، ولي حجابة الموفق، ثم تاب في مجلس خبر النساج. وصحب الجنيد ومن في عصره، حكى عنه محمد بن عبد الله الرازي، ومنصور بن عبد الله الهروي، ومحمد بن الحسن البغدادي وغيرهم، توفي ببغداد، سنة ٣٣٤هـ وقبره بها معروف. (وفيات الأعيان. ٢/٢٧٣).

وفناء الفناء من أحوال نهاية المشاهدة. وسيأتي بيان ذلك في مواضعه بعد إن شاء الله.

والفرق بين حالة السكر وحالة الفناء: أن حالة السكر: وجد عن صدمة تلمح سلطان الهيبة من جنبات الاسم العظيم، تدكدك أرض القلب، وتفت أفلاذه حتى يضيق عن حمله لأثر الأوهام التي بقيت فيه. وحالة الفناء: استغراق في بحر التحقيق بما ورد عليه من نور التوحيد؛ فهو حاضرٌ بالسر، وإن كان غائبًا بالحس، يود لو اتصل فناؤه لولا الجاذب الذي له من حسه. وبالله التوفيق.

❖ نتيجة ثمرة الذكر المفرد في هذا المنزل:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف النفس بإحدى عشرة صفة حميدة تنفي عنها إحدى عشرة صفة ذميمة:

• **الأولى: التمكين**، وهي حالة تتولد عن الطمأنينة. والتمكين عبارة عن: «صحة الانقطاع إلى الله تعالى، والخروج عن تعلق القلب بغيره؛ بثلج اليقين الصادر عن التوحيد»؛ فلا يرى في الأكوان غير الله تعالى، مبديًا ومعيدًا، ونافعًا وضارًا، ومحركًا ومسكنًا، فالوجود بأسره باختلاف صفاته وأحواله قائم به وصادر عن أمره، وذلك ينفي عن النفس تلمح بروق الأوهام، ويمحو منها آثار العادة.

• **الثانية: الوجد**، وهو: «تأجج نار في القلب يقلقه بعارض يضيق عن حمله؛ فيوقظ الروح ليحمل ذلك العارض عنه لأنه من عالمه، فيجد الروح تجذبه مبادئ أسراره إلى المعالم الإحسانية والمشاهد التحقيقية، فيظفر من أنوارها بقبس، ويتحلى من أسرارها بنفس، وذلك ينفي عن النفس سنة السلوان، ويوقظها من رقدة مقتضى الجسمان، وما يعرض قبل هذا مما يشبهه، فهو تواجد، وما يعرض بعده مما يضارع هذا، فهو وجود.

• **الثالثة: البرق**، وهو باكورة طرف أهل التحقيق، يلمع فيؤذن بالعثور على مبادئ نفحات حضرة التخصيص، ويحرك دواعي الطرب، ويبشر السر بالسرور. كيف لا وقد لاح له من جانب طور اللطف نار الوصول، وفتحت له أبواب درك الآمال. وذلك ينفي عن النفس خبث العادة ويطهرها من قذر

الهوى، ويولجها في روض الإسعاد.

• **الرابعة: الأنس**، وهو: «الكشف عن حقيقة مبادئ توحيد الصفات». وهو وإن كان أُنسًا، فيقل معه الاصطبار، ويثقل حمله على القلب لاختلاف النسبة؛ ولأجل هذا لم يف هذا المنزل بتخليص هذا النوع من التوحيد، وقد ضل كثير في هذا المنزل بهذه الحالة، وخلعوا أثواب العلم، وانحلوا من قيوده بضعفهم عن حمل الوظيفة الأنسية. وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «**والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة**»(١)، وذلك ينفي عن النفس الانقباض مما يخالف الهوى، والامتعاض لورود ما يضاد الطباع، ويقطع العادة.

• **الخامسة: السكينة**، وهي خاصة من خواص الطمأنينة، وإن كانت للعارف سكينة أخرى، فهي فوق الإشارة. وهذه تفصح عنها العبارة. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤﴾ [الفتح: ٤] ؛ فالسكينة تقضى بكمال الإيمان، وتفضي إلى الإحسان، وهي أول درج من أدراج الولاية التي تفوه عن الحكمة، وتشير إلى نكت الحقائق حين تهب بها نواسم لطائف الحق؛ فيتروح لها القلب ويستجيب لداعيها الروح. وذلك ينفي عن النفس سراب الخطرات القادحة في المراقبات، وتمحو منها الآثار الطبيعية.

• **السادسة:** الهِمة - بكسر الهاء - وهي عبارة عن: «غلبة الانبعاث إلى حصول الأمل، خالصة من شوائب الالتفات لغيرها، ترقى بصاحبها عن طلب الأعواض، واعتبار الدرجات، بما لاح له من أنوار حقائق توحيد الصفات»، وذلك ينفي عن النفس الرضا بالأدنى عن الأعلى، والنفور عن إهلاكها المتضمن إبقاءها وتهتيكها المؤذِن بصحتها.

• **السابعة: الفراسة**، وهي من ثمرات غرس الإيمان، ومن أخوات الإلهام، وذلك دون الكشف، تصدر عن نهاية الإيمان، لكن لا تخلو عن شائبة شك بما بقي في القلب من آثار التقلب، بخلاف الكشف الذي هو من خواص الروح، حين لم

---

(١) رواه أحمد من طريق عمار بن ياسر في المسند. (١٨٢٨٧).

يبق فيه من طبع الجسم أثر؛ والفراسة سطوع نورية تلوح من جنبات عَرَصات[1] التحقيق، يضعف بصر البصيرة عن الإحاطة بعين الخبر عنها، وإن علم شيئًا فبغلبة ظن قاصرة عن القطع، ولذلك الإشارة بقول النبي ﷺ: «**لا تكاد فراسة المؤمن تخطئ**»[2] وذلك ينفي عن النفس الغموض عن تلمح الأسرار، والعجز عن الاكتيال بمكيال أهل الوفاء.

• **الثامنة: العلم**، ونعني به هنا العلم الخفي الثابت في قلوب أهل الطهارة والرياضة الخاصة بأهل الهمة الشريفة، وهو مؤذن بأوائل عين اليقين، معرب عن مبادئ حقائق توحيد النعوت، ولا يُدرَك إلا بطمأنينة القلب بذكر الله، وليس بعلم الرسوم. وذلك ينفي عن النفس الجهالة بموارد الحكم والتعامي عن بوارق أسرار التوحيد.

• **التاسعة: الصفا**، وهو: «البراءة من الكدر بسقوط التلوين»، ونعني به هنا صفاء الحال التي بها تبدو شواهد التحقيق، وتؤذن ببروق المراقبة وتُنسِي علق الجسم. وذلك ينفي عن النفس التشبط مع كدرات الوهم، والالتفات لشواهد الرسم.

• **العاشرة: النفَس** - بفتح الفاء - وهو باب يلج عليه السالك في هذا المنزل، يشرف منه على ساحل المراقبة التي هي بداية مقام الإحسان، وسُمي نفَسًا لما فيه من ترويح السالك من ضغطة حجاب الغيبة بسراج أنوار مبادئ الوصلة الاختصاصية. وذلك ينفي عن النفس غمة الكمد، والقعود على قيود الغيبة عن الرصد.

• **الحادية عشرة: الذكر**، ونعني به اتصال حقيقة الذكر في القلب مع الأنفاس، تخلصًا من وهن الغفلة، بعز الحضور، وهو الذكر الخفي القلبي، وهو المؤذن بامتلاء القلب من ذكر الله، وتهييئه إلى حلول النور الصمدي فيه.

---

(١) العَرْصَةُ: كلُّ بُقعةٍ بين الدُورِ واسعةٍ ليس فيها بناءٌ، والجمع: العِراصُ والعَرَصاتُ، والعرص الصحاح في اللغة (٤٥٨/١).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بلفظ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله (٩٤/٤) والبغوي في شرح السنة: (٣١/١٤).

وما تقدم من سلوك ما مضى من المنازل؛ فليبلغ إلى هذا المقدار من عمارة القلب بالله. وذلك بداية لما يرد عليه الروح في مقام الإحسان، لانقلاب القلب عن التقلب، والاضطراب إلى السكون والثبوت، وذلك ينفي عن النفس دخان ظلم الغفلة، وزكام هوى الاضطراب.

❖ علامة حصول نتيجة الذكر المفرد في هذا المنزل:

ومن علامات حصول هذه النتيجة: دوام ذكر القلب بحيث لا يفتر مع الحركات والسكنات والأنفاس، من غير كلفة ولا مؤونة، إنما حقيقة الذكر صفة قائمة بالقلب، سواء فتر اللسان أو تحرك، وهو المعبر عنه بالذكر الخفي.

❖ فائدة الذكر الخفي لا تدركه الملائكة إلا بقرينة:

وقد اختلف أهل هذا الشأن فيه، فقال بعضهم: «لا يُدرِك الملَك هذا النوع من الذكر، إنما هو بين العبد وربه».

وقال آخرون: بل تدركه الملائكة. والصحيح أنه لا تدركه الملائكة إلا إن احتفت به قرينة؛ أو قامت به صفة تُعرب عنه؛ إذ ليس في قوة الملَك الوقوف على ما تكنه الصدور. وأصول الكتاب والسُّنَّة تشهد لذلك.

وإذا انتهى السالك إلى هذا المقدار من الذكر؛ فقد أشرف على المعارف الإحسانية، وذلك أول رشمة[1] من رشوم ذكر الروح، وهو دليل على أن صاحبه قد نال قلبه لطيفة من الحق يهتدى بها إلى عين اليقين، وهو أبلغ درجات الإيمان وأرفع مقاماته.

من الكُمَّلِ من لا تغب عنه صورة النبي ﷺ

حدثني من أثق به قال: حدثني الشيخ أبو القاسم المريد ﷺ قال: «بقيتُ عشرين سنة في بداية أمري لم تغب عني صورة النبي ﷺ، بل أشاهدها في كل الأنفاس، لا

(١) رشمة: رَشْمُ كل شيء علامته رَشَمَهُ يَرْشُمِهُ رَشْمًا لسان العرب (١٢/٢٤٢).

يشغل بصري عن ذلك شاغل، ثم بقيتُ بعد ذلك عشرين سنة غائبًا بالقلب عن الخلق، مستغرقًا في ذكر الخالق، لا يشغلني عن ذلك شاغل، فكنتُ مع الخلق بالجسمان، بائنًا عنهم بالجنان»، وليس إلا استغراق في بحار المراقبة.

ومن علاماته: تيسير المطالب، وقضاء الحاجات، وقبول الدعوات، حتى إنه لينتهي أن يخطر الخاطر بباله، مزاحمًا لعمارته في أمر من الأمور المصلحة لحاله، فيتيسر ذلك الأمر من حينه.

حدثني أبي قال: حدثني أبو عبد الله بن المرابط رحمه الله قال: كنت يومًا مع الشيخ أبي القاسم المريد ﷺ، فجاءه رجل فقال له: يا سيدي أريد أن أجتمع بك في قضية، فقال له الشيخ أبو القاسم: قد عرفتُ قضيتك، افعل ما به أمرتَ، قال: فانفصل ذلك الرجل».

قال ابن المرابط: فلقيته بعد ذلك؛ فسألته عن القضية التي جاء من أجلها إلى الشيخ، فقال: كنت بارحة ذلك اليوم نائمًا، فرأيت النبي ﷺ فقال لي: «يا فلان أريد منك أن تؤدي عن خديمي أبي القاسم المريد الأربعين درهمًا التي عليه لفلان البقال أو الدقاق»؛ فأردت أن أُعرّف بذلك الشيخ ﷺ، فوجدته عارفًا به.

ومن علاماته: استراحة قلبه بذكر الله عن جميع الأكوان، فلا يجري في باطنه فرق ما بين قبض الدنيا وبسطها، وترابها وذهبها، وراحتها وتعبها، وموتها وحياتها؛ لامتلاء القلب بذكر الله. فلا يسمع معه غيره، معتز بالله، غنيًا به عن جميع الأكوان، فيرى الالتفات لغير الله، ذلًّا لا عز معه، وفقرًا لا غنى عنده. وبالله التوفيق.

❖ وصية:

وينبغي لصاحب هذا المنزل أن يجعل نفسه آلة رحمة لنفسه ولغيره:

● **أما لنفسه**: فتكميل طهارتها، والوصول بتصفيتها إلى حيث تقديسها، مع رؤية التقصير في جميع الأنفاس، واتهام نفسه في جميع الإشارات؛ لكونها دون الغاية التي بها ظفر العارفون، لا يحمله سكون القلب لطمأنينته على ضعف الانبعاث إلى ما وراء ذلك، ولا ينخدع بما طفر به من هذه الوصلة ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، والْفَرَق من المكر قطع قلوب الرجال وأطاش

الباب الانجاد، وقد كان النبي ﷺ - مع معرفته بالله وغفران جميع ما تقدم له وما تأخر ﷺ يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[(١)].

• **وأما لغيره:** فليسلك معهم مسالك الجمال في الغيب والشهادة، بالنصح، والنصر، والرفق، والإعانة، والرعي، وحسن الظن. وليتشبه بالملائكة في دعائهم للمؤمنين واستغفارهم لهم. ولا يمنعه ما هو فيه من استغراق باطنه عن توفية وظائف أخوة الإيمان؛ لأنها رسم من رسوم الشرع، وحق من حقوق الدين، ومهما أغفله استغراقه عن رسم من رسوم الشرع، فمشربه كدر ومسعاه وعر.

وليقم بوظائف معاشه ما دامت أسبابه جارية لضروراته، «**فأطيب ما أكل المؤمن من كد يمينه**»[(٢)] حتى إذا انقطعت به الأسباب، علم أن المُسبب أراد جمع الظاهر والباطن على الوجهة إليه سرًا ومعنى، فليقم على وجهته معتزًا بربه، معرضًا عن جميع الأكوان، منتظرًا رزقه من الوكيل الحق، جاريًا في ذلك على ما يقتضيه منزله ويتضمنه مقامه، وصاحب هذا المنزل لاتصال عمارته، يستوي عنده حال الخلا وحال الملا؛ لكن لا بدّ من إقامة وظائف على قواعد شروطها وآدابها، فللوسائل حقوق، مع أنه لا مطمع له في درك ما رواء منزله إلا بالمداومة على الخلوة والإدمان على الصمت، والتهيئة بالجوع، وفوق كل غاية غاية، إلى ما لا غاية له، والقنوع من الله بدون المعرفة به حرمان.

وليقتصر على أقل ما يدفع الضرورة من الأكل والنوم وغير ذلك من تصاريفه، وليجعل همه كله مصروفًا إلى ما هو سبيله من العمارة بالله وتعلق الأمل به، وذلك ملهٍ عن غيره من الوظائف الجسمانية فيما زاد على مقدار الضرورة. وحصرما يليق من التصاريف والأحوال متعذر، وربما استدعى تطويلًا ولم يحصل الحصر.

فتكفي هذه النبذة، وله من حاله، واستطلاع رأي قدوته ﷺ ما يحصل به على الاهتداء إلى الباقي؛ لأن جزئيات الأحوال تتبعض فتكثر. وبالله التوفيق وحده لا شريك له، وعليه التكلان.

---

(١) رواه أحمد من حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه به، ١٦٢٩١.

(٢) سبق تخريجه.

الباب الرابع
في مقام الإحسان وما يتعلق به من المنازل والأذكار والمقاصد والثمرات وغير ذلك

[التمهيد]

اعلم: جعلني الله وإياك ممن شملته المواهب الإحسانية، وعمته السعادة الربانية، أن مقام الإحسان جامع نهايات منازل السالكين، ومتضمن حقائق العارفين؛ فأوله يُعرب عن القبول، وغايته تؤذن بالوصول، يفهم ذلك من حديث جبريل في قول النبي ﷺ مخبرًا عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(١). ولا غاية فوق رؤية الله تعالى، ولا تدرك إلا بالقيام بوظائف الدين على أكمل أحوالها، وأجمل أمورها، وأحسن أصولها وفروعها، ومن رام ذلك بغير هذا، فقد خاب سعيه وضل مرماه وحصل في مهواة المكر والمقت.

بيان أن أعمال الدين على قسمين: ظاهر وباطن:

فإن قلت: كيف كمال وظائف الدين وجمال أمورها وحسن أصولها وفروعها؟

فالجواب: أن أعمال الدين على قسمين: ظاهر وباطن.

فأما الظاهر: فأعمال الجوارح، وتحسينها: تكميلها والإتيان بها على أكمل الوجوه التي حافظ النبي ﷺ عليها، وإيرادها موارد الجمال السني؛ لأن الغلو كالتقصير، لما فيه من الانحراف عن مهيع أفعاله النبوية العدلة(٢).

وأما الباطن: فأعمال القلب، وتحسينها: إخلاص الوجهة بها إلى الله تعالى بمراقبة خالية من الأوهام، طاهرة من جميع الخطرات، متنزهة عن الالتفات لشيء غير الله تعالى. وذلك على مراتب:

بدايتها على ما تقتضيه المراقبة، وتمكينها على ما تقتضيه المشاهدة، وغايتها على ما تقتضيه المعرفة، إلى ما لا غاية له.

---

(١) رواه البخاري (١/٢٧، رقم ٥٠)، ومسلم (١/٣٩، رقم ٩)، وابن ماجه (١/٢٥، رقم ٦٤) وأحمد (٢/٤٢٦، رقم ٩٤٩٧).

(٢) رجل عدل: بَيِّن العدالة. والمراد: شدة كمال اعتدال وتوسط أفعال صلواته الله وسلامه عليه وآله وصحبه.

فأشار صلوات الله وسلامه عليه في إخباره عن الإحسان أولًا إلى غايته التي لا نهاية لها، ثم عطف بالإشارة إلى بدايته بقوله: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» يعني المراقبة، كأنه يقول: عمدة الإحسان المشاهدة، ومن لم يقو على ذلك فالمراقبة، فالمقصود من الإحسان ما يرجع إلى تصفية الروح من آثار الأوهام ليحصل بذلك على نهاية التوحيد، وهذا المقام يعم جميع وظائف سائر المقامات، ولا شك أن بداية التوحيد أصل في كمال بداية وظائف الدين، ونهايته أصل في كمال نهايتها.

فإذا تقرر هذا فاعلم أن الإحسان قائم من ثلاثة منازل: بداية وهي المراقبة، وتمكين وهو المشاهدة، ونهاية وهي المعرفة.

فإن قلت: المفهوم من الحديث أن الإحسان مراقبة ومشاهدة؛ فمن أين جاء القسم الثالث

فالجواب: أن الحديث أشار إلى المقدمتين، وسكت عن النتيجة، لحصولها بالمعنى، ولا شك أن المراقبة إذا حصلت، وقام معناها بالروح أتم قيام استلزمت المشاهدة؛ فإذا حصلت المشاهدة، وقام معناها بالروح أتم قيام حصلت المعرفة، فأشار الحديث إلى ما تحصل به المعرفة وهي المراقبة والمشاهدة، ولو كانت المعرفة سببًا لغاية بعدها، لنبّه عليها؛ لكنها هي الغاية التي قصدها السالكون، وأملها الطالبون، وإن كان بحرها طامسًا[1]، وريحها عاصفًا، فلا جرم أن نشير إلى مباديها بما تسمح به العبارة من البيان، والله المستعان وعليه التكلان.

(١) الطّامِس: الدّارِس، طَمَس النَّجْمُ والقَمَرُ: ذَهَبَ ضَوْءه.

المنزل الأول من مقام الإحسان

منزل المراقبة

بيان حقيقة المراقبة:

اعلم رزقني الله وإياك من أحوال أهل المراقبة ما يدخلنا في زمرة أوليائه، وحزب أصفيائه، أن المراقبة هي بداية مقام الإحسان، وأول منزل من منازله. قال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢].

والمراقبة: تمكن يقي الروح باطلاع الله عليه، فيلازم الوجهة، يرتقب كشف الحجاب عن وجه القلب لتتصل المراقبة بالمراقبة، ولا مطمع في هذه المراقبة لمن بقيت عليه بقية من هوى نفسه؛ لأن سببها مراعاة القلب وحفظ الأنفاس مع الله تعالى.

نعم قد تطلق المراقبة باعتبارات أُخر ترجع إلى المحاسبة، إذ لا يكاد يخلو منزل من منازل السالكين عن شيء من معناها، ومرادنا هنا بالمراقبة: ما يصدر عن علم صادر عن تصديق ثابت، وهي المراقبة الخاصة بأهل مقام الإحسان، الصادرة عن ذوق بكشف واطلاع، لأنها مراقبة مطالع شعاع شمس المشاهدة في أفق التوحيد المبين، بمطالعة عين الصدق، وتلمح إشارات الأزل، وهي مبادئ الوصلة وعلامات القرب.

قال بعض العارفين: «من لم يحفظ بينه وبين الله تعالى المراقبة، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة».

وقال بعضهم: «المراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق»(١).

---

(١) بلفظه في الرسالة القشيرية منسوبًا إلى أبي القاسم ابراهيم بن محمد النصر أبادي ﷺ.

وقد سُئل بعضهم عن المراقبة؛ فقال: «مراعاة السر بملاحظة الحق مع كل خطرة»(١).

فمحل المراقبة من الإحسان كمحل الإخلاص من الإيمان، ولما نال القلب بالطمأنينة من العمارة بالله تعالى ما نال، قيل للروح: «قد آن لك أن تصفو مشاربك، وتُقرّبُ منك مطالبك؛ فراقب مولاك عساه يتولاك فتظفر بمشاهدته، فهو حاضر معك، قريبٌ منك، إن صفا سرك؛ فهو موضع نظر الله ﷻ منك».

واعلم: أن المراد بتصفية الروح هو أن يعود إلى حالته الأولى من الطهارة، فيصير كالمرآة، بحيث لا يخفى فيه شيء من الحقائق، ولو لم يبق هنا من حجب الروح التي تصده عن الكشف والاطلاع والمشاهدة غير غبش(٢) بقي من أوهام تولدت عن الهوى الأثور والجراحات(٣) فهو وإن ذهبت أوهامه وبرئت أسقامه فلتلك الأثور تأثير في التثبط عن النفوذ - بما بقي من غبش أثار أوهام الإلف بمباشرة عالم الجسم - ضعفًا، حتى ضعف بصر البصيرة عن درك غرض المرمى؛ فإذا زال الغبش وذهب الأثر وقف على عين الخبر، فشاهد من الحقائق الإلهية والأسرار الأزلية والألطاف الجبروتية ما لم يكن له إليه قبل ذلك سبيل، وإن وافقه الإسعاد الاختصاصي والإمداد الإلهي، ففي غاية منزل المراقبة يدرك المراد، ولا خبر كالعيان.

فلا يزال يراقب أسرار الغيب في مرآة التحقيق بما يقتضيه ذكره بناء على مقصده، حتى يزول الغبش ويرتفع الغبار، وتحصل غاية التصفية، عندها تتجلى له عرائس الحقائق على ما هي عليه سافرة عن وجه العناية، وإلا فلا، وبالله التوفيق.

---

(١) بلفظه في الرسالة القشيرية، منسوبًا إلى العارف أبي محمد عبد الله بن محمد المرتعش ﷺ.

(٢) الغَبَش: هُوَ بَقِيَّةُ اللَّيْلِ أَو ظُلْمَةُ آخِره ممّا يَلِي الصُّبْحَ، وقِيلَ: هُوَ حِينَ يُصْبِح ويخالطها بياض الفجر، وفي الحَدِيثِ عن رَافِعٍ مَوْلَى أمّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا - أَنَّهُ سَأَلَ أَبا هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ وَقْتِ الصّلاةِ فقالَ: «صَلِّ الفَجْرَ بغَلَسٍ» وقالَ ابنُ بُكَيْرٍ: في حَدِيثِه «بغَبَشٍ» فَقَالَ ابنُ بُكَيْرٍ: قَالَ مالِكٌ: «غَبَشٌ وغَلَسٌ وغَبَسٌ وَاحِدٌ».

(٣) الأُثْرُ بالضم: أَثَرُ الجِراحِ يَبقى بعد البرء، وهو بقية الشيء.

فصل

في بيان شروط وآداب منزل المراقبة

واعلم أن لهذه المراقبة شروطًا وآدابًا:

* **أما شروطها فأربعة:**

• **الأول**: القيام بجميع حقوق الله تعالى سرًا وعلانيةً، خالصًا من الأوهام، صادقًا في الاحترام، سالمًا من الدعوى فحرام على من يلمح بارقًا من بروق الهوى بعين الطبع أن تسطع له بروق الأسرار؛ لأنه قد غيّرَ محل الاطلاع.

• **الثاني**: استرسال الروح في تلمح عالمه؛ إعراضًا عما سوى الله تعالى؛ لأن أدنى لفته من الالتفاتات إلى غير الله هي حجاب عن معنى ما يُنتظر من هبات روائح أنفاس المشاهدة. فالخطب جسيم، والأمر كبير، والمرام عظيم، ولذلك عظم مرام سبب ذلك، وهو تصفية الروح. فهو أشد غصة من الموت لخفاء متعلقات الروح، بحيث لا يعثر عليها إلا أهل الاختصاص.

• **الثالث**: إقامة رسوم الشريعة أحسن إقامة؛ فهي شعار أهل العبودية، وهي الوسائل إلى درك الحقائق الإلهية، ومن ظن أن ذلك يستغنى عنه عند موارد التحقيق؛ فهو مغبون في صفقته، مفتون في وجهته، راض بالحرمان والهون، ومن علامات صدق أهل الاختصاصات في استغراقاتهم، الحفظ عليهم في إقامة الرسوم الشرعية. كما أن من علامات الخذلان، حل اليد من عروة الشريعة عند ورود الحقائق. رزقنا الله من حفظه ما يحملنا على مناهج العارفين.

• **الرابع**: التجافي عن الإشارات الواردة عليه من مراقبته، والإعراض عن تلمح لائح ولحظ لامع أو طالع؛ لأن ذلك شغل شاغل عن المقصود، وحجاب عن المراد، ومهما تلمح الروح شيئًا من ذلك أو سكن إليه فتلك علة فيه؛ لتعلقه بأنس البروق وميله إلى البشير، ولو صبر لكان خيرا له؛ فما بعد البروق إلا شمس المشاهدة، ولا إثر البشير إلا عذب الوصال.

* **وأما آدابها فأربعة:**

• **الأول**: قوة المباحثة في تصفية الروح، بشدة عزم وحسن هدى، حالًا

وقصدًا؛ عدولًا عن بقايًا الأوهام وبعدًا.

• **الثاني**: الإعراض عن عالم الحس بالمعنى إن لم يكن بالحس جملة من غير تفصيل، مستعينًا على ذلك بالخلوات والسهر والجوع من غير هلكة، وتواصل الصمت مطلقًا إلا الذكر الخاص به.

• **الثالث**: الكتم، لما يظهر ويلوح له من مبادئ الأسرار مع تنزه الروح عن الالتفات لشيء مما وقع فيه الكتم، علمًا بأن المطلوب وراء ذلك كله؛ لكن كتم الأسرار من علامات الأحرار، وهتك الأستار شعار الأشرار.

• **الرابع**: ملازمة الانكسار والخضوع بحفظ الأدب في المحاضرة القدسية؛ لأنه قادم على حضرة تدق فيها وظائف الأدب، وتخفى فيها هواجس الأسرار، وحفظ الأدب من شيم عبيد الحضرة، والخضوع من صفات من خرج عن الأكوان: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**» (١)، ولا يحمله على هتك ستر الأدب ما يهب عليه من نفحات القبول، فيكسبه بسطًا، ولا يليق بحضرة المشاهدة إلا من قام بوظائف العبودية حتى لم ير مع الله غير الله، وبالله التوفيق.

ذكر الذكر المفرد هو الخاص بمنزل المراقبة مع مقصد خاص:

اعلم: أن الذكر الخاص بهذا المنزل - الدال على نهاية توحيد الصفات - هو الذكر المفرد مستندًا إلى مقصد يقتضي نهاية توحيد الصفات؛ لأن الذكر المفرد يشعر بالخروج عن المخلوقات والتجرد عن الأكوان؛ تعويلًا على الخالق وركونًا إلى المكون، ولما كانت صفاته قائمة بذاته، كان الذكر الدال على الذات هو الدال على الصفات، وهو الاسم العظيم، فلم يكن بد من استعماله من أول منزل الطمأنينة إلى ما بعد؛ لكن تختلف مقاصده باختلاف المنازل، ففي مقصد كل منزل الإشارة إلى ما يختص به من الأسرار والحقائق.

ولما كانت أصول أسرار التوحيد ثلاثة: سر توحيد الأفعال، وسر توحيد الصفات، وسر توحيد الذات. وكان سر توحيد الذات من القوة بحيث تضعف عن

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٤٠٨/١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٢/٤).

حمله أكثر الأرواح إلا بعد المبالغة في التصفية والتطهير بالرياضة، ابتدأ السالك أولًا بمعالجة نفسه في درك أقرب تلك الأسرار الثلاثة، وهو سر توحيد الأفعال بما يناسبه من الأذكار والمقاصد، وقسم له السعي إلى ذلك بابتداء وتكميل، ليخف عليه التناول ويقرب له المرام، حتى إذا أدرك سر توحيد الأفعال، وعثر عليه، واتصفت نفسه بمقتضاه، وظهرت عليه شواهده وأنس به، كان له من ذلك استنجاد وقوة على معالجة نفسه في درك ما يتلو ذلك من أسرار التوحيد - وهو سر توحيد الصفات - بما يناسبه من الأذكار والمقاصد، وقسم له السعي إلى ذلك أيضًا بابتداء وتكميل، ليخف عليه التناول ويقرب له المرام. حتى إذا أدرك سر توحيد الصفات وعثر عليه، واتصفت نفسه بمقتضاه، وظهرت عليه شواهده، وأنس به، كان له من ذلك استنجاد وقوة على معالجة نفسه في درك ما يتلو ذلك من أسرار التوحيد - وهو سر توحيد الذات - بما يناسبه من الأذكار والمقاصد، وقسم له السعي إلى ذلك أيضًا ابتداء وتكميل ليخف عليه التناول ويقرب له المرام. حتى إذا أدرك سر توحيد الذات، وعثر عليه واتصفت نفسه بمقتضاه، وظهرت عليه شواهده، قيل له: «هنيئًا لك بما وصلت إليه، ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤] ونعم الزلفى وحسن مآب.

وفي هذا من حسن السياسة ما تشهد له الحكمة بجميل الترتيب وبديع التدريج. فمن حصل له سر توحيد الأفعال، يُرجَى له العثور على سر توحيد الصفات، ومن حصل له سر توحيد الصفات يرجى له العثور على سر توحيد الذات، وبعيد الوصول إلى هذه الغاية بغير هذا المسلك، ولا مطمع في درك حقيقة هذه الأسرار بطريق العلم الرسمي العري عن الذوق والكشف والاطلاع، ومن رام العثور على ذلك من غير وجهه، وقع في التشبيه والإلحاد، وإلى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذاته**»(١).

هي صلوات الله وسلامه عليه العقول أن تستبد بنظرها، أو تستند إلى فكرتها في معرفة ذاته العلية، جل الله تعالى عن أن تدركه الأبصار أو تحجبه الأستار، أو تكتنفه الأفكار، سبحانه لا إله إلا هو العزيز الغفار.

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (٣٨٣/٥)، وأبو الشيخ في العظمة (١/٥).

فإذا هبت نواسم الفتح المبين على قلب أحد من المؤمنين، حتى انبلج له صباح سر توحيد الأفعال الصادرة عن الصفات، فإنه يبصر به أنوار سر توحيد الصفات القائمة بالذات، وبشموس سر توحيد الصفات يرقى إلى مراقي سر توحيد الذات.. إيهْ(١)؛ فلنرجع إلى الذكر الخاص بهذا المنزل.

ولما تقرر أن صفاته قائمة بذاته، لم يكن بد من استعمال الذكر الدال على الذات في هذا المنزل، وهو الاسم العظيم حسبما تقدم، والمقصد الخاص بهذا المنزل يخلص معنى الذكر إلى توحيد الصفات.

وقد تقدم لنا أنه لا بدّ من وصل ذكر النبي ﷺ، وذكر الاستغفار في كل حال، وتقدم لنا أنه لا بدّ من وصل ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى، إما تصليةً وإما اعترافًا بالرسالة، وقد تتضمن التصلية معنى الرسالة، فتقوم مقام الأمرين، وهذا في أغلب الأحوال وأكثرها.

وقد ترد على صاحب المراقبة وصاحب المشاهدة أحوال يفردون فيها اسم الله ﷻ ويذكرون اسم النبي ﷺ بعد ذلك أو قبله منفصلًا، بشرط أن يكون قد بقي عندهما من أثر الصلاة على النبي ﷺ ما تنحفظ به عليهما الرسوم الشرعية عند ورود تلك الأحوال عليهما، وإلا فلا بدّ من وصل ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى على كل حال، ولا تظن أن قيام معنى الصلاة على النبي ﷺ بالروح شاغل عن قيام سر التوحيد به، فقد تقدم لنا أن من خاصية ذكر النبي ﷺ أنه لا يشغل عن أسرار ذكر الله تعالى؛ بل يزيد في مادة العثور عليها، ويقوي وضوحها.

وصل في التأكيد على وجوب وصل ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله بذكر الله تعالى حتى تحفظ على السالك رسوم الشريعة

وإذا تأملت حقيقة ذكر النبي ﷺ، وجدتها تستمد من حقيقة التوحيد. فالحقيقتان

---

(١) إيهْ - بإسْكانِ الهاءِ - زَجْرٌ بمعنى: حَسْبُكَ.

في الحقيقة حقيقة واحد، وقد جعل الله ذكر رسوله محمد ﷺ نورًا يهتدي به وسببًا يرتقى به، وهذه نكتة بديعة اختص بها هذا المسلك الشريف قل من تعرض إلى الكشف عنها، حتى أن بعض من غمره الجهل وعمه الضلال، يجعل إكثار أصحاب هذا الطريق من الصلاة على النبي ﷺ من قبيل الغلو المكروه، وهيهات قد عميت عليهم الأنباء، وأحاطت بقلوبهم الظلماء، وطمس بصائرهم العمى وهم لا يشعرون، ولتعلم أن من رام تحصيل أسرار التوحيد بالإعراض عن ذكر النبي ﷺ، فهو راكب غرر، والسالم في الغرر قليل؛ لأن بحار الحقائق إذا تراكمت أمواجها وتلاطمت لججها؛ تملكت أسرار الروح فاستغرق فيها. فإن كان عريًا من قيام معنى ذكر النبي ﷺ صفة به، فلا شك أن الرسوم الشرعية لا تنحفظ عليه، فتتحطم سفينة سلوكه بين أمواج بحار الحقائق، وربما تردى في مهواة التعطيل.

فإذن فلا غنى لصاحب هذا المنزل من وصل ذكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى، مصليًا عليه أو معترفًا برسالته، مبنيًا على قاعدة مقصده الخاص به، متصلًا مع الأنفاس، حتى تنبلج له دلائل المراقبة، وهي البشارات القادمة عليه بين يدي المشاهدة.

وهو وإن كان ذاكرًا مع الأنفاس، فلا بدّ من المحافظة على شروط الذكر وآدابه، غالبًا في سائر أوقات ضروراته اللازمة في إقامة عيشه، وهي قليلة لخفة مؤونته، وليبدأ أولًا بذكر الاستغفار، لمحو آثار التقصير وتحريك دواعي الافتقار، ولو مائة مرة، ثم ليصل على النبي ﷺ استصحابًا بذكره واستنجاحًا، ولو ألف مرة، متوسلًا به في رفع الحجاب وفتح الباب، ثم يدخل إلى ذكر الإفراد، وحين انتهى السالك إلى هذا المنزل، فليس يرجع ذكره إلى حصر، ولا ينتهي إلى عد، وتحريك سبحته في يده، شيء وصل به، فمن العدل رعيه.

وقيامه بشروط الذكر وآدابه أمر يُعرب عن شعار العبودية، فمن الحزم مراعاته، وأوكد ما عليه إعراضه عن تلمح البروق الواردة عليه أثناء ذكره، ولا يفارق قصده الأصفى، ولا يعرج عن أمله الأعلى، ومهما خرج عن ذلك لمحة بتلمح بارق أو إصغاء إلى خطاب، فذلك تقصير، فليمح أثره بالاستغفار، ثم ليرجع إلى مقتضى مقصده، والله هو الفتاح الهادي العليم، وبه التوفيق.

❖ مقصد:

اعلم أن تناول المقصد في هذا المنزل هو أن يبدأ أولًا بالاستعاذة قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠]، وليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد بك يذكرك فيستغفرك، معاهدًا على رؤية التقصير، والخضوع إلى وجهك الكريم، قائلًا بك، ولولاك لم يفه: استغفرك وأتوب إليك يا الله من حَجَبَ التقصير، والتواني مع آثار الأوهام، فأنت التواب الهادي»، أو غير ذلك من الكيفيات التي تناسب حاله. فإذا دخل إلى ذكر النبي ﷺ؛ فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] فليورد هذا الخطاب على نفسه ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد بك يصلي على صفوة خلقك، طمعًا في الإدناء ورفع الحجاب؛ فبك فيض الأنوار، وبك ظهور الأسرار، وبك فتح الباب: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة ترفع قدره في المرسلين، وأدخلنا بفضيلتها في حضرة المقربين»، أو غير ذلك من الكيفيات التي يقتضيها حاله. فإذا دخل إلى ذكر الإفراد، فليتعوذ قائلًا: «أعوذ بك يا الله من الشيطان الرجيم من توالي الحجاب، وأستعين بك على فتح الباب قاصدًا التلاوة، ثم ليتل: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١]، فليورد هذا الخطاب على نفسه، ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، والخير في يديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد ذاكرك بك، فبك يقول: الله، محمد رسول الله»، يمر هذا المقصد مع مرور الذكر مدى أنفاسه.

وهذا المنزل هو أول مقام ذكر الروح، وفيه يتصفى الروح من آثار الأوهام التي بقيت عليه من علق الجسم، حتى لا يرد على منزل المشاهدة إلا بسر الروح، وقد مضى لنا أن سر الروح عبارة عن بلوغ الغاية في تصفيته وتطهيره، فإن لباب الأسرار

لا تدرك إلا بلباب سر الروح، وقد تقدم لنا أن مقام الإسلام يختص بذكر اللسان، وأن مقام الإيمان يختص بذكر القلب، وأن مقام الإحسان يختص بذكر الروح، وقد تقدم بيان ذلك توجيهًا وتعليلًا، وحال ذكر كل مقام على درجات في الضعف والقوة، فليس أوائل المقامات كأواخرها، وبالله التوفيق.

❖ ثمرة:

اعلم أن ثمرة هذا المقصد الذهول عن جميع الأكوان؛ لاستغراق الروح في هيبة الجلال بمطالعة مبادئ الإدناء، وسرورًا ببشائر القرب، وفرحًا بأمارات الوصلة، وإن كان لصاحب هذا المنزل استغراقات بما دل عليه من معنى مقصده بالذكر المفرد، فهذا الاستغراق أخصها وأولاها به، وما هي إلا أشعة أنوار مبادئ الكشف تشبه بعض استغراقات المشاهدة؛ لكن الفرق بينهما أن رجوع المستغرق بالمراقبة من ربه إلى نفسه، ورجوع المستغرق بالمشاهدة من ربه إلى ربه، واستغراق المراقب **أدون** من استغراق المشاهد، للفرق الذي بين قوتي موجبي الاستغراقين، وذلك أن المراقب إذا تجلت له أنوار أسرار توحيده يضيق نطاق صدره عن حمل أعبائها؛ فتجد الروح يستدعي الرجوع إلى عالم الحس ليستريح من ضغطة فجأة وارد المراقبة. فهو بين كبد شدة الوارد، وبين كمد تعلقه بعالمه[1].

وإلى هذا المعنى الإشارة بما روي عن بعضهم قال: «دخلت على الشلبي يومًا، وهو ينتف اللحم من حاجبيه، فسألته فقال: الحقيقة بادية السر ولا أطيقه، فهو ذا أُدخل الألم على نفسي؛ لعلي أحس به فيستر عني، فلستُ أحس الألم، وليس يستر عني، وليس لي به طاقة»، وهذه إشارة إلى شغل الروح بعالم الحس، عما لا يطيق حمله من أسرار الغيب، وهذه الحالة - وإن كانت سنية - فإن صاحبها لا يخلو من بقية عليه من كمال التصفية، وهو وإن كان مستغرقًا، فلا مرية أن عنده بعض شعور أوجب له الضعف عن حمل الوارد الذي ورد عليه؛ لكن لا يحمل منزله فوق هذا. فإذا ورد على روحه وارد مزعج يضعف عن حمله، فليشغله عن ذلك بشاغل، ليرده بذلك إلى عالم حسه، فيسكن روعه.

---

(١) الكَبد: الشدة والمشقة، والكَمد: الهم والحزن.

ومن الحكمة شغل الروح عن عالمه بعالم الحس عما لا يطيق حمله من أسرار الغيب، ومهما بقي في الإنسان شيء من التفات إلى رسم أو أثر، فإنه يضعف عن حمل ما يرد عليه من أسرار الغيب.

ولا يتخلص السالك من تبعات شاهده إلا في منزل المشاهدة حين يبلغ غاية التصفية، فيتصل بالحالة الشريفة، وإن كان المراقب قد بلغ غاية التصفية، ليتصل بالحالة الشريفة؛ لكنه لم يتقعد لها بأول وهلة، فله من منزل المراقبة ما ينيله بمزاولة تصفيته ثباتًا وقوة لما يرد عليه في منزل المشاهدة، وعلامات صحة هذه الاستغراقات: الحفظ في الرسوم الشرعية. قال بعض العارفين: «من راقب الله تعالى في أنفاسه، حفظه في جوارحه»، وفي هذا المقام قال بعضهم: «ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه».

فهذا القول مما يشعرك أن المراقب لا يخلو من شعور يقدح في ثبات التصفية وقوتها، وإذا تحلى بشعار الأكياس، لم ير إلا عجبًا، ولم يسمع إلا حكمة، صادر ذلك كله من الله ﷻ، من غير شعور بغيره، كما حدثني أبي ﷺ قال: «رأى بعض الناس على الشيخ أبي القاسم ﷺ ثوبًا جديدًا فقال له: تبلي ويُخلف الله عليك. قال: فصاح الشيخ أبو القاسم صيحة وسقط مغشيًا عليه، فلما أفاق، قيل له في ذلك؛ فقال: كانت لي حال حسنة فقدتها؛ فسمعتُ الخطاب من الله داعيًا إلى التوبة، واعدًا بالخلف، فتذكرتُ الحال التي فقدتها، فغبتُ في معناها»، وبالله التوفيق.

❖ نتيجة:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف الروح بإحدى عشرة صفة حميدة يرقى بها عن إحدى عشرة ذميمة دونها:

• **الأولى: العطش**، وهو ولوع بمأمول، ونعني بالمأمول: التجلي الذي ما دونه سحاب هوى، ولا حجاب طبع ولا بعده انتظار، وذلك يرقى بالروح عن سلوة الطبع بتعلق الإلف، وهي علة في المراقبة.

• **الثانية: الشوق**، وهو هبوب الروح إلى غائب أو ما في معناه، وهو الشوق إلى الله ﷻ بما تقعد في الروح من معنى توحيد صفاته، حتى يبغِّضه ما سواه، وذلك

يرقى بالروح عن القنوع بالذوق حياطة على الطباع من تأثرها لوارد الحق للضعف البشري.

• **الثالثة: القلق**، وهو فرق من الإياس، وضيق صبر لتوقع الخيبة. كذلك المراقب، لا يزال الأمد يطول عليه مع اللحظات، فإن منتظره عظيم وأمله جليل، يعيل[١] دونه الصبر، لا سيما إذا قدم بشير التجلي بقميص الكشف عن أنوار الجمال، وذلك يرقى بالروح عن القنوع بالأطلال والوقوف مع الخيام.

• **الرابعة: الهيمان**، وهو ذهاب بالروح عن التماسك بالإلف حيرة، وهو أضعف حالًا من الدهش الذي يكون بالمشاهدة؛ لأن الدهش يصدر عن مقتضى توحيد الذات، صدمة واحدة تهد مباني الأوهام، وتخرج الروح عن مقتضيات الأجسام، والهيمان يكون عند ورود ما لا طاقة للروح بتصوره واستبصاره من تلاطم أمواج بحار حقائق توحيد الصفات، ببروق الأنوار، وتوالي الأسرار، وذلك يرقى بالروح عن التماس المقاومة للواردات.

• **الخامسة: الذوق**، وهو استطعام مبادئ الاتصال في بستان الجمع على موائد القرب؛ لكن ليس من ذاق كمن تملى[٢] بالذوق، ونهايته المراقبة وبدايته المشاهدة، وذلك يرقى بالروح عن الصوم عن مذاق الأسرار والإمساك عن تلمح بواده[٣] الأنوار، والاتسام بسيما الانقطاع والإخلاد عن الارتفاع.

• **السادسة: اللحظ**[٤]، وهو تلمح مسترق على خجل بملاحظة نور الكشف، وإذا تمكن اللحظ، أفضى إلى المشاهدة، وباللحظ يستيقظ وسنان الروح إلى روح الوصال، وذلك يرقى بالروح عن الذهول بمقتضى الجسم عن أسباب الرقي، إما قصدًا وإما طبعًا، وكلاهما علة في المراقبة.

---

(١) ويعيل من عَالَ عَيْلَةً؛ أي: افْتَقَرَ.

(٢) التملي: الإطالة في الشيء.

(٣) البواده: جمع بادهة، وهي عند أهل الحقيقة: «ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة إما موجب فرح أو ترح». التعاريف (١٤٨/١).

(٤) اللحظ لغة هو: النظر بمؤخر عينه أي من جانبه. أما في الاصطلاح فتعني: إبصار قلب المريد لبعض أسرار الغيب، إبصارًا معنويًا يفيد زيادة اليقين لديه. يقول الطوسي: «اللحظ إشارة إلى ملاحظة أبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين بما آمن به في الغيوب.

• السابعة: **الوقت**[1]، وهو أعلى من البرق، ومع ديمومته، فهو مشرف على الجمع وبداية لحال الوجود اللذين في منزل المشاهدة، ونعني بالوقت هنا ما يغشى المراقب من أنوار جمال الحضرة القدسية أوقاتًا؛ فتملكه، ثم تعيده إلى نفسه أوقاتًا، وذلك يرقى بالروح عن الاستمرار على رعي الرسوم، والوقوف على أوهام مقتضيات الجسوم، بقطع نياط العزم وعثار جواد القريحة.

• الثامنة: **الفناء**، وهو المحو عن الحس بسبب إشارات المكاشفة، وهي مباديها، وأول ناديها، استجابةً لمناديها، وصحته: أن لا يحس بشيء من عالم الحس، ولا يشعر بعلاقة من علاقات الجسم، مع الحفظ في إقامة رسوم الشرع، وذلك يرقى بالروح من مراعاة العادات، وتلمح سراب المألوفات.

• التاسعة: **التمكين**، وهو صحة حال الانقطاع إلى الله تعالى بصفاء مشرب التوحيد، والمبالغة في تصفية الروح حين عثر على مبادئ الكشف، وذلك يرقى بالروح عن التخبط في بحار الحيرة، توانيًا عن النفوذ إلى ساحل الكشف.

• العاشرة: **التجريد عن مقتضى أثار الأوهام**، طرحًا لتلمح الشواهد، وانخلاعًا عما يشغل الروح عن أمله بما ناله من عين الكشف الموصل إلى كشف اليقين، وذلك يرقى بالروح عن التلبس بثياب التفرقة والتماسك بعارية العوارض.

• الحادية عشرة: **الخلاص**، وهو الانتفاض من قيود الأهوية، وأغلال الأوهام، بلوغًا إلى مبادئ عز الحرية، بإحكام التصفية، والمبالغة في الروحانية، وذلك يرقى بالروح عن غبش الجسمان وظلام الهوى.

❖ علامة:

ومن علامات حصول هذه النتيجة مواطأة الروح على معنى ذكر الإفراد بما يقتضيه مقصده، وقوفًا به على مبادئ المعرفة الضرورية، ونسبة مباديها إلى نهايتها كنسبة السراج إلى الشمس.

---

(١) الوقت لغة معروف وهو مقدار من الزمان. أما اصطلاحًا فيعني عند القوم: ما يحضر السالك في الحال، فلا يتعلق معه بذاهب عنه، ولا يهتم لمأمول لديه. بل يستسلم لتصريف الحق ويرضى به، عوارف المعارف (ص: ٣٣٣).

ومنها: ركوب جواد العزم بما ناله من التعطش لما وراء ما تقتضيه المراقبة من أسرار المشاهدة التي وصلت إليه مبشراتها، فهو كمن كان له أمل دخول قصر الملك ليرى عجائبه وينال من ذخائره. فلم يزل أمله يبعث عزماته، فيجد في السير، حتى إذا وصل باب القصر، ولمح منه بعض عجائبه، وهبت عليه نفحات روائحه، اشتد شوقه وقوي حرصه، وزاد تعطشه.

ومنها: الفهم للإشارات، والوقوف بالأدب عندها، والعمل بمقتضاها، كما حكي:

أن أميرًا كان له غلام حظي عنده، وجيه لديه، مع كونه أقل غلمانه حسنًا وأدناهم قيمة، فتكلم سائر غلمانه به ووجدوا منه، فلما كان بعض الأيام، ركب الأمير ومعه غلمانه، فيهم ذلك الغلام الحظي وكان بالبعد منهم جبل عليه ثلج؛ فنظر الأمير إلى ناحية ذلك الجبل ثم أطرق، فركض الغلام فرسه - ولم يعلم القوم إلى أين نهض - فلبث غير بعيد، ثم جاء ومعه من ذلك الثلج فألقاه بين يدي الأمير؛ فقال له الأمير: وما أدراك أني أردت الثلج فقال له الغلام: لأنك نظرت إليه، ونظر السلطان إلى شيء لا يكون عن غير قصد، فعلم الغلمان أنه أهل للاختصاص والتقريب.

ومنها: إيثار ما آثر الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله، بصرف الهم إلى الله أبدًا بمراعاة الحقائق. قالوا: «**المراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق**».

ومنها: الذهول عن الخلق استغراقًا في الخالق دائمًا؛ لأنه مرتقب خطاب الحق، فأذهله ارتقاب ذلك الخطاب عن جميع الأكوان.

❖ وصية:

وينبغي لصاحب هذا المنزل أن يحافظ على ما يستديم به الوصلة، ويرفع الحجاب، ويُداني الروح إلى حضرة الأنس، وهذا لا يكون إلا بمواصلة ذكر الروح، والغيبة في معناه عن جميع الأوهام، والتزام الخلوة والإقلال من الأكل والشرب إلى الحد الذي يقيم الظهر ويرفع الهلاك، والخروج عن الخلطة بالجملة ليتصل له حال المراقبة، ويحمد له ملازمة «الأربعين يومًا» التي ورد التنبيه عليها في بعض الآثار، وما زال أكثر أهل هذا الطريق إذا أشرفوا على الخلاص، يلازمون خلوة

الأربعين بما يتعلق بها من شروط وآداب.

❖ وصية: في بيان آداب وشروط خلوة الأربعين يومًا:

فإن قلت: وما تلك الشروط والآداب عساك أن تكشف عنها بالبيان؟

فالجواب: أن شروطها ستة:

• **أولها**: أن يغتسل كغسل الجنابة قاصدًا الخروج عن الأكوان والقدوم على الله ﷻ، متوجهًا إليه على أكمل الصفات، وأجمل الهيئات.

• **ثانيها**: التزام صوم أيامها من غير وصال؛ نعم يقلل الغذاء بتدريج يسير، فيبدأ أولًا بمقدار عادته في الأكل قبل ذلك، ثم ينقصه من غذاء كل ليلة شيئًا يسيرًا لا تشعر به الطباع فتتأثر له، وليقتصر على أكلة واحدة، وأحب إلى تعجيل الفطر بها لتحصل له السنة في ذلك، وليعمل أن يكون غذاؤه في العشر الأخير منها ثلث عادته الجارية قبل دخوله في هذه الأربعين، وليقتصر على الخبز والماء، إلا إن ظهر عليه إفراط ضعف؛ فليعن عليه بشيء من المرق من غير استرسال ولا تمل، وليس الناس في ذلك سواء، فرب رجل يصلحه خبز البر ومرق اللحم، ورُب رجل يصلحه خبز الشعير بلا إدام، وقد كان الشيخ أبو القاسم يُغذِّي بعض أصحابه في ذلك بفتيت الدرمك [1] في مرق الدجاج بحسب الأمزجة.

• **ثالثها**: لزوم شروط الذكر وآدابه، من التوجه إلى القبلة، وتغميض العينين، والاحتباء في الجلوس، واستصحاب الطهارة والصمت، وغير ذلك ليكون على أكمل هيئات المحاضرة.

• **رابعها**: أن لا يستعمل النوم، إنما ينام مغلوبًا عليه، وهو متوجه بذكره من غير استرسال.

• **خامسها**: المحافظة على الرسوم الشرعية؛ فلا يتخلف عن الصلاة في الجماعة، وإن كان معه من يصلي معه جماعة في خلوته، فهو أحوط، وإلا فليقتصر على حضور صلاة الفريضة في أقرب المساجد إليه، ثم ليرجع إلى خلوته مطرقًا رأسه إلى الأرض، صامتًا حتى لا يصدر عنه كلام في أثناء ذلك غير الذكر.

---

(١) الدرمك: الدقيقُ النقي الحُوَّاري – أي: الذي ينقى من لباب البر – الصحاح (١/٢٠٤).

• **سادسها:** مطالعة القدوة ﷺ بما قلَّ وجلَّ من أحواله الصادرة عنه والواردة عليه، وإن لازمه في خلوته فهو أحسن، وإلا فليكن القدوة بحيث يتفقده في أكثر الأوقات، ووكيد أن يلازمه في العشر الأواخر نهارًا وليلًا، ولا يتحرك بحركة ولا يسكن بسكنة إلا عن إذن قدوته واستطلاع رأيه.

وقد لازم الشيخ أبو عمران مع تلميذه أبي علي الخلوة كما حدثني أبي ﷺ قال: «لما قارب الشيخ أبو علي الخلاص من نفسه، رغب من شيخه أبي عمران ﷺ أن يلتزم معه الخلوة أربعين يومًا عساه أن يظفر بالخلاص من نفسه. قال: فأجابه إلى ذلك، ولازم معه الخلوة، وصار لا يرد عليه شيء إلا أعلمه به، ولا يتصرف في الأمر إلا عن رأيه. قال: وكان قوته بيد الشيخ يطعمه ما يظهر له، كيف يظهر له، وهو مع ذلك يقلل له الغذاء شيئًا فشيئًا.

قال الشيخ أبو علي: فلم أبلغ ثلاثين يومًا إلا وقد خارت الطباع من ضعف الجوع، وإن الشيخ أبا عمران ﷺ لما فهم ذلك مني، أراد أن يختبر قوة عزمي، فتناعس كأنه نائم. فقلت في نفسي: قد نام الشيخ، وقد مسني كلب الجوع، ووعاء طعامي معلق، فما ضرني أن أختلس من ذلك الوعاء شيئًا من الطعام أتقوى به، قال: فما هو إلا أن قمتُ وأدخلتُ يدي في الوعاء، وإذا بالشيخ قد قام وحبس يدي وقال لي: يا أبا علي أتشتغل بالسرقة! ثم قال لي: مسكين، أصابك ألم الجوع، وإن وقت خلاصك لم يصل بعد، ثم أمرني بالخروج من الخلوة وأمر بعض أصحابه فأدخلني الحمام، وغسل ثوبي، وسقاني مرقًا، وأطعمني طعامًا، ثم قال لي: يا أبا علي، اعمل على مهل، فصاحب هذه الأربعين يومًا ينبغي له أن لا يعدل عن نظر قدوته، ولا يخدعه ما يبدو له من الأسرار، في نظر شيخه، فهو أدرى وأعرف، ومهما رأى لنفسه حسن نظر قبل خلاصه، فهو مخدوع ممكور به».

كما حدثني أبي ﷺ قال: «كان من جملة من تعلق بالشيخ أبي القاسم، أبو عبد الله بن عياش، أحد علماء مالقة، فسلك على يديه حتى ظهرت عليه علامات النجابة، وشم روائح الخلاص، فرغب من الشيخ أبي القاسم أن يلتزم معه الخلوة أربعين يومًا في دار أبي عبد الله بن عياش فأجاب لذلك ولازمه، فصار نومه وأكله وسائر أحواله مقدرًا بتقدير الشيخ، وصار جميع ما يرد عليه أو يلوح له، يعرضه

على الشيخ؛ فيدله الشيخ على ما يناسب ذلك. فلما كان بعد أيام ظهرت على أبي عبد الله حركة دلت الشيخ على أمر زاد عنده؛ فساله الشيخ عن ذلك؛ فقال له: إنه قد ظهر لي ما لا يحمله عقلك ولا يطيقه ذهنك. فقال له الشيخ: سلام عليك، هذا فراق بيني وبينك، لقد خدعتك من نفسك رئاسة العلم، فلا تزال محجوبًا بها، وتركه وانفصل».

قال لي أبي: «فما فتح لأبي عبد الله بن عياش بعد ذلك في شيء، وأورثه استنقاص قدوته انتقاصًا، فما رفع منها رأسًا حتى مات.

*** وأما آدابها فستة:**

• **أولها:** أن تكون هذه الأربعون يومًا شهر ذي القعدة والعشر الأول من ذي الحجة، وقد ذكر أن لها خاصية في طهارة النفس، وروي أنها الأربعون يومًا التي واعد الله بها كليمه موسى صلوات الله على نبينا وعليه.

• **ثانيها:** أن لا يستاك بطولها، للسر الذي جعل الله في خلوف فم الصائم(١)، وقد قيل: إن موسى ﷺ استاك عند تمام ثلاثين يومًا، فزيد عشرة أيام ليعود خلوف فمه كما كان.

• **ثالثها:** طرد الخطرات الجلية والخفية عن الروح؛ ليزول عنه غبش الأوهام، ويواصل معنى المراقبة سرمدًا.

• **رابعها:** أن لا يدخل الخلوة وعليه علاقة شاغلة لسره من الدنيا وأسبابها؛ لأنه قادم على أمر يؤثر فيه **أقل** الأنفاس، فيعود حجابًا.

• **خامسها:** التجافي عن جميع اللوائح، والإعراض عن البواده والبوارق حتى لا يشغله من ذلك شاغل عن مقصده الذي صرف إليه وجهته، ومن شغلته أوهام الخيام؛ لم ينتهض إلى قدام.

• **سادسها:** أن يقتصر على صلوات الفرائض والسنن الراتبة والنوافل المعلومة المشهورة، ويجعل باقي أوقاته مصروفًا للذكر صرفًا، والله هو الفتاح العليم.

---

(١) إشارة إلى حديث رواه البخاري ١٨٩٤، ومسلم في ٣٢٨. بلفظ: «والذي نفسي بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

ومـن ترتيـب أحوالـه نفـض اليـد مـن قليـل الأشـغال وكثيرهـا، تعـويلًا علـى الله وإعراضًا عمن سواه، حتى لا يبقى عنده أنس بشيء من الدنيا وما احتوت عليه من إنس وجن وملك، وقريـب وبعيد، وغير ذلـك علـى الإطـلاق، وأقل نَفَس بغير الله حجاب عظيم عن الله.

وليواصل المراعاة مع الأنفاس، لأنه في بداية الوصلة ومطالع التجلي، ونهاية المراقبـة بدايـة المـشاهدة، ومـن وصـل إلـى هـذا المقـدار، فغالـب أمـره أنـه محمـول مكفول محفوظ؛ لتوارد النفحات الإلهية على روحه، وترادف الألطاف الربانية على سره، والله هو الفتاح العليم. وبالله التوفيق.

المنزل الثاني من مقام الإحسان

منزل المشاهدة

اعلم - أشهدني الله وإياك سبيل المشاهدة، ولا حجبنا عنه بأسباب المقاطعة والمباعدة - أن ثاني منازل مقام الإحسان هي المشاهدة، وهي تمكينه. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

والمشاهدة عبارة عن: «وجود الحق من غير ريبة، ولا تهمة، ولا بقية»، وذلك أن الروح إذا تطهرت وتصفت من جميع آثار الأوهام، حتى لا يبقى فيها غير السر الإلهي المصون القدسي، انجلت مرآته من غبش أنفاس الأوهام، وأصحت سماؤه من غيوم كدرات الرسوم، وانقشع غبار مألوفات الجسوم؛ فعند ذلك تشرق شمس المعرفة ساطعة الأنوار وتلوح دلالات المشاهدة باهرة الأسرار، فيتجلى الحق سبحانه لمرآة الروح من غير تحديد ولا تكييف، ولا تشبيه ولا إحاطة ولا مقابلة، إنما هي بروق أنوار العظمة تتتابع وتتوالى وتتوارد على مرآة الروح تفيده يقين العيان.

قال بعض العارفين - وقد سئل عن المشاهدة - فقال: كما لو قَدَّرت اتصال البروق، وتواليها في الليلة الظلماء، حتى تصير كأضواء نهار يكون بالشمس الضاحية. قال: فكذلك الروح إذا توالت عليه أنوار التجلي، فتلوح له أسرار الملكوت والجبروت، يظفر بحق اليقين.

قال الله ﷻ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥] وليس في وسع العبارة ما يُعبر به مثلًا للمشاهدة أبلغ من هذا، مع أن الأمر أعظم وأجل، وأكبر وأخطر من أن يعبر عنه، ولا حرج في ضرب المثل للأعلى بالأدنى، ومنه قوله ﷻ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ

﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥] إلى آخر الآية.

قال بعض مشايخ هذا الطريق: «لا يصح حال المشاهدة لمن بقي فيه، عرق قائم» يريد نهاية التصفية.

الكلام على أحكام رؤية الله تعالى بالأبصار في الدنيا:

فإن قلت: وهل تجوز رؤية الله ﷻ بالأبصار في الدنيا

الجواب: أن الأقوى والأصح أن ذلك لا يجوز؛ لحصول إجماع أكثر أهل العلم عليه، وقد حكى ابن فورك[1] عن أبي الحسن الأشعري[2] في ذلك قولين في كتاب «الرؤية الكبير» فمن ذهب إلى المنع استدل بظاهر قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ومن ذهب إلى الجواز - وهم الأقلون - تأوّل الآية، فجعل معنى الإدراك الإحاطة والإحاطة ممنوعة شرعًا وعقلًا، وقد ذهب قوم إلى أن رؤية النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، كانت بعيني رأسه، وصوبوا ذلك، ووجهوه، مع أن الخلاف في هذه المسألة أيضًا لم يزل دائرًا بين الصحابة فمن بعدهم.

---

(١) أبو بكر الإمام محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني الشافعي متكلم فقيه مفسر أصولي أديب نحوي لغوي واعظ عارف بالرجال، أقام مدة بالعراق ثم بالري ثم بالبصرة وبغداد ونيسابور، وحدث بها: من مؤلفاته: دقائق الأسرار، مشكل الآثار، أسماء الرجال، تفسير القرآن، النظامي في أصول الفقه، ألفه للوزير نظام الملك. توفي مسمومًا سنة ٤٠٦ هـ، ودفن بنيسابور (وفيات الأعيان: ٤/٢٧٢).

(٢) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر، إمام المتكلمين. أخذ عن أبي خليفة الجمحي، وزكريا الساجي، وغيرهم. وعنه أبو الحسن الباهلي، وأبو عبد الله بن مجاهد البصري والشيرازي وغيرهم. له: الفصول في الرد على الملحدين، وكتاب خلق الأعمال، وكتاب الصفات، وكتاب الرؤية بالأبصار، واللمع في الرد على أهل البدع، وغيرها، توفي سنة ٣٢٤ هـ (الفهرست لابن النديم، ص: ٢٥٧).

الأقوى والأصح رؤيته تعالى بالبصائر على وجه الكرامة لبعض الأولياء:

وأما رؤيته تعالى بالبصائر في الدنيا على وجه الكرامة لبعض الأولياء، فالأقوى والأصح أن ذلك جائز، ووجه تحرير القول بالجواز في ذلك:

أن السالك إذا عالج نفسه في تطهيرها وتصفيتها بأعمال الدين ووظائف السنة على مهيع الحق، جريًا على ما تقتضيه المقامات الثلاثة على نحو ما تقدم ذكره وبسطه وبيانه، حتى يبلغ الروح غاية التصفية والتطهير بالمحو والمحض، والفناء التام، حتى يفني عن نفسه، وعن شعوره بفنائه، وحتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل. «**ألا كل شيء ما خلا الله باطل**». وكما قالوا:

سَاروا فلم يبق لا رسم ولا أثر

هذه حالة تزري بحالة الموت؛ فإن الموت قد يبقى معه من تعلقات الحس ولو أوهام، وحال المشاهدة خروج عن جميع الأوهام وتبعات الأكوان، وفناء عن الرسوم والأطلال، وانقطاع عن الإحساس، ومحو جميع الآثار تجرعًا كأس البلاء، كما قالوا:

تجرعهم كأسًا لو ابتلي اللظى بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

لكن في هذا، المحو هو الإثبات الحقيقي، ومع هذا، الفناء هو البقاء الديمومي، ومع هذا الانقطاع هو الاتصال القدسي بوجود الحق واستيلاء سلطان الحقيقة فعند ذلك تفيض على الروح أنوار التجلي فيضًا متتابعًا مترادفًا يعم الروح ويغمره.

بيان حقيقة الأنوار التي تُفض على الروح:

وإن قلت: وما تلك الأنوار التي تفيض على الروح فيعبر عنها بالمشاهدة والتجلي.

فالجواب: إنها الأنوار الفائضة من نور الله تعالى العلي الأزلي، الذي ملأ الأكوان، بل عنه كانت، وبه قامت، ومنه فاضت جميع أنوار الوجود التي هي حجاب عن نوره العلي الأزلي، فالأنوار وجميع المخلوقات حُجب للخلق عن نور

سبحات ذاته، موجودة بإيجاد مستمر، باقية على الدوام؛ لأن الوجود فائض أبدًا، لو كشفها - بإمساك الإيجاد والإبقاء ولو لحظة - لم يكن لشيء منها وجود، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ: «**حجابه النور، ولو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه**»(١).

ثم إن تلك الأنوار الفائضة على أرواح أهل المشاهدة، يكون عنها يقين يشبه العيان، لا يُدرَك بغيرها، تحصل عنه المعرفة التامة بوحدانية ذاته المقدسة، يقوم ذلك للروح مقام الكشف والعيان.

فلا يتوهم المتوهم أن المشاهد ينظر إلى ذات الله نظر عيان وإحاطة، كيف ولو تجلى الله تعالى للوجود - كله أو بعضه - في أي صفة شاء من صفاته؛ لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره ولتدكدكت الحجب، وما حجبته من الموجودات، ولعاد الكون كما كان قبل أن يكون؟!!

ويفهم هذا من قوله ﷺ: «**كأنك تراه**»(٢)، فشبه اليقين الحاصل لأهل المشاهدة برؤيا العيان، ولا شك أن المشبه غيرٌ، لا يقوى قوة المشبه به.

قال إمام هذه الطريقة: «المشاهدة معاينة السر مع فقد الكيفية»(٣)، وقد اتفق أهل المعرفة على أن الله تعالى لا يتجلى لأحد من أوليائه، ولا ينظر إليه أحد من أوليائه إلا من وراء الحجب التي حجبهم بها عن إدراك كنه ذاته، ولو رفع تلك الحجب لتفرقت الموجودات وتقطعت وتمزقت وتدكدكت كما تدكدك الجبل عند التجلي للكليم موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

---

(١) رواه مسلم (٢/٥٥)، وابن ماجه في السنن (١/٢٣٦).

(٢) من حديث رواه البخاري (١/٢٧، رقم ٥٠)، ومسلم (١/٣٩، رقم ٩)

(٣) أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري. أصله من نهاوند. ولد ونشأ بالعراق كان أبوه يبيع الزجاج فلقب بالقواريري. كان فيها على مذهب أبي ثور. أفتى بحضرته وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السري السقطي، والحارث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب، وأخذ عنه جمع غفير منهم أبو محمد الجريري. ويعتبر الجنيد إمام الصوفية، وشيخهم على اختلاف طرقهم. وإليه تنتهي أغلب أسانيدهم في التصوف. توفي سنة: ٢٩٧. كتابنا: الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

الحق تعالى لا يحجبه شيء، وإنما الحجب راجعة للخلق:

وما يسمع السامع من الحجب فإنما معناها راجع إلى الخلق، لأنهم هم المحجوبون عنه، والله سبحانه منزه مقدس عن أن تكتنفه الحجب أو تحيط به الأستار، فخصوصية أهل المشاهدة التي نالوها بالعناية الإلهية، ونهايتهم التي بلغوها بالسابقة الأزلية إنما هي سطوع أنوار كما ذُكر، تفيض على أرواحهم من نور الله تعالى، تقوم لهم مقام العيان في حصول ثلج اليقين بمعرفة الله تعالى، وهو أعلى درجات اليقين، وهو الذي أشار إليه الصديق ﷺ بقوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا». مع ما ينكشف لهم من أسرار الملك والملكوت، ويطلعون عليه من عجائب الجبروت، مما يفيدهم ذخائر المعارف، ويكسبهم مواهب الولاية، وما يجري في كلام القوم من: «قرب» و«وصال» و«مشاهدة» و«معاينة» و«تجل» و«كشف» و«جمع»؛ فإنما يشيرون بذلك إلى التخصيصات التي تدرك بأنوار المشاهدة، وتؤذن برفع الدرجات في مقامات أهل الولايات وتُعرب عن الإطلاعات، على العجائب القدسية، والمواهب الجبروتية التي لا تدرك إلا بغاية التصفية، والبعد عن عالم الشهادة؛ لأن عالم الشهادة وعالم الغيب ضدان، فبحسب البعد من أحد الضدين يكون القرب من الضد الآخر، وتكفي هذه النبذة في رفع الإشكال العارض عند سماع مصطلحات القوم في المشاهدة، وبالله التوفيق.

فصل

في بيان شروط وآداب المشاهدة

واعلم أن لهذا المنزل شروطًا وآدابًا:

* **أما شروطه فأربعة:**

• **الأول:** اطلاع الروح على الموجودات خطيرها وحقيرها، ظاهرها وباطنها، أوائلها وأواخرها بنظرة واحدة؛ فيراها مع العرش وما احتوى عليه وإن عظمت وكثرت، في محل الاعتبار كالجزء الذي لا يقبل القسمة ولا الحركة، ثم يغيب عنها

في الُموجِد لها، مع بقائها على عظمها وكثرتها، ولا يمكن الوصول إلى حقيقة المشاهدة قبل هذا، لما فيه من تقوية جأش الروح للورود على عظيم أمر المشاهدة، ولما فيه من التهيئة حين يدرك تلك الموجودات على ما هي عليه من الكثرة والقلة والعظمة، ثم يمحقها الاضمحلال، فتتلاشى في جنب سر المشاهدة، حتى لا يبقى إلا القائل: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

قال بعض العارفين: «إن إسراء النبي ﷺ حين رقي إلى السبع السماوات وفوقها، واطلع على ما اطلع عليه من عجائبها، كان من أول مقاماته، فكان له في ذلك من الحكمة ما قَوَّى روحه الزكية لما ورد عليه بعد ذلك من عظيم أنوار المشاهدة؛ فعند حصول ما اطلع عليه من عظيم المملكة، وعجائب الملك في ذهنه؛ دله ذلك على عظيم شأن الموجد لها؛ فاستغرق في ذلك كما قال ﷺ في حديث الإسراء: «**إلى أن جعلتُ أرى بقلبي ولا أرى بعيني، وظننت أن من في السماوات ومن في الأرض قد ماتوا**»، إلى أن قال: «**ولم أر عند رؤية ربي أحدًا من خلقه**».. الحديث بطوله.

ففي الاطلاع على عجائب الملك، ما يسهل المرام وييسر المقصود؛ لأن الروح لا يستطيع حمل فجأة المشاهدة لأول وهلة قبل تقويته بما ذُكر، ليبعد بذلك من المجاورة البشرية، فيقرب من المعاني الروحانية.

• **الثاني**: الاتصاف بصفة الاستهتار بسر التوحيد، وهو المشار في الحديث بقوله ﷺ: «**سبق المفردون**. قالوا: وما المفردون يا رسول الله قال: المستهترون، بذكر الله. يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون خفافا»[1]، وهذه إشارة إلى بلوغ الغاية في تصفية الروح، وهو الذي يُعبرون عنه بالخلاص الذي ثمرته معنى قوله ﷺ فيما يحكيه عن ربه تعالى: «**إني إذا اطلعت على قلب عبدي المؤمن، فأجد الغالب على قلبه ذكري، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها وعقله الذي يعقل به**»[2]، وهذه حقيقة الولاية وسر المشاهدة.

---

(١) رواه مسلم (١٧/٢٥٦) والترمذي (٣٦٦٦)، وقال: حسن غريب، والحاكم في المستدرك (١/٤٩٥).

(٢) رواه البخاري (٢١/٣٩٢) من حديث أبي هريرة بنحوه.

• **الثالث**: حفظ الرسوم الشرعية والأحكام الدينية؛ لأن هذا المنزل لا يُنال مع ترك شيء من الرسوم الشرعية، ومن ادعاه وله تضييع في شيء منها، فهو كاذب أو مغرور مخدوع. فحرام على من لم يصحبه الحفظ الإلهي في إقامة وظائف الشرع حال استغراقه أو صحوه، الورود على موارد التخصيص؛ لأن ذلك علامة المقت والحرمان.

• **الرابع**: رفع أوصاف العادة ونحوها، من جميع ما يقدح في المواصلات، وليس لصاحب هذا المنزل في هذا المحو سبب ولا إرادة، بخلاف ما يكون من المحو في غيره من المنازل؛ لأن المشاهد مسلوب عن نفسه بربه ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] وغير المشاهد لا يخلو من شعور، وهو المعبر عنه بـ«التسبب» و«الإرادة»، إذ لكل صاحب منزل محو وإثبات بحسب مشربه:

فمنهم: ممحو بنفسه عن نفسه، ومنهم: ممحو بنفسه عن ربه، ومنهم: ممحو بربه عن نفسه.

وأما صاحب المشاهدة، فهو ممحو عن شاهده بإثبات الاتصال، وهي غاية المحو، ولذلك يسمون هذا النوع من المحو «محقًا» لبلوغه الغاية في المحو المحمود، وهو التمكين من الجمع، وخروج بالكلية عن أودية التفرقة، لعدوله عن الشواهد، وخروجه عن العوائد.

* **وأما آدابه فأربعة:**

• **الأول**: الحياء من الحق بالحق هيبةً ووجودًا وإفرادًا، بطرد طوارق الاعتلال عن الروح، وغض طرف الإشارة. فلا انبساط ولا انقباض ولا صحو ولا سكر، إنما هي حالة عزيزة الوصف خطيرة النعت، تجل عن التكييف وتعز عن التعريف.

• **الثاني**: الثبوت عند أول الواردات بتهيئة الروح للمشاهدة من غير مقاواة، ليتقوى بالثبات عند بدايتها، لما يرد عليه من أسرار نهايتها، ومن ضعف عن حمل البدايات، لم يقو على حمل أعباء النهايات.

يُحكى أن بعضهم كان في سياحته فأوى ليلة من الليالي إلى حي من أحياء العرب، فتلقاه شاب من أهل الحي، فحمله إلى خيمته، وقام بوظائف خدمته. قال: فبينما الشاب يصلح بعض شأني وهو بباب الخيمة، إذ التفتَ إلى ناحية من نواحي

الحي، فصاح ووقع مغشيًا عليه، ثم أفاق، فسألته عن أمره وشأنه، فأُخبرتُ أن له ابنة عم علق بها، وأنه خطبها إلى نفسه فأبتْ عليه. قال: فسألتُ عن خيمتها، فدللتُ عليها، فسرتُ حتى إذا أقمتُ ببابهاناديتُ: يا أهل هذه الخيمة، إن للوارد فيكم لحرمة - وإني جئت قاصدًا فتاتكم لعلها تُنعم على ابن عمها فتتزوجه، فقالت الفتاة: يا سيدي كيف يحمل مؤونة وصالي من لم يتمالك لرؤية غبار ذيل مرطي[1].

ففهمتُ هذه الإشارة ورجعتُ على عقبي».

فإذا اطمأن الروح بالواحد الحق من غير التفات إلى غيره، ولا تعويل على رسم علم، ولا تعريج على طلل ولا أثر، ليس إلا البقاء مع الله تعالى محفوظًا من الغيبة عنه، محروسًا بصوارم العناية منه، فإنه يحصل على سر المشاهدة[2].

• **الثالث:** الرجوع إلى الشاهد كلما ضعف الروح عن حمل مؤونة واردات المشاهدة، لأنها لا تقتضي المكث والديمومة، لا سيما في بداية الأمر، عدولًا عن الهلكة؛ لأن حالة التجلي لا يحمل قوتها إلا روح عار عن جميع علق الجسم، كثيرها وقليلها، خطيرها وحقيرها، فلا بدّ له أن يبقي على الطباع البشرية بعض ما يستديم به بقاء الجسم بالرجوع إلى عالم الحس عند تملي الروح من أسرار المشاهدة، إذ لا صبر له على استدامتها في أول الأمر، حتى إذا تمكن سهل عليه المرام، ومن الناس من حمل على هذا المعنى قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**حركيني يا عائشة**».

---

(١) المرط - بالكسر -: كساء من خز أو كتان أو صوف يؤتزر به، وقيل: المرط كل ثوب غير مخيط. العباب الزاخر (٣١٦/١)

(٢) قال القشيري: المشاهدة: وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة. وحق المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله: وجود الحق مع فقدانك: فصاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته: وصاحب المشاهدة ملقى بذاته، وصاحبُ المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته. ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله. ومعنى ما قاله أنه تتوالى أنوار التجلّي على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع كما لو قُدر اتصال البروق، فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها، واتصالها، إذ قدرت تصير في ضوء النهار، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي مَتع نهاره فلا ليل. الرسالة القشيرية (٣٩/١)

والحق أن مقام النبي ﷺ أعلى من هذا؛ فيمكن أن يكون طلبه الرجوع إلى عالم الحس حرصًا على تبليغ الوحي، بخلاف من ضعف عن حمل مؤونة الاستغراق، فود أن لو رجع إلى شاهده ليعطي الجسم حقه، إذ لو تُرِك الروح بحيث يستصحب حالة الاستغراق؛ لاستولى الهلاك على الجسم، ومن العدل إعطاء كل ذي حق حقه[1]. اللهم إلا إن كان ذلك تأنيسًا من قبل الحق ولطفًا عند ورود هيبة الجلال، فنعم، وإذا تأملت قوله تعالى لكليمه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٧]، وجدته يشير إلى هذا المعنى ليرده إلى عالم حسه، فيسكن روعه. فقد كان الله ﷻ أعلم بما في يمين موسى من موسى صلوات الله على نبينا وعليه.

وأما إن كان ضعفه عن حمل ذلك لبقية بقيت فيه، فليرجع القهقرى حتى يتخلص من بقيته، فكذلك صاحب بداية منزل المشاهدة، ينبغي له كلما سطعت له بروق التجلي، رَوَّح الروح إلى الشاهد، ثم يعود فيعود، ولا يزال كذلك حتى يتقوى ويتمكن فيسهل عليه بعض الاستصحاب.

• **الرابع:** عثور الروح على حقيقة نفسه، فإنه إذا حصل على حقيقة نفسه؛ حصل على تمكين سر المشاهدة، وإن لم يقف على حقيقة نفسه، لم يكمل له أمر المشاهدة، وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ: «**من عرف نفسه عرف ربه**»[2]، فبقدر ما يعجزه من معرفة نفسه يفوته من معرفة ربه، وإن كان للحديث محمل أعم من هذا؛ لكن هذا الخصوص أولى به وأقرب، وبالله التوفيق.

❖ ذكر:

اعلم أن الذكر المناسب لهذا المنزل هو الاسم العظيم مفردًا. فهو أخص الأذكار بهذا المنزل، وإنما كان استعماله في منزل الطمأنينة ومنزل المراقبة لتعلق معناه بتوحيد الصفات، من جهة أن الصفات قائمة بالذات، وذلك أن الاسم العظيم

(١) رواه أحمد من حديث أبي أمامة. ٢٢٢٩، وأبو داود في السنن ٢٨٥٣، والترمذي،٢٢٠ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه ٢٧١٤ من حديث أنس، والدارمي٤١٩/٢ من حديث عمرو بن خارجة.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٦٢/٢).

يدل على الذات المقدسة من حيث هو اسم الله العظيم وذاته وحقيقته، وللإفراد اختصاص بحالة الجمع. ففي الطمأنينة يشير إلى الجمع من بُعد، وفي المراقبة يشير إليه من قرب، وفي المشاهدة يفصح عن الجمع نصًا جليًا، واختلاف هذه المآخذ باختلاف المقاصد، فالإفراد أنسب الأذكار للمفردين، لما اقتضى من حال الجمع بمعنى توحيد الذات. فالروح في هذا المنزل مواطئ على معنى الاسم العظيم، مستغرق في مدلوله من غير التفات لسواه، متصلًا مع الأنفاس، وكان استعماله قبل هذا إنما كان على سبيل التمرين والتدريج والتدريب، حتى لا يرد في هذا المنزل على مكافحة الحق إلا وعنده أنس بمبادئ بشائره وطلائع أسراره، ولو كان بحيث لم يستعمله ولم يزاوله إلا عند وروده على منزل المشاهدة، ربما انفطر فؤاده بتوارد أسراره عليه دفعة، واختطف عقله وطاش لبه، أو مات من حينه، ولولا أن لكل منزل مقصدًا يحفظ على صاحبه حاله، ويرد مقتضي الذكر إليه - إذ سر كل منزل مندرج في طي المقصد الخاص به؛ فبه مذاقه ومنه إنفاقه - لاختل نظامه وتزلزلت أقدامه.

كما حدثني أبي ﷺ، قال: «سمعت الشيخ أبا القاسم يقول: لما استروحتُ نفحات مقام الإحسان، تاقت نفسي إلى استعمال الذكر الخاص بمبادئه بناء على مقصده، قال: فألححت على شيخي أبي عمران في ذلك فقال لي: إنك لا تطيقه. فما هو إلا أن أسعفني في ذلك رجاء الاستنهاض.

قال: وكنا في الرابطة، فخرجت من الرابطة قاصدًا الدخول على باب الملعب، وتركتُ الشيخ أبا عمران في الرابطة، فأخذت في استعمال ذلك الذكر بناء على مقصده، وإن الشيخ أبا عمران خرج يقفو أثري ينظر ما يرد عليَّ؛ لعلمه بضعفي عن حمل صدمات ذلك الذكر. قال: فما وصلتُ إلى قنطرة باب الملعب، وأنا أذكر ذلك الذكر، حتى انكشف لي من حقيقته ما صدمني فأدهشني؛ فغبتُ عن هذا الكون، وسقطت إلى الأرض كالميت، واجتمع إلي أناس يبكون ويأسفون لموتي؛ فأقبل الشيخ أبو عمران فمسح بيده المباركة على وجهي، فأفقتُ وأقامني ثم احتملني إلى منزلي، فصنع لي نشرة[1] وسقاني إياها، فلما رجعت إلى الحس

(١) النشرة: رقية يعالج بها المجنون والمريض. سميت نشرة لأنه يُنشر بها عنه ما خامره من الداء؛
=

وارتفع عني الروع قال لي: بئس الرجل أنت يا أبا القاسم، حيث لم تثبت كما ثبت الرجال ﷺ ألم أقل لك أنك لا يحمل حالك هذا الذكر ثم قهقرني إلى الذكر الذي كنت عليه قبل ذلك.

قال بعضهم: «من ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظه الله من كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء».

وذلك أن هذا المنزل يقتضي لباب تصفية الروح، ولا يكون ذلك إلا بلباب معنى الإفراد، حتى يستولي المذكور على عالم الروح، ويمحي الذكر والذاكر؛ فلا مذكور إلا الله، ولا ذاكر له إلا هو، وهذا الذكر أخفى من الذكر الخفي الذي لا تدركه الحفظة، وقد قيل: «كل ذكر شعر به الذاكر من نفسه، فالحفظة تشعر به»، والصحيح أن ذكر السر لا تشعر به الملائكة.

ومهما شعر الذاكر من نفسه بالذكر، فذلك نقص في هذا المنزل، فإذا غاب ذكره عن شعوره، واستغرق الروح في المذكور بالكلية، فذلك قيام بوظيفة ذكر هذا المنزل؛ فعند ذلك يطالع أسرار توحيد الذات، ويكافح تصريف الحق في كل شيء ما دام مستغرقًا في المذكور الاستغراق المشار إليه، حتى إذا رجع إلى عالم الحس غاب عن تلك الحال؛ لكن يبقى عنده من ذلك أثر على قدر رسوخه.

وهذا الاستغراق الذي يرد عليه في أول منزل المشاهدة، بالنظر إلى ما يرد عليه في تمكينه من المعارف التي تجل عن الوصف وتعظم عن الحد، كلمح البرق بالنسبة إلى انتشار شعاع قرص الشمس وانبساطه على الأرض، وإنه في نهايته لحاضرٍ بشخصه في عالم الحس، غائب بروحه في عالم الغيب، لا يبرح عن الحقائق القدسية، ولا يغيب عن الأسرار الإلهية، وهي النهاية لمعبر عنها بالمعرفة، وهو المشار إليه بـ«حق اليقين» كما يُشار إلى مقتضى الطمأنينة بـ«عين اليقين»، وكما يشار إلى منزل التقوى بـ«علم اليقين».

ولا بدّ من ذكر الاستغفار لصاحب هذا المنزل؛ يدرأ به تبعات التقصير الظاهر له من حاله في صحوه بالنسبة إلى حال استغراقه، وينحفظ عليه به معنى العبودية

=

أي: يكشف ويزال.

والافتقار، ولا يزال السالك يرى النقص من نفسه والتقصير على كل حال؛ لأنه مرتق أبدًا من نقص إلى كمال، والنقص والكمال من الأمور الإضافية، فرب نقص إنسان يكون كمالًا في حق غيره.

وبهذا المعنى يصح توجيه استغفار النبي ﷺ، فإنه كان يستغفر مما يظهر له من حال ما رقي عنه، بالإضافة إلى مارقي إليه.

وإن كان صاحب هذا المنزل مستغفرًا حفظًا لرسمه الشرعي، فهو غائب عنه بما غمره من أسرار التوحيد، ومهما رجع بشعوره إلى نفسه في استغفاره أو غيره، فعليه الاستغفار من الاستغفار، حتى يكون قائما بالرسم الاستغفاري بشاهده، غائبًا عن رؤيته لنفسه بمشاهده، وربما أشار بعضهم إلى لزوم الاستغفار من الاستغفار في منزل الإخلاص، حتى تغلب على المخلص حقيقة النفي لأفعال الخلق، باستيلاء حقيقة الإثبات لأفعال الخالق، والاستغفار من الاستغفار هناك وهمٌ؛ لأن سلب أفعال الخلق على الإطلاق يفضي إلى تعطيل الرسوم الشرعية، وكل حقيقة تنفي الرسوم الشرعية، فما أجدرها بالاعتلال وأولاها بالإطراح.

ثم لا بدّ له من ذكر النبي ﷺ على كل حال، وفي هذا المنزل يتأكد، ليكون له دليلًا في مفاوز الحقائق، وجنة واقية من تعطيل الرسوم الشرعية، ولا دليل في مثل هذه السباسب الجبروتية كالنبي ﷺ، الدال على الله، العارف به، المخصوص لديه، الكريم عليه، ومن لازم دليله اهتدى، ومن فارقه ضل وتردى.

وليس لصاحب هذا المنزل عدد من الذكر يرجع إليه، إنما هو استصحاب ذكر لا يفارقه مع أنفاسه. لكن جميع شروط الذكر وآدابه أسباب وصل بها إلى هذا المنزل، فحقيق رعي الأسباب على كل حال، وإذا وصل إلى غاية هذا المنزل، فكل ذكر يستعمله - وإن اختلفت ألفاظه وتباينت معانيه فهو ينفق منه معاني أسرار ذكر الأفراد بما عنده من القوة والإمداد. وبالله التوفيق.

❖ مقصد:

اعلم أن المقصد الخاص لهذا المنزل: إما المدخل به إلى ذكر الاستغفار،

فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وليورد هذا الخطاب على نفسه ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك، وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد يقول بك: إلهي استولى، الاضمحلال على الوجود، فليس إلا أنت حافظًا للرسوم، ورافعًا لحجب الغيوم، وإن كان اللسان يترجم بالاستغفار فبك، حفظًا لأمرك، وإن كان الروح مستغرقًا، فبك استغراقه في حقيقة ذكرك»، ثم يدخل للكيفية التي تناسبه من كيفيات الاستغفار.

وإما المدخل إلى ذكر التصلية، فليتعوذ قاصدًا التلاوة، ثم ليتل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] فليورد هذا الخطاب على نفسه ثم ليجب عنه بـ: «لبيك ربي وسعديك وكل شيء منك وبك وإليك، والعبد بك ينادي: اللهم بك أصلي على حبيبك الدال بك عليك، فأنت الله الآمر بالصلاة عليه، متولي الصلاة عليه، وكل شيء سواك مضمحل فان زائل، فاللسان بك قائل: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد...» إلى آخر الكيفيات التي يقتضيها حاله.

وأما مقصد الأفراد، فينبغي أن لا يزال معناه متصلًا بالروح مع الأنفاس، فهو غني في مقاصده عن نطق اللسان وإعمال الفكر، إنما هو سر قائم بالروح يُعرب عن لباب معنى الجمع، وخلاصة ذوق التوحيد، وهو: «إلهي أذكرك بك، فأنت الله الذاكر المذكور، والعبد متلاش معدوم مع سائر الرسوم، أنت الله ذاكرٌ: الله الله » ثم يستصحب حال ذكر الإفراد على قاعدة هذا المقصد، وإلى هذا المعنى الإشارة يقول القائل:

وغنَّى لي منِي قلبِي فغنيتُ كما غنَّى
فكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنَّا

وكان الشيخ أبو القاسم المريد ﷺ إذا أشار إلى هذا المعنى، يتمثل بهذا البيت:

وما يشكر الروض الغمام بقوله ولكن يثبت الشكر في نفس الزهر

وهذا أبلغ ما تبلغ إليه العبارة تقدر عليه في هذا الموضع، ولا مطمع في زائد عليه، إنما هي إشارات: فمن رقيقة سديدة تنبه الفطر السليمة، وتوقظ الهمم الكريمة، ومن إشارة قوية شديدة تورث الحيرة وتشتت شعب الفكرة، فإذا التحم

معنى الإفراد بمعنى هذا المقصد، وغاب الذاكر في معنييهما، لا جرم أن أنوار المشاهدة تفيض على الروح، فتطلع على أسرار توحيد الذات، وبالله التوفيق.

❖ ثمرة:

اعلم أن ثمرة هذا المقصد الاطلاع على الحقائق على ما هي عليه من غير شك ولا ريب، كيف يكون الشك فيما هو عن حق اليقين لا سنده غيب عن غيب؟! ومعيار تحقيق الحق في ذلك القيام بجميع الرسوم الشرعية، وحفظه فيها حال مشهده ومغيبه، ومتى فاته شيء من ذلك، فإدراكه معلول ومشربه مشوب، وتوفيقه مسلوب، ومن أكبر الرسوم الشرعية في ذلك، الكتم اللازم، والحفظ الدائم، وذلك مؤذن بمبادئ المعرفة، وبالله التوفيق.

❖ نتيجة:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف الروح بإحدى عشرة صفة حميدة ترقى بالروح عن إحدى عشرة صفة دونها.

فإن قلت: التحلية والتزكية راجعتان إلى حال التصفية، وقد قلتَ: إن المشاهدة لا تكون إلا بعد كمال التصفية؟

فالجواب: إن كمال التصفية قد نالها الروح في أول منزل المشاهدة؛ لكن لا يزال الروح مترقيًا في غايات المعارف إلى ما لا نهاية له، وتصفيته تزيد إلى ما لا نهاية له، وأما قولنا: «إن المشاهدة لا تكون إلا بعد كمال التصفية»؛ فالمراد به بلوغ المقدار الذي تحصل عنه المشاهدة، مع أن التصفية لا غاية لها في الحقيقة، كما أن المعارف لا غاية لها، وكل معرفة لا تبلغ إلا بما يناسبها من التصفية. فلنرجع إلى اتصاف الروح في هذا المنزل بالإحدى عشرة صفة الحميدة.

• **الأولى: المحبة**، ونعني بها المحبة الخاصة الناشئة عن مشاهدة المحبوب، فليست محبة الخبر كمحبة العيان، وهي التي يُعبر عنها بـ«محبة الجلال»، ودونها «محبة الجمال»، ودونها «محبة النوال»، فالأولى تختص بمقام الإحسان، والثانية تختص بمقام الإيمان، والثالثة تختص بمقام الإسلام.

وهي التي تقطع العبارة وتدقق الإشارة، من غير عثور على كنه ولا ماهية، ولا وقوف مع نعت، وذلك يرقى بالروح عن القنوع بما يقتضيه العقل من المحبة، لتوالي الإحسان، إذ ليس الحب للذات كالحب للصفات.

• **الثانية: الدهش**: وهو ناشئ عن المحبة عند صولة الاتصال وصدمة التجلي بنور القرب الدافع شوق العيان، وذلك يرقى بالروح عن الركون إلى شوق الخبر؛ إذ ليس الخبر كالعيان.

• **الثالثة: الفناء التام**، وهو المعبر عنه بـ«فناء الفناء»، وهو فناء عن الوجود وعن شهود الفناء، بقاءً مع الحق بعين الجمع، وذلك يرقى بالروح عن الاستغناء بفناء شهود العيان الحاصل في منزل المراقبة.

• **الرابعة: السكر**، وهو ناشئ عن المحبة، وهي حالة بين العلم والفناء؛ لكنها أقرب إلى الفناء منها إلى العلم، وذلك عند انفصال وارد الاتصال، وصدق هذا السكر تمحضه في التخلص من شوائب الحيرة إلى التعظيم، وصفاؤه من الشوق إلى التمكين، وملازمة السرور بحق اليقين، وذلك يرقى بالروح عن الهيمان الذي أصله الحيرة في ميدان المراقبة.

• **الخامسة: المكاشفة**، وهي بلوغ لما وراء الحجاب وجودًا، ومن حقها الاستدامة، فإن القطع عن حق اليقين لا يكون فيه انقطاع، بخلاف الإلهام والفراسة، لقصورهما عن درجة القطع، والمكاشفة نقل عن حق التحقيق بلا ريب، سببها الفناء التام، وذلك يرقى بالروح عن وهن الظن، وإن كان الظن ثابتًا.

• **السادسة: المعاينة بعين الروح لحق الحق**، عيانًا محضًا وسط فراديس الحضرة، وهي فوق المكاشفة، وذلك يرقى بالروح عن المعاينة القلبية، وإن كانت تُورث القطع، لكنها مائلة إلى شواهد العلم.

• **السابعة: السرور الكائن عن سماع الحق** بمحو آثار الاستيحاش، وتلاوة سور الإجابة التي تضحك الروح، وذلك يرقى بالروح عن الأفراح بمبادئ الوصلة، والفرح دون السرور.

• **الثامنة: الغيرة**، وهي التي تؤذن بالمعرفة وتميل إلى الارتقاء إلى بحبوحة

الأدب، وتنشأ عن المحبة الخالصة، والغيرة عبارة عن: «التلبس بالرسوم، والكتم عن البشر، والإشارة دون التصريح صيانةً للأسرار واتساعًا لمحل الأمانة»، وذلك يرقى بالروح عن ضيق الحمل ومطاوعة البوح.

• **التاسعة: الحياة المؤذنة بالبقاء الدائم**، وهي التي تنشأ عن الفناء التام، وتُعرب عن الجمع الصحيح خروجًا عن علق التفرقة إلى الحق، وعدولًا عما سواه، فليس بعد هذه الحياة انفصال ولا وراءها إشارة، وذلك يرقى بالروح عن حياة العلم إلى حياة اليقين فلا حد ولا رسم ولا أثر، ولا قبل ولا بعد، ولا ضد ولا شبه، ولا زمان ولا مكان.

• **العاشرة: التفريد**، وهو تخليص الإشارة إلى الحق بالحق عن الحق، بعطاء المحبة أولا، والافتخار ثانيا، وهداية الخلق ثالثًا، وذلك يرقى بالروح عن توحيد الصفات إلى توحيد الذات من غير مفارقة النعوت.

• **الحادية عشرة: الغربة**، وهي غربة الهمة في طلب الحق حتى ظهرت له الأسرار على أكمل ما تقتضيه عيون الحقائق، فهو غريب الدنيا والآخرة «**فطوبى للغرباء**»(١)، وذلك يرقى بالروح عن التلبس بالشواهد ولو لمحة، وبالله التوفيق.

❖ علامة:

ومن علامات حصول هذه النتيجة:

- اتصال البروق على الروح، مع الثبات على حمل أعبائها، وإقامة رسوم الشريعة في أوطانها على اختلاف أوطارها وأطوارها، وإن كان ماحيًا أوهام العادة، فبالمعنى وملابسها عليه كالثوب المعار، وقاية لكتم السر وحفظًا للحقائق.

- **ومنها**: ارتفاع جميع التهم في وجود الحق بصحة السماع عن الحق، والمعاينة للحق بالحق.

- **ومنها**: استدامة حال التجلي ارتقاء من غير ميل عن التحلي والتخلي، فلا ظلام طارق ولا غيم نازل، إنما هو صباح متصل الضياء، متسع الأرجاء، يؤذن

(١) رواه أحمد في مسنده، من حديث عبد الله بن عمرو به. رقم ٦٦٤٧ و٧٠٦٩.

بالبقاء، ويروح من صدمة الفناء، ويعرب عن التخصيص بتمكن الإدناء.

- **ومنها:** ترادف خروق العادات، مع العلم بها، والتنزه عنها، وعدم الإشارة إليها، غيبةً عنها من غير استغراق فيها، وإن كانت الإشارة إليها؛ فتدللًا بالولاية الدالة عليها، وإلا فالتستر صيانةً لمكنون سرها، وإن لم يغب عن مطالعة مهبطها من مستقر سرها.

ومنها: ارتفاع همة الروح عن تلمح الأكوان غيرةً على عين البصيرة - التي بها أبصر الحق - أن تلمح سواه بمبالاة، وصيانةً لسره الذي تمتع بالحقائق، أن يومئ إلى غيرها بإشارات، إلى غير ذلك من العلامات التي يرق معناها، وبالله سبحانه التوفيق.

❖ وصية:

وينبغي لصاحب هذا المنزل أن يكون باقيًا بإبقاء الله تعالى إياه في مطلق الإرادة القديمة؛ طوعًا تصرفه القدرة الأزلية في تصاريف الأولياء، مصونًا بالحفظ الإلهي عن موارد الأغيار؛ لأنه من خواص الحضرة القدسية، وأولياء الله وأصفياء محبته: بالله يقومون ويقعدون، وبه يصمتون وينطقون، وبه يسكنون ويتحركون، وهم الذين قيل فيهم: «كلامهم لله، وأنسهم بالله ومنزلهم عند الله، وعيشهم مع الله، فلا يرون مع الله غير الله، وهم الذين ظفروا بتصفية نفوسهم حين روحنوها، فالملائكة تأنس بهم، وأرواح الأنبياء والأولياء والشهداء وسائر المقربين تشتاق إليهم، وتغار على ملابستهم الجسوم»؛ فينبغي له أن يصون هذه الحالة باستصحاب ذكره مع أنفاسه، واتصال خروجه عن أوهامه، حتى لا يطرقه طارق فترة، ولا يعرض له عارض وهم. وإن كان صاحب هذا المنزل عنده من المعرفة واتصال الحفظ ما يحمله على سداد، ويسلك به سبيل الرشاد، فالوصية له: قيام بالرسم الشرعي في التذكير، وسعي على ما يقتضيه الطور البشري من التغيير، وجري على ما درجنا عليه في المنازل السالفة.

وهذا المقدار أبلغ ما تسمح به العبارة في هذا المنزل لأهل هذا الشأن، ولا يعدم له نكير من غيرهم، لكن إنما يتحدث بكل علم مع أربابه، وأقل ما يكفي لمن

سمع شيئًا من أسرار هذا الطريق الإيمان المحض به، وحسن الظن بأهله، جعلنا الله منهم، ولتعلم أن هذا الطريق غريب الوجود، عزيز المنال، شريف الأحوال، وكله راجع إلى الأذواق، فمن لم يكن عنده منه ذوق، فليكن عنده إيمان به، مع أنه لم يبق منه إلا رسوم داثرة، وأطلال عافية، وآثار متغيرة، فيا ليت شعري مع من يتحدث بهذه الأسرار؟! وعلى من تتلى سور هذه الأخبار؟! ولدى من تجلى عرائس هذه الحقائق!

حدثني أبي ﷺ قال: كان الشيخ أبو القاسم ﷺ إذا جرى ذكر من أحوال طريقته يقول: «هذا الشراب، لكن لا يوجد مع من يشرب».

ولم يزل أهله محافظين على ستره بالكتم، غيرة على أسرار الأذواق، وضنة بالحكمة على غير أهلها، فلما كسدت سوق سلوكه، عرضت نفائس أعلاقه لعل الفطن السليمة تتنافس في اقتنائها، وتتزاحم على مواردها لتنال منها، ولو حسن الظن والحب في أهلها، «ومن أحب قوما فهو منهم»[1]، وبالله سبحانه التوفيق.

(١) رواه أبو داود (٤٤/٤، رقم ٤٠٣١)، وابن أبي شيبة (٢١٢/٤، رقم ١٩٤٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥/٢، رقم ١١٩٩).

المنزل الثالث من مقام الإحسان

منزل المعرفة

اعلم نور الله قلوبنا بأنوار المعارف، وحملنا على منهاج كل ولي عارف، أن المعرفة هي نهاية مقام الإحسان وآخر منازله. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] أي عرفوه حق معرفته، وقال تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال النبي ﷺ: «**إن دعامة البيت أساسه، ودعامة الدين المعرفة بالله**»[1]، ونعني بالمعرفة هنا تمكين حال المشاهدة، واستصحابها مع إقامة العدل وملازمة الحكمة، وهذا غير ما يطلقه أهل الفقه من أن المعرفة هي العلم بالرسوم النبي ﷺ وإن كان للمعرفة عموم يصح به أن تطلق على العلم من حيث هو؛ ولكن أخص مقتضياتها المعرفة بالله تعالى، بمعاني أسمائه وصفاته، من غير تفريق بين الصفات والذات، وهي المعرفة الصادرة عن عين الجمع، وتعرب عن الخلاص التام، وتفصح عن دوام السر مع الله ﷻ، وتضمن تحديث الحق إياه بتعريف أسراره في ما يجري به من تصاريف أقداره.

وإذا تأملت هذه المعرفة، وجدتها تشمل جميع المعارف والعلوم وقد قالوا في حد المعرفة: «المعرفة إحاطة بعين الشيء، كما هو، والخلق فيها برق»، فالمعرفة عند أهل هذا الشأن إنما يشيرون بها إلى المعرفة بالله تعالى بما يقتضيه اسمه العظيم من معنى توحيد الذات والصفات والأفعال، قال بعضهم: «العالم يُقتدَى به والعارف يُهتدَى به»، وقالوا: «العالم دون ما يقول، والعارف فوق ما يقول».

وأول أحوال العارف نهاية المشاهدة، ولا نهاية للعارف، إنما ارتقاؤه أبدًا إلى ما لا نهاية له؛ لأن معارف الله تعالى لا تتناهى، والعارف يرقى إلى المعارف مع مرور

---

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/٢٢٢).

أنفاسه وتوالي أزمانه، وقد قال بعضهم: «المعرفة أولها قولك: «الله» وآخرها ما لا نهاية له» فحسبنا الإشارة إلى مبادئها، والعجز عن الكشف عن كنه نهايتها.

ثم إن المعرفة وإن كان لها عموم في جميع منازل المقامات باعتبار أنها تطلق على معنى العلم، لكن أخص المنازل بها هذا المنزل الأخير، إذ المراد ها هنا الاشتمال على جميع المعارف، وإذا تأملت اسم كل منزل وجدت له عمومًا في سائر المنازل، فإذا حققت المراد منه، وجدت له اختصاصًا بالمنزل المضاف إليه.

وإذا تقرر هذا، فإن المعرفة المشار إليها هي غاية السالكين، ونهاية المسافرين إلى الله تعالى، والصفقة التي بذلوا فيها أنفسهم إلى الله ﷻ ثمنًا، وإن كان لم يبق منها اليوم غير مجرد الاسم دون المسمَى، فلا جرم أن نبسط من ذكر أحوالها ووظائفها ما نعلم به قدر ما فاتنا من الله، ونطلع منه على ما سبق إليه المفردون، وظفر به العارفون، وما حرمه المقصرون، والبطالون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فصل

في شروط وآداب مبادئ منزل المعرفة

واعلم أن لمبادئ هذه المعرفة شروطًا وآدابًا، إذ نهايتها تقضي بالعجز عن تصورها، فضلًا عن الكلام في أحكامها.

* **أما شروطها فأربعة:**

• **الأول: القرب الدائم**؛ فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلا إلى الله، كما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتدبره فيما يسنح له من أمر أو يستقبله من حال، كذلك العارف، رجوعه إلى ربه ذاهلًا عن قلبه وفكره وذكره؛ لأن المعرفة تقضي بتمزيق الرسوم وهد بناء الإشارات، إذ العارف مستهلك في معروفه، مستغرق في شهوده.

• **الثاني: العجز المؤذن بالإدراك**، كما قال الصديق رضي الله تعالى عنه: «العجز عن درك الإدراك إدراك» وإلى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ «**لا أحصي ثناء عليك**

أنت كما أثنيت على نفسك»[١]. قال ذو النون المصري[٢]: «أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه».

إنما هي شهود خفي من غير إحاطة ولا وقوف على كنه، ولا حصر بمكان ولا زمان، ولا تعديل على تصور ولا تفكر، ولا تدبر، جل الله وجلت المعرفة به، وسبحانه عما لا يليق بألوهيته، سبحانه سبحانه علوًا كبيرًا.

• **الثالث: المحافظة على الرسوم الشرعية**، وإقامة الوظائف الدينية، اقتداء بإمام العارفين وسيد المقربين الذي تفطرت قدماه من طول القيام في الصلاة، مع تمكين معرفته، وقد ضل قوم وزلت أقدامهم حين ادعوا المعرفة وقالوا بترك الحركات، ورأوا أن ذلك من باب البر والتقوى، ولم يشعروا بأن ذلك تعطيل وكفر حاشى المعرفة من هؤلاء. قال إمام هذه الطريقة وسيد أهل الحقيقة أبو القاسم الجنيد: «القول بإسقاط الأعمال عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا عندي من الذي يقول بإسقاط الأعمال، فإن العارفين بالله، أخذوا الأعمال عن الله، ورجعوا فيها إلى الله»، ثم قال: «ولو بقيتُ ألف عام لم أُنقص من أعمال الشريعة ذرة ».

• **الرابع: صيانة ما حصل عليه من تصفية الروح حتى يبقى مخلقًا بأخلاق الحق**، فيكون خليفة على الحقيقة، فلا يتحرك ولا يسكن ولا ينطق ولا يصمت إلا بالله ولله، وعن الله، وفي الله، وإلى الله، ومع الله، حتى إن لسانه لصامت عن الحقائق، وأقواله وأفعاله تشير إليها. فهو بالله من حيث توليته له، ولله من أجله لا من أجل حظ، ومع الله من حيث المشاهدة، وفي الله من حيث الفكر والترقي، وإلى الله من

---

(١) رواه مسلم (٣٥٢/١، رقم ٤٨٦)، وأبو داود (٢٣٢/١، رقم ٨٧٩)، والترمذي (٥٢٤/٥، رقم ٣٤٩٣) وقال: حسن. والنسائي (٢٢٢/٢، رقم١١٣٠)، وابن ماجه (١٢٦٢/٢، رقم ٣٨٤١)، وأحمد (٢٠١/٦ رقم ٢٥٦٩٦).

(٢) ثوبان بن إبراهيم وقيل: الفيض بن إبراهيم. الصوفي الشهير، وأحد من كبار المشايخ. أصله من نوبة مصر، كان صاحب علم، وورع، وأدب. روى عن مالك والليث، وأخذ عنه عدد كبير من صوفية القرن الثالث، ولد في أواخر أيام المنصور، وتوفي سنة ٢٤٥هـ. انظر ترجمته في: (الحلية: ٣٣١/٩).

حيث التوجه والقصد، وعن الله من حيث التكليف.

* **وأما آدابها فأربعة:**

• **الأول: إعطاء الحكمة أهلها، ومنعها من غير أهلها**، كما ورد في الحديث: «**لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم**»[1] وإلى هذا أشار بعضهم بقوله: «سكوت العارف أنفع، وكلامه أشهى وأطيب » ورأس الحكمة مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

• **الثاني: التزام الأدب في كل شيء مع الله ﷻ**، وأعظم الأدب معه، حفظ أسرار الحق صيانةً عن الخلق، فهو مع الخلق برسمه، ومع الله بالله، كما قال بعضهم – وقد سُئِل عن العارف فقال: «العارف لا يرى في نومه ولا في يقظته غير الله، ولا يوافق غير الله، ولا يطالع غير الله، وعند العارف من الاتساع ما يلبس به الحقائق بالرسوم، فهم في واد وهو في واد».

• **الثالث: ملازمة الهيبة والصعود إلى غايتها**، فإن الهيبة من أمارات المعرفة، كلما ازدادت معرفته ازدادت هيبته، وقد يعبر عن الهيبة بالخشية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ **[فاطر: ٢٨]**، وقال النبي ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية**»[2].

فإن قلتَ: كلامك يشير إلى أن المعرفة محو مطلق، والمحو المطلق فناء تام عن الرسوم والصفات، والهيبة من الرسوم والصفات.

فالجواب: أن العارف، وإن كان بهذه المثابة من الاستغراق في معروفه والاستهلاك في وجوده وشهوده، فمن علامات قربه – وإن اختُطِفَ عن إحساسه – أن تبقى رسوم الأدب محفوظة عليه بحفظ الله تعالى إياها عليه، وإقامته فيها مقام الحمل، فيكون سره مستغرقًا في وجوده، ورسمه قائمًا بوظائف معبوده.

• **الرابع: الصعود أبدًا إلى الغايات**، فلا يقنع من الله بحال وقته، كما لا يقف عن

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٧٢/١٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢١٩/٣).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة به، بلفظ: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه. فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» ٧٣٠١.

السير إليه، وكلما سنح له من الطباع البشرية سانح إشارة، أخمد ناره بنور معرفته، تنزهًا عن مقتضيات الطباع، وجريًا في ميدان المعرفة، ملء العنان، فهو يرقى أبدًا من حال إلى حال، وبالله التوفيق.

❖ ذكر:

اعلم أن ذكر مبادئ هذا المنزل إنما هو الذكر المفرد الذي ختم به منزل المشاهدة، حتى إذا تمكن في بحار المعرفة، وحصل على لباب سر التوحيد حصولًا راسخًا، وانكشفت له من معناه أنوار الحقائق متصلة معربة عن المعارف الإلهية، وحتى أن جميع ما احتوت عليه المملكة من الموجودات ناطقها وصامتها، متحركها وساكنها، جامدها ومائعها، حيها وميتها، ظاهرها وباطنها، من العرش وما حوى إلى تخوم الأرض السابعة السفلى، كل ذلك مستحضر عنده يعرب كل جوهر فرد منه عن لباب سر التوحيد. فهو ذاكر بحركاته وسكناته، ولحظاته وخطراته ولمحاته. فالغيبة عنه غائبة، والحضور معه حاضر، كذلك جميع الأذكار وإن اختلفت كيفياتها وسائر الكلام وإن تباينت معانيه، ما من حرف من ذلك ولا نقطة ولا شكلة إلا وهو يفصح عن لباب سر التوحيد، فالحالات عنده واحدة، والأذكار لديه متساوية. فالعارف وإن كان هو معدن الذكر وسره ولبابه؛ فهو يجري نهايته مدرجة في طي رسوم التمكينات والبدايات، بتحريك اللسان وتصريف الجنان ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

❖ مقصد:

اعلم أن مقصد الذكر في بداية منزل المعرفة هو المقصد المرسوم في منزل المشاهدة، حتى إذا تمكن في منزل المعرفة، صار كل شيء منه ظاهر أو باطن هو المقصد التام الكامل الذي ينفق منه على جميع الأذكار، ولاستهلاكه في بحار الحقائق، وهل المقصد إلا دليل يدل معناه على ما يراد من الذكر؟

فإذا بلغ العارف تمكين المعرفة، أفاده طلوع الحق على الأسرار بمواصلة

الأنوار، فصار هو المقصد بعينه. كيف لا والعارف إكسير العالم، بل إكسير الوجود، تستمد الأشياء منه صلاحها.

وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله: «العارف هو الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء» قالوا: «ومعاشرة العارف كمعاشرة الحق: يحتملك ويحلم عنك، لأنه تخلق بأخلاق الحق» قالوا: «وهو كالمطر تنتفع به كل جهة أصابها » لم لا، وقد أضاءت له أنوار المعارف فأبصر بها عجائب الغيوب.

فهو كما قال إمام هذه الطريقة أبو القاسم الجنيد ﷺ في وصف العارف: «عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هويته، وصفا شرابه من كأس وده، وتجلى له الجبار عن أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن سكت فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله؛ فهو بالله، ولله، ومع الله، ومن الله، وإلى الله» وهذه إشارة يدق معناها ويجل مغناها، وبالله التوفيق.

❖ ثمرة:

اعلم أن ثمرة هذا المقصد في مبادئ هذا المنزل أن يكون العارف كعبة لجميع الأسرار، وشمسًا تستمد منه جميع الأنوار، وترد عليه المعارف أفواجًا بعد أفواجا، وتتراكم لديه الحقائق أمواجًا أثر أمواج، جمعًا وإفرادًا، وإن كان ورود المعارف عليه متنوعة المشارب، مختلفة الموارد، فقبول روحه إياها قبولًا واحدًا، عن نسبة واحدة. قال بعضهم: «العارف تضيء له أنوار المعرفة، فيبصر بها عجائب الغيب» إلى غير ذلك من الألطاف الإلهية والمنح الربانية التي ترد على روحه متصلة مع أنفاسه بما يقصر عنه البيان ويكع[1] عن دركه الجنان، ويخرس عن الكشف عن كنهه اللسان، كل ذلك من غير نقض لحكم من أحكام الشريعة.

ومن علامات صدق معرفته أن لا يرد على روحه من أسرار الغيب إلا ما يشهد لصحته الشرع، ولا ينقض أصلًا من أصوله، حتى إنه ليبث الأسرار مدرجة في عبارات الأحكام من غير تنافر ولا تناف، فلا يظهر عليه ما يخالف الرسوم الشرعية والأحكام الدينية.

وهذا إذا فحصت عن حقيقته تجدها بادية من أحوال النبي ﷺ في اتساع

(١) أي: يضعف ويعجز، أو: يجبن.

عباراته، لما يأخذ كل إنسان منه منفعته وينفق منه بحسب حاله، على ذلك درج الخلفاء وسائر السلف ﷺ، وبالله التوفيق.

❖ نتيجة:

اعلم أن نتيجة هذه الثمرة اتصاف الروح بإحدى عشرة صفة حميدة يرقى بها في مبادئ المعرفة إلى ما لا غاية له عن إحدى عشرة صفة هي أدون منها، وإلى هنا انتهى العلم بما يرقى العارف إليه أو يرقى عنه، ووراء ذلك من الأسرار اللطيفة والحقائق الدقيقة ما يجل عن البيان.

• **الصفة الأولى: الحرية**، ومعناها: «أن يكون العارف فرد الفرد من غير أن يكون تحت رق لشيء من الموجودات، لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة»، ولعزة حال الحرية أنشد بعضهم هذا البيت:

أتمنـــى علـــى الزمـــان محـــالا ... أن تـــرى مقلتـــاي طلعـــة حـــر[1]

والحرية عبارة عن غاية التصفية والطهارة، فالمكاتب عبد ما بقي عليه درهم واحد.

قال بعضهم: «ليس بحر من بقي عليه من تصفية نفسه مقدار مص نواة» وذلك يرقى بالروح عن أن يتلمح الشواهد والعوائد.

• **الثانية: الوجود**، وهو الفوز بحقيقة الشيء، وهو: «وجود مقام تضمحل فيه الرسوم حتى رسم الوجود، بالاستغراق في الأولية» وذلك يرقى بال روح عن تلمح ظلال الأوهام عند سطوع أنوار الحقائق.

• **الثالثة: الجمع الأتم**، وهو الذي يعبرون عنه بـ«جمع الجمع» الذي يقضي بقطع الإشارات والشخوص عن الأمارات والعلامات، بعد صحة التمكين، والبراءة من جميع التلوين، وذلك يرقى بالروح عن شهود غير الله، حتى شهود الجمع.

• **الرابعة: الصحو**، ولا ينال إلا بحياة الروح بوارد الجمع ولوائح الوجود، وهو عبارة عن: «تمكن لحال المشاهدة واتصالها مع هدو الروح من لدغات الدهش،

---

(١) البيت أورده القشيري برواية الشيخ أبي علي عن أبي العباس السياري.

وترويحه من ضغطة صدمات التلف»، وذلك يرقى بالروح عن سكر الدهش المذهل عن التمكن من مطالعة جمال الحضرة.

• **الخامسة: التحقيق**، وهو: «الوصول إلى المعرفة بالله الذي لا تدركه الحواس، بتخليص المشرب من الحق بالحق في الحق، حتى تسقط الشهادات، وتبطل العبارات، وتفنى الإشارات»، وذلك يرقى بالروح عن الحيرة في أودية مهامه الحقائق، حتى تشرق أنوار المعرفة بالخروج عن ضحضاح[1] البشرية.

• **السادسة: البسط**، ونعني به: «إرسال الشواهد في الرسوم العلمية، مع حفظ السر بسربال الاختصاص»، فهو عَلَم في طريق الإرشاد، وإمام يهتدي به جميع العباد، ومصباح يستضيء بنوره السالكون، ويقطعون من ثمار حكمته كل رطب جني، وذلك يرقى بالروح عن واردات القبض المستمد من الطبع.

• **السابعة: التلبيس**، وهو يضارع البسط؛ لكن البسط أعم منه، والمراد بالتلبيس: «تغطية الأسرار بأستار الأسباب، إبقاءً على الكافة بما تحمله مشاربهم، تربية لأبناء الحكمة بلبان الملاطفة»، وذلك من خواص الأنبياء، ثم بعدهم للأئمة الربانيين الذين يربون السالكين بصغار الحكمة قبل كبارها، وذلك يرقى بالروح عن إطلاق العبارات بما لا يحمله عقل كل إنسان.

• **الثامنة: البقاء**، والمراد به: «الخروج عن فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة، من غير أفول يحل بشمس المشاهدة، ولا رجوع إلى شواهد الحس؛ إنما هو استصحاب القرب باستيناس الروح. فهو كما قالوا: «كائن بائن» وذلك يرقى بالروح عن الضعف عن حمل أعباء الوصل، والوهن لواردات الحق.

• **التاسعة: السر**، وهو قريب من التلبيس؛ لكن التلبيس أقوى، لأنه ستر حسام الجمع في قراب التفرقة، إبقاء على الكافة بالسلامة من الحيرة، والجمع بين الجمع والتفرقة أمر صعب جدًا، وأما السر فهو أضعف؛ لأن صاحبه يشير إلى منزل وهو في غيره، غيرةً على ما أشهده الحق من أسراره، وطلبًا لما أسره عنه مع شواهد أقامها على صحة مقامه، فاستتر بالله عن الكونين، فمنفعة هذا مقصورة على نفسه

---

(١) الضحضاح والضحضح: الماء القليل يكون في الغدير وغيره، يقال: ماء ضحضاح أي: قريب القعر. تهذيب اللغة (٣/٢).

لحكمة حكم بها العليم الخبير. بخلاف صاحب التلبيس الذي قيضه الله منفعة لعباده، وذلك يرقى بالروح عن ضيق البوح الهاتك لستر السر، القادح في عز الغيرة.

• **العاشرة: الاتصال**، وهو اتصال الوجود بتوالي الجمع، لكن لايدرك هذا الاتصال بوصف، ولا ينال بحد، إنما هو: «اسم لا تكشف عن مسماه العبارة، وإن أومأت نحوه الإشارة»، وذلك يرقى بالروح عن وهن الانفصال ورؤيته عند الخروج من ظلمات الكونين إلى أنوار المعرفة.

• **الحادية عشرة: الحكمة**، وهي التي هبت بها رياح التخصيص، فاستشنقها أهل الولاية، فأوردتهم موارد التحقيق، وألبستهم خلع المعارف، وأظفرتهم بذخائر الأسرار، ولا تكون إلا لعارف وارث، وذلك يرقى بالروح عن التصميم بالغيرة إلى دلالة الخلق على الله ﷻ، وبالله التوفيق.

❖ علامة:

اعلم أن من علامات حصول هذه النتيجة والارتقاء بها إلى تمكين المعرفة:

أن لا يقيده حال عن حال، ولا يحجبه منزل عن منزل، ولا يلتبس عليه مقام بمقام، ومعنى ذلك أن العارف إذا رسخت قدمه في المعرفة يعاشر أهل منازل المقامات بمشار بهم، فينتفعون به ولا يتضرر بهم، لأنه يواصلهم بأحوالهم مع حفظ حاله، وينتقل معهم بانتقالاتهم وهو ثابت على مقامه، فهم يظنون أنه معهم بمثل الذي هم فيه، يجد مثل الذي يجدون، وليس كذلك، إنما هو معهم بشاهده، وبائن عنهم في شهوده، يلبس أحواله بأحوالهم، ويناطقهم بمشاربهم لينتفعوا، ويمازجهم بمقاماتهم ليتمكنوا، وهذا رأس الحكمة.

- **ومنها**: استعمال الأذكار كلها على اختلاف كيفياتها استعمالًا واحدًا يميل بمقضياتها إلى مقتضى حاله، لا يميل بمقتضى حاله إلى مقتضياتها؛ فهو ينفق من جميعها لباب سر التوحيد، ويردها كلها إلى سبيل مقامه العرفاني.

- **ومنها**: صعوبة أمر البكاء؛ لأن البكاء إنما هو في أوقات سيرهم، فإذا نزلوا إلى حقائق القرب وذاقوا طعم الوصول، زال ذلك عنهم هذا في الغالب، وقد يرد عليهم من الأحوال ما يقتضي إراقة الدموع، والرقة والخشوع عند رجوعهم لمقتضى الطبع

البشري، وذلك لا يقدح في حاله وكماله، وأما حال الإنس: فالصفا لا يحتمل الجفا.

❖ وصية:

وإن كان العارف بما حصل عليه من أسرار المعارف غنيًا عن التعليم؛ لكنه لا يستغني عن التذكرة والتنبيه، وقد قال إمام العارفين ﷺ: «**إنما أنا بشر: أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»(١)، وليس من حق التذكرة ألا يقرع بها إلا آذان أهل الغفلة؛ بل من حقها أن تعرض على الكافة والخاصة، وما دامت الطباع البشرية موجودة، فلا يضر التذكير.

وقد قيل لإمام هذه الطريقة أبي القاسم الجنيد ﷺ: «أيسرق العارف ويزني! فأطرق مليًا ثم رفع رأسه وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أشار ﷺ إلى أنه من لم تثبت عصمته لا تُؤمن زلته.

فأما إن كان صاحب هذا المنزل من أهل السر، ونعني بأهل السر من كان نفعه مقصورًا على نفسه لا يتعداه إلى غيره، إن لم يهيئه الله لهداية غيره:

أن لا يستقر على حال من أحوال الشواهد، وأن يكون متقلب الظاهر بين المصادر والموارد.

وأن يلازم الأسفار، والتطور بالأطوار، ظاهره مختلف العوائد، وهو مع الله حاضر وشاهد؛ لكنه مع الله تعالى، ملبوسًا من قبل الحق بلباس الغيرة، فلا يفارقه الكتم والتستر، مع ربط أنفاسه بالأسرار، وحفظ تقلباته وأطواره؛ لأن باطنه مرآة للأسرار، وظاهره كالثوب المعار.

- **ومنها**: العدول عن صحبة الخلق، لأنه لم يرض بغير الله صاحبًا ولا مجالسًا ولا أنيسًا، فلا يسمع معه غيره، غيرةً وكتمًا، لا أنه ضاق نطاق معرفته عن صحبة الخلق، إنما ذلك إفراط غيرة أن تظهر عليه الأسرار، أو تلوح من جنباته الحقائق، فتجده يحفظ سره من سره؛ غيرةً على سره، مع أنه لم تتعلق به وظيفة غيره.

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٥٦، رقم ٣٩٢)، ومسلم (١/٤٠٠، رقم ٥٧٢)، وأبو داود (١/٢٦٨، رقم ١٠٢٠)، والنسائي (٣/٢٨، رقم ١٢٤٢)، وابن ماجه (١/٣٨٢، رقم ١٢١١).

وأما إذا كان صاحب هذا المنزل من أصحاب الهداية الربانيين، المتعلق بهم إرشاد طلاب الله المريدين وجهه، فليمازج الخلق لا له ولا لهم؛ لكن لله وبالله، فيؤتي الحكمة أهلها، كما يمنعها من غير أهلها.

وليكن كالأرض يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي من يحب ومن لا يحب.

وأن يكون رباني التعليم: فيعطي كل إنسان ما يوافقه ويناسبه من الحكمة، وأن يستر أسراره في طي الرسوم، فإنه مهما أرسل العبارة بالكشف عُوقِب بالكف، ومهما لازم حفظ السر توالت عليه مواهب الخير.

والعارف بما عنده من المعرفة وصفاء السر، أهدى سبيلًا وأقوم قيلًا فلا تبعد منه الحِكَم، ولا يغيب عنه الفهم، وإنما هذه النبذة إشارة لحال العارف كي لا تلتبس بغيرها، وإن أحوال العارف لتجل عن الوصف، وتعظم عن الحد، وبالله التوفيق.

الباب الخامس

فيما يعرض من العوارض ويظهر من الكرامات باعتبار منازل المقامات

[تمهيد]

اعلم جعلني الله وإياك من أهل ولايته، وحبانا بخصائص أسراره وكرامته، أن هذا الباب، كان من حقه أن يندرج في كل منزل من المنازل ما يخصه من العوارض والكرامات، لكني رأيتُ أن أفرده بالبيان، عناية بما أودعته من الفوائد لأهل هذا الشأن، وذلك أن العوارض التي تعرض للسالك في سلوكه:

منها: ما يشير ظاهره إلى صحة، وباطنه محتو على سقم.

منها: ما ظاهره مشكل المورد، وباطنه خالص المقصد.

ومنها: ما ظاهره وباطنه سيان؛ لكن الحكمة تخلصه لأحد الوجهين من حسن أو قبح.

وكثير من السالكين من حيرته عوارض منزله، فاخلدته عن النفوذ، وكذلك ما يعد من الكرامات:

منه: ما هو عن علة وفساد مزاج.

ومنه: ما هو جار على مجرى المكر والاستدراج.

ومنه: ما يكون تمحيصًا ليمتاز من خلص قصده لله، ممن جعل حظًا من وجهته لسواه.

ومنه: ما أصله للغير، ظاهر على بعض أهل الخير. فمنه الصحيح ومنه السقيم، إلى غير ذلك من الوجوه الطارئة على العوارض والكرامات، حسبما يأتي بيانه بعد بحول الله تعالى.

فأشرتُ إلى بعض العوارض والكرامات بحسب المنازل، منبهًا على ما يهم من ذلك؛ لتعذر الاستقصاء في ذلك، إذ العوارض والكرامات تختلف ولا تتناهى، وليس ذلك من لازم كل سالك، إنما هي عوارض تعرض لقوم دون قوم، وكرامات تظهر على بعض دون بعض، وقد يكون من تعرض له العوارض أكمل ممن لا تعرض له، كما قد يكون من تظهر عليه الكرامات أدون ممن لا تظهر عليه، وإنما المقصود بالتنبيه على ذلك أن يعلم من تعرض له عوارض، أو تلوح له

كرامات، أين هو مما اختص به كل منزل من ذلك، ومع هذا، فقد تعرض للسالك عوارض، وتظهر عليه كرامات، مما يختص بما رقي عنه، ومما سيرقى إليه، فليعلم عند ذلك أن ورود ما ورد عليه من ذلك، إنما هو بحال غلبت عليه في الوقت من المنزل الذي اختص به ذلك الوارد.

ومعظم الحامل على الإشارة إلى ذلك، هو التنبيه على ما يتعلق بالعوارض والكرامات، من العلل وأسبابها وعلاجاتها؛ ليصفو للسالك مشربه في ذلك، ويتخلص من تبعات أوهامه، فلنبدأ بذكر العوارض، ثم لنردف أثر ذلك بذكر الكرامات على نسق، مرتبة على المنازل بحول الله تعالى.

ذكر العوارض بحسب المنازل

١- عوارض منزل التوبة:

• **منها**: ما قد يعرض للتائب من ضيق يجده في باطنه، يحدث عنده كسلًا وضجرًا.

- **سببه**: خروج النفس عن بعض معتاداتها المتعلقة بشهواتها دفعة، والطباع البشرية لها بالانتقال عن مألوفاتها ألم يثير التنقيص.

- **طِبُّه**: الخروج عن أصحاب الضلالة، ومؤالفة أهل الهداية، والصبر على الطاعة، والابتهال إلى الله تعالى بالضراعة، وحمل النفس على ما يخف من الأعمال، والترويح لها بشيء من المباحات من غير استرسال، مع كيفية من ذكر الاستغفار، تشد عرى العزم، وتذهب بهذا العارض.

• **ومنها**: ما قد يعرض له من خواطر، تسهل عليه أمر الصغائر، قنوعًا بالخروج عن الكبائر.

- **سببه**: خمار النفس واستدراج الشيطان، تليينًا لطباع الهوى بالصغير، ليوقعه في الكبير، والصغائر حمى الكبائر، وبالإصرار عليها تعود الصغار كبارًا؛ فتكثر مادة الظلمة، ويستولي الرين على القلب.

- **طبه**: مجانبة مواضع اللهو، ومباعدة أهل الغفلة، ومواصلة أهل الصلاح، وأن يستعمل من كيفيات الاستغفار ما يقوي مادة الخوف، ويذهب بهذا العارض، مع حظ من المجاهدة والصبر.

• **ومنها**: ما قد يعرض له من الظنون والأفكار المشيرة بالتخويف بالفقر، وطول الأمل، استدراجًا لتوالي الغفلة، وإشارة إلى ملاذ النفس بالفكرة، في ما ناله أيام بطالته من الشهوات، وتمتع به من اللذات، وداعية إلى الانتكاص بنقض العهود، وخرق الحدود.

- **سببه**: الغفلة عن مقتضى الاستغفار، والاسترسال مع الخطرات، فهو في واد وقلبه في واد.

- طبه: الاستعانة على رقة القلب بالصوم، وتوالي الصمت، وقلة الخلطة، وإرسال الدموع، أسفًا على سوء الحظ، مع كيفية من الاستغفار تبعث على قصر الأمل، وتذهب بهذا العارض.

٢- عوارض منزل الاستقامة:

• **منها**: ما قد يعرض له من الخطرات الشيطانية مستندة إلى تأويلات واهية تشير إلى الإقلال من التصلية، وما ذاك إلا مكر من الشيطان ليوقع في مهاوي الخسران حين يقل ذكره؛ فيضعف حبه، فيختل عمود اتباعه، فيرجع على عقبه.

- سببه: غيبة الفكر عن تصور صورته الكريمة عند التوجه بالصلاة عليه، والاشتغال عن تتبع خصائصه النبوية وفضائله العلية وصفاته الزكية.

- طبه: الوقوف بالعلم على ما خص الله به نبيه الكريم ﷺ من الفضائل والكرامات، وما أفاض على أمته من الخيرات والبركات، وما نالوه في قدمه من صنوف العنايات والهدايات، مع إحضار الفكر عند ذكره، كأنه حاضر معه بين يدي الله ﷻ، يشير بصلاته عليه إليه، متأدبًا في محاضرته، ولا بدّ من كيفية من التصلية تحرك إلى هذا المعنى.

• **ومنها**: ما قد يعرض له عند استطعامه حلاوة الصلاة على النبي ﷺ من النشاط إلى حب السماع، والميل بالطباع إلى نغمات الأصوات، لا سيما بالأمداح النبوية، والأذكار الجهرية الجمهورية، حتى ربما أثر إفراط ذلك فيه تفريطًا، وأناله بطالة، ميلًا مع تحريك الطباع، واهتزازها لمختلفات الألحان، حتى يجره ذلك إلى هتك ستر الوقار، وخرق حجاب الأدب، بنكير الصياح، والخروج عن الاعتدال، وهو يظن أن ذلك من مزعجات المحبة، وصادق الأحوال، وما ذلك إلا مكر.

- سببه: خمار النفس بانفعال الطباع للهوى، بما جُبلت عليه من التأثر للألحان، مدرجًا في مبادئ المحبة، ولو صدقت هذه المحبة، لم يفارقها الوقار، ولم تخرج عن الأدب؛ لأن المحب يشاهد بسره محبوبه، ويلازم خيامه وربوعه، فلا يصدر عنه ما يقدح في توقيره ذلك الجناب، ويفل حسام الأدب مع الأحباب.

- **طبه:** الوقوف على رسوم العلم، والتأسي بالصحابة، وإجابة الأمر بتوقيره، وتمثيل المثول بين يديه، والصبر على مدافعة الهوى، مع كيفية من التصلية تقتضي التزام التوقير والتعظيم، وتقضي بنفي هذا العارض.

• **ومنها:** ما قد يعرض له من الشوق الشديد إلى زيارة قبر النبي ﷺ بما داخل قلبه من بشاشة حبه، حتى يجاوز حد الحكم، ويخرج عن نطاق العلم، ويذهل عن مقتضى العقل، وحتى يتشعب عليه باطنه، ويتزيل حاله، ويتنغص عليه عيشه بوعثاء السفر، وتقلبات آفات التعب والنصب.

- **سببه:** مكر من الشيطان ليشغله بالقشر عن اللب، ومن لازم الصلاة على النبي ﷺ تجلى صورته الكريمة في باطن المُصلِّي عليه، ومن تجلت الصورة الكريمة في باطنه على الحقيقة، شغلته عن الجدرات، ومالت به إلى مقتضى العدل، فسلم من الهفوات والتقلبات.

- **طبه:** إقامة ميزان الشرع، والثوى إلى الحكم، ومشورة ذوي العقل، والبقاء مع معنى الذكر، فالكيس من أسكن حبيبه بين الضلوع، واشتغل به عن المنازل والربوع، السر في السكان لا في المنزل.

ولا بدّ من كيفية من التصلية ترد الفكر إلى العلم، وتزحزحه عن طوارق الوهم.

٣- عوارض منزل التقوى:

• **منها:** ما قد يعرض له من الوسواس في العبادات، حتى أن ذلك ليصيبه في العادات، فيخرجه عن الاعتدال، ويوقعه في تغيير الأحكام.

- **سببه:** مكر من الشيطان بإفراط تدقيق الورع؛ ليشغله ذلك عن القيام بأكثر الواجبات، ويخلد به عن المسارعة إلى الخيرات، ويشتت عليه الباطن فتعزب[١] عنه النيات، ويبعد عن المرمى وتستولي عليه الغفلة، فيعرض عن معنى الذكر، مع ما عنده من عرو[٢] عن العلم، وغيبة عن سر الشريعة.

---

(١) تعزب أي: تبعد.

(٢) العرو عن الشيء: الخلو منه.

- **طبه**: المجاهدة على تدبر معنى الذكر، وقهر النفس في الرجوع إلى العلم، والضراعة إلى الله تعالى في كشف هذا الهم، قال بعضهم: «كنتُ في استقصاء أمر الطهارة، فضاق صدري يومًا لكثرة ما صببت من الماء ولم يطب قلبي، فقلت: يا رب العفو العفو، فسمعت هاتفا يقول: إنما العفو في العلم» ومع ذلك فلا بدّ من كيفية من الذكر تقتضي ذهاب هذا العارض، وأكثر الأذكار في ذلك نفعًا الصلاة على النبي ﷺ، وكأن هذا العارض يشعر ببقية بقيت عليه من منزل الاستقامة، فليتلافها.

• **ومنها**: ما قد يعرض له من إفراط الحرص على تحصيل الفضائل، حتى يوقعه إفراطه فيما لا ينبغي، كالعلوم غير الضرورية والمكروهة، والسالك مطلوب بتعلم ما لا تقوم أعماله في سلوكه إلا به، ومكروه له ما يشغله عن حاله من غير ذلك.

وكالتشوف إلى مختلفات الأذواق، بالتعرض إلى ما يحمله المشايخ من مختلفات المذاهب والطرق، ولا شك أن الأدوية إذا اختلفت على المريض أضرت به.

- **سببه**: مكر شيطاني بتسويل تأويلات ليتزحزح عما هو بسبيله، فيتكدر عليه مشربه.

- **طبه**: في الأول: استعمال الذكر على مقتضى المقصد من غير ميل إلى سهو؛ ليكتسب من الذكر حلاوة تشغله بما يعنيه عما لا يعنيه.

وفي الثاني: حسن الظن بالقدوة بعرض محاسنه على النفس، وإخراج أحواله أحسن مخرج، حتى يفيده ذلك تعظيم قدوته بأبلغ الوسع، ولا بدّ من كيفية من ذكره تقتضي ذهاب هذا العارض بالجملة.

• **ومنها**: ما قد يعرض له في باطنه من رقة صادرة عن نفحة بدت من جنبات مبادئ أسرار التوحيد، مدرجة في طي النفي والإثبات، تذهله عن رسوم الأسباب، ظنًا منه أنه قد وقع على اللباب، وربما ضاق نطاقه عن حمل هذه النفحة، حتى وقع في التعطيل.

- **سببه**: الإقلال من الصلاة على النبي ﷺ، والإعراض عن تلمح معناها.

- **طبه**: الزيادة في عدد لزومه من التصلية، وإحضار الفكرة في معناها، والوقوف

على ما يقتضيه العلم، ولتكن كيفية التصلية مشيرة إلى هذا المعنى حتى يذهب هذا العارض.

• **ومنها:** ما قد يعرض له في باطنه من استحلاء طعم التهليل، فتارة يرسل المدامع، وتارة يلهج بما يغشاه من السرور، حتى يجاوز في الوجهين طور الأدب، ويظهر عليه من الحركات ما يقدح في الوقار، ويخرق حجاب الحشمة.

- **سببه:** ضعف عن تحمل الواردات.

- **طبه:** تعزير النفس على مقتضاها من الهوى، وتوبيخها على متابعة الطباع وما هي عليه من الريب، والمتوجه إلى الله لا ينبسط بين يديه انبساط الإدلال، إنما شعاره الخضوع، وحليته الأدب، وليركب له ذكره على كيفية تحرك عنده الرهبة والخشية، حتى يذهب هذا العارض.

٤- عوارض منزل الإخلاص:

• **منها:** ما قد يعرض له من استحلاء الطاعة والنشاط فيها، فلينظر بعين البحث إلى خطراته، وليتأمل خفي ما دب إليه من عقارب هواه، فإن وجد نشاطه مطردًا مع الأنفاس في جميع الأحوال، فتلك أمارة اختصاصية تؤذن بالارتقاء وتعرب عن القبول، وإن كان نشاطه يختلف باختلاف الأحوال الحسية، فذلك رياء خفي يحجب القلب عن الله، ويؤذن بالميل لسواه.

- **سببه:** تفريط في أداء واجبات التهليل، وقصور باع عن درك ما يقتضيه التوحيد، وإخلاد إلى مقتضى الهوى.

- **طبه:** الاستمساك بعروة معنى النفي والإثبات، مع الحركات والسكنات، واتهام النفس في جميع الأنفاس، والأخذ بمخالفتها في جميع الإشارات، وليشد ذكره بكيفية تقتضي القوة وتجمع مفترقات الهمة، وقد روي عن بعضهم قال: «وجدت من نفسي نشاطًا في العمل، فبقيت كذلك زمانًا طويلًا، أظن أن ذلك استحلاء للقيام بوظائف الطاعة، فلما كان ذات يوم، أمرتني أمي أن أعمل لها عملا، فقمت لذلك العمل وقد أصابني فيه كسل، فعلمت أن نشاطي المتقدم كان معلولًا».

• **ومنها:** ما قد يعرض له من إفراط زهادة في الدنيا، وبغض في شأنها، بما يلوح

لبصر بصيرته من أسرار التهليل، فيطلع على سوء عاقبة أمر الدنيا وخساسة أعراضها، ويتحقق فناها بما فيها، فتجده بذلك يعطل أسباب حركات معاشه، ويخلي يده من جميع متاعه، يرى أن ذلك هو كمال الثقة بالله والركون إليه، فلا يقنعه من ذلك إلا موافقة الظاهر للباطن في الفراغ من شؤون الدنيا بنفض اليد مما سوى الله تعالى، وذلك ثوب أفاضه الباطن على الظاهر، وحلة سرت من حيز مقتضى الإخلاص، لكن يشير إلى ضيق العطن، وغلبة حال الإفراط.

- **سببه:** مكر من الشيطان، واستدراج من الهوى إلى بحبوحة التلوين، ومفاوز التقلبات، والمروق من حالة الاتباع. إنما المراد: عمارة اليد بالسبب، مع فراغ الباطن من تبعات شعب شغبه، ذهولًا بالمسبِب عن تأثيرات الأسباب، فلا يختار بنفسه لنفسه شيئًا. فما دام السبب قائمًا جاريًا، علم أن الحكمة في حقه استعماله، وما يدريه لعله يتشحر ظاهره بباطنه، ويتخلص يقينه بأسبابه.

- **طبه:** إقامة العدل بميزان الشرع، والوقوف مع إشارات العلم، وليكيف له ذكره بكيفية تقتضي ذهاب هذا العارض.

● **ومنها:** ما قد يعرض له من قبول يوضع له في الأرض، يحسبه من خصوصية سر الإخلاص - مع أن من خصائص هذا الطريق القبول - وهي فتنة قاطعة بكثير من الناس، وذلك أن الإخلاص سر من أسرار الله، لا يخص به إلا محبوبًا عنده، ومحبة الله تقتضي قبول خلقه في الملاين، وذلك مما قد تركن النفس إليه باستحلاء نظر الخلق وتعظيمهم.

- **سببه:** استدراج لنقص عرى الإخلاص، ومكر يفل حسام التوحيد، ميلًا إلى مقتضيات الطباع القادحة في قوائم اليقين.

- **طبه:** الانقباض عن الخلق، والانكماش من إشارات الهوى، وقوة المحاسبة على الخواطر، من غير مسامحة فيما يعود قليله بالوبال، ويشتت الخاطر والبال، مع كيفية من الذكر تقيم سلطان الحقيقة، وتنفي لص الخواطر.

● **ومنها:** ما قد يعرض له عند استغراقه في معنى النفي والإثبات من ثقل عند إيراد ذكر الاستغفار، محوًا لرسوم الأسباب، حتى يظن أنه يحتاج إلى الاستغفار من الاستغفار، وذلك مكر، لتعطيل الرسم الشرعي الاستغفاري، والنفي والإثبات، من

علامات صحتهما: أن لا يختل بهما رسم من رسوم الشرع.

- **سببه:** ضعف في العلم، وبقية كامنة من منزل الاستقامة.

- **طبه:** كثرة الصلاة على النبي ﷺ والبحث عن حقيقتها، مع ملازمة التهليل حتى تعتدل عنده كفتا الحقيقة والشريعة، وقد وهم قوم وظنوا أن هنا يلزم الاستغفار من الاستغفار؛ تحكيمًا لمقتضى هذا العارض، وإنما الاستغفار من الاستغفار عند الخروج من عالم الحس بما تقتضيه أنوار المشاهدة، فمهما تلمح بشعوره من نفسه ما هو فيه من استغفار أو غيره من الأذكار قيل له: يلزمك الاستغفار؛ لشعورك بنفسك باستغفار أو غيره، فهنا يلزم الاستغفار من الاستغفار لشعوره؛ لا لاستغفاره، وهذه نكتة غلط فيها أناس حتى أخرجوها عن موضوعها وموضعها، وكل حال تقتضي تعطيل حركة من الرسوم الشرعية، فهي معلولة يحتاج إلى الخلاص منها، ولا بدّ من كيفية في ذكره تقتضي ذهاب هذا العارض.

٥- عوارض منزل الصدق:

• منها ما قد يعرض من الذهول الذي يحمله على ضياع بعض أمور الصدق، ولو بلحظة أو إشارة، ظنًا أن ذلك سكون الطمأنينة ورد عليه، وما هو إلا ميل للطباع، وأفول بدر الصدق، الطالع في أفق سماء التوحيد.

- **سببه:** خمود نار العزم، كللًا من الطباع عن الانتهاض لعرصات[1] الخلاص، بالتصفية من حمل أعباء المشاهدة، حتى دست النفس بمقتضى الطباع ميلًا إلى أوهام الرسوم، يكدر مشرب الصفاء، ويبدد شمل الصدق.

- **طبه:** تدقيق النظر فيما يقتضيه ذكر التنزيه من تصفية مشارب التوحيد، حتى تضمحل أخلاق الهوى بورود أحوال الصفا، ومن كيفيات التنزيه ما يقتضي ذهاب هذا العارض، فليدل عليه.

• **ومنها:** ما قد يعرض من تعذر أسباب المعاش، وتضييق سبيل المكاسب، فيجري في ذلك مقتحمًا على الأسباب، بمقتضى ما وقعت إليه الإشارة من عوارض الإخلاص، من الاستمساك بحبل الأسباب، وقوفًا مع مجرد العلم، ولم يشعر أن

(١) عَرْصَة الدار: ما لا بناءَ فيه، والجمع عَرَصات وعِراص. جمهرة اللغة (١/٤٠٣).

أسرار الحقائق قد غمرته، والعناية الربانية قد استرعته.

- **سببه:** مكر ليخرج عن دائرة أهل الأحوال ويميل إلى مجرد الرسوم.

- **طبه:** الاستبصار في أسرار الأحكام بتلمح إشارات الغيب، فإنه مراد لفراغ الظاهر كفراغ الباطن، عروا عن الأسباب، وحده في تركها أن تفاتحه بالترك، بإشارة التضييق وإمارة التعذر، فليطرد عن باطنه خفي الأوهام بمقتضى التنزيه، وإن كان بهذه المثابة من التجريد، فلا يعرو عن سبب أقله المقام في مظان الزرق، والعدول عن موارد الهلاك، وهو في ذلك كله لا يقطع إشارات التسليم، ولا يغاير معنى الرضا، وفي كيفية التنزيه ما يخلص من هذه العلة.

• **ومنها:** ما قد يعرض له من البسط الدنيوي، فتكثر عليه من ذلك العلاقات، وتعتور عليه الآفات، فيرى أن التخلص من ذلك إنما هو بنفض اليد من جميع وظائف المال، والخروج عن جميع ذلك حفظًا للحال والمآل، وهذا وهمٌ، إلا أن يكون البسط في نفسه معلولًا، وأما إذا كان جاريًا على مسلك الحقيقة والشريعة، فالعلة إنما هي في صاحب هذا المنزل، لا في المال أوجبت الضعف عن تحمل بعض الأحكام، حتى شغلته بعض أوهام.

- **سببه:** تقصير في مقتضى الذكر الخاص بمنزله، جره إلى الميل لمقتضى الوهم، والضعف لورود الحكم.

- **طبه:** تصفية المكاسب من جملة الشوائب، ومحو آثارها بتصفية الباطن، وفي معنى ذكر التنزيه - لو فتح له فيه - ما يقضي بتشحير اليقين، وينزه عن الالتفات لغير الله، وإن كانت الأسباب قائمة، وما ضره أن تكون أسبابه كالعارية، وقيامه فيها كالوكيل، ينتظر العزل مع الأنفاس، وبالله التوفيق.

٦- عوارض منزل الطمأنينة:

• **منها:** ما قد يعرض له من إفراط ميل إلى الحقيقة بما يقتضيه الذكر المفرد، حتى يغلب عليه، فيذهل عن بعض الرسوم الشرعية بنوع من الاستغراق.

- **سببه:** مكر مندرج في طي الأطلال النفسية الباقية فيه يؤول إلى التعطيل، ويجر إلى ركاكة التأويل.

- **طبه:** اليقظة من سنة تلك الغيبة الفارغة بإقامة ميزان الشرع، وقمع شعب أنفاس الهوى، بما يقتضيه مقصده، ويحتوي عليه ذكره. فإن أنجح، وإلا قلب له المقصد إلى معنى يقتضي ذلك، أو يضاف لذكره اسم أو صفة مما يقتضي ذلك.

• **ومنها:** ما قد يعرض له من إفراط السكينة التي تثيرها الطمأنينة، بالاستراحة إلى هبوب نفحات القبول، وذلك مكر واستدراج إلى تعطيل السعي في طلب الغاية، والثوى(١) إلى البطالة، والإخلاد إلى الراحة.

- **سببه:** خمود نار العزم، واشتعال قبس من الشره، ولو كان العكس لكان العكس.

- **طبه:** اتقاء عادية المكر، والحذر من شرر نار الهوى اللافحة وجه الصفا، المندرجة في لين حس الطباع، ولا بدّ من اسم أو صفة مما يقتضي ذلك يضاف إلى ذكره.

• **ومنها:** ما قد يعرض له من احتراق في الباطن باشتعال قبس من نار الشوق عند ورود بارق من أنوار المراقبة يحوله من سكينة الطمأنينة إلى قلق شوق المراقبة، حتى يذهب له الاعتدال، ويقع في مهاوي الاعتدال، وذلك مكر يجر بعجلة الهوى إلى الردى، قبل أوان الارتقاء إلى ذلك المرقى.

- **سببه:** كون الروح تاق إلى مغناه(٢)، قبل تلخيص التحلية بمعناه، ولذلك ضعف عن حمل ما لم يصل إليه من أعباء مبادئ الاتصال.

- **طبه:** تأمل زوايا القلب والبحث عن خفيات بقايا الهوى حتى إذا وقع على شيء من الأوهام، أوقع عليه الحساب، فعاتب النفس بزاجر العتاب، فأجمل المآب، وما خفي عليه من ذلك أسرج له مصباحًا من سر الإفراد بمشعل المقصد، ليبصر به ما خفي من آثار الهوى. فإن أنجح، وإلا فاسم من أسماء الله، أو صفة من صفاته تقضي بذهاب هذا العارض، فيضاف ذلك إلى ذكره، بناء على مقصده.

---

(١) الثوى: طول الإقامة.

(٢) المغنى: مفرد مغاني، وهي: المنازل التي كان بها أهلوها.

٧- عوارض منزل المراقبة:

• **منها:** ما قد يعرض له من الدهش من صولة أول صدمات واردات أنوار المشاهدة، حتى يفضي ذلك به إلى التلف، ويؤول به إلى الطيش، وقد يظن عند إفاقته أن ذلك من فناء أهل النهايات، وهيهات، وأنى له ذلك؟! ولم يَتَصَفَّ الروحُ بعد من آثار كلوم الهوى، ولا التحق بغاية الصفا، إنما ذلك نفرة طبيعية لما ورد عليه من مبادئ أنوار عظمة سلطان الوكيل الرقيب فجأة، والطباع تتأثر لما يفجؤها، وفرق ما بين ذلك وبين صدمات الفناء؛ لأن الفناء في طيه بقاء، ولا يفارقه الحفظ في إقامة الرسوم الشرعية، وهذا العارض إنما هو تلف بسبب الطباع، ولا يخلو عن ضياع.

- **سببه:** تقصير في التصفية؛ لكن لا يقتضي منزله زائدا على ذلك، مع تفريط في تلمح معنى المقصد.

- **طبه:** الاستهداء بأنوار ثمرة المقصد، ليعينه ذلك على إمعان طهارة النفس، وإجادة تصفيتها مع تغذيتها باسم أو صفة تضاف إلى الاسم المفرد مما يختص بذهاب هذا العارض.

• **ومنها:** ما قد يعرض له من أوهام تميله عن معنى المراقبة إلى تلمح آثارها، والسكون إلى بوارق أنوارها، وذلك مكر يخرجه عن مثوى الخاصة ويطرحه في مهوى العامة.

- **سببه:** استيناس الروح بإمارات عالمه، فيسكن إليها؛ لهجًا بمبادي الاتصال في أوائل عرصاته، وما يشعر أن ذلك من موارد الانقطاع والانفصال، فإن السر في السكان لا في المنزل، وإن لم يكن هذا العارض من شعب الهوى، فهو من بقايا آثاره.

- **طبه:** تحريك سلسلة الشوق بذكر الإفراد على قاعدة مقتضى المقصد؛ ليستشعر الروح بأن المطلوب وراء ذلك كله، فإن أنجح، وإلا فاسم من أسماء الله أو صفة من صفاته مما يقتضي ذهاب هذا العارض يضاف إلى ذكر الأفراد.

• **ومنها:** ما قد يعرض له من الخطرات التي تغبش مرآة الروح عن تلمح سر المراقبة، بالالتفات إلى المراقبة، وهي من العلل الخفية المشكلة في هذا المنزل،

ولا يظهر إلا بإمعان التأمل.

- **طبه**: الرجوع من الخيام إلى السكان، والتكبير على جميع الأكوان، وليرسل حدقة البصيرة إلى إشارة الافراد، وإن اقتضى حاله تركيب ذكره باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته ليرسخ هذا المعنى في الروح ويذهب هذا العارض، فذلك حسن.

٨- عوارض منزل المشاهدة:

• **منها**: ما قد يعرض له من الاطلاعات التي تكشف عن بعض الأسرار من جنبات المكاشفة أو ناحية المحاضرة، فيستريح إليها الروح قنوعًا بها وتهيبًا مما وراءها من صدمات واردات المشاهدة، وهو مع ذلك يظن أنه سيرد على موارد الاتصال، وما يشعر بأن الذي ناله حجبه عن المقصود؛ فحذار حذار من القنوع بهذا المقدار، والتناوم عما وراءه من الأسرار. أما ما يكون من ذلك من واردات المحاضرة، فذلك انتكاص ورجوع إلى الصفات القلبية، فهو وإن كان يعطي القطع، فمن وراء ستر، وأما ما يكون من ذلك من واردات المكاشفة، فلعله خدعة روحانية تذهل عن المطلوب، وتشغل عن المحجوب.

- **طبه**: الرجوع بالله إلى الله من غير التفات لغير الله بالذكر المفرد مفردًا.

• **ومنها**: ما قد يعرض له من الكشف الذي يومي بخالص القرب، ويشير إلى الاتصال، فيظن الروح أن ذلك بزوغ شمس المشاهدة، فيحمد السرى، ويلقي عصا التسيار، وذلك برق يحجب عن الشمس، وكوكب يشغل عن البدر.

- سببه: إفراط في شوق وزيادة في حب، فكل شيء رآه ظنه قَدَحًا، وكل شخص رآه ظنه الساقي.

- **طبه**: الرجوع إلى تؤدة الأدب، وزم الروح عن التوقان، بحسن السير بما يقتضيه الإفراد، من رفع الإشكال، وبلوغ الآمال، ولا يدرك الكمال إلا بالكمال.

• **ومنها**: ما قد يعرض له من الدخل في الفناء، بدس الطباع، دليله: سلب الحفظ في إقامة بعض الرسوم الشرعية، وذلك عارض يغشى كالنوم، يطرأ على أوائل الفناء حتى ينتقل من فناء إلى عارض.

- **سببه**: ضعف في البنية، ورقة في الروح، حتى يميله أدنى وارد إلى مقتضى الجسم.

- **طبه** - وهو عسير -: الملاطفة في التغذية بكيفيات المقاصد، حتى تتربى له في الروح قوة لحمل ما كان يثقل عليه، حتى إذا ورد عليه وارد المشاهدة، ترك قليلًا وروَّح له بالرجوع إلى رسوم الجسم. كل هذا يدرج له في الذكر إدراجًا على وجه التغذية والتلطف.

٩- عوارض منزل المعرفة:

• **منها**: ما قد يرد على باطنه من الأسرار التي يضيق نطاقه عن حملها، فيهم بالاستراحة إلى البوح والتنفس بالإفشاء، فتراه يدقّق الإشارة، ويلطّف العبارة، فلا يغنيه ذلك من الضيق الذي أصابه.

سبب ذلك: الالتفات - ولو بأدنى لحظة - إلى عالم الجسم، حنينًا إلى الرسوم، وميلًا إلى الأطلال، وما دامت البشرية، لا يؤمن عليها الميل، وقد سئل الجنيد ﷺ فقيل له: أيسرق العارف، أيزني العارف؛ فأطرق مليًا ثم قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨].

- **طبه**: التغذية بأغذية المشاهدة، حتى يسكن من خفقان ضيق البوح، ويأنس بمحض القرب، وليس ذلك إلا بتنويع مقصد الإفراد.

• **ومنها**: ما قد يعرض له في هداية غيره من إشكالات في مراقي البداية.

- **سببه**: ما غلب عليه من الأحوال النهائية، حتى كأنه لا يعرف سواها، وذلك نقص يؤذن بالضعف عن حمل وظائف المعرفة بنوع من الاستغراق يذهله، وهل العارف إلا مرآة الوجود وإكسيره؟ مهما غاب عن شيء من الحقائق لحقه النقص.

- **طبه**: الرجوع إلى مشربه الذي به رقى إلى المعرفة من منزل المشاهدة، وذلك في طي مقتضيات مقاصد الأفراد.

• **ومنها**: ما قد يعرض له من طوالع[1] النهايات التي يرقى إليها، فتجده للقوة

(١) الطوالع: «أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة بتشعشعها، فيطمئن ما في القلوب من =

التي اعتادها من نفسه لا يتهيب لورودها عليه، فتأخذه على فجأة، وربما ضعف عنها فغلبت عليه، وأسرار المعارف لا تتناهى، وبأقل لمحة لعالم الشهادة يضيق نطاقه؛ فيعتل استغراقه.

- **طبه:** تواصل السير على منهاج السر في عرصات القرب، وشد أركان معنى الإفراد بروابط الاستغراق المنبلج من بعض الأسماء أو الصفات.

فهذه نبذة من العوارض التي تعرض لبعض السالكين، فيختل عليهم بها مسعاهم، ويتوعر بسببها مرقاهم، وما أوردت من العوارض إلا نبذة يسيرة أشرت بها إلى ما يحرك الباطن لمباحثة الهوى، والإمعان في الطهارة والتحفظ من الآفات؛ فليس من علم ما يدب بين ضلوعه من العلل الخفية كمن جهله، وما تركتُ من العوارض أكثر مما أوردت، والالتجاء في التخلص من أسبابها إلى القدوة الوارث الرباني.

وقد تجد من السالكين من يسلم منها أو من أكثرها، ومنهم من لا يسعى سعيًا إلا بعارض يعرض له حسبما اقتضته القسمة الإلهية باختلاف الهمم والقرائح، وعسى الله أن يجعلنا ممن بصّره عيوبه، وخلّصه من تبعاته، فهو الولي الهادي ذو الجلال والإكرام.

=

الأنوار بسلطان نورها، كالشمس الطالعة إذا طلعت يخفى على الناظر من سطوة نورها أنوار الكواكب وهي في أماكنها » (اللمع للطوسي ص: ٤٢٢).

ذكر الكرامات بحسب المنازل

١- كرامات منزل التوبة:

- **منها**: محبة الخلق إياه، وذلك دليل على محبة الله إياه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومن علامات محبة الله: وضع القبول للعبد في الأرض، كما قد جاء في الحديث الصحيح، ويستدل على ذلك بالمحافظة على حفظ الحدود، وقد قالوا: «رأس الكرامة دوام الاستقامة». فليحذر التائب من الركون إلى هذا القدر، لجهله بعاقبة أمره، فهو من ذنوبه على يقين، ومن قبوله على خطر، فلا يفارق الخوف ممزوجا بالرجاء، مستديمًا تلمح معنى الذكر الاستغفاري بعين الفكر حتى يقضى له بتحريك داعية الحزن.

- **ومنها**: أنه إذا أعطى الذكر حقه من تدبر المعنى، ترد عليه بشارات من عالم الغيب في حال النوم، تعرب عن القبول وتفصح بصحيح التوبة، وهذا مما لا ينبغي الركون إليه والتعويل عليه إنما هي إشارات من الغيب بسر قد يظهر وقد يخفى، فيصيب الذاكر أو يخطئه؛ لكن لا ضير أن يكون ذلك سببًا في تساوي حالتي الخوف والرجاء، فيقيم ميزان العدل بينهما بتعلق الأمل بصفات الجود والكرم، وقد كان قبل مائلًا إلى جنبة الخوف.

- **ومنها**: نور يشرق شعاعه في أرجاء الباطن عند الذكر، يروح النفس من ضغطة الخوف، فتجده لفرحة بتلك الأشعة نشيطًا في الطاعات، وتلك بدايات علامات التوفيق، المؤذنة بالدخول في سلوك هذا الطريق، لكن ينبغي أن لا يعول عليها، لأنها كالبروق، ربما أعقبت الرعود، وجاءت بالصواعق، فما كل إنسان يوافقه البسط، ولا كل شخص ينهضه الأنس، لا سيما مع تحكيم الهوى، وتواصل أسباب العمى، فليشد يده على عروة الاستغفار، ولا يعدل عن الخضوع والانكسار.

٢- كرامات منزل الاستقامة:

- **منها**: سطوع أنوار عظمة الخطب، متصلة في أوقات الذكر، تارة يلمحها بالعيان، ومرة يدركها بالجنان. سألت والدي ﷺ فقلت له: هذه الأنوار التي ترد على ذاكر النبي ﷺ، أيبلغ أحد إلى رؤيتها بعيني رأسه؟ فقال لي: نعم حتى يعد جوائز سقف بيته، ويرى ما يخفى في زواياه، وهذا مما لا ينكره من ورد على عين الإيمان.

وقد قال النبي ﷺ: «**الصلاة عليّ نور**»(١)، ومعنى ذلك أن روحه صلوات الله وسلامه عليه، من صفاء النور الإلهي، فإذا استغرق الذاكر في معنى الصلاة عليه حتى اتصل روحه بروحه ﷺ، بمقتضى قوله ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»(٢)، لا شك أن أنوار روحه الزكية تفيض على أرواح المصلين عليه حقيقة بحسب تمكن ائتلاف الروحين، فمن باطن ومن ظاهر، ولا ينكر هذا إلا من ينكر جري الكرامات الخارقات للعادات،

وينبغي للسالك أن لا يركن لهذا لوجوه: **منها**: أن ذلك مضاف إلى النبي ﷺ، وفضيلة من فضائل الصلاة عليه، وإلا فأين كان هذا قبل تناول الصلاة عليه؟ **ومنها**: احتمال أن يكون ذلك استدراجًا شاغلًا عن المقصود، وحجابًا عن البغية ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، **ومنها**: احتمال أن يكون من علة وفساد مزاج، كاختلال الخيال بتوالي الصوم ونحوه، **ومنها**: ما يمكن أن يكون تمثيلًا من الشيطان؛ ليشغل بالقشر عن اللباب؛ فيكدر محض الصفا، وقلَّ من يدرك الفرق بين هذه الأقسام، لكن على تقدير صحته فالركون إليه شاغل، والتعويل عليه حرمان.

- **ومنها**: روائح طيبة تبلغ في قوة طيب الرائحة إلى حد الغاية، منها ما يشبه رائحة المسك، ومنها ما يشبه رائحة العنبر والعود، وغير ذلك من الروائح الطيبة، ومنها ما لا مثل له في هذا العالم، ولا ينكر هذا من اطلع على بعض اختصاصات النبوة، وهل الروائح الطيبة إلا سر من أسرار الملك القدوس التي تفيض على معادن

---

(١) بلفظ: «الصلاة نور المؤمن» رواه ابن عدي من حديث أنس ﷺ في الكامل (٥/٢١).

(٢) سبق تخريجه.

الروائح وجواهرها، فتكون عنها الروائح الطيبة، ولا شك أن نوره ﷺ مضمخ بتلك الأسرار القدسية المثيرة لجميع الروائح الطيبة المألوفة وغيرها. فمن اتصل سره بسر النبي ﷺ، جدير أن تلوح له الأنوار، وتفوح لديه الروائح الطيبة، وينال من سائر خصائصه التي اختص بها جماله وكماله، وهذا أيضا مما لا ينبغي للسالك الركون إليه، والاعتماد عليه، فإن العمل عليه حجاب يحجب عن المراد، وهل ذلك إلا من خصائص المذكور، والذاكر في ذلك أشبه شيء بالعارية، والكيس من لم يشتغل بالفروع عن الأصل، وإن كان الذاكر لا يخلو عن بركة سارية له من ذلك الجناب، فينبغي أن لا يأمن المكر ولا الاستدراج.

• ذكر شيء من بعض كرامات ذكر الجناب النبوي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله:

حدثني أبي ﷺ قال: حدثني الشيخ أبو القاسم المريد رحمه الله قال: «لما قدم الشيخ أبو عمران البردعي على مالقة، ووجد بها الشيخ أبا علي، اجتمعنا الثلاثة يومًا في داري لطعام صنعته لهما». قال الشيخ أبو القاسم: «وكان بالحضرة والدي، وكانت الزكام لا تفارقه حتى إنه حُرِمَ حاسة الشم»، قال: «فقال الشيخ أبو عمران للشيخ أبي علي: يا أبا علي، لك مني ثمانية أعوام فما أثرت فيك التصلية!»، فقال له: «يا سيدي زاد عندي كذا وكذا، والأمر عندي على كذا وكذا»، فقال له الشيخ أبو عمران: «هذا هو الذي يظهر للأولاد، ما هكذا يذكر النبي ﷺ!»، ثم قال له: «تنفس في كف والد الشيخ أبي القاسم»، قال: «فتنفس أبو علي في كف والدي؛ فهبّت من نفسه رائحة المسك، لكنها ضعيفة، ثم تنفس الشيخ أبو عمران في كف والدي.

قال الشيخ أبو القاسم: «فوالله لقد شقت رائحة المسك خياشيم والدي حتى أرعفه من فوره وسال الدم من أنفه، وعمّت الرائحة منزلي حتى بلغ إلى الجيران، ولقد بقي ذلك أيامًا نشم - نحن وجميع الجيران - روائح المسك». قال: ثم قال الشيخ أبو عمران: «أيظن أصحاب محمد ﷺ، أنهم فازوا به دوننا؟! والله لأزاحمنهم فيه حتى يعلموا أنهم قد خلفوا بعدهم رجالًا».

- ومنها: مباشرة صورته الكريمة في عالم الحس عيانًا، لا سيما في أوقات الذكر، وذلك أن الأرواح إذا ائتلفت ائتلافًا بليغًا بكثرة الصلاة عليه، فإن روحه

الكريمة تتشكل بجسده الطاهر حتى يبصره المصلي عليه، تارة عيانًا وتارة إدراكًا بالباطن، بحسب تمكن ائتلاف الروحين أو ضعفه، مع أن رؤية البصيرة أقوى من رؤية البصر كما تقدم، وهذا مطرد لا ينقطع في الأكثر والأغلب، إذا أحكم الصلاة على النبي ﷺ، وقام بوظائفها.

حدثني من أثق به قال: «رأيت الشيخ أبا القاسم المريد يومًا وهو واقف يسلم على النبي ﷺ متوجهًا إلى القبلة، ثم انتقع لونه، وكسته قشعريرة، وتقهقر، ثم سقط بالأرض، فلما أفاق سألته عن حاله فأبى أن يخبرني». قال: «فألححت عليه وأقسمت، فقال لي: إن هذا منك لجفاء، مذ أقسمتُ عليَّ أخبرك. كنتُ واقفًا أسلم على النبي ﷺ فتجلت لي صورته الكريمة فيما بيني وبين جدار القبلة، حتى ردَّ عليَّ السلام، فتهيبتُ منه إجلالًا وتعظيمًا»، فذكرت ذلك لوالدي، فقال لي: «نعم قد كان ذلك، وقد يكون مثل ذلك، وقد يقع هذا لبعض الناس»، وبالله التوفيق.

٣- كرامات منزل التقوى:

- **منها:** وضع البركة في الطعام ونحوه، حتى يكثر القليل، ويكفي اليسير، بما يشهد لخرق العادة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وقد شاهدتُ من ذلك لوالدي ﷺ أشياء، منها: أني لما توجهتُ معه إلى بر العدوة، أول رسالة توجه فيها إلى ملك المغرب، احتملنا معنا وعاء فيه تين ولوز برسم بعض أصحابنا بفاس، فلما وصلنا إلى واد سبو، تلقانا به جمع كبير من أهل فاس برسم الزيارة، فباتوا معنا على الوادي، فلما صلينا العشاء الآخرة وأوترنا، اجتمع على والدي نحو سبعين رجلًا ما بين فاسي وأندلسي، فأمر والدي خديمه ليخرج ذلك الوعاء بالتين واللوز، فمد سماطًا للحاضرين، فقلت في نفسي: إن هذا لشيء مخجل؛ لقلة التين وكثرة الناس، مع كوننا عيناه لرجل بعينه، وما كان فيه كفاية لعشرة أناس بوجه، لقلته، فمد الخديم منه سماطًا، وجعل القوم يأكلون وسع طاقتهم، حسبما يقتضيه ميل أهل المغرب إلى فاكهة الأندلس، حتى لو كان قنطارًا لأتوا عليه. فلما شبعوا رفعوا أيديهم ورفع السماط، فقال والدي للخديم: ضع باقي السماط ورده في وعائه، ففعل الخديم ذلك، فوالله لقد

امتلأ الوعاء بأكثر مما كان فيه أولًا، حتى جعل الخديم بعض التين في الوعاء برجله، ولقد فضلت منه فضلة جعلناها في وعاء آخر، فأصبحنا نتحدث بذلك تعجبًا.

وهذا مما لا ينبغي للسالك أن يركن إليه، ولا يعول عليه، لما في ذلك من الذهول بالرزق عن الرازق، وبالخلق عن الخالق، ولا فرق في ذلك إذا اعتبرته، بين تهيئة طعام عند الحاجة إليه على يدي بعض الخلق، أو تهيئته من الكون، غير أن الواحد ظهر سببه للعيان، والآخر استأثر بعلمه من لا يشغله شأن عن شأن، وهذا باعتبار الركون إلى الكرامات والانفعال إليها، مع احتمال أن تكون مكرًا، ولو كان الصحيح منها دليل الولاية، فذو الهمة لا تشغله الكرامات، ولا تحجبه الأسباب، ومن مال إلى شيء من ذلك، فهو البطيني المحجوب.

- **ومنها:** تيسير دراهم أو دنانير أو كليهما أو غير ذلك مما تدعو إليه الضرورة وتقتضيه الحاجة في الوقت، وقد بلغني أن الشيخ أبا علي الحرار رحمه الله كان أيام تعذر شغل الحرارة عليه، يتوجه بالذكر، فإذا قضى وظيفة ذكره، رفع رأسه فيجد في حجره درهما يشتري به قوت ذلك اليوم، ثم يعود إلى التوجه، وبلغني أن أبا عبد الله التاودي[١] وهو شيخ الشيخ أبي عمران، احتاج كسوة لأولاده وزوجه - وكان كثير الأولاد -، فاشترى شقة[٢] وذهب بها إلى الخياط، فأعطاه طرفها الواحد وأمسك باقيها تحت طناب طاشورة فجعل الخياط يجبذها ويفصل منها شيئًا بعد شيء، حتى صنع أثوابا عدة تشهد العادة أن ذلك لا يكون من شقة، فطال ذلك على الخياط فقال له: يا سيدي، هذه الشقة ما تتم أبدا فقال الشيخ: قد تمت، ورمى له بباقيها من تحته.

---

(١) من كبار الصوفية بالمغرب، ومن رجال التشوف، وأصحاب أبي يعزى، زاهد متصوف شهد له هذا الأخير بالفضل والمقامات. وهو الرابع في سلسلة شيوخ الساحلي الولي، بعد أبي القاسم المريد، وأبي علي الحرار، وأبي عمران البردعي. كان في بداية أمره يعلم الصبيان القرآن بفاس، أخذ عن أبي الحسن بن حرزهم. ومات سنة ٥٨٠ هـ بفاس، سلوة الأنفاس (١١٠/٣ ١١٣).

(٢) الشقة من الثياب: السبيبة المستطيلة، وجنس من الثياب، وقيل: هي نصف ثوب. (اللسان/ شقق).

وقد رأيت لوالدي ﷺ من هذا القبيل أشياء:

- **منها:** أنه استدعي يومًا إلى ساحل مالقة وقد اجتمع خاصة أهل مالقة وعامتهم، وضرب لهم رواق، وانتدب الناس لتأليف فداء أسرى من المسلمين جاء بهم بعض الروم في البحر، فجلس والدي مع القوم، حتى إذا اطمأن المجلس بأهله وتخطى المؤذنون وغيرهم على الناس، يستنجدونهم الصدقات، أخذ والدي حال، فقام وهو يقول:

ليت شعري أفي زمام رضاكم كتب اسمي أم في زمام الهوان(١)

ثم جرد أثوابه، وجردني أثوابي ورمى بها في الوسط وقال: اللهم إنك تعلم أني لا أملك غير هذا فتقبله مني فكسا حاله جميع المحاضرين، فجردوا أثوابهم وبذلوا الأموال، وما برحوا حتى تيسر الفداء كله، وكان نيفا على ألف من الذهب. فمن ذلك اليوم إلى هلم جرا لم يحوجه الله إلى شراء ما يحتاجه لنفسه ولعياله من ثياب مهنتهم وأعيادهم، حتى القرق ونحو ذلك، وإن الأثواب والأردية والأنعلة لتتراد فعليه من البلدان، حتى لقد كتب عليه، وإنه ليفيض منه على كثير من الناس.

وأعجب من هذا أنه بقي أثر تلك الكائنة أشهرا عدة لا ينتصب لذكر ولا لصلاة على سجادته في خلوته، فيفرغ من ذكره أو صلاته ويقوم، إلا خلق الله على سجادته وتحتها دراهم جددا، فتجدنا - معشر أولاده - إذا رأيناه يأخذ في التوجه إلى الصلاة أو الذكر، نحدق به نرتقب انفصاله لنلقط تلك الدراهم، فمنا المقل ومنا المكثر، حتى تحدثنا بذلك وشاع الحديث واشتهر الخبر، وانقطع ففقدناه ونحن أولاده نظن أن البركة التي أصبناها في أرزاقنا سببها تلك الدراهم، ولهذا نظائر.

وهذا وأمثاله مما يجري لصاحب منزل التقوى، إذا أحكمه كثيرا أو هو مما لا ينبغي الركون إليه والتعويل عليه لئلا يحجبه ذلك عن الواحد الحق، وما يدريه لعله فتنة وبلية ومكر، أعاذنا الله من المحن، ووقانا موارد الفتن، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه، مقربة من رحمته، دالة عليه.

---

(١) البيت منسوب للساحلي الولي نفسه، في كتاب الحقائق والرقائق للمقري نقله في «النفح» ٣١٢/٥.

- **ومنها:** أن يكشف له عن حقيقة ما يريد استعماله من الطعام ونحوه، فيعلم حرامه من حلاله من متشابهه، بأمارة يجدها إما من باطنه أو من ظاهره أو من غيره، فقد كان منهم من يتحرك له عرق من جسده ومنهم من يختنق به فلا يسيغه، ومنهم من يتقياه، ومنهم من يرى الطعام كأنه دم أو كأنه روث أو كأنه خنزير، أو تقبض عنه يداه أو يسمع خطابا من نفسه أو من غيره إلى غير ذلك من الإمارات الجارية لأهل هذا المنزل، الدالة لهم على ترك ما فيه من شائبة حرام ونحوه ليتقوا الحرام والمتشابه، وذلك مما لا ينحصر، وهذا مما لا ينكر، وهو من علامات صحة التقوى وأمارات القبول، ويبعد من هذا المكر إلا من وجه ركون النفس إلى الكرامات، والله ولي التوفيق.

٤- كرامات منزل الإخلاص:

- **منها:** صدور الحكم من قلبه على لسانه، نعم وعلى حركاته وسكناته، فتراه يشير إلى أسرار من الغيب، **منها:** ما يشعر به، **ومنها:** ما لا يشعر به، **ومنها:** ما يشعر به قبل صدوره عنه، **ومنها:** ما لا يشعر به إلا بعد صدوره عنه، فتجده يقع على الحكم ويدرك الحقائق، ويشير إلى الأسرار، وهذا مما يثيره الإخلاص بفتح عين البصيرة لمطالعة لمحة من عالم الملكوت، وقد قال ﷺ: «**من أخلص لله أربعين صباحا، جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه** »(١)، ومع هذا فقد تصدق أكثر خواطره حين يهجس الخاطر في نفسه، فيتحدث به، فيكون كما حدث من أخبار الغيوب الماضية والآتية، وبحسب قوة إخلاصه، يكون صدق خواطره، وأما رؤيا نومه، فأوضح من فلق الصبح.

كما حدثني أبي ﷺ قال: جاءني يومًا بعض أصحابي الصالحين فقال لي: أريد السفر إلى بلش لأزور بها الحاج يعيش، وأريد أن ترافقني لهذا القصد، قال: فقلت له: حتى أرى ما يخلق الله عندي في ذلك. فعند انفصاله ورد علي وارد من الغيب فقال لي: إن صاحبك فلانا قصد شراء حمار ببلش، وجعل زيارة الحاج يعيش تبعا،

---

(١) رواه ابن شيبة في المصنف (١٣١/٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٦٠/٢).

وهذا أمر سماوي إلهي خصصت به. قال: فلما جاءني ذلك الصاحب من الغد، يستطلع ما خلق الله عندي في السفر، أخبرته، فاعترف واستغفر وتاب، واذكر لوالدي من هذا نظائر.

وقد ينتهي المخلص إلى حد أن يستطلع الكوائن من تصرفات بعض الخلق، وحركات بعض الموجودات بإمارات يفهمها، بالحكمة التي نالها من الإخلاص، **ومنها:** إجابة الدعوة حتى في خرق العوائد، وإنه ليقسم على الله فيبر له قسمه كما جاء في الحديث.

وقد روي عن ابن عطاء قال: سمعت النوري يقول: «كان قد بلغني شيء من هذه الكرامات، فأخذت يومًا قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ثم قلت: يا رب وعزتك لتخرجن لي سمكة يكون فيها ثلاثة أرطال، قال: فأخرجت لي سمكة فيها ثلاثة أرطال، وهذا مما ينبغي للسالك أن لا يعول عليه ولا يركن إليه، بل يزيده ذلك طمعًا واهتبالًا بعبادة الله، فقد يكون هذا ونحوه من الفتن التي تقطع عن الإخلاص.

- **ومنها:** تسهيل المساعي كطي الأرض، وتيسير العسير، كالوقاية من الأعداء وتسكين ارتجاج البحر وتذليل السباع وما جرى هذا المجرى، وقد روي أن رجلا من أهل الخير قصد زيارة رجل صالح قال: فلما قدمت عليه أدركت معه صلاة المغرب، فصلى بنا، فربما لم يحكم القراءة، فقلت في نفسي: هذه سفرة ضائعة، فلما سلمت من الصلاة، خرجت قاصدًا عين الماء لأتوضأ منها، فعرض لي الأسد فعدت إلى الشيخ فقلت: يا سيدي، إن الأسد قد عرض لي في طريق الماء، وأنا أحتاج إلى الوضوء، فخرج الشيخ وصاح على الأسد وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لأحد من أضيافي فخنس الأسد وانصرف حتى توضأت، فلما رجعت قال لي: الشيخ: اشتغلتم بتقويم الظاهر، فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد، وهذا مما ينبغي للسالك أن لا يعتد به ولا يوطن نفسه على الركون إليه. فإن هذا مما قد يبتلى به السالك في إخلاصه، فيميل عن الوجهة إلى الله تعالى بشيء من خدع الحس، والإصلاح أن ينظر في ذلك كما لو صدر عن غيره، وذلك من مقتضيات الحكمة الأزلية والإرادة القديمة في ربط الأسباب بعضها ببعض، وكون

الشيء من الشيء والشيء من لا شيء يفعل ما يريد له الحكمة البالغة، والله الموفق للصواب لا رب غيره.

٥- كرامات منزل الصدق:

- **منها**: الاطلاع على عوالم الجن ومكالمتهم ومحادثتهم، حتى أن بعضهم ليرافق الصادق في الأسفار وفي وظائف العبادات، ويتعاون معه على الخير، وقد بلغني أن بعض أصحابنا ممن كان له جد في هذا الطريق، كان يباشر ناسا من عالم الجن فيصلون بصلاته، يدرك أجسامهم ببصره ويكالمهم، وإن منهم لمن يوقظه بالليل إذا نام عن عادته من العبادة، وإن منهم لمن يخبره بأخبار الأقطار البعيدة والأمور الغريبة.

وقد روي عن بعضهم أنه كان في غزاة من أرض الروم، فبعث والي تلك المحلة سرية إلى موضع من مواضع العدو وواعدهم ليوم معلوم، فأبطأ خبر السرية، وزاد على الميعاد، حتى تعلقت بهم الخواطر، فبينما الرجل يصلي إلى حربته، إذ نزل عليها طائر فقال له: إن السرية قد غنمت وسلمت، وستقدم عليكم يوم كذا، فقال له: من أنت؟ فقال: مذهب الحزن عن قلوب المؤمنين » وذلك من عالم الجن.

وبلغني أن بعض أصحاب الشيخ أبي القاسم كان له رفيق من الجن يوقظه لورده، ثم يصلي معه إلى يمينه، فإذا فرغ من صلاته أمن على دعائه.

وهذا وإن كان من لطائف الكرامات، فهو مما يدل على أن صاحب هذا المنزل لم يتجرد كل التجرد من هواه، فينبغي له أن لا ينخدع بشيء من ذلك، وليعلم أن الجن خلق من خلق الله، فاتصالهم وانفصالهم في هذا المعنى سواء، فلا يغره ذلك من نفسه.

- **ومنها**: رؤية الأشخاص على ما هم عليه من مسافة بعيدة، وللصادقين في هذا مشارب بحسب أحوالهم، فمنهم من ينفذ ببصره للأقطار البعيدة كالمشرق من المغرب، وكالقاهرة من الأندلس، ومنهم من يكون دون ذلك، ومنهم من يكشف له حتى يرى الشيء بعيني رأسه، ومنهم من يراه بعين بصيرته، وقد رأى عمر رضي الله عنه سارية وقد أحدق به العدو، فناداه وهو يخطب على المنبر: «يا سارية الجبل».

ولقد كان والدي يومًا في محضرته، وبين يديه رجل يجود القرآن، فتبسم والدي

فقال له الرجل: يا سيدي، مم تبسمت فقال له: خير، فألح عليه فقال له: رأيت الآن رجلا من أصحابي في قرية من قرى بلش أو منتماس، قد دفع لشخص جبنة في سناج بعثها معه إلي هدية، فجاء ذلك الشخص إلى تحت شجرة ببزليانة فأخرج الجبنة وقسمها نصفين، أخذ النصف الواحد لنفسه ورد النصف الثاني في السناج، وها هو يجيء على الطريق، وأنا متعجب منه، لا أريد مقاشحته[١] في ذلك، ولا أريد مسامحته على مثل هذا الفعل، حتى يكون صفة يتصف بها فيما بعد. فلم يكن إلا قليلًا، وإذا بذلك الرجل داخل المحضرة، والسناج بنصف الجبنة في يده. فسلم وقال له: فلان يخصك بالسلام، ووجه هذا معي إليك، فضحك والدي ثم قال له: أظنك يامسكين ذا عيال وأولاد، فقال له: نعم، فقال له: ضم هذا النصف مع النصف الذي أمسكته لنفسك، واصنع بذلك صنيعا لأولادك، ولا تعد لمثل هذا الفعل أبدًا فإن أمر الخيانة صعب.

وهذا مما لا ينبغي للسالك الركون إليه والميل معه، فإنها قد تكون خدعة تمنع من الصدق وتحجب عن الحق.

- **ومنها:** سمع الأصوات والكلام والخطابات على ما يشهد بخرق العادة من المسافات، كسماع سارية خطاب عمر له من الشام، وعمر بالمدينة، فعمل بمقتضى أمره حين قصد الجبل، فسلم من العدو، وقد سمع الصوت ولا يرى الشخص، وهو من التحديث المشار إليه بالحديث بقوله ﷺ: «**إن يكن من أمتي محدثون، فعمر منهم**»[٢]، وقد يخاطبه بعض البهائم كما روي عن الخواص[٣] قال: «كنت راكبا يومًا

---

(١) يقال: ثوب قاشح: قاسح غليظ. والقسح: اليبس. وقاسحه: يابسه. القاموس (٢٢٩/١). وشاقَحْتُ فلانًا وشاقَيْتُه وباذَيْتُه إذا لاسَنْتَه بالأَذِيَّة والشَّقْحُ الكَسْرُ وشَقَح الشيءَ كَسَرَه شَقْحًا وشَقَحَ الجَوْزة شَقْحًا استخرج ما فيها، ولأَشْقَحْنَّه شَقْح الجَوْزة بالجَنْدَلِ أَي لأَكْسِرَنه. لسان العرب (٤٩٩/٢).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة به بلفظ »لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر«. ٣٦٨٩، كما رواه مسلم من حديث عائشة به، (٢٣٩٨).

(٣) الخواص: كناه في الرسالة: أبا سليمان. ويغلب على الظن أنه واحد من اثنين عاشا في زمن متقارب: أولهما: جعفر بن محمد بن نصير بن قاسم الخلدي، أبو محمد، شيخ الصوفية ومحدثهم سمع الحارث بن أبي أسامة، وبشر بن موسى، وصحب الجنيد، والنوري =

على حمار، وكان الذباب يؤذيه فيطأطئ رأسه فكنت أضرب رأسه بخشبة، فرفع الحمار رأسه وقال لي: اضرب فإنك على رأسك هو ذا تضرب. فقال له بعض أصحابه: لك وقع هذا فقال له: نعم كما سمعتني ».

وقد يسمع الصادق خطابات من نفسه كما يسمعها من غيره، ويسمعها من الجمادات كما يسمعها من الحي، والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وأنا أعرف اليوم من يخاطب بخطابات نافعة في أوقات توجهه بالذكر.

وهذا مما لا ينبغي للسالك التعويل عليه، فلا يركن إليه، فإنها ربما كانت فتنة تضله عن السبيل وتحرمه من الوصول، وبالله التوفيق.

٦- كرامات منزل الطمأنينة:

- **منها**: الحمل في جميع الأحوال حسا ومعنى، في الأمور الدنيوية والأمور الأخروية، حتى لا يسنح في باطنه شيء إلا تيسر له من الكون، على نحو ما سنح في باطنه، حتى إنه لترد عليه الإجابة من غير دعاء، والإعطاء من غير طلب، والموافقة من غير سؤال، حتى يتعجب من لطف الله ﷻ، وهذا سر قول النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ: «**من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» (١).

وقد شاهدت مما يرجع إلى هذا المعنى من والدي ﷺ أمورا تذهل الأذهان، وتشهد لما ذكرته بالبرهان.

قال بعضهم: «مررت يومًا على الفرات، فمالت نفسي إلى شهوة السمك الطري، فإذا الماء قد قذف بسمكة نحوي، وإذا رجل يقول: أتريد أن أشويها لك؟ فقلت: نعم، فشواها، فقعدت وأكلتها ثم انصرفت».

=

والجريري، وعنه يوسف القواس وأبو عبد الله الحاكم، وأبو الحسن بن الصلت وغيرهم، مات سنة ٣٤٨ هـ. حلية الأولياء (٣٨١/١٠) تاريخ بغداد (٢٢٦/٧) البداية والنهاية (٢٣٤/١).

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١١٥/٢/١)، والترمذي (٣٠٩٤)، وقال: حسن صحيح غريب، والدارمي في السنن(٤٤١/٢).

- **ومنها:** نطقه بالكوائن قبل أن تتكون وإخباره ببعض الغيوب قبل حصول أعيانها في الوجود، وليس هذا هنا من الاطلاع على حقائق الأشياء في عالم الملكوت، إنما ذلك صدق خاطر لصفاء باطنه وانتفاء الخواطر الباطلة عنه، باستصحاب الذكر كلما خطر عليه خاطر بأمر، علم أنه خاطر حق صادر عن الغيب، فيخبر به، فيخرج حسبما خطر بباطنه، وربما يخاطب في بعض الأوقات بخطاب يسمعه من خارجه، أو كتابة يراها في شيء، فيخبر بذلك فيكون على نحو ما يخبر، وقد جرى لبعض مشايخ هذا الطريق شيء من هذا المعنى.

يذكر أن أبا مدين دخل عليه بعض أصحابه وعليه غفارة[١] فيها مكتوب: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فأمره الشيخ بإمساك زوجه وقد كان عزم على فراقها، وهذا النوع يسميه القوم إلقاء، بخلاف ما يطلع عليه أهل المشاهدة من حقائق الغيوب، فإنهم يسمون ذلك لقاء، وشتان ما بين الإلقاء واللقاء.

وهذا مما ينبغي للسالك أن لا يركن إليه، وأن لا يعول عليه، إذ منه ما يكون مكرا واستدراجا، والله الواقي الهادي.

- **ومنها:** رؤية الخضر[٢] وأشباهه من الأولياء، فيكالمهم وينتفع بهم ويستفيد منهم، وذلك أن النفس إذا تزكت وتروحنت بالذكر، ألفت أرواح الأولياء، لتعارفها بهم في عالم الغيب لكنه لما ضعف عن إدراك جوهر حقيقة الروح للبقية التي بقيت فيه، لم يدرك الأرواح إلا متشكلة بالجسوم، منظورة بالأجساد.

وقد حدثني من أثق به قال: سألت يومًا الشيخ أبا القاسم المريد رحمه الله فقلت له: يا سيدي هل رأيت الخضر؟ فأعرض عني، فألححت وأقسمت عليه فقال لي: نعم رأيته. فقلت له: يا سيدي، بالله عليك إلا ما أخبرتني عن كيفية رؤيتك إياه،

---

(١) الغفارة: خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قبل منه وما دبر، غير وسط رأسها. وقيل: الغفارة خرقة تكون دون المقنعة، توقي بها المرأة الخمار من الدهن، وقيل: الغفارة جلدة تكون على رأس القوس يجري عليها الوتر (لسان العربغفر).

(٢) الخضر: يكنى أبا العباس، العبد الصالح صاحب موسى ﷺ، اختلف في نسبه فقيل: هو ابن آدم، وقيل: ابن قابيل بن آدم، وقيل: اليسع، وقيل: ابن بنت فرعون، وقيل غير ذلك، كما اختلف في كونه نبيًا، وفي طول عمره وبقاء حياته. الإصابة، لابن حجر: ١/٤٢٩ - ٤٥١).

فقال لي: كنت ليلة في منزلي متوجهًا أذكر وإذا بالباب قد فتح علي ودخل رجل تهب منه روائح طيبة، فسلم علي وعرفني بنفسه أنه الخضر، فعانقته وصافحته، وسألته عن أشياء فأجابني وأفادني، ثم انصرف عني، وإن روائح العود والعنبر لتشم في بيتي حتى أصبح الجيران يتحدثون بتلك الروائح، وإن منهم لمن سألني عنها، فقلت رجل أهدى ذلك إلي البارحة، فأخبرت بهذه الحكاية والدي فقال لي نعم كذلك كان، غير أن الشيخ كان عند ورود الخضر عليه في صلاة، وقد رأى الخضر غير واحد من القوم، وبهذا الاعتبار الذي أشرت إليه يحصل الجمع بين قول النبي ﷺ: «**لا يبقى على وجه الأرض أحد ممن هو الآن عليها لرأس مائة سنة**»[(١)]، أو كما قال، وبين اجتماع بعض القوم بالخضر بعد المائة سنة وربما أشكل هذا الأمر على بعض الناس وهذا بيانه.

٧- كرامات منزل المراقبة:

- **منها:** أن يدرك عالم الملائكة، يبصرهم ويتحدث معهم، وعلى قدر تمكنه في معنى المراقبة يكون إدراكه لطبقات الملائكة، فليس إدراك الملائكة السياحين في الأرض كملائكة الهوا، وليس إدراك ملائكة الهوا كملائكة السماء الأولى، وكذلك ملائكة السماوات نعم لا يدركهم إلا متشكلين بالأجسام متصورين بالصور، ولا يدرك حقيقة أرواحهم إلا في منزل المشاهدة، وهذه لطيفة من لطائف العجائب، ولا ينكر هذا من له حظ من العلم، وقد جاء في الحديث الصحيح أن أسيد بن حضير[(٢)] كان يقرأ ليلة سورة البقرة، فرفع رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: «**وتدري ما ذاك؟** فقال: لا، قال: **تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبح ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم**»، وقد أبصر بعض الصحابة جبريل عليه السلام حسبما اقتضاه الحديث الصحيح.

---

(١) رواه الترمذي من حديث جابر، بنحوه. وقال: حديث حسن (٨/٢٠٤).

(٢) أسيد بن حضير: الإمام أبو يحيى، وقيل أبو عتيك الأنصاري الأشهلي، أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة. آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، لم يشهد بدرا، وجرح يوم أحد سبع جراحات. روت عنه عائشة، توفي سنة: ٢٠هـ.

- **ومنها:** المشي على الماء، وهو دليل على تمكينه في معنى الروحانية، أمارته أنه لو التفت قليلا إلى عالم الحس في حين مشيه على الماء، لغرق من حينه بما اقتضاه الجسم من الثقل الذي يأبى الكينونة على الماء، ولولا امتزاج الروح بالجسم لما انتقل من مكان إلى مكان، فإذا غلبت روحانية الروح على جسمانية الجسم صعد الروح بالجسم على الماء، فإذا زادت روحانية الروح صعد به في الهوا ولولا تشكل الروح بالجسم لصعد الروح إلى مراقي عالمه سريعا، والماشي في الهواء وعلى الماء لا يشعر بكيفية ذلك فأحرى غيره.

وقد روي أن بعضهم كان على ساحل بحر فرأى شابا على بعد مقبلا، فتوسم فيه الخير، فوقف ينتظره، حتى إذا وصل الشاب إليه شم عليه روائح الولاية، فقال له يا شاب: كيف الطريق إلى الله فقال الشاب: أعرف لله طريقين: عاما وخاصا. أما العام فما أنت عليه، وأما الخاص فهلم معي أريكه، ثم تركه ومشى على الماء حتى غاب.

وهذا يبعد فيه المكر ولا يخلو منه، فليحذر السالك إذا رزقه الله هذا القدم من الركون إليه والتعويل عليه.

- **ومنها:** المشي في الهواء، وهو أعلى حالا من المشي على الماء، لأنه يدل على أن تصفيته أبلغ من الأول، وفوقهما حال ثالثة تدل على إجادة التصفية، ربما لا تكون إلا لأهل المشاهدة، وهو حال الخطرة، وذلك أن يخطر ببال السالك موضع ما، فيجد نفسه فيه، كما حدثني الحجاج الثلاثة أبو الحسن اللبان وأبو إسحاق بن باق وأبو عبد الله محمد البسطي(١) كل واحد منهم منفرد عن صاحبه متفق معه في المعنى، قالوا: لما سافرنا من مالقة قاصدين الحج، وردنا على القاهرة وزرنا من عرفنا بها من صلحائها وأوليائها، عرفنا برجل صالح شهير الحال كبير المقام يقال له

---

(١) أبو محمد عبد الله البسطي أبو عبد الله بسطي - ولعل المقصود به: أبو عبد الله وأبو محمد البسطي من أهل المرية، وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها، ومقرئها قرأ عليه بها أبو البركات البلفيقي الصوفي الشهير. وروى عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب جملة من الأحداث التاريخية التي أوردها في الإحاطة، كان حيًا سنة ٦٣٥ هـ انظر: (أزهار الرياض ١٠٧/٤).

الحاج سعيد الفاسي، فقصدنا زيارته من مصر، فاستأذنا عليه فأذن لنا، فدخلنا عليه وهو بغرفة قريبة من مسجد طيلون، فرأينا رجلا أسمر مسنا تلوح عليه أنوار الولاية، فسلمنا عليه، فرحب بنا وأحسن لقاءنا وقدم لنا طعاما، ثم قال لنا: من أي البلاد أنتم فقلنا له من بلاد المغرب، فقال: من أي بلاد المغرب، فقلنا له: من مالقة، فقال لنا: حياكم الله، وأظهر لنا زيادة في القبول والاعتناء.

ثم قال أتعرفون سيدي أبا القاسم المريد فقلنا له: هو شيخنا وإمامنا وبركتنا فقال لنا وهل عرفتم قدمه في الولاية فقلنا له: نعرف أنه رجل صالح يدعو إلى الله ويرغب في ذكره والصلاة على نبيه ﷺ. فقال لنا: والله إني لأعرف به منكم، وإن كنت لم أدخل قط مالقة، ثم أنشأ يحدثنا فقال: كنت مجاورا ببيت الله الحرام نحو عشرين سنة، وكنت أيام جواري أدخر بما يفضل عن قوتي مما يهبه الله لي طعاما ونعالا، فإذا قدم ركب الحاج وكان من مكة على مسيرة يومين أو ثلاثة أيام، التقيت الركب بجملة النعال والطعام، أفرق ذلك في الفقراء والضعفاء، ثم أقدم مع الركب على مكة، قال: فبقيت على ذلك أعواما، فبكثرة ما كنت أعاهد التقاء الركب في كل سنة كنت أرى شيخا في مقدمة الركب على قدميه متكئا على عصا، محرما ملبيا كثير الذكر، فتعرفت إليه حتى عرفته وصحبته، وعرفني بنفسه أنه أبو القاسم المريد من أهل مالقة، ثم جعل يذكر نعوته وصفاته. قال: وكان إذا وصل مع الركب طاف وسعى طواف القدوم، ثم لا يزال متوجها إلى الركن اليماني يذكر إلى أن ينفصل الركب فنفقده، وكذلك حاله في كل سنة أكثر أعوام جواري، ولقد كنا معه يومًا بالحرم جلوسا وهو يحدثنا، وإذا بشابين قد أقبلا عليه فسلما عليه، فرحب بهما كأن المعرفة قد تقدمت بينه وبينهما، ثم جعل يسألهما عن حال شيخهما وحال سلوكهما، فقال لهما: هل ظهر عليكما من أثر مقامكما شيء فقال أحدهما يا سيدي، رزقت المشي في الهواء.

وقال الآخر: رزقت المشي على الماء فقال لهما: أوصيكما أن لا تركنا لشيء من هذه العوارض فتشغلكما عن الله، وتخدعكما عن طريقكما، واعلما أن فوق حاليكما حال الخطرة فقلنا له: يا سيدي وما الخطرة؟ فقال: أن يمر ببال الولي موضع فيجد نفسه فيه، من غير كلفة مشي في الهواء، أو على الماء. قال: فعلمنا أن

ذلك من أحوال الشيخ أبي القاسم.

قال الحجاج الثلاثة: فقلنا له: يا سيدي، والله إننا لممن يصلي مع الشيخ أبي القاسم صلاة يوم كل أضحى، ثم ننصرف معه حتى إلى منزله ولم نفقده من مالقة. فقال لنا: لتعلموا أن الولي له في ذلك حالان: أحدهما أن يقيم الله عنه ملكا على صورته، يبلغ عنه المواضع ويشهد المشاهد، وقد يتصل به علم من ذلك، والثاني وهو أعلى من الأول، أن يقيم الله عن الولي ملكا على صورته يقيم عنه في موضعه حتى لا تعدم صورته، ويكون الولي هو الذي يبلغ المواضع ويشهد المشاهد، فبقي هذا الحديث في خلدي، فلما كان عن قريب جمعتني المقادير مع الشيخ أبي عبد الله بن عيسى الوضاح في جبل فاره، فجعل يحدثني عن أخبار الشيخ أبي القاسم المريد وكراماته إلى أن قال لي: خرجت يومًا مع الشيخ أبي القاسم من مالقة قاصدين بعض أحوازها[1]، حتى إذا كنا بحلق قرصة التفت الشيخ إلى غار أو موضع على ضفة وادي قرصة، ثم تنفس الصعداء، فقلت له: يا سيدي، ما الذي تذكرت فقال لي كنت جالسا يومًا بذلك الموضع، أو ذلك الغار، وأنا متوجه أذكر في يوم من أيام عشر ذي الحجة، فمر ببالي بيت الله وحرمه، ففتحت عيني وإذا أنا قادم على مكة مع الركب، فطفت وسعيت وقضيت سائر مناسك الحج وزرت ثم خطر ببالي مالقة، فوجدتني بها، قال أبو عبد الله الوضاح: ثم قال لي الشيخ أبو القاسم: ولأنا أعرف بتلك المواضع والمعاهد من كثير من القادمين علينا منها، وإن بعضهم ليصف أوصاف تلك الجهات، وما ياتون من ذلك بما عندي من أوصافها، فقلت في نفسي: إن هذه الحكاية لمما يصدق ما حدثني به الحجاج الثلاثة.

وينبغي لصاحب هذه الكرامة أن لا ينخدع بها ولا يلتفت إليها، فإن التفاته إليها التفات عن الله، وذلك قادح في مشرب أهل المراقبة والله الهادي.

٨- كرامات منزل المشاهدة:

- منها: الإخبار بالكوائن والقضايا قبل كونها عن عين اليقين، الحاصل

(١) حوز الدار وحيزها: ما انضم إليها من المرافق والمنافع. والحوز: الناحية (اللسان: حوز).

بالمكاشفة على أسرار من الغيب عيانا، فيدرك ذلك حيث ارتسامه من عالم الملكوت، كمن بيده مرآة صافية يبصر فيها صورًا مختلفة، تقابلها فيخبر عنها، فتكون كما يخبر، وهذا هو المعبر عنه قبل باللقاء، خلافا لما يكون من الإلقاء، وبينهما فرق كبير وهذا وإن عظم فهو فرع من الفروع التي يقتضيها منزل المشاهدة مع أن مدركه عظيم المنال، خطير المرام، وما يدرك ما يدركه صاحب المشاهدة من ذلك إلا في حين فتوره عن معنى المشاهدة؛ لأن المكاشفة مندرجة تحت أكناف المشاهدة، وللأولياء في هذا الباب حكايات يطول ذكرها، وقد يكون ما يناله السالك من ذلك على وجه التمحيص، ليظهر الثابت الأقدام من الضعيف الأقدام، والله هو الهادي والواقي.

- **ومنها: - وهو فوق الأول -:** أن يطلعه الله على ما في العالم الأكبر وما أودعه الله من الأسرار والحقائق، فيطلع من ذلك على ما يفيده حق اليقين، في ارتباط كثير من أحوال هذا الوجود، وله من هذا المشرب حالان:

أحدهما: أن يطلع على ذلك كله من خارج نفسه، فيرده عليها.

والثاني: أن يطلع على ذلك كله من نفسه، فيعرضه على ما يقابلها من الوجود، فيجدهما متفقين، وهذه الحال أعلى من الأولى، لأنها تؤذن عن تصفية النفس بالغاية، حين تصورت فيها الحقائق، وتلك تقتضي التقصير في التصفية، حيث قصرت عن درك الحقائق من نفسها، لكن من خارجها، ومثال ذلك كالصورة في المرآة مع الناظر. فالأولى الوجود، مرآة تبصر فيها النفس الحقائق، والثانية النفس، مرآة لحقائق الوجود. فهو في الأولى يرى نفسه في العالم، وفي الثانية يرى العالم في نفسه، وهذه من الإشارات التي يدق معناها، وكمال صاحب هذه الحال أن لا يعطيها حظا من تلمحه.

- **ومنها:** نفوذ أمره في هذا الوجود، فيشير على الأعيان أو بعضها أن تنقلب، فتنقلب وفق إشارته، وعلى الجمادات أن تنطق، فتنطق بما يريد، ونحو ذلك، كما روي عن النوري، أنه كان مع بعض أصحابه في سفر، فنزلوا تحت شجرة من أم غيلان، فكان من أصحابه من تمنى الرطب، فقال النوري للشجرة: بالذي ابتدأك وجعلك شجرة إلا تناثرت علينا رطبًا جنيًا. قال: فتناثرت علينا رطبا فأكلنا.

وقال بعضهم: كنت عند ذي النون، فتذاكرنا طاعة الأشياء للأولياء، فقال ذو النون: إن من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت ثم يرجع إلى مكانه قال: فدار السرير في أربع زوايا البيت، ثم رجع إلى مكانه وكان هناك شاب، فبكى حتى مات من حينه.

وقال أبو القاسم الجنيد: جئت يومًا مسجد الشونيزية، فرأيت فيه جماعة يتكلمون في الآيات، فقال فقير منهم: اعرف رجلا لو قال لهذه الأسطوانة: كوني ذهبا نصفك وفضة نصفك، كانت، قال الجنيد: فنظرت فإذا الأسطوانة نصفها ذهب ونصفها فضة، وتحدث بعضهم في كرامات الأولياء فقال رجل من القوم: أعرف رجلًا إذا قال للجبل تحرك يتحرك، قال الراوي: وكنا على جبل فتحرك الجبل، فوكزه برجله.

وقال له: اسكن لم أردك إنما أردت ضرب المثل، والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

وليس ذلك كله ببعيد ولا نكير على أولياء الله تعالى الذين أقامهم الحق به فهم به ينطقون ويصمتون، ويتحركون ويسكنون، وبأمره يتكلمون، فحقيق أن تطاوعهم الأشياء، ويوافقهم الوجود؛ لكنهم في ذلك محفوظون من المكر والاستدراج، لعدم التفاتهم إليه.

٩- كرامات منزل المعرفة:

اعلم أن كل الصيد في جوف الفرا وهل العارف إلا أكسير هذا العالم، به يصلح الفساد وتنجذب موارد الرشاد. فكلما قابل بسره شيئًا من الموجودات قلبه إلى مقتضى إشارة سره، وهذه الحالة هي التي تجري في كلام بعضهم: إنها عن الاسم الأعظم لما يرون من نفوذ تصريفه في هذا الوجود، حتى إنهم ليقولون: فلان استفاد من فلان اسم الله الأعظم، وحقا ما قالوا، لكنهم ربما جهلوا حقيقة الأمر في ذلك.

واعلم أن الاسم الأعظم هو الذكر المفرد، وهو قولك: الله وليس هذا الاسم بحيث يخفى على قوم دون قوم، بل هو ظاهر معلوم، لكنه يقتضي سرا عظيما حصل عليه أفراد الرجال كما تقدم ذكره من التصفية وطهارة النفس، حيث أخرجت النفس عن جميع الحجب التي تحجبها عن حقيقة هذا الاسم العظيم، فالسر في

السكان لا في المنزل، فالاسم واحد، لكن استعمله رجل على شرطه من الطهارة والتصفية، حتى عثر على حقيقته، فهو بتلك الحقيقة يتصرف.

ومنها: يتفق، ورجل آخر يذكره آناء الليل وأطراف النهار، لكنه عري عن شروطه ووظائفه من التصفية والطهارة، وإن كان لا يعرو عن الأجر والثواب، فهو يقرع الباب من وراء حجاب، ولما استعمل الكافة هذا الاسم، فلم يظهر لهم به ما ظهر باستعماله للخاصة، ظن بعضهم أن الاسم الأعظم هو غير ما ذكر، وذلك جهل بوجه الحكمة. فهذا بعض الكرامات التي تتعلق بالمنازل على وجه الاختصار.

فصل

واعلم أن ما يظهر على السالك مما يعد من الكرامات على قسمين صحيح وسقيم أما السقيم فأنواع، منها ما يكون عن فساد مزاج واختلال تصور وضعف خيال.

ومنها: ما يكون من قبل الشيطان وعوالم الجن وغير ذلك من الأحوال المختلفة، ومن علامات السقيم أن حقيقته لا تتبدل ولا تتغير، إنما التغير في القوة الناظرة

والمختلفة لفساد طريقها أو آفة عرضت لها، والصحيح أن تنقلب حقائق الأشياء وأعيانها إلى ما يغابرها أو يضادها، ثم من علامات السقيم تضييع الرسوم الشرعية أو بعضها بخلاف الصحيح الذي لا يفارق صاحبه الحفظ في إقامة الرسوم الشرعية، وقد قال بعضهم: إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء، فانظروا كيف هو عند الأمر والنهي، وأما الصحيح فعلى قسمين: أحدهما يشعر به صاحبه، والثاني لا يشعر به صاحبه.

أما ما لا يشعر به صاحبه من ذلك، فهو من الأمارات الكونية والعلامات الإلهية، تؤذن بصلاح حال من ظهر ذلك عليه، مع ما في ذلك من الحفظ الإلهي بصونه بعدم رؤية ذلك من طرق الآفات وصنوف العلل، وأما ما يشعر به صاحبه فعلى قسمين: أحدهما لا يشعر به إلا عند اتصاله به أو بعده. الثاني أن يطلع عليه، صادرا من محله، متصلًا من عالمه، وذلك من أحوال النهايات.

ثم الكرامات على قسمين: أحدهما مورده الاختبار والتمحيص، وذلك لأهل

التمكينات، وقسم مورده مورد التعريف بمقدار المنة وحال الولاية، وذلك لأهل النهايات

ثم السالكون في ذلك ثلاثة أصناف: صنف قد يركن إليه ويأنس به، وتلك علة تجر إلى فتنة، وهذه حال أهل البداية، وصنف يقلق بورود ذلك عليه، فتراه يتغافل عنه لئلا يشغله عن ما هو بسبيله من إخلاص الوجهة إلى الله، وهذه حال أهل التمكين.

وقد رأيت لبعضهم أظنه النوري، أنه خرج ليلة إلى شاطئ دجلة ليجوز إلى العدوة الأخرى، فوجد الشاطئين قد التزقا. فانصرف وهو يقول: وعزتك لا أجوز إلا في زورق، وروي أن سهلا دخل يومًا خلوته، فوجد فيها سفطين في أحدهما قارورة مملوءة بشيء أبيض، وفي الثاني قارورة مملوءة بشيء أصفر، فرمى بهما في الأرض، ثم حكهما برجله في التراب، فقيل له: وما ذاك؟ فقال: أما الأبيض، فلو جعل منه مقدار خردلة على قنطار من النحاس لعاد فضة، وأما الأصفر، فلو جعل منه مقدار خردلة على قنطار من النحاس لعاد ذهبا، فقيل له: هلا أمسكت من ذلك ما تقضي به دينك فقال خشيت على نفسي وإيماني.

وصنف استوى عنده وجود الكرامات وعدمها، فلا فرق عنده بين أن يضرب برجله الأرض، فيخرج له عين ماء يشرب منها عند حاجته إلى الشرب، وبين وقوف سقاء بوعاء فيه ماء يعرضه عليه، بل هذا عنده أحسن، لأنه لم يحتج إلى ضرب في الأرض برجل ونحوه، وقد قال بعضهم: كنا مع أبي تراب في سفر نريد مكة، فعدل عن الطريق، فقال له بعض أصحابه: أصابني العطش وأريد الماء قال: فضرب أبو تراب برجله الأرض، فإذا عين ماء تجري زلالا صافيا عذبا، فقال العاطش: أريد أن أشرب من هذه العين في قدح، فضرب أبو تراب برجله أو قال بيده الأرض، فناوله قدحا من الزجاج الأبيض كأحسن ما يكون، فشرب وسقانا، وما زال القدح معنا إلى مكة، قال: ثم قال أبو تراب لذلك لعاطش: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده. فقال: ما رأيت أحدا ينكرها. فقال أبو تراب: من لا يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك عن طريق الأحوال، فقال لا اعرف لهم حالا ولا قولا في ذلك، فقال أبو تراب: بل زعم أصحابك أنها خدع من الحق وليس الأمر كذلك،

إنما الخدع في حال السكون إليها. فأما من لم يقتدح ذلك ولم يساكنه، فتلك مرتبة الربانيين، وهذه حال أهل النهاية، لكنهم مع ذلك لا يأمنون من المكر في ذلك.

فقد روي عن سري السقطي[1] أنه قال: لو أن رجلا دخل بستانا فيه أشجار كثيرة على كل شجرة طير، يقول له كل طير بلسان فصيح: «السلام عليك يا ولي الله»، فلو لم يخف أنه مكر، لكان ممكورًا.

وبهذه النبذة التي أوردتها يقف السالك على منفعته فيما يخصه من العوارض والكرامات، ويعلم أين هو، فيعمل بحسبه، وليس ظهور هذه الكرامات شرطا في حصول المنازل والمقامات، إنما هي أمارات، قد توجد وقد تعدم، لأنها قد تظهر على قوم وتغيب عن آخرين، مع صحة سعي الجميع، وبالله التوفيق.

فصل

وهذه ثلاث مقامات الدين بما تحتوي عليه من المنازل والشروط والآداب، والأذكار، والمقاصد، والثمرات، والنتائج، والعلامات، والوصايا، والعوارض، والكرامات، وبأدنى نظر في هذا الكتاب، يظهر لك استواء طريق السالكين، وصفاء مشرب العارفين، وارتباط مساعي المسافرين إلى رب العالمين، ومن نفسه يقوم لك الدليل على كمال ترتيبه وحسن مساقه وتبويبه.

فإن قلت: إنه لمجموع حسن الترتيب، محكم التفصيل والتبويب، فهل لك في ذلك مستند ترجع إليه ومعتمد تعول عليه؟

فالجواب: أن جميع ما تقدم من ذكر المقامات والمنازل والأذكار وغير ذلك، لم يخل شيء منه عن دليل من الكتاب والسنة، أو أحوال السلف المجمع عليهم علما وعملا، قنوعا بذلك عن الاستقصاء المؤدي إلى التطويل، وما عري من ذلك عن دليل سمعي، فلم يعر عن دليل عقلي. فلم يبق إلا

(١) أبو الحسن بن المغلس السقطي، خال الجنيد وأستاذه، كان أوحد أهل زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد، ويقال إنه أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد، صحب معروفًا الكرخي، وحدث عن الفضيل بن عياض، وهشيم، وأبي بكر بن عياش وعنه ابن أخته الجنيد، وأبو الحسن النوري، توفي سنة ٢٥١هـ، وقيل: ٢٥٧هـ. (الحلية١٠/١١٦).

ترتيب المنازل، وإذا تأملتها وجدت ترتيبها ألزم من طوق الحمام، إذ لا معرفة لمن لا مشاهدة له، ولا مشاهدة لمن لا مراقبة له، ولا مراقبة لمن لا طمأنينة له، ولا طمأنينة لمن لا صدق له، ولا صدق لمن لا إخلاص له، ولا إخلاص لمن لا تقوى له، ولا تقوى لمن لا استقامة له، ولا استقامة لمن لا توبة له، ونعني بذلك الكمالات لأنه قد يكون في صاحب منزل خصال من منزل آخر، وكذلك الأمر في المقامات.

وأما ما وقعت إليه الإشارة من الحقائق والأسرار، فإذا تأمل من له من أهل البصائر اطلاع على الشريعة وأحكام بعض آيات الكتاب العزيز والأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ، وفحص عن أقوال الصحابة ومن بعدهم من السلف وأحوالهم، فإنه يجد ذلك كله صادرا عنهم إما تصريحا، وإما إشارة، ومن سكت منهم عن شيء من ذلك، فصيانة للأسرار من تداول غير أهلها إياها، مع قوتهم ورسوخهم حيث ملكوا الأحوال ولم تملكهم حتى لم تظهر أسرار طريقهم للكافة، بل كانوا يشيرون بها إلى أهلها من الخاصة بخلاف غيرهم ممن ضعف حتى ملكتهم الأحوال ولم يملكوها، فظهرت عليهم آثار الأحوال.

ومع ذلك، فمن فحص عن أحوال الصحابة ومن بعدهم من السلف وتأمل إشاراتهم، فلا جرم أنه يجد بعضهم يعرب عن كثير من أسرار التوحيد، وبعضهم يشير إلى كثير من أسرار المعارف، ومنهم من استتر بالأعمال العامة عن إفشاء الأسرار وإخفاء العلوم اللدنية بالعلوم الظاهرة، غيرة منهم على حفظ ما لا يفهمه إلا آحاد الناس وخواصهم، مع ما كانوا عليه من امتلاء البواطن بأسرار التوحيد وحقائق المعارف.

واعلم أن أحكام الدين على قسمين: أحكام ظاهر وأحكام باطن، وكلها صدرت عن النبي ﷺ، **فمنها**: ما يعم **ومنها**: ما يخص، ولم يبخس صلوات الله وسلامه عليه أحدا حقه من ذلك، بل أبلغ أمته على حسب ما تقتضيه أحوالهم، ووفى لكل أحد قسطه من ذلك على حسب إدراكه وعقله، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «**خاطبوا الناس على قدر عقولهم**»، وقال ﷺ: «**حدثوا الناس ما يفهمون، أتريدون أن**

يكذب الله ورسوله »[(١)].

ثـم إن تلـك الأحكـام صـدرت عـن النبـي ﷺ مرتبـة علـى أسـباب، مفترقـة بحـسب قـضايا ونـوازل اقتـضتها سـؤالات وأحـوال، واسـتمر الأمـر علـى ذلـك حتـى أكمـل الله لهـذه الأمـة دينهـا وأتـم عليهـا نعمتـه، ولـم يتـوف الله نبيـه محمـدا صـلوات الله وسـلامه عليـه، حتـى بلـغ عنـه لأمتـه جميـع مـا تقـوم بـه أمـور عبوديتهم، ويستقيم به عمود ديانتهم من أحكام الله تعالى المتعلقة بالظاهر والباطن، لكـن منهـا الخـاص والعـام، والمقيـد والمطلـق، والمبـين والمجمـل، والناسـخ والمنسوخ.

فلم يزل الصحابة ومن بعدهم من السلف رضي الله عن جميعهم، مجتهدين في نظم سلوك هذه الأحكام، يضمون كل شكل إلى شكله، وكل نوع إلى نوعه، وكل جنس إلى جنسه، ويبينون مجاري خصوصها وعمومها، وسبيل مقيدها ومطلقها، ومنهاج مبينها ومجملها، ومراتب ناسخها ومنسوخها، ويردون الفروع إلى أصولها، والجزئيات إلى كلياتها، ويرتبون أبوابها، ويهذبون فصولها.

فأهل علم التفسير صنفوا فيه تصانيف مرتبة مبوبة، وأهل علم الحديث دونوا فيه دواوين مجردة مصححة، وأهل الفقه ألفوا فيه تواليف محكمة مهذبة، وأهل علم التصوف، وهم أهل علم الباطن، جمعوا فيه مجموعات نافعة مقربة، ثم كل صنف من هؤلاء الاصناف اختلفت أنظارهم في إيرادهم علومهم من تقديم أو تأخير، أو اختصار أو تطويل، أو تعليل أو توجيه، ولم يزل الخلاف دائرا بين كل صنف في فروع العلم الذي يحمله ويدعيه، لاختلاف أنظارهم وفهومهم.

ولأجل ذلك كثرت التواليف والدواوين، إذ قد يظهر للمتأخر ما غاب عن المتقدم، ويفتح للصغير فيما أغمي على الكبير، ويطلع الناقص على ما لم يشرف عليه الكامل، وذلك بحسب القسم الإلهية والعطايا الربانية، والمنح الأزلية: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: ٢١].

ولكل حال مقال، وفي كل زمان رجال، وكل صنف يرجع في أنظار علمه وإن

---

(١) رواه البخاري (١/٢١٧).

اختلفت إلى الأصول الشرعية والأخبار المأثورة المروية ثم لكل طبقة عبارات بحسب ما يقتضيه تقريب المعنى لأهل عصرها ومصرها؛ إذ في كل عصر وفي كل مصر، عبارات ألفوها، فهم يصرفونها مع إحراز المعنى الجاري بين الأواخر والأوائل.

وإذا تقرر، هذا فلا جرم إن أتيت بهذا الكتاب، أشير فيه إلى زبدة علم الباطن، وأنبه فيه على أسرار الأذواق وحقائق التوحيد، بما أودعته من تقريب وتهذيب، وتفصيل وتبويب، وتمثيل وتشبيه، لأسهل فيه المحجة للسالكين، وأقرب المرمى للطالبين، وأدرأ به في نحر المنكرين، مع أني لم أخالف لأهل هذا الشأن فرعا ولا أصلا، ولا تعديت لهم عقدا ولا حلا وغير نكير على من غذته لبان الألطاف الربانية، وغمرته المواهب الإلهية، وشملته البركات الساحلية، ثم لم يزل تؤدبه لحظات إشاراتها، وتهزه نواسم آثار خلواتها، وتبله سحائب دعواتها، وتسقية مياه حكمها، وتحميه صوارم رعيها، وتجذبه للفلاح شفقة أبوتها حتى جنا الغض.

فالغض من داني قطوف أسرارها، واستبصر بالنير فالنير من شموس معارفها، واستمسك بالعروة الوثقى من إخلاص محبتها ومبرتها، أن يأتي بتمهيد طريق السالكين، وتبيين أحوال العارفين، وترتيب مقامات الدين.

فما هي إلا نفحة من أنفاس مولاي الوالد سرت بين ضلوعي، فنفثت في روعي لكني لما ضعفت عن حمل أعبائها، فهت ببعضها، وذلك من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، وحكمته التي يهبها من يريد له الحكمة البالغة والإرادة النافذة، هو الفتاح العليم.

جعلنا الله ممن اختصه لأسراره، وعمته لطائف أنواره، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله ومختاره، وعلى آله وذريته وأزواجه وأصهاره وأنصاره، بفضله وكرمه ومنته ورحمته.

الباب السادس

جامع لفوائد شتى

وفيه فصول ستة:

الفصل الأول: في سند هذا الطريق والتعريف بما أمكن من شيوخه.

الفصل الثاني: في أحكام المشيخة والتلمذة.

الفصل الثالث: في أحكام اجتماعهم على العبادات من ذكر وغيره.

الفصل الرابع: في أحكام السماع وما يتعلق به.

الفصل الخامس: في أذكار وأدعية يستعملها السالك مع حركاته من حين هبوبه من النوم إلى حين منامه.

الفصل السادس: في أدعية مختلفة المعاني بحسب أحوال السالكين.

الفصل الأول

في سند هذا الطريق والتعريف بما أمكن من شيوخه

اعلم أثبتني الله وإياك في ديوان أوليائه، وبلغنا مراتب أصفيائه، أن طريق التربية بالأذكار حسبما تقدم ذكره، ليس من الأمر المخترع، ولا من الشيء المبتدع، إنما تحمله أعلام عن أعلام، بالملازمة والصحبة والتأدب حتى تأدى إلينا محفوظًا من التغيير والتبديل، جاريًا من الحق على أوضح سبيل، فجزاهم الله عنا خيرًا.

سند: أما والدي، وهو أبو عبد الله الساحلي، فصحب شيخه أبا القاسم المريد، وصحب أبو القاسم المريد شيخه أبا علي الحرار، وصحبا معا شيخهما أبا عمران البردعي، وصحب أبو عمران شيخه أبا عبد الله التاودي، وصحب التاودي شيخه أبا الحسن بن حرزهم، وصحب أبو الحسن عمه أبا محمد بن حزرهم وشيخه أبا بكر بن العربي[1]، وصحب ابو محمد شيخه وجيه الدين[2]، وصحب وجيه الدين والده محمد بن عمويه، وصحب محمد والده عمويه، وشيخه أبا العباس الدينوري[3]، وصحب عمويه والده سعدا، وصحب سعد والده

(١) محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، قاضي قضاة كورة إشبيلية، إمام في الأصول والفروع لقي أبا بكر الطرطوشي وسمع أبا عبد الله السرقسطي وأبا عبد الله الكلاعي وأبا الحسن بن الحداد والخولاني وغيرهم، رحل إلى المشرق ودخل الشام وبغداد وجلس للوعظ والتفسير. له مؤلفات منها: «القبس في شرح الموطأ»، وترتيب المسالك في شرح موطأ مالك» وأحكام القرآن وغيرها (نفح الطيب: ٢/٢٥ ٣٥).

(٢) وجيه الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عمويه السهروردي القرشي البكري التيمي سيترجم له الساحلي وشيكا.

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري الواعظ المتكلم شيخ الصوفية، صحب يوسف بن =

الحسين[١]، وصحب الحسين والده القاسم، وصحب القاسم والده النضر، وصحب النضر والده القاسم، وصحب القاسم والده محمدا، وصحب محمد والده عبد الله، وصحب عبد الله والده عبد الرحمان، وصحب عبد الرحمان والده القاسم[٢]، وصحب القاسم والده محمدا، وصحب محمد والده أبا بكر الصديق، وصحب أبو بكر الصديق رسول الله ﷺ.

وصحب أبو العباس الدينوري شيخه أبا محمد الجريري، وصحب الجريري شيخه أبا القاسم الجنيد، وصحب الجنيد خاله سريًا السقطي، وصحب سري شيخه معروفا الكرخي[٣]، وصحب معروف شيخه ومولاه عليا بن موسى الرضا[٤] والإمام داود الطائي[٥]، وصحب علي بن موسى والده موسى الكاظم[٦]، وصحب موسى

=

الحسين وعبد الله الخراز، وأبا محمد الجريري، أقام بنيسابور وتوفي بسمرقند، كان حيا سنة ٣٤٠هـ (حلية الأولياء: ١٠/٣٨٣).

(١) الحسين بن القاسم بن النضر بن القاسم جد عمويه المذكور.

(٢) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو محمد أحد الفقهاء السبعة في المدينة، ولد فيها سنة ٣٧هـ. وتوفي بقديد سنة ١٠٧هـ، كان من خيار التابعين وصلحائهم. سمع ابن عباس، وابن عمر ومعاوية، وطائفة، وعنه ابنه عبد الرحمن، والزهري، وابن المنكدر، وآخرون. (طبقات خليفة، ص: ٢٤٤).

(٣) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، من صوفية العراق، ت: ٢٠٠هـ أو ٢٠٤هـ، وستأتي ترجمته وأخباره عند الساحلي فيما بعد. العبر: (١/٣٣٥) شذرات الذهب: (١/٣٦٠).

(٤) علي بن موسى الرضا، روى عن أبيه وعن عبيد الله بن أرطأة، وعنه ابنه أبو جعفر محمد وأبو عثمان المازني، والمأمون، كان المأمون يعظمه ويخضع له، ويتغالى فيه حتى جعله ولي عهده من بعده، وكتب بذلك إلى الآفاق، فثار بنو العباس، توفي سنة ٢٠٣ هـ، وستأتي بعض أخباره عند الساحلي (تاريخ الطبري: ٧/٤٢٢ و٤٣٦).

(٥) داود الطائي الكوفي أبو سليمان بن نصير، الفقيه الزاهد، روى عن هشام بن عروة وحميد والأعمش، وعنه ابن علية، وأبو نعيم وغيرهما، كان من كبار المتكلمين، إذ كان يجادل ابا حنيفة، ثم اقبل على العبادة وتخلى عن ذلك، توفي سنة: ١٦٥هـ وقيل: ١٦٢هـ (الرسالة القشيرية: ١٣).

(٦) موسى الكاظم أبو الحسن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، العلوي الحسني والد علي بن موسى الرضا، من أعلام أهل البيت، روى عن أبيه،
=

والده جعفر الصادق[1]، وصحب جعفر والده محمدا الباقر[2]، وصحب محمد والده عليا زين العابدين[3]، وصحب علي والده الحسين بن علي بن أبي طالب، وصحب الحسين جده رسول الله ﷺ، وصحب الإمام داود الطائي شيخه حبيب العجمي[4]، وصحب حبيب شيخه الحسن البصري[5]، وصحب الحسن البصري شيخه علي ابن أبي طالب، وصحب علي ابن عمه رسول الله ﷺ، ورضي عن صحبه أجمعين.

=

وعن عبد الملك بن قدامة الجمحي. وعنه بنوه: علي، وإبراهيم، وإسماعيل، وحسين، وأخواه محمد وعلي ابنا جعفر، كان من الأئمة الفقهاء والمحدثين الكبار، اشتهر بالصلاح والعبادة توفي سنة: ١٨٣هـ. (الكاشف: ٣/١٦١).

(١) جعفر الصادق: ابن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي العلوي الحسيني المدني: أبو عبد الله، من كبار أعلام آل البيت، روى عن جده القاسم بن محمد وعن أبيه، وعروة بت الزبير، وعطاء، ونافع والزهري، وروى عنه: مالك وشعبة ويحيى القطان، وكان من الثقات عند أهل الحديث. تهذيب التهذيب (٢/١٠٣) شذرات الذهب (١/٢٢٠) وفيات الأعيان (١/٣٢٧) حلية الأولياء (٣/١٩٢).

(٢) محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي، أبو جعفر. روى عن جديه الحسن والحسين وعائشة وأم سلمة، وابن عباس، وابن عمر وأبي سعيد الخدري.

(٣) زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. أبو الحسن من كبار العلماء والمحدثين، من آل البيت، روى عن أبيه وعمه الحسن وابن عباس وعائشة وأبي هريرة وجابر، وأم سلمة، وصفية وسعيد بن المسيب وغيرهم. وروى عنه بنوه الأربعة وأبو الزناد ويحيى بن سعيد الأنصاري، ويذكر أنه شهد مصرع والده الشهير بكربلاء، توفي سنة: ٩٢هـ (سير أعلام النبلاء: ٤/٣٨٦).

(٤) أبو محمد حبيب العجمي، من أهل العراق، نشأ بالبصرة، واشتهر بالزهد والصلاح، سافر في البلاد، وأخذ عن الحسن البصري وابن سيرين وغيرهم من الطبقة الأولى من زهاد القرن الثاني توفي في حدود سنة ١٤٠هـ) الوافي بالوافيات للصفدي ١١/٢٩٩).

(٥) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري أبو سعيد مولى زيد بن ثابت إمام أهل البصرة، ولد بالمدينة في خلافة عمر ودرس القرآن والحديث وسائر العلوم، اشتهر بكلامه في الزهد والوعظ، إلا أنه اتهم في الحديث بالتدليس، توفي سنة ١١٠هـ (طبقات ابن سعد ٧/١٥٦).

وصحب أبو بكر بن العربي شيخه أبا حامد الغزالي[١]، وصحب أبو حامد الغزالي شيخه أبا المعالي الجويني[٢]، وصحب ابو المعالي شيخه أبا طالب المكي[٣]، وصحب أبو طالب شيخه أبا القاسم الجنيد، واتصلت صحبة الجنيد بمن ذكر اتصالها به قبل.

❖ تعريف:

اعلم أن استقصاء أخبار هؤلاء الجلة وأحوالهم وكراماتهم يتعذر لما اشتهر عنهم من الأحوال، واستفاض عنهم من الكرامات والأخبار لكني أقتصر من ذلك على ما يحصل به التعريف بمن أمكن منهم على سبيل الاختصار، والله المستعان.

١- **أما والدي** وهو محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن إبراهيم، أبو عبد الله الأنصاري الساحلي، مولده سنة تسع وأربعين وستمائة، والله يمد في حياته ويمتع بطول بقائه، كان والده، الجد المرحوم من أهل غرناطة الأعلام بها دينا ودنيا، له إجازات بالسبع على الكواب[٤] وغيره، محسوبا من أهل القرآن والعلم، ولم يزل

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي حجة الإسلام، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ. لازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني وأخذ عنه، ثم درس بالمدرسة النظامية ببغداد، ثم اعتزل وسلك طريق التصوف، له عدة مصنفات أشهرها: الإحياء، وتهافت الفلاسفة وغيرها، توفي بطوس سنة ٥٠٥هـ (جمهرة الأولياء، ص: ١٩٧).

(٢) إما الحرمين، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري، شافعي المذهب من أهل جوين، نواحي نيسابور، درس ببغداد، وجاور بمكة، ثم رجع إلى نيسابور، حيث بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية، أخذ عنه جمع غفير أشهرهم تلميذه أبو حامد الغزالي توفي سنة ٤٧٨هـ (الأنساب، للسمعاني: ٤٢٨/١).

(٣) أبو طالب محمد بن علي بن عطية المكي الحارثي من أهل الجبل بين واسط وبغداد نشأ بمكة وإليها ينسب، رحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال، ثم سكن بغداد ووعظ بها. توفي سنة ٣٨٦هـ. ويعتبر كتابه: قوت القلوب مرجعا هاما في التصوف، تأثر به الغزالي في الإحياء، ونقل عنه السهروردي في العوارف (تاريخ بغداد: ٨٩/٣).

(٤) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مجاهد العبدري الكواب، من أهل غرناطة، يكنى أبا محمد، من أعلام المقرئين بها، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن كوثر، وأبي خالد بن رفاعة وأبي عبد الله بن عروس، ورحل إلى بياسة، حيث أخذ القراءات عن أبي بكر بن حسون وأخذ مع =

بغرناطة ينتحل الفلاحة إلى أن توالى عليه القبض وفنى جميع ماله، أصله وعرضه وعينه وكان أهل قرية ديمالش، إحدى قرى منتماس، يعرفونه، فخرج من غرناطة متوجها إلى ديمالش، فقدمه أهلها خطيبا يخطب لهم ويؤم بهم، إلى أن ظهر له أن يتزوج، فخطب أمرأة من بني حارث من قرية خير لنقة، فتزوجها وبنى بها بديمالش، فاستولد منها والدي، ثم انتقل بزوجه وابنه منها والدي إلى قرية لوشة بن جميل، فصار يؤم بأهلها، فاستولد منها ولدا آخر، ثم انتقل بهم إلى الإمامة بقرية السهيلة، فبقي بها إلى أن انتقل بزوجه وابنيه منها إلى سكنى مالقة سنة سبع وخمسين وستمائة. فدخل والدي المكتب، وتعلم القرآن العظيم، وحفظه وهو ابن عشر سنين.

فلما طعن في إحدى عشرة سنة، انتقل إلى الأستاذ، فقرأ القرآن بالسبع وتفقه، وكان في الطلبة علمًا، يكرمونه لعفته ونبله وديانته. فلما طعن في ثمان عشرة سنة، توفي والده رحمة الله عليه، فوجد عليه وجدا عظيما أوجب له الزهادة في الدنيا والخروج عن جميع تركة والده منها، وانفرد للعبادة وشمر في طلب الآخرة. قال لي، فكنت أختم القرآن مرة بين الليل والنهار، وكنت أؤم بالناس في المسجد الذي كان والدي يؤم فيه، وكان من جماعة المسجد رجل يعرف بابن كنزة، فللذي رآه من تشميري في العبادة، ولاح له من اجتهادي في طلب الآخرة، اجتمع بي يومًا فقال: إني أحبك، وأريد أن أفيدك. قال: فقلت له: وما ذاك؟ فقال لي: بربض مالقة رجل يقال له أبو القاسم المريد يدل على الله بطريق شريف، فهلا عرفته وأخذت عنه؟ فقلت له: وهل أخذت أنت عنه فقال لي: نعم، فقلت له: وما ذاك فذكر كيفية من الصلاة على النبي ﷺ وكيفية من الاستغفار وعدد لزومه. قال والدي: فألزمت نفسي ذلك وزدت عليه وقلت في نفسي: لا أتصل بهذا الشيخ حتى أعرف من هذا اللزوم حقيقة طريقه. فبقيت على ذلك ملازما، وصرت أتعاهد ميعاد الشيخ أبي

=

هؤلاء عن جعفر بن حكم، وأبي جعفر بن عبد الرحيم، وأبي الحسن الصدفي الفاسي، الذي أخذ عنه كذلك كتاب سيبويه، أما تلامذته فكثيرون ومنهم: القاضي أبو علي بن الناظر، وابن أبي الأحوص، وأبو عبد الله بن إبراهيم المقري، توفي سنة ٦٣٣هـ، ودفن في البيرة (المراقبة العليا ص: ١٢٧).

القاسم، أسمع كلامه وأحفظ وصاياه التي يبثها في الجمهور، ولم أتصل به حتى فاضت علي بركات الصلاة على النبي ﷺ، وطاب لي الإكثار منها، فاجتمعت مع الشيخ، وقصصت عليه أمري، وملكته زمام نفسي، فأولاني قبولا ورتب لي أحوالي وأعمالي، فحببت لي الخلوة ودققت النظر في الزهد ومحاسبة النفس، وملت إلى الإكثار من الذكر، وصرت لا اجتمع مع الشيخ إلا لأمر مهم يخصني أتلقى منه فائدتي، ثم أرجع إلى حالي من الخلوة والصمت والذكر.

ولقد كان أصحابنا إذ ذاك يجتمعون وأنا أرغب في الخلوة، ويتحدثون وأنا أوثر الصمت، حتى فاضت علي أسرار الطريق دفعة، ولاحت في باطني أنوار الحقائق.

ولما ظهر للشيخ من نجابتي ما ظهر، اشتمل علي واختصني لنفسه، ولحقني من أثر اعتنائه ما وجدت بركته، فقطعت المقامات، وجاوزت المنازل، وشهد لي الشيخ أني على بينة من ربي، وأجازني وقدمني على أصحابه، وصار يحيلهم علي في أحوالهم، فكنت أربيهم في حياته، ولقد قام يومًا في رابطته ولقد اطمأن المجلس لأصحابه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: كنت آسف على انقطاع أثر طريقي بموتي، والآن قد قرت عيني وذهب الأسف عني، فهذا ولدي أو عبد الله الساحلي قد ورثني، فهو خليفتي عليكم، فخذوا عنه واقبلوا منه.

ثم كان الشيخ بعد ذلك إذا جاءه أحد من أصحابه يحيله علي، فاشتمل على أصحابه وصاروا من أتباعي، فبقيت على ذلك باقي حياة الشيخ إلى أن توفي رحمة الله عليه.

ثم لم يزل والدي ﷺ علما يقتدى به ونورا يهتدى به، وأوقع الله القبول له في قلوب عباده، وحببه إليهم، فتقيد إليه عالم كثير، وسلك على يديه آلاف من الناس، وانتشر طريقه في الآفاق، وكثر أصحابه في مغارب الأرض ومشارقها، فأصحابه اليوم لا تخلو بلدة ولا حصن ولا قرية في بلاد الأندلس منهم، وله أصحاب في أكثر بلاد المغرب وفي أكثر بلاد المشرق وفي أرض الحجاز والحرمين والشام وغير ذلك من الأمصار، كلهم يعترف له بالشياخة، ويلزم نفسه أحكام التلمذة له ولم يزل بعض الناس يرحلون إليه ويقدمون من كل أرض عليه لزيارته والأخذ عنه

والتبرك به، وربما عاق بعضهم عائق عن الوصول إليه فالمكاتبة تتردد بينهم وبينه، وإن من أصحابه لمن يدعى في طريقه ولم يره، إن هي إلا المراسلة والمكاتبة.

ولقد بلغني أن رجلا من صلحاء المغرب توجه إلى المشرق برسم الحجاز فشاع ببلاد مصر والشام أن أبا عبد الله الساحلي قادم على الإسكندرية فانتدب الركبان من الشام ومصر وغيرهما، وقدموا على الإسكندرية في ركب كبير، كلهم يدعى في طريقه، ليس لهم أمل غير لقائه، فلما وصلوا إلى الإسكندرية إذا الرجل القادم من المغرب غير والدي، فسقط في أيديهم ورجعوا من حينهم إلي بلادهم.

قلت له يومًا: يا والدي لقد اشتهر طريقك وكثر أصحابك، فهل منهم وارث لك أو من قارب؟ فقال: لتعلم أن من حق هذا الطريق الكتمان، لكني للذي رأيته من توالي الفساد، وقلة الرشاد، واستيلاء الغفلة على قلوب العباد، رأيت أن أشعت من مبادئ طريقي في الناس ما لعله يخرجهم عن بعض ما هم فيه، لعله يحفظ عليهم الحدود. فأنا قانع منهم بتلبسهم بشيء من الذكر والقيام بالفرائض واجتناب الكبائر، فالمشار إليه منهم لعله أن يكون قد حصل له منزل التوبة، فهم للأجور أقرب منهم للحضور ثم قال لي: لم أر فيمن تعلق بي أحسن بداية من عمك أبي الحسن بن حديدة رحل إلي من الجزائر وأخذ عني واجتهد، حتى إذا ظهرت عليه بركات مبادئ الطريق، ولاحت لديه علامات النجابة، وأخذ بحظ من مقام الإيمان، وقف هنالك، فما قدم رجلا إلى ما بعده بسبب علة كانت فيه، ثم سافر إلى المشرق باقيا على علته، ولم يزل كذلك إلى أن مات، فقلت له: وما تلك العلة التي حجبته وقطعت به عن السباق فقال لي: الميل إلى حب الرياسة التي قطعت رقاب أكثر الرجال. ثم قال لي: وذلك أن من خصائص هذا الطريق أن يوضع لصاحبه القبول في الأرض، وهي فضيلة من فضائل الصلاة على النبي ﷺ، فكلما حسنت بداية السالك، ولاح عليه أثرها أقبل عليه الخلق بالمحبة والتعظيم والإكرام، وذلك من أكبر خدع النفس. فربما زببوه[١] حُصرمًا، فانقطع به وقيل له: اقعد مع الخالفين. ثم

(١) زبب: الزبيب الذي يؤكل معروف، الواحدة زبيبة، ويقال: زبب فلان عنبه تزبيبًا أي: جعله زبيبًا. تهذيب الأسماء (٣/٤٤٣)

قال لي: ولم أر بعد أبي الحسن بن حديدة مثله، إنما هم ينورون ولا يعقدون.

قال: ولقد رأيت فيما يرى النائم كأني في أرض متسعة الفضاء، مديدة الأرجاء، ورأيت ناسا يعرضون عليّ أفواجًا أفواجًا، حتى إذا امتلأت الأرض بكثرتهم، قيل لي: هؤلاء أصحابك، فتواريت عنهم بحجر وقلت في نفسي: أقعد هنا أنظر ماذا يصنعون، فبينما أنا كذلك إذ أقبل عليهم جمع من العدو يريد قتالهم وهلاكهم، فدفع العدو على أصحابي دفعة واحدة، حتى إذا أحدقوا بهم واشرفوا على الهلاك، خرجت لهم من وراء ذلك الحجر، وقلت لأصحابي: عمدة يا رجال، لا بأس عليكم فلما سمع أصحابي كلامي، انتهضوا واشتدوا ودفعوا في عدوهم دفعة، فر بها العدو أمامهم وعادت الكرة لهم على عدوهم، ثم رجعت إلى مكاني مستخفيا بذلك الحجر، وإذا بالعدو قد دفع على أصحابي دفعة ثانية مثل الأولى، فخرجت لهم وقلت لهم مثل قولي أولا، فعادت لهم الكرة على عدوهم. ثم لم يزالوا على ذلك، كلما تواريت عنهم بالحجر غالبهم عدوهم، فإذا خرجت لهم رجعت لهم الكرة عليهم حتى استيقظت فقلت له فماذا أولت ذلك قال: وذلك أن أصحابي لغلبة هواهم على عقلهم كلما باشرتهم أو بعضهم بالتذكرة والتعليم، مشافهة أو مكاتبة اشتدوا وانتهضوا وغالبوا نفوسهم بشيء من المجاهدة والعمل، فإذا غاب ذلك عنهم، ملكتهم أهواؤهم، وغلبت عليهم نفوسهم، وكادت أن تهلكهم بمقارفة المخالفات. فهم يقومون ويقعدون، وأنا قانع منهم بهذا المقدار، والناس يقولون في مثلهم: أبلق خير من أسود.

سلك والدي ﷺ مسالك السلف الصالح في قوة العزم والانتهاض في العمل الصالح، والمسارعة إلى الطاعات، لا يشغله عن حاله الأخروي شاغل، ولا يصده عن شأنه شيء من وظائف العيال والأولاد، جعل أحوال دنياه تبعا لأحوال آخرته، ولم يتمسك منها إلا بما فيه عون على ﷺ حسن الاهتبال بعبادة الله، حسن الدلالة عليه، حسن التجمل من أجله، حسن الحب والبغض فيه، حسن الأدب معه، صوَّام قوَّام تلَّاء ذكَّار، لم يترك عملا مما يمكنه من الأعمال المقربة إلى الله تعالى، إلا وهو فيه قدام الناس.

كان أصحاب الشيخ أبي القاسم المريد يسمونه شجاع الصالحين، لم تفل حسام عزمه جميع الحوادث، ولم يشغله عن شأنه جميع الأوهام، ولم يكب جواد عزمه بخدعة هوى، كثير الحب في المسلمين، شديد الحنان عليهم، حسن النصح لهم، لم يفرد قط نفسه دونهم بدعوة، ويقول: أرى هذا لازما لي حين عقد الله بيني وبينهم أخوة الإسلام، كثير الحب في النبي ﷺ، كثير الصلاة عليه، شديد الأدب معه، حصل على حظ وافر من علم الشريعة وحفظ كثيرا من الحديث.

وله تواليف عدة ذوات نظم ونثر، أكثرها ترغيبات في الأعمال، وترتيبات في الأحوال ودعوات وخطب ومواعظ، ووصايا وحكم وكيفيات في الصلاة على النبي ﷺ، وأمداح فيه وغير ذلك، وصدرت منه رسائل لبعض أصحابه تتضمن وصايا وآدابا، وحكما وخيرات، وانتشرت في الآفاق، أكثرها الآن بغرناطة، أعلمت أن بعض أصحابنا بها أخذ في جمعها وتأليفها، وله من الكرامات والمآثر والحكم والحكايات والأخبار ما يضيق عنه نطاق هذا الموضع.

وقد شرعت في تأليف كتاب خاص بأحواله وكراماته سميته بـ: «النفحة القدسية في الأخبار الساحلية»، وإنما أوردت من ذلك هنا نبذة تعرب عن كليات ينتظم بها في سلك أشياخه، والله يمتع المسلمين والإسلام بطول حياته وينفع الجميع بصالح دعواته.

٢- **وأما الشيخ أبو القاسم المريد**، فهو قاسم بن محمد بن يحيى أبو محمد اللخمي اللوشي، كان يدعى بأبي القاسم فغلب عليه، وإنما كنيته، أبو محمد، وللذي كان عليه في صغره وفتوته من الميل إلى طريق الصالحين، والحب في أهل الدين، والرغبة في أحوال السالكين، لقب بالمريد حتى غلب عليه، مولده بلوشة سنة خمس وتسعين وخمسمائة. كان والده بلوشة يشتغل بشغل الجنات ثم انتقل بزوجه وابنه منها أبي القاسم إلى مالقة في زمان فتوة الشيخ أبي القاسم.

قال الشيخ أبو القاسم رحمه الله: فكنت بمالقة أشتغل بشغل الحياكة، فإذا كسد انتقلت إلى بيع العطر، ثم إذا كسد العطر، انتقلت إلى الحياكة، وكانت لي زوجتان وأولاد وأبوان أعول جميعهم، وكنت مع ذلك كثير الحب في طريق الخير، شديد الميل إلى أهل الآخرة، وللذي غلب علي من ذلك، كنت أجري النفقة على عيالي

بالمعروف، وما يفضل عن ذلك من عائدي، أصنع به طعاما فأجمع عليه من يحضر بمالقة من الفقراء والمساكين ومن جرى مجراهم من المتسببين ليلة كل جمعة في منزلي يأكلون ذلك الطعام، ثم يأخذون في السماع والشطح حتى يصبح، وكنت أظن أن هذا هو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وكنت مع ذلك أؤم بالناس في رابطتي. فلما كان بعض الأيام قدم على الرابطة التي كنت أؤم فيها رجل ضعيف الحال، كثير السكون والصمت، حسن الإنابة، فصار يلازم سكنى الرابطة، يغيب نهارا ويجيء ليلا، وبعض الأيام يجلس بها، لا يزال جالسا إلى القبلة رأسه على ركبتيه، فكنت أشفق عليه واستحضره مع الفقراء ليلة كل جمعة قاصدًا الفتوة عليه بأكله من طعامي، للفاقة التي كانت بادية عليه، فكان إذا أخذ الناس في السماع والشطح يأخذ ركنا من البيت لا يزال فيه ورأسه على ركبتيه، فكنت أظن أنه ينام فأستثقله، لكنني للشفقة عليه كنت أستحضره. فبقيت على هذه الحال أعواما إلى أن رأيت فيما يرى النائم قائلا يقول لي: ماذا تريد إن كنت تطلب الكنز فها هو معك في الرابطة. قال: فلما أصبحت ذكرت ذلك لرجل من جماعة الرابطة يقال له الحاج خالص، وكان متصلًا بذلك الرجل، فقال لي: يا أبا القاسم، إني أحبك، وأحب الخير لك، فاسمع ما أقول لك واكتم عني، فقلت له: وما ذاك فقال: لتعلم أن الكنز الذي أخبرت به هو سيدي أبو علي الحرار - يشير إلى ذلك الرجل الذي كان ترتب بالرابطة، وكنت أستحضره شفقة عليه لأطعمه ليلة كل جمعة، فاقصده وقص عليه رؤياك، فإذا ورى لك عن نفسه، وأتلف لك خبره، فقل له: يا سيدي، والله إنك لأنت الكنز، فاقبلني من أجل الله ﷻ. قال الشيخ أبو القاسم: فاجتمعت مع الشيخ أبي علي وقصصت عيه رؤياي فقال لي: با ابن الحلال: أيكون برابطتك الكنز ونحن بهذه الفاقة اذهب فأتني بالفأس لعلنا نحفر على هذا الكنز فننفق منه.

قال الشيخ أبو القاسم:

فقلت له: يا سيدي، والله إنك لأنت الكنز، فخذ بيدي من أجل الله، وجعلت أقبل يديه ورجليه وأتطارح عليه بالبكاء. فلما رأى من عزمي عليه ما رآه، قال لي: فمذ عولت فلا بدّ لي أن أرى ما يخلق الله عندي لك. فانفصلت عنه وعندي من الحب فيه والميل إليه ما ملك قلبي وشغل فكري. فلم ألبث إلا يومًا أو يومين حتى

اجتمعت معه فقال لي يا أبا القاسم: لتعلم أني متعلق بشيخي أبي عمران البردعي، وها أنا أدلك على مبادئ طريقه واسطة فيما بينه وبينك. فإن كانت لك قسمة في طريقه، فسيجمع الله بينك وبينه. ثم ألقى إلي وظيفة من الذكر، ورتب لي أحوالي، ورسم لي أمورا وقفت عندها وعملت بحسبها، وكان مما قال لي: يا أبا القاسم، لا بدّ لك من ترك ما كنت عليه من الجمع بأولئك الناس، والأخذ بالخلطة والسماع، أتراك يا أبا القاسم كنت تدري حين كنت تشطح، في عرس من كنت تشطح عليك بالخلوة والصمت والمداومة على الذكر؟ فلازمت طريقه، ووقفت عند إشارته، وظهرت علي من بركاته ما وكد عندي قوة العزم، والأخذ بالجد.

وكان كثيرًا ما يصف لي شيخه أبا عمران بصفاته ويذكر من أخباره وأحواله حتى وددت أن ألقاه، فبقيت على ذلك زمانا، ثم ظهر للشيخ أبي علي أن يسافر إلى غرناطة، فسافر وخرجت معه، فوادعته ورجعت فبينما أنا أمشي في بعض أسواق مالقة، إذ لقيت رجلا على الصفة التي كان الشيخ أبو علي يصف بها شيخه أبا عمران، فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له: أتكون سيدي أبا عمران فقال لي: نعم، مرحبا بالابن الصالح، فتطارحت عليه وقصدته أن يصل معي إلى منزلي، فأجابني إلى ذلك، فصنعت له ثريدا، فلما قربته بين يديه، قال لي: اذهب إلى المسجد الجامع - فادع ذلك الرجل الذي تجده متوجها في موضع كذا منه. قال: فما هو إلا أن دخلت المسجد ووقع بصري على ذلك الرجل، وإذا به قد التفت إلي وقال لي نعم، أطبخ ثريدك فقلت له: نعم وإن سيدي أبا عمران يدعوك، فقام معي، فلما أكلنا قال لي الشيخ أبو عمران: أريد منك أن تصل غدا إن شاء الله إلى أبي علي، فإنك تجده ببزليانة، فادعه لي ليصل معك، قال: فتوجهت إلى بزليانة، فوجدت بها الشيخ أبا علي متوجها في مسجدها، فأخبرته بقصة الشيخ أبي عمران، فقال: «سبحان الله، قد كنت عزمت أمس على السفر إلى غرناطة، لكني وجدت في باطني مانعًا يمنعني أظنه كان خاطر الشيخ. فقدمنا معا على الشيخ أبي عمران، وانتظم شملنا به، وسألني عن أحوالي وعن الذي بيدي من الذكر، فأخبرته، فأقرني عليه، قال الشيخ أبو القاسم: فبقيت على ذلك ملازما الشيخ أبا عمران، مهتديا بهديه، واقفا عند إشارته، متأدبا بآدابه، مستضيئا بأنواره، ولقد وقف علي يومًا وأنا بحانوتي أبيع فيه

العطر، وإن شعري لجمة مصبوغة بالحناء، فأخذ بصدغي يفتله ويجبذه ثم قال لي: أحلق هذا الشعر من رأسك، فقلت له: نعم، وفي الحين حلقته، وربما ظهرت له مني علة، ولم أزل على ذلك واقفا عند أمره ونهيه، حتى فتح الله لي على يديه وانتهضت في طريقه، وفاضت علي أنواره، وللذي ظهر له من انتهاضي، ووقف عليه من نجابتي، التفت إلي، وأقبل بالكلية علي، حتى رقيت من الطريق مراقي حسنة.

ولقد التفت إلي يومًا فقال لي: يا أبا القاسم، إنك لمسط[1] في مقام الإحسان، فانتهض عساك تلحق بالرجال. قال: وأمدني الشيخ أبو عمران بباطنه، ففتح الله لي فتحا عظيما إلى أن رأيت كان الشيخ أبا عمران يشق بطنه وصدره، ثم يخرج كبده وقلبه، فيشق بطني وصدري، فيجعل ذلك في، فأعلمته بذلك فقال لي: ليهنك يا أبا القاسم، قد حصلت على حظ من طريق الرجال، فاحفظه واحفظ وصيتي: أوصيك بمجانبة هؤلاء الفقراء المسافرين من غير أن تسيء بأحد منهم ظنك، وإياك وموالفة النسوان وإن كن صالحات، ولا تصحب الذين يخوضون في علم النجوم والكيمياء وإياك والدين، ولقد يكون لك شأن وشهرة.

ثم سافر الشيخ أبو عمران من مالقة، فلم يعد إليها بعد، فكان الشيخ أبو القاسم إذا ذكر شيئًا من بدايته يتمثل بقول القائل:

جاءني رزقي ولم أتعب ... يا فؤادي، فكن مصوب

كان ﷺ نقي اللون، ربعة، معتدل اللحية، رجل الشعر، قوي البنية، حسن الهيئة. كان في المتأخر من عمره يخضب شعر رأسه ويترك لحيته، فقيل له في ذلك فقال: بلغني أن من الصحابة من خضب ومنهم من لم يخضب، فأنا أوافق من كان يخضب بشعر رأسي وأوافق من لم يخضب بشعر لحيتي، وكان سنيًا في تصرفاته، مراقبا في أحواله، حسن الظن بالمسلمين، يحبهم ويحب الخير لهم، شديد الحرص على هدايتهم، ثابت اليقين، حسن الوجهة والانقطاع إلى الله، شديد الحب في

---

(١) المَسْطُ: خَرْطُ ما في المِعى بإصْبَعِكَ لِيَخْرُجَ ما فيه، مَسَطَ يَمْسُطُ. المحيط في اللغة (٢/٢٥٠).

الجناب النبوي، كثير الصلاة عليه، حسن الخلق والفهم، عظيم الحكمة، وقورا مهيبا، منشرح الصدر بالله، مليح الإشارات، له مكاشفات واطلاعات وكرامات، اشتهر عنه كثير مما اشتهر عن أكابر السلف، شهد كثير من الناس بلقائه في البلدان كفاس والإسكندرية والحرمين وغير ذلك، مع كونه لم يسافر قط من مالقة له من ذلك حكايات.

كان الغالب عليه التحدث على الخواطر والإخبار بالكوائن، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، لم يحفظ من القرآن إلا بعض المفصل. لكن كان آية من آيات الله في حسن الفهم والنطق بالحكم والإشارات إلى الحقائق، وفهم القرآن والحديث وضبط ما يحتاج إليه من الفقه.

لم يزل بمالقة إماما راتبًا معظمًا في أهلها، مكبرًا عندهم، يقصده الفضلاء والعلماء بالزيارة، ويستوهبون منه الدعاء، ويتبركون برأيه ونصحه.

أدركته بنحو العامين من عمري، ربما كنت رضيعا، وجعلني في حجره ومسح على رأسي ودعا لي، وقد أصبت بركته.

حدثني أبي قال: لم يزل الشيخ أبو القاسم سالكا مسالك أشياخه في التكتم والتستر، إلى أن ظهر بمالقة رجل يقال له الفزاري ذكر أنه ادعى النبوة، ففتن ناسا من العوام، وأضل قومًا من الجهال، حتى اتخذ منهم أتباعا. فعند ذلك عقد الشيخ أبو القاسم ميعادا في رابطته يجتمع فيه الناس يذكرون فيه الله، ويصلون على النبي ﷺ من صلاة الصبح إلى قريب الضحى من يوم كل جمعة، ودعا الناس إلى التزام أوراد من الصلاة على النبي ﷺ قاصدًا إثبات محبة النبي ﷺ في قلوب الناس دفعًا لفتنة الفزاري. قال والدي: فكان الشيخ أبو القاسم رحمه الله يقول لو اطلع أشياخي علي في هذا الجمع لفتلوا أذني ولأقاموني للخلوة، لكني أرجو بركة دعوة الخلق إلى الله وإلى رسوله. فأخذ عن الشيخ ناس كثير، وسلك على يديه خلق، واشتهر خبره في الآفاق، وصار الناس يتنادبون إليه من البلدان يزورونه ويتبركون به، وظهرت بركته على أصحابه، فمنهم من نفذ في الطريق، ومنهم من تخلف لكن الصغير من أهل هذا الطريق كبير، والضعيف منهم قوي. أخبرني من أثق به قال: نفذ في طريق الشيخ أبي القاسم ﷺ ثلاثة رجال: والدك، وأبو العباس المحروق،

وأبو الحسن القرطبي، وكان والدك أرسخهم في الطريق وأنهضهم، ولذلك قدمه الشيخ على أصحابه.

توفي رحمة الله عليه في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وستمائة، صلى عليه كافة أهل مالقة وخاصتهم، وازدحم الناس على جنازته ازدحاما جاوز المعتاد، وقبره الآن بخارج باب فنتالة من مالقة اتخذه الناس مزارا يتبركون به ويتوسلون ببركته، فيستجاب لهم، وأخبار الشيخ أبي القاسم كثيرة، وكراماته شهيرة، وفيما أشرت إليه من ذلك الكفاية في التعريف به.

٣- **وأما الشيخ أبو علي الحرار** ﷺ فهو عمر، وقيل حسن الحرار، أصله من المغرب تعلق بالشيخ أبي عمران وأخذ عنه، بدايته، فلما توجه الشيخ أبو عمران من بر العودة قاصدًا الأندلس، جاء معه فجاز معه البحر، فتوجه أبو عمران إلى إشبيلية وهي يومئذ للمسلمين، وجاء أبو علي إلى مالقة، وقد حصل على حظ وافر من الطريق فنزل في رابطة الشيخ أبي القاسم كما تقدم، فأقام بها نحو ثمانية أعوام وحينئذ ورد عليه الشيخ أبو عمران.

حدثني أبي قال: حدثني الشيخ أبو القاسم قال: كان الشيخ أبو علي يحكم نسج ثياب الحرير، فكان إذا تخلص من ورده، توجه إلى موقف الحرارين بمالقة، فيستأجره بعض الحرارين للعمل في ذلك اليوم كما كانت العادة حينئذ. فكان يحتمل معه يسيرا من التين، فإذا دخل الطراز للعمل لا يفتر عن الذكر، وكان كلما تكلم بعض الصبيان بهذر أعطاه من ذلك التين، مستعطفا به في الصمت، فإذا حانت الصلاة، جعل جميع من في الطراز من الصناع وغيرهم يتوضؤون، وينفصلون معه إلى الصلاة، وكذلك في كل صلاة. فكان الصناع ربما يتنغصون به لإخراجه إياهم عن أطوارهم، فيقولون للمعلم إن جئتنا بهذا الرجل غدًا، فإنا لا نجيء إليك، قال: ثم لم تزل حاله على هذا، من طراز إلى طراز، حتى صار لا يدعوه أحد لعمل بوجه قال: فلما انقطع سبب شغله، علم أن ذلك هو المراد منه، فانقطع للعبادة متوجها إلى الله تعالى. أخبرني من أثق به قال: كان الشيخ أبو علي لما انقطع سببه يتوجه للذكر فكان لا يتم عدد لزومه إلى وجد على جحره درهما يشتري به قوته، كذلك في كل يوم.

فلما ورد الشيخ أبو عمران على مالقة من إشبيلية قبيل أن أخذها الروم واجتمع مع الشيخ أبي علي، سأله عن حاله وما زاد من أمره في ذكره، فأخبره بجزئيات أحواله فقال له أبو عمران: إنك يا أبا علي لبطيء السعي، ثم لم يزل معه ملازما بمالقة، يقتبس من أنواره، ويسعى على آثاره، حتى حصل على حظ وافر من الطريق.

وحدثني أبي قال: حدثني الشيخ أبو القاسم قال: كنت شديد المحاسبة لنفسي فربما اتهمتها في المحاسبة، فرغبت من الشيخ أبي علي أن يجلس معي في الحانوت الذي كنت أبيع فيه العطر لينظر في تصريفي فيحاسبني على ذلك، قال: فبينما هو جالس معي في الحانوت، إذ خطر الشيخ أبو عمران فالتفت، فوجد الشيخ أبا علي معي، فقال له: ما أجلسك هنا فقال له: يا سيدي، إن أبا القاسم رغب مني أن أجلس معه، فأحاسبه على ما يكون من تصرفاته وأحواله، قال: فانتهره الشيخ أبو عمران وقال له: اهبط يا فضولي نفسك عليك أولى بذلك.

قال: ولقد سال الشيخ أبو عمران الشيخ أبا علي يومًا عن بعض ما يتعلق بذكره، فأخبره بما ظهر له من ذلك. قال الشيخ أبو القاسم: فكنت معهما فأخذ الشيخ أبو عمران بشعر رأس الشيخ أبي علي يجره، ثم طفق يضرب على ظهره ويقول له: يا قليل النجابة، أين قلبك يا قليل الفلاح كم هذا التواني والشيخ أبو علي لا يزيد على تقبيل يد الشيخ أبي عمران وقدميه، فلما فرغ من ضربه قال له: اخرج عني، قال الشيخ أبو علي: فما زلت أحس الدفع في ظهري حتى إذا وصلت إلى بلنسية، وجدت نفسي تميل إلى الرجوع، وذهب عني ذلك الدفع، فعلمت أن الشيخ أبا عمران قد أقبل علي. قال الشيخ أبو القاسم، ولما قال الشيخ أبو عمران للشيخ أبي علي ما قال: وأخرجه عنه، قال لي: يا أبا القاسم، إن الشيخ أبا علي ليس اليوم من أصحابه من شق له غبارا، ولكني أطلبه بوظائف الأولياء والأخيار، قال الشيخ أبو علي: ولما وردت من بلنسية على الشيخ بمالقة لازمته، مقتبسا من أنواره، مهتديا بآثاره.

قال الشيخ أبو القاسم: ولما تمكن الشيخ أبو علي ولاحت عليه دلائل الولاية، رغب من الشيخ أبي عمران أن يلازم معه الخلوة ليخلص فيها ما بقي عليه من تصفية لنفسه، قال: فلازم الشيخ معه الخلوة وصار لا ينام ولا يأكل ولا يتحرك إلا بإذن منه،

إلى أن مد يده ليأخذ شيئًا يأكله من غير إذن، فأمره بالخروج من الخلوة كما تقدم، وبقي على حاله من الاجتهاد، فلما كان يوم من الأيام رفع الشيخ أبو عمران رأسه من على ركبتيه وهو متوجه للذكر وأبو علي معه، فالتفت إلى الشيخ أبي علي ودعاه فقال له: مر ينتفع بك فأشعره أنه قد تخلص من نفسه، فسافر أبو علي من مالقة إلى بر العدوة ثم عاد إلى الأندلس، فمات بالجزيرة الخضراء. رحمة الله عليه.

أخبرني بعض من رآه وجالسه وأكل معه قال: كان الشيخ أبو علي أشقر الشعر رجله، ربعة، أكثر لباسه جبة صوف ومئزر في رأسه، وبلغات في رجليه، وكان كبير الشأن، حسن الانقطاع إلى الله تعالى فرارا من الشهرة، متباعدا عن الناس، طويل الصمت، حسن السمت، جميل الهدى، راسخ اليقين، صاحب كرامات وأحوال. رحمة الله عليه.

٤- وأما **الشيخ أبو عمران** ﷺ فهو موسى البردعي من أهل فاس، من أعيانها، وأهل التمتع والدعة بها، وكان يتيما في حجر عمه، وكان عمه أمين سوق قيسارية فاس، فكان معتنيًا بابن أخيه، يكسوه رفيع الثياب ويطعمه طيب الطعام، فكان عمه لحبه فيه يجري له أحواله بأعظم ما يمكنه من المآكل والملابس. قال الشيخ أبو عمران: ولم يكن لي هم إلا في الملابس الحسنة، والمآكل الطيبة، ودخول الحمام، وتزيين جمتي بالحناء ونحوها. قال: فلما قذف الله تعالى التوبة في قلبي سألت عن أعظم أهل فاس دينا وعلما لأتوب على يديه، فدللت على سيدي أبي عبد الله التاودي ﷺ، فتوجهت إليه وتطارحت عليه، فنظر إلي وإلى أغلب عللي على، فقال لي: إن كنت صادقا في توبتك. فافعل ما آمرك به. فقلت له ياسيدي، وما ذاك فقال لي: اذهب إلى الحجام واحلق رأسك، واخلع تلك الأثواب من عليك، ثم البس عوضا منها جلابية ثم خذ خبزة واذهب بها إلى المكان الذي كنت تعظم فيه، فقف هناك، وقل من يفدي هذه لله؟ قال الشيخ أبو عمران، فأوقع الله محبته في قلبي، واستحليت طاعته، وفي الحين بادرت فحلقت رأسي وخلعت أثوابي، ولبست جلابية، وأخذت خبزة وسرت بها إلى أمام حانوت عمي بالقيسارية، فوقفت بها وناديت: من يفدي لي هذه لله فصاح الناس، وارتج السوق، وكان ذلك أعظم الأيام محنة على عمي، وأكثر الناس يرمونني بالحمق، فيأسفون علي، وأنا مسترسل في

أمري، أقول: من يفدي لي هذه لله؟ عملا بطاعة الشيخ، فللذي لحق من الشفقة علي، أعطيت ثمن الخبزة، فجئت بذلك الشيخ وحططته بين يديه فقال لي: أحسنت، فأقبل علي، ووظف علي أورادا، ورتب لي أحوالي، وألزمني من الأعمال ومن الأذكار ما يناسبني، فبقيت معه ملازما طاعته، مقتبسًا من أنواره، مهتديا بآثاره حتى فتح الله لي وانجلت مرآة بصيرتي، وقطعت المقامات، وأشرقت لدي أنوار مراتب التوحيد.

حدثني بعض من أثق به قال: لما نفذ الشيخ أبو عمران في طريق القوم على يد شيخه أبي عبد الله التاودي، اشتهر حاله وأقبل عليه الخلق، ففر بنفسه، فخرج من فاس بعد أن مات شيخه، فجاز إلى إشبيلية، فأقام بها ما شاء الله، ثم، للذي رآه بها من المنكر، انتقل إلى قطليانة، فبقي راتبا في مسجدها الجامع، متوجها إلى الله ﷻ وتعلق به إمامها، فبقي على ذلك نحو ثمانية أعوام، ثم قدم على مالقة، وفي أثر قدومه على مالقة، أخذ الروم إشبيلية.

حدثني أبي قال: حدثني الشيخ أبو القاسم قال: كان الشيخ أبو عمران رجلا ربعة إلى الأدمة، أكثر لباسه برنس وقبطية وبلغات في رجليه، من رآه يظنه تاجرا أو نحوه، وكان فقيها شديد المحافظة على متابعة السنة، شديد الغيرة على طريق القوم، مستخفيًا بنفسه، إماما في الزهد، صموتا، وقورا، مهيبا، لا يفتر عن ذكر، حسن الفراسة مليح الإشارة، إذا رأيته قلت: هذا رجل من كبار السلف، وله بعض تقييد في هذا الطريق.

قال الشيخ أبو القاسم: وكنت أيام إقامته بمالقة أتفقد أحوال مأكله، فأتفقده في أوقات ضروراته. قال: وكنت حينئذ أشتري العطر إلى أجل، فلما علم الشيخ أبو عمران بذلك، صار لا يأكل طعامي، وربما كانت الفاقة تبلغ به الجهد، فلا أجد إليه سبيلا، قال: وكان رجل من أصحابي له زوجة أو بنت مريضة بحال زمانة فللذي كنت أجد من الشفقة على الشيخ أبي عمران وتقطيع أكبادي من فاقته، قلت لصاحبي: إن أردت أن يستريح مريضك، فاعمل على ما أقول لك، واكتم عني، فقال لي: وما ذاك قلت له: اصنع طعاما ثم اذهب إلى ذلك الرجل الذي من نعته وصفته في السارية الفلانية متوجها في المسجد الجامع، فادعه إلى طعامك، وإن أبى عليك،

فأقسم عليه، فإذا أكل فاستوهب منه الدعاء لمريضك، فإنه يبرأ بفضل الله.

قال: ففعل الرجل ما ذكرته له، فلما هيأ الطعام وسار إلى الشيخ أبي عمران، وجده متوجها في المسجد الجامع، فدعاه، فأبى عليه، فألح عليه، فقال له: اجلس بخلال ما أفرغ، فلما فرغ من توجهه قال له: باسم الله، وأين الواسطة لا بدّ من استحضار الدلال، اذهب فادع أبا القاسم، قال: فجاءني الرجل فأخبرني الخبر، فأخذني من الخجل ما لا يعلمه إلا الله، ثم سرت معه، فلما دخلنا المنزل، وقدم الطعام، مد الشيخ أبو عمران يده بلقمة واحدة، ثم رفع يده والتفت إلي وقال لي: يا أبا القاسم، أتبيع الدين بالتين ثم قال لصاحب المنزل أسال الله الخير والخيرة لك ولمريضك، ثم انفصل، قال الشيخ أبو القاسم: فجعلت أعتذر له فقال لي: إياك أن تعود لمثلها، وإن كنت إنما حملك على ما صنعت الشفقة، فنحن بعين الله.

وحدثني أبي قال: حدثني الشيخ أبو القاسم قال: اشتدت بالشيخ أبي عمران الفاقة في المدة التي كنت فيها مدينا، فكان لا يأكل من طعامي، قال: فقال لي الشيخ أبو علي: يا أبا القاسم: هذا مئزري، بعه واصنع به طعاما لتدعو الشيخ، فيأكل منه. قال: ففعلت، وقلت في نفسي: إنه لرجل زاهد، لعله لا يأكل من الطعام إلا أدونه، فعمدت إلى دقيق مخزني فاشتريت منه ومن تقشيش التين، وصنعت من ذلك طعاما في منزلي، ثم أعلمت الشيخ أبا علي، فجاء هو والشيخ أبو عمران، فلما دخلا وقدمت ذلك الطعام بين يديهما، ورفعت المنديل عنه، صعد من أبخرته ما تنكره الطباع. قال: فسمعت الشيخ أبا علي يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم خرج وأشار إلي، فجئته. فجرد سرواله وقال لي: اشتر بثمنه، خبز درمك وعسلا، قال: ففعلت فلما قربته بين أيديهما أكلا منه، ثم قال لي الشيخ أبو عمران: يا أبا القاسم، كان رسول الله ﷺ إذا أكل أدون الطعام، انقلب ببركة باطنه صالحا شريفا، ونحن قوم سفننا أبداننا إن نحن أصلحنا شأنها جملتنا، وإلا تخلفت، فهلكنا، فنحن نلفق أبدا، فإذا أكلنا طعاما طيبا كان قليل الفضلة قليل الريح فاستدمنا به الطهارة، ولم نحتج إلى حمل مؤونة فضلاته، ثم قال: عود كل بدن ما اعتاد.

كان الشيخ أبو عمران واحدا من الأبدال عديم القرين، أقام بمالقة نحو ستة أعوام، ثم توجه إلى بر العدوة، فلم يعد إلى أن مات. ذكر لي بعض أصحابنا

بفاس، قال: مات الشيخ أبو عمران بسبتة، وقبره بها معروف، رزقنا الله من بركاته وأفاض عينا من خيراته بمنه وكرمه.

٥- وأما الشيخ **أبو عبد الله التاودي** ﷺ، فهو محمد بن يعلى المعلم، ويعرف بالخياط كان أندلسي الأصل، وقيل بل كان من تاودة، من أعمال فاس، كان من الأفراد المشهورين في العلم والدين، قيل إنه كان في المتأخر من عمره يعلم الصبيان القرآن بفاس فيأخذ الأجر من الأغنياء. فيرده على الفقراء، ويغسل أثواب ضعفاء الصبيان ويخيطها لهم، ويرقعها بيده، ولا يأخذ على ذلك كله أجرا، وكان كثير البذل والمعروف، شهير الكرامات، حسن الإشارات، جميل المقاصد كبير الشأن، متين العلم، صادق اللهجة، طلق الوجه، له أحوال تنبئ عن رفيع مقامه، وتمكين معرفته بالله تعالى.

روي أن رجلا من فضلاء أهل فاس كان له عرس، فدعا فضلاء أهل فاس إليه فقيل له في النوم ليلة يوم العرس: إن شمس هذه البلدة يحضر غدا عرسك قال: فلما أصبح جعل الناس يأتون العرس، وصاحب العرس يقول في نفسه: ليت شعري من الذي هو شمس هذه البلدة، فبينما هو يفكر في ذلك إذ دخل أبو عبد الله التاودي، فقال لصاحب العرس: فيماذا أنت تفكر أنا شمس هذه البلدة.

يذكر أن رجلين قصدا زيارته، فلما دخلا منزله وجدا به هرين راقدين رأس كل واحد منهما على صاحبه، فقالا له: يا سيدنا، هكذا ينبغي أن تكون الأخوة والمودة بين المسلمين. قال: فلما قدم لهما طعاما رمى منه إلى الهرين، فوثب كل واحد منهما على صاحبه، ثم قال لهما: كانت الأخوة صادقة لولا الدنيا التي أفسدتها.

قيل: جاء أبو عبد الله التاودي إلى منزله ليأخذ شيئا، فوجد الهر نائما على ذلك الشيء، فكره أن يوقظه، فتركه وانصرف.

وكان يومًا مع أصحابه بخارج فاس، فمشى ساعة، ثم رمى من تحته أرنبا وقال لها: اذهبي حيث شئت فقد أمنت، ثم قال لأصحابه: إن كلاب الصيادين ألجأتها إلينا، فسترتها بثوبي إلى أن بعدت عن الصيادين.

وقد روي أن رجلا محتالا جاءه يومًا فقال له: رأيت البارحة النبي ﷺ في المنام فقال لي: اذهب إلى أبي عبد الله التاودي وأمره ليدفع لك أثوابه. فقال له الشيخ أبو

عبد الله: اتبعني، فتبعه حتى إذا دخل منزله خلع أثوابه ودفعها لذلك المحتال، وبقي عريانا وكراماته أكثر من أن تحصى.

كان له في طريق القوم قدم راسخة، وحال كريم، ومذاق شريف، وكان يقول إذا ذكر الله الشيخ أبو يعزى، هو رجل صوَّام قوام تواب، لكنه لم يشم لطريقنا غبارا، وكان الشيخ أبو يعزى يشهد له بالفضل والتقدم، ويطلق لسانه ثناء عليه. أخذ عن شيخه أبي الحسن بن حرزهم، فنفذ وقطع المقامات، كان شيخه أبو الحسن بن حرزهم يقول: إن أبا عبد الله التاودي قطع مقامات أبي يزيد البسطامي كلها في أربعين يومًا. توفي بفاس، ودفن بها سنة ثمانين وخمسمائة، وقبره بها معروف مشهور يستشفى به الناس ويتوسلون فتقضى حاجاتهم.

٦- وأما الشيخ **أبو الحسن بن حرزهم**، فهو علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، كذا ذكره صاحب التشوف، ورايته بخط بعض أهل العناية بالضبط والتصحيح: ابن حرازم، والأول عندي أصوب. من أهل مدينة فاس، كان عالما، فقيها، محدثا، حافظا، مدرسا زاهدا في الدنيا، سالكا في طريق القوم سبيل أهل التحقيق، له مشاركة في العلوم الشرعية، لكنه أميل للعلوم الباطنية، أحكم كتاب إحياء علوم الدين، وضبط مسائله، فكان يستحسنه ويثني عليه.

لما مات والده ترك مالا عريضا، فلما قام إلى ورده من الليل وجد في باطنه شغلا بخطه من التركة فلما أصبح وجه عن أخيه فقال له: أحضر الشهود لأتصدق بحظي من تركة أبينا عليك، قال: فأبى عليه أخوه في ذلك، فعزم عليه وقال: لئن لم تفعل، لأتصدقن به على الجذمى، فجاء بالشهود، فتصدق بحظه من متروك والده على أخيه، وخرج عن الدنيا وأسبابها، وتجرد للعبادة والزهد.

ورد عليه الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن بفاس، فصار يتردد إلى مجلسه في طلب العلم وإلى مجلس غيره، قال أبو مدين: فكنت كل ما سمعته، من الشيخ أبي الحسن يعلق بقلبي فأنتفع به، وما أسمعه من غيره، لا يعلق بقلبي فذكرت ذلك للشيخ، فقال: إن الكلام إذا خرج عن صدق من القلب صادف القلب فانتفع به.

قال: ولازمته فانتفعت به ذكر أنه دعا لبعض أصحابه بالعفو والعافية ثم قال له: رأيت رب العزة في النوم فقال لي: ما حاجتك فقلت: أسالك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، فقال لي: قد فعلت، ثم قال: فما أبالي بشيء يتقى، فإن رب العزة قد أمنني، ولذلك دعوت لك بهذا الدعاء قال المدعو له: والله ما نالني قط مكروه بعد ذلك الدعاء، بحمد الله ولقد وجدت بركة دعاء الشيخ لي بذلك الدعاء. رحل إلى مراكش، فدرس بها العلم، وتوب بها ناسا وزهد أميرها في الدنيا، وكثر أتباعه وتلاميذه، وأخذ عنه ناس هذا الطريق ففتح لهم، من جملتهم الشيخ أبو مدين الشهير التربية بأحواز تلمسان، سلك على يديه مع أبي عبد الله التاودي، فنجبا ونفذا، وكانا أخوين في طريق شيخهما إمامين فاضلين عارفين، ولأبي مدين في طريق القوم تواليف وتقييدات، وله حكايات وكرامات، وهو حسنة من حسنات الشيخ أبي الحسن بن حرزهم. له أشياخ عدة، لكن اعتماده في طريق التربية والعلم على عمه أبي محمد، وشيخه أبي بكر بن العربي.

نعيت للشيخ أبي الحسن نفسه، فكان يقول: لن أصوم شهر رمضان الآتي، قال: فلما كان بعض الأيام، قصد صاحبا له، فقال له: قدم لي طعاما آكله، فإن طعامك حلال، فقدم له خبزا ولبنا، فأكل ثم خرج، فدخل الحمام وقال لخدمة الحمام: لم يبق لكم من خدمتي إلا هذا اليوم، قال: فلما خرج من الحمام، أتى منزله فنام على فراشه مستلقيا، فلما حان وقت صلاة العصر أتاه بعض تلامذته ليوقظه للصلاة، فوجده ميتا، فدفن بفاس رحمة الله عليه، وقبره معلوم بها، اتخذه أهل فاس مزارا يتبركون به ويستنجحون. توفي في أخريات شعبان سنة تسع وخمسين وخمسمائة. رحمة الله عليه.

٧- **وأما عمه أبو محمد بن حرزهم**، فهو صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم من أهل فاس، كان رجلا عالما، عاملا زاهدا ورعا متجردا، له رحلة إلى المشرق وانقطاع بالشام، كان معاصرا لأبي حامد الغزالي، وبالمشرق، لقي شيخه وجيه الدين فأخذ عنه، وسلك على يديه، فنفذ وقطع المقامات، ولما زار بيت المقدس عدل إلى قرية على قرب من بيت المقدس، فالتزم الإمامة بأهلها، وبها لقي أبا حامد الغزالي.

يذكر أن أبا حامد دخل مع ناس من أصحابه مسجد تلك القرية التي كان الشيخ أبو محمد يؤم بها، فنزلوا فيه، وكان بالمسجد عريشة عنب قد أطل فيها الحصرم، فقال أصحاب أبي حامد: اشتهينا حصرمية فهل نأخذ من حصرم هذه العريشة فقال لهم: سلوا إمام المسجد، حتى تعلموا لمن الحصرم، فسألوا أبا محمد صالحا عن العريشة فقال: لا علم لي، وإن لي هنا أعواما لم أتعرض لعنبها، فلم أدر لمن هو، فقال أبو حامد لأصحابه: هذا المغربي له أعوام هنا لم يعبأ بالعريش ولا بالعنب، وأنتم من ساعة واحدة لم تملكوا أنفسكم عنه.

وبعد ذلك عاد أبو محمد إلى فاس، فنشر بها طريقه، وهدى بها خلقا كثيرا، فكان ممن نجب فيه على يديه، أبو الحسن علي ابن أخيه إسماعيل، وبفاس أقام حتى توفي بها رحمة الله عليه.

ووقع عندي بعض إشكال في أخذه عن وجيه الدين أو عن ابن أخيه ضياء الدين أبي النجيب عبد القاهر، والأقوى عندي أنه إنما أخذ عن وجيه الدين، لقرائن قامت عندي مقام التحقيق، لكني أبرأ من عهدته، وبالله التوفيق.

٨- **وأما الشيخ وجيه الدين**، فهو عمر بن محمد بن عمويه أبو حفص السهروردي القرشي البكري التيمي، وليس بأبي حفص عمر بن محمد شهاب الدين صاحب عوارف المعارف، إنما هو عم عمه ضياء الدين أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله المذكور شيخ الشيوخ، إمام التربية، أخذ عن عمه وجيه الدين، وعلى يديه سلك شهاب الدين صاحب العوارف الواعظ.

أخذ عن عمه ضياء الدين أبي النجيب المذكور، وعلى يديه سلك وبه رقي، كان الشيخ وجيه الدين إماما في طريق القوم قدوة ربانيا أخذ عنه ناس من أهل الشام وغيرها، وانتشر أصحابه في الآفاق، أرسخهم قدما في طريقه الشيخ أبو محمد صالح ابن حرزهم، وابن أخيه ضياء الدين عبد القاهر أبو النجيب، بلده سهرورد، وله رحل عدة إلى الشام والحجاز، كان إمام وقته ووحيد عصره، له كرامات آثار وأخبار وأحوال، وله في طريق التربية قدم راسخة ومقام عال رزقنا الله من بركاته ولا عدل بنا عن اتباعه بفضله

٩- **وأما والده، فهو محمد بن عمويه**، واسمه عبد الله التيمي القرشي البكري، كان إماما فاضلا صوفيا محققا، لقي ناسا من شيوخ السلف الأبدال وأدب بآداب أهل المعرفة، وتخلق بخلق أهل الولاية. كان من فضلاء سهرورد وعظمائها علما وعملا، له آثار وكرامات وأحوال. أخذ عنه ابنه عمر وجيه الدين وتأدب بآدابه، فكان من حاله في طريق القوم ما اشتهر عنه واستفاض بسمرقند، رحمة الله عليه ورضوانه.

١٠- **وأما أبو العباس الدينوري**، فهو أحمد بن محمد أبو العباس الدينوري إمام وقته في طريق التربية، وله مقام في الأذواق، صحب ناسا فضلاء أولياء، لكن إنما اعتمد في سلوكه على شيخه أبي محمد الجريري، لازمه وتأدب بآدابه، وتخلق بأخلاقه وسلك على يديه، حتى قطع المقامات ونفذ في المنازل، فتصدر إمام وقته وشيخ عصره، له سياحات ورحل: فليست جهة إلا وله فيها أصحاب وتلاميذ، ورد نيسابور، فكان له بها ميعاد يتكلم فيه للناس ويهديهم، وكان أكثر كلامه على لسان أهل المعرفة، ثم انفصل عنها وقد ترك بها مشايخ هداة منتمين إليه، وورد على سمرقند، فأقام بها وأرشد فيها خلقا كثيرًا، ونجب على يديه رجال منهم أبو عبد الله محمد بن عمويه السهروردي تعلق به وسلك على يديه، وأخذ عنه واهتدى بأنواره.

كان أبو العباس الدينوري يقول: «أدنى الذكر أن ينسى ما دونه، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في المذكور عن الذكر» وكان يقول: «لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن، وذكر له يومًا بعض من تشبه بالقوم وليسوا منهم، فقال: «هم قوم نقضوا أركان التصوف، وهدموا سبيلها، وغيروا معانيها بأسامي أحدثوها، سموا الطمع زيادة، وسوء الأدب إخلاصا والخروج عن الحق شطحا، والتلذذ بالمذموم طيبة، واتباع الهوى ابتلاء والرجوع إلى الدنيا وصولا وسوء الخلق صولة، والبخل جلادة، والسؤال عملا، وبذاءة اللسان ملامة ثم قال: وما هذا كان طريق القوم» توفي بسمرقند بعد الأربعين وثلاثمائة، رحمة الله عليه ورضوانه.

١١- **وأما أبو محمد الجريري** ﷺ، فهو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو محمد من كبار أصحاب الجنيد لازمه وسلك على يديه، واهتدى بهديه واستضاء بأنواره، حتى نفذ في طريق القوم، ورسخ قدمه فيه، وكان الجنيد يحبه ويثني عليه، لما مات الجنيد أقعده أصحابه مكانه، وكان من كبار العلماء ومن رؤساء أهل المعرفة، كان

له اتساع في علم الباطن، كبير الحال شهير الكرامات.

كان يقول: من استولت عليه النفس، صار أسيرا في حكم الشهوات محصورا في سجن الهوى، وحرم الله تعالى على قلبه الفوائد، فلا يستلذ بكلام الحق ولا يستحليه، وإن كثر ترداده على لسانه لقوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وكان كثيرا ما يقول: رؤية الأصول باستعمال الفروع، وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول هو الحق ولا سبيل إلى مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظم الله من الوسائط والفروع. مات رحمة الله عليه سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. قال بعضهم: جزت عليه بعد سنة من موته، فإذا هو مستند جالس وركبتاه إلى صدره، وهو يشير بأصبعه إلى توحيد الله تعالى.

١٢- **وأما الجنيد**، فهو الجنيد بن محمد، أبو القاسم القواريري نهاوندي الأصل مولده ومنشؤه بالعراق، كان والده يبيع الزجاج، فنسب إلى القوارير، كان فقيها على مذهب أبي ثور، لازم خاله سريًا السقطي،، وأخذ عنه وعن الحارث المحاسبي، وعن غيرهما، لكن عمدة أمره في هذا الطريق إنما هو خاله رضي الله عنه. له في بدايته مجاهدات عظيمة ومكابدات شاقة.

كان كثيرًا ما يقول: ليس هذا العلم عن قيل وقال، إنما هو عن الجوع وترك الدنيا، وترك المألوفات والمستحسنات، وكان يقول: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، وكان يقول: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن طريقنا مقيدة بالكتاب والسنة.

كان له مجلس ميعاد يتكلم فيه للناس بالعلوم الظاهرة والباطنة لكنه كان أبدًا يميل إلى علم الباطن الذي هو لباب العلم، فاستفاد به ناس، ونفذ على يديه رجال، واهتدى بهديه خلق كثير، حتى صار أصحابه أعلاما في جميع الآفاق، فهو إمام في هذا الطريق، وإليه يرجع في مسائل التحقيق.

قيل له يومًا ممن استفدت هذا العلم فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأما إلى درجة من داره.

قال بعضهم: كنت عند الجنيد حين مات، ختم القرآن ثم ابتدأ سورة البقرة،

وقرأ سبعين آية ثم مات، وذلك في سنة سبع وتسعين ومائتين.

١٣- **وأما خاله سري** فهو سري بن المغلس أبو الحسن السقطي، وحيد عصره في الورع والأحوال وأسرار التوحيد، كان في بداية أمره تاجرا، وكان من معارف معروف الكرخي. قال: «فوجه إلي لمعروف يومًا يتيما لأكسوه فكسوته، ففرح بذلك معروف وقال لي: بغضك الله في الدنيا وأراحك مما أنت فيه. قال سري: فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إلي من الدنيا، فكلما أنا فيه إنما هو من بركات معروف».

قال أبو القاسم الجنيد: «ما رأيت أحدًا أعبد من خالي سري، أتت عليه ثمان وتسعون حجة ما رؤي فيها مضطجعًا إلا في علة الموت».

كان يقول: «التصوف اسم لثلاثة معان: الأول أن لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، الثاني: أن لا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، والثالث: أن لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله».

قال الجنيد: «سألني خالي سري يومًا عن المحبة فقلت له: قال قوم: هي المراقبة وقال آخرون: هي الإيثار، وقال بعضهم: هي كذا، فأخذ سري بيده جلدة ذراع نفسه ومدها فلم تمتد ثم قال: وعزته، إن قلت إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت، ثم غشي عليه، فدار وجهه كأنه قمر مشرق ».

قال سري: أنا منذ ثلاثين سنة في الاستغفار عن قولي: الحمد لله مرة، قيل له: وكيف ذلك فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني بعض الناس وقال لي: «نجى الله حانوتك، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ذلك، حيث أردت لنفسي خيرا مما للمسلمين».

وأحوال سري عظيمة وكراماته جليلة ومآثره حسنة، كان إماما في علم التوحيد حسن الإشارة إليه، أخذ عنه خلق كثير، وسلك على يديه ناس فانتفعوا، وانتفع بهم، من أعظمهم حال، وأجلهم مقامًا، ابن اخته ابو القاسم الجنيد كان طوالا إلى الأدمة توفي سنة سبع وخمسين ومائتين رحمة الله عليه.

١٤- **وأما معروف** فهو معروف بين فيروز، أبو محفوظ الكرخي، كان من كبار مشايخ هذا الطريق، جليل القدر رفيع الشأن، مجاب الدعوة. كان أبواه نصرانيين،

فسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل: ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد. فضربه المعلم يومًا ضربًا وجيعًا، فهرب معروف، فكان أبواه يقولان: ليت معروفا رجع إلينا على أي دين، فنوافقه، فأسلم معروف على يدي علي بن موسى الرضا، وأقام معه مهتديا بهديه، سالكا على منهاجه، متأدبا بآدابه، حتى فاضت عليه أنوار الطريق، ولاحت في باطنه شمس التحقيق، ثم رجع إلى منزله، فدق الباب فقيل له: من بالباب فقال: معروف، قالوا: على أي دين قال على الدين الحنفي، فأسلم أبواه، وكان الغالب عليه الزهد والانقطاع، له إشارات وكرامات وأحوال، اتصل به ناس فاقتبسوا من أنواره، وسعوا على آثاره، فنجبوا وانتفعوا وانتفع بهم، كان سري إماما فيهم وعلما.

قال يومًا السري: «إذا كانت لك إلى الله حاجة، فاقسم عليه بي تقض حاجتك» قيل له في مرضه الذي مات فيه: أوص، فقال إذا مت فتصدقوا بقميصي، فإني أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا.

مات سنة إحدى ومائتين، وقيل سنة مائتين، قبره ببغداد معروف عند أهل بغداد، يستشفعون يتبركون ويتوسلون بقبره، يقول البغداديون: «قبر معروف ترياق مجرب».

١٥- **وأما علي بن موسى**، فهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان كبير الشأن، رفيع المقام، له أحوال وكرامات، وكان إماما في طريق التربية، أخذ عنه ناس، فانتفعوا به وظهرت بركته عليهم وأخذ عن والده موسى بن جعفر فنفذ في طريق القوم، أسلم معروف الكرخي على يديه، فصار مولاه. لازمه وانتفع منه، وظهرت بركته عليه، وإن كان معروف قد لقي ناسا وأخذ عنهم، لكنه إنما اعتمد على مولاه علي بن موسى الرضا رضي الله عن جميعهم.

١٦- **وأما الحسين** بن علي بن أبي طالب ﵄ كان من أهل هذا الشأن، له قدم في علم الباطن وأسرار التوحيد ولطائف التحقيق. احتوى من علم الشريعة على ما لم يحتو عليه غيره، وبرز في الدين والعلم، فكان نورا يهتدى به، ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع، وقيل: سنة ثلاث، كان كبير الشأن، عظيم المقام، شهير الولاية، رفيع الأحوال: فاضلًا دينًا، كثير الصوم والصلاة والحج، كان رسول الله ﷺ يحبه.

قال أبو هريرة: أبصرت عيناي هاتان، وسمعت أذناي رسول الله ﷺ، وهو آخذ بكفي الحسين ﵁، وقدماه على قدمي رسول الله ﷺ وهو يقول: «**ترقه عين بقة**». قال: فرقى الحسين حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ﷺ ثم قال له رسول الله ﷺ: «**افتح فاك**»، ثم قبله، ثم قال: «**اللهم أحبه، فإني أحبه**» مات شهيدا يوم الجمعة لعشر خلت من المحرم سنة إحدى وستين.

١٧- **وأما والده علي** ﵁، فهو **علي بن أبي طالب** واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، بن كلاب القرشي الهاشمي، أبو الحسن، صهر رسول الله ﷺ وابن عمه ووارث العلم والحكمة عنه.

قال ابن عباس ﵄: لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره، هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان لواءه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر عنه، وهو الذي غسله وأدخله قبره.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «**أنت ولي كل مؤمن بعدي**»[(١)].

وفضائله وكراماته وحكمه أكثر من أن تحصى، ويكفي في ذلك قول النبي ﷺ له: «**أنت مني كهارون من موسى**»[(٢)]، وفي رواية: «**أنت أخي وصاحبي**»[(٣)]، روي أن النبي ﷺ، بعث يوم الاثنين، فصلى معه علي يوم الثلاثاء وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم لم يزل معه إلى أن توفي رسول الله ﷺ، فعاش بعد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان.

ثم توفي وهو خليفة وهو ابن ثلاث وستين سنة.

١٨- **وأما أبو بكر الصديق** ﵁، فاسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعيد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، أبو بكر الصديق التيمي

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٤٣/٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٩/٣رقم ٣٥٠٣)، ومسلم (١٨٧٠/٤، رقم ٢٤٠٤)، والترمذي (٦٤١/٥، رقم ٣٧٣١) وقال: حسن. وابن ماجه (٤٢/١، رقم ١١٥) الطيالسي (ص ٢٨، رقم ٢٠٥)، وأحمد (١٧٩/١، رقم ١٥٤٧).

(٣) رواه أحمد في المسند (٩٧/٥)، والنسائي في الكبرى (١٢٦/٥).

القرشي المكي، سمي عتيقا؛ لأن النبي ﷺ بشره أن الله قد أعتقه من النار، شهد بدرا، شهد له النبي ﷺ بالفضل على سائر الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، قدمه في التحقيق أرسخ الأقدام، له في هذه الملة الفضل الذي لا يجهله مسلم، جاءت الآثار عن النبي ﷺ مشيرة إلى قربه من النبي ﷺ واختصاصه به، ويكفيك من ذلك قوله ﷺ: «**إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر**» (١).

وجاء أن النبي ﷺ سئل فقيل له: أي الناس أحب إليك؟ قال: **عائشة**، قيل: من الرجال؟ قال: **أبوها**.

وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال لبعض أصحابه: «**من أصبح منكم اليوم صائما؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن اتبع منكم اليوم جنازة قال أبو بكر: أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكينا قال أبو بكر: أنا. قال: فمن عاد منكم اليوم مريضا قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**»(٢).

تولى خلافة رسول الله ﷺ بعده من لدن يوم الثلاثاء الغد من وفاة رسول الله ﷺ، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر، فبقي كذلك قائما بأمر الله ناصحا للأمة مجاهدا في الله حق جهاده، ناصرا دينه الحق، سالكا سبيل العدل، رافعا مواد الزيغ، حافظا عهد النبي ﷺ في أمته.

له قدم راسخ في التحقيق، ومقام عال في التوحيد، ومشرب صاف في المعرفة، أخذ عنه كثير من الصحابة فاهتدوا بهديه وورثوا عنه من أسرار حكمه، فهو إمام السالكين، ورأس المحققين، وقطب العارفين، إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة ودفن

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٦/٤، رقم ٢٣٨٣)، والترمذي (٦٠٦/٥، رقم ٣٦٥٥) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه(٣٦/١، رقم ٩٣)، والبزار (٤٢٠/٥، رقم ٢٠٥٣).

(٢) رواه مسلم (٤٧٦/١٥)

ليلا في روضة النبي ﷺ، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

فضائله أكثر من أن تحصى ومناقبه أعظم من أن تستقصى، ولما ورثه عمر في الخلافة، اراد أن يرثه في العمل، فجاء لزوجه، فسألها عن أعماله الأخروية فقالت: والله ما رأينا له من كبير عمل غير أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أوتر على ثلاث عشرة ركعة، ثم يجلس متوجها إلى القبلة، رأسه على ركبتيه يزفر زفرة بعد زفرة نشم منها رائحة كبده، ومن هذه الحالة يستروح ما كان عليه ﵁ من عمارة الباطن بالله تعالى وعظيم محبته إياه، وفضائل أبي بكر ﵁ أكثر وأعظم من أن تحصى، وأجل من أن تستقصى، وقد أتيت بالتعريف بمن أمكنني التعريف به من مشايخ هذا الطريق على سبيل الاختصار، ومن أمسكت عن التعريف به منهم، فذلك لتعذره علي، مع اشتهار جميعهم في هذه الملة، والإجماع عليهم علما وعملا وحالا، وإنما أتيت بذلك ليقف الناظر في هذا الكتاب عليه، فيقوى حرصه على هذا الطريق، وتعظم محبته فيه، لاستناده إلى هؤلاء الجلة الأعلام، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثاني
في أحكام المشيخة والتلمذة

اعلم رزقني الله وإياك حسن الأدب مع أوليائه، واتباعا صادقا لأصفيائه، أن الله ﷻ برأ عالم الإنسان ليعبدوه، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأرسل رسله هداة يهدون الخلق لعبادته ويدلونهم عليه، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] وجعل العلماء ورثة الأنبياء لتتصل دعوة الخلق إلى الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال رسول الله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»(١).

ثم بين تعالى ما خص به العلماء من رفيع الدرجات وشريف المقامات قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وأوضح تعالى ما ظفر به العلماء من حقائق التوحيد، قال الله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]. فجعل الله ﷻ لوارث الرسل هداية الخلق إليه مزية رفيعة على سائر الخلق، ثم أوجب على عباده رعي تلك المزية، والقيام بحقها، وقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ، قال: «**والذي نفسي بيده؛ لأن شئتم لأقسمن لكم أن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض**

---

(١) رواه أبو داود (٣/٣١٧، رقم ٣٦٤١)، والترمذي (٥/٤٨، رقم ٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل، ثم أورد له إسنادًا وقال هذا أصح، وابن ماجه (١/٨١، رقم ٢٢٣) وأحمد (٥/١٩٦، رقم ٢١٧٦٣)، وابن حبان (١/٢٨٩، رقم ٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٦٢، رقم ١٦٩٦).

بالنصيحة»[١].

وإذا تأملت هذه المرتبة العلية والمزية الرفيعة، فإنك لا تجدها بكاملها على ما ينبغي من شروطها إلا في مشايخ التربية الظافرين بالمعرفة بالله، الفائزين بولاية الله، المنقطعين إلى الله، الآخذين عن الله، القائمين بالأدب مع الله، الداعين إلى الله، الدالين عليه المقربين منه. فهم يسلكون بالعباد على طريق تزكية النفس، حتى يوصلوهم إلى حضرة معرفته.

ولا شك أن النفس إذا تزكت انجلت مرآتها، فتجلت فيها أنوار العظمة الإلهية، فلاحت لها أسرار حقائق التوحيد التي هي سبب إلى المعرفة بالله، فينال العبد بذلك خالص المحبة، ويظفر بغاية القرب. قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] قال بعضهم: فلاحها ظفرها بمعرفة الله تعالى، ولا شك أن خصال الجمال والكمال داخلة تحت نطاق المعرفة، ومثل القدوة العالم الرباني، كصاحب علم الكيمياء، كما أن الكيموي يأخذ الحديد والنحاس ونحوهما فيعالج ذلك بعلاجات حتى يذهب عنه الانحراف الذي أصابه، فأخرجه عن الاعتدال الذي يكون عنه الذهب الخالص، ثم لا يزال يدبر ذلك بسياسة الحكمة حتى تذهب علله ويتخلص ذهبا طيبًا عتيقًا.

كذلك الوارث الرباني، يعمد إلى من أحاطت به علله حتى أخرجته عن الاعتدال الذي تكون به المعرفة التامة، فيعالجه بعلاجاته حتى يذهب عنه ذلك الانحراف، ولا يزال يسوسه بسياسة الحكمة ووظائف الشرع، حتى تذهب علله ويتخلص عارفا محققا، فكما أن الكيموي يخلص الذهب من العلل الطارئة على المعادن.

كذلك الوارث الرباني يخلص العارف من العلل الطارئة على النفس، فمن كان بهذه المثابة جدير أن يعرف له حقه وأن يدرك رفيع شأنه، فتحفظ له حقوقه، ويجتهد في ضبط الأدب معه، وإذا تقرر هذا فيشترط في الشيخ الوارث شروط وترتب له حقوق.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٢٢/٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٧/٥).

* **أما شروطه التي تشترط فيه فأربعة:**

• **الأول**: أن يكون مخلصا من هواه، قد ملك زمام نفسه بالطهارة حتى صارت نورا يهتدى بها، وتتجلى الحقائق فيها حين خرجت عن أطوار الأهوية الجسمانية، حتى إنه إذا تكلم تكلم بالله، وإذا صمت صمت بالله، وإذا نظر نظر بالله، وإذا تحرك تحرك بالله، وإذا سكن سكن بالله، كما ورد في بعض الأحاديث عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ أنه قال: «إذا كان الغالب عل عبدي الاشتغال بي جعلت همه ولذته في ذكري، وإذا جعلت همه ولذته في ذكري أحبني وأحببته، ورفعت الحجاب بيني وبينه، فلا يسهو إذا سها الناس، أولائك كلامهم كلام الأنبياء، أولائك الأبطال حقا، أولائك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا، ذكرتهم، فصرفته بهم عنهم».

فإذا لم يكن القدوة بهذه المثابة من المعرفة بالله تعالى حتى صار على بينة من ربه، فهو ناقص، وربما ضل فأضل، واشتغاله بنفسه أولى له. نعم، قد يكون له أخا في الله متخذ للمناصحة من غير أن يسلم له زمام الأحكام.

• **الثاني**: أن يكون خلاصه من نفسه على يدي غيره، لا بنفسه، ومعنى ذلك أن يقطع المقامات، ويرقى في المنازل، على يدي وارث كامل حتى يتزكى من علله، والإنسان عاجز عن سياسة نفسه بنفسه لما جبل عليه من حبها وحسن الظن بها والميل مع هواها، فربما غاب عنه من علله ما لا يغيب عن غيره، ولذلك الإشارة بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**المؤمن مرآة المؤمن**»[1].

وقال بعضهم: «رحم الله من أهدى إلي عيوبي»، فإذا سلك على يدي وارث حتى تخلص من تبعات علل نفسه، وأجاد تصفيتها حتى اطمأنت بالله، فملك زمامها، وكانت فيه أهلية لهداية غيره فحينئذ يكون وارثا كاملا صالحا لهداية غيره وإلا كان نفعه مقصورا على نفسه.

• **الثالث**: أن يكون عنده من الكتاب والسنة ما يقيم به ما لا بدّ منه من الرسوم

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/٩٣، رقم ٢٣٩) وأبو داود (٤/٢٨٠، رقم ٤٩١٨)، والبيهقي (٨/١٦٧، رقم ١٦٤٥٨). والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١١٣، رقم ٧٦٤٥)، والديلمي (٤/١٨٤، رقم ٦٥٧١).

الشرعية، وما يبني عليه وظائف السلوك، وإذا انضاف ذلك إلى ما فتح الله به عليه من الحكمة في باطنه، فإنه يكون له من ذلك نور يمشي به في الناس، ويهديه إلى فهم أسرار الشريعة وحقائق العبادات، وإذا كان بهذه المثابة فليس من شروطه أن يكون فصيح اللسان، باصطلاحات أهل الرسوم، إذ يقذف الله في باطنه من أنوار اختصاصه وآثار حكمته ما تتجلى به له المعاني، حتى يعبر عنها بألفاظ مرتبة تقتضي الإشارة إلى بعض المعنى المراد، فيفهم عنه في ذلك ما يفيد ثلج اليقين حتى يهتدي إلى العمل بمقتضاه بسهولة ويسر.

حدثني أبي قال: كان الشيخ أبو القاسم المريدﷺ أميًّا لا يحفظ من القرآن إلا بعض سور المفصل، وكان من أصحابه العلماء والفقهاء، فربما تقع بينهم المسألة العلمية، فيتكلم فيها بما يعجزون عن الإتيان بمثله، حتى يرتفع عنهم الإشكال وتتضح عندهم بكلامه حقيقة تلك المسالة ثم قال لي: ولقد كنت أحضر مع أصحابنا فتقع بينهم المسألة فيتكلمون فيها بأشياء فأجد في باطني من حقائق تلك المسألة وأسرارها ما يقضي بغاية البيان، ويفيد ثلج اليقين، ثم تترادف على باطني فيها أوجه عدة كلها يكشف عن أسرارها، ولا يوجد مثلها في الكتاب، وما يمنعني أن أفوه بها إلا جهاد النفس على علة الظهور إذ ذاك، وذلك أن الباطن بقدر ما يداخله من أنوار المعرفة، تنجلي فيه أسرار الحقائق وحقائق الأسرار، فلا ينفث إلا عن الحقائق والأسرار.

• **الرابع**: أن يكون مديد الباع في مطالعة أسرار السنة شديد التصميم على المحافظة على أحكام الظاهر والباطن، حتى لا يظهر عليه إلا ما يوافق السنة ولم يخالف الشريعة، وما تضيق عليه العبارة فيه من أسرار التوحيد، رده إلى المألوف المعروف من أمور الشريعة بنسبة حسنة جامعة بينهما، حتى يكسو الحقائق ملابس الشرع، فيعبر بذلك عنه، فلا يهتك ستر الأدب، ولا يخرق حجاب حفظ الأسرار وليخاطب كل إنسان على قدر عقله وفهمه وإدراكه وتمكينه، فهذا من شيم الرباني العارف، قال النبي ﷺ: «**خاطبوا الناس على قدر عقولهم**»[(١)].

---

(١) رواه الديلمي (١/٣٩٨، رقم ١٦١١).

ولم يزل هذا مألوفا من الشرع، وقد بوب البخاري لذلك باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس فيقعوا في أشد منه، ثم أورد حديث عائشة في نقض الكعبة، وبوب أثر ذلك باب: من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا. ثم أورد حديث معاذ بن جبل في تحريم النار على من اعترف بالشهادتين صدقا من قلبه، وبهذا يظهر لك أن العلم على قسمين: علم العامة وهو العلم العام، وعلم الخاصة وهو العلم الخاص.

* **وأما الحقوق المرتبة للقدوة فأربعة:**

• **الأول:** المحافظة على توقيره وتعظيمه بالتزام الأدب معه في جميع الحركات والسكنات فلا يقطع عليه الكلام ولا يتكلم بحضرته إلا عن إذنه، ولا يتصرف في شيء إلا بأمره ومشورته، ولا يرفع صوته في محله، ولا يكثر الضحك ولا يسترسل في الكلام، وأن يتلمح إشارته فيعمل بحسبها، وقد قيل: «من الأدب مع القدوة أن لا يخاطبه إلا بالاستفهام كما فعل موسى مع الخضر عليه السلام حين استعطفه مستفهما في قوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: ٦٦]، ولم يقل له أريد أن أتبعك ولا قصدت اتباعك ونحو ذلك».

ومن الأدب أن لا يتقدم بين يديه إلا في مواضع مخصوصة منها المواضع التي تتقى، والخروج من المسجد والهبوط في الدرج، ونحو ذلك.

وقد روي عن أبي الدرداء قال: «كنت أمشي يومًا أمام أبي بكر الصديق فرآني رسول الله ﷺ فقال لي: أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة، ومن علم فضل القدوة هداه علمه إلى المحافظة على حسن الأدب معه فيما قل أو جل، وبالله التوفيق.

• **الثاني:** حسن الظن بالقدوة في القليل والكثير، والخطير والحقير، والحركات والسكنات، فيما علم أو جهل أو أشكل؛ لأن التلميذ من نقص نظر نفسه على يقين، من كمال نظر قدوته، على علم، فما تحقق التلميذ الحق فيه جرى عليه، وما أغمي عليه أو أشكل صرفه إلى حسن نظر القدوة وأسنده إلى حكمته، فليس كل الحكمة تظهر لجميع الناس، ولا أسرار الأحوال تبدو للكافة، فلينظر جميع ما يصدر عن القدوة بعين الكمال، ولا يراجعه في شيء، ولا يتهمه فيه، وقد قالوا: «من قال

لشيخه: لم فإنه لا يفلح» أي: لا يحصل على طائل من صحبته، ولما وقف موسى عليه السلام مع مجرد الظاهر فيما صدر عن الخضر، انقطع حبل مواصلتهما حتى قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أخي موسى، وددت أن لو صبر حتى يقص علينا من خبرهما**»[1]، ومن حسن الظن بالقدوة أن لا يؤثر عليه غيره فينظره بعين النقص عن مرتبة سواه، كما حدثني أبي قال: حدثني شيخي أبو القاسم المريد قال: جاء الشيخ أبو العباس القنجايري لمالقة أيام كون شيخي أبي عمران بها، فكان شيخي أبو عمران ذا خمول وتجريد وفقر وتستر، وكان الشيخ أبو العباس القنجايري ذا جاه ومال وشهرة، قال: فخطر ببالي أن القبول الذي وضع الله لأبي العباس القنجايري في الأرض لفضيلة زائدة على شيخي أبي عمران، قال: فما انفصل عني هذا الخاطر إلا وقد نبت في أحد شدقي نبت أفرط ألمه علي وسهَّرني، وعيل بوجعه صبري، قال: فلما كان مع السحر، غلبتني عيناي فرأيت طريقا أبيض كأنه الفضة في غاية الاعتدال والسهولة.

فنظرت فيه، فإذا الشيخ أبو العباس القنجايري يجيء على ذلك الطريق من إحدى ناحيتيه، وشيخي أبو عمران يجيء من الناحية الأخرى، كل واحد منهما يقابل الآخر قال: فقلت في نفسي: الآن أعرف من الفاضل منهما عند تلاقيهما، فالمتواضع منهما لصاحبه هو المفضول، قال: فلما التقيا صار أبو العباس القنجايري بين يدي شيخي أبي عمران كالصبي المتعلم والتلميذ المتبرك، ثم جعل يقبل يده.

قال الشيخ أبو القاسم: فقلت في نفسي وأنا نائم: لما رأيت ما رأيت من الشيخين، والله إن شيخي لأكبر شأنًا وأعظم خطرًا، وإني لاستغفر الله من تعظيم غيره عليه، قال: فاستيقظت وقد تفجر نبتي وامتلأ فمي قيحا، وزال ألمه، فمسحت ذلك القيح، فلما صليت الصبح، غدوت على الشيخ أبي عمران أزوره على عادتي، قال: فما هو إلا أن رآني تبسم، وقال لي: يا أبا القاسم، تفجر نبتك فقلت له: نعم يا

---

(١) رواه البخاري (٥٦/١، رقم ١٢٢)، ومسلم (١٨٤٧/٤، رقم ٢٣٨٠) وأحمد (١١٧/٥، رقم ٢١١٥٢)، والحميدي (١٨٢/١، رقم ٣٧١)، والترمذي (٣٠٩/٥، رقم ٣١٤٩)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن. والنسائي في الكبرى (٣٨٩/٦، رقم ١١٣٠٨)، وأبو عوانة (٤٣٠/٣، رقم ٥٥٩٠)، وابن حبان (١٠٤/١٤، رقم ٦٢٢٠).

سيدي وأنا أستغفر الله. فقال لي: ما يشك أحد أن الشيخ أبا العباس القنجايري رجل فاضل صالح، وإنما أطلعك الله على ما للفقراء على الأغنياء من الفضل، ومع هذا يا أبا القاسم، فلا تعد لمثل هذا من تفضيل بعض الناس على بعض فإن العواقب مستورة عنك، وما هي إلا ظنون تخطئ وتصيب.

• **الثالث:** التزام طاعته في كل مكروه ومحبوب بقوة عزم وطيب نفس ومسارعة، وليعلم التلميذ أن الذي يشق على نفسه من طاعة قدوته، في عاقبة أمره الخير والبركة، مع ما في ذلك من رياضة النفس على مخالفة الهوى، وما يدري لعل الشيخ قصد ذلك، قال بعضهم: «من استعصى شيخه في شيء لم ينتفع به »، فليمش على مرضاة قدوته في جميع ما يأمره به أو ينهاه عنه، بالنص أو بالمفهوم، ومن حسن الامتثال في ذلك أن يكون التلميذ أبدا متلمحًا أغراض قدوته وإرادته، فيعمل في ذلك بحسب مفهومه بملاحظة إشارته ومراعاة أغراضه، فمن حسن الطاعة القيام بها قبل الأمر بها.

• **الرابع:** أن لا يؤثر نفسه على قدوته بشيء من الحظوظ الدنيوية والأخروية بل يوثره على نفسه بجميع ذلك، أما الأخروية فمن عنده جاء أصلها، وأما الدنيوية، فهي في جنب ما ناله على يديه من أمر الآخرة شيء تافه ومن أثر نفسه على قدوته بشيء من الأشياء، ولو بحياة ساعة بعده، فقد بخسه حقه ولم يوف له واجبه، ومن توابع ذلك أن لا يكتم عنه شيئًا من أحواله الظاهرة والباطنة الأخروية والدنيوية، وإن كتمه شيئًا فقد خانه، وعماد هذه الشروط كلها وذروة سنامها أن يكون القصد في ذلك كله رضي الله ﷻ قصدا مجردا من جميع الشوائب والأوهام، وليعلم أن رضي الله تعالى في رضي قدوته، فليلتمسه ما استطاع.

فصل

وأما التلميذ فتشترط فيه شروط وتترتب له حقوق.

* **أما شروطه فأربعة:**

• **الأول:** التزام عهد القدوة في ربط النفس للوفاء بوظائف السلوك جهده ووسع طاقته، فهو وإن زلت به القدم يومًا ما، تذكر فرجع إلى مقتضى عهده، كأنه عقال

يعقل به نفسه عن السرح في الشهوات والاسترسال في الغفلات، والانهماك في المخالفات، ومن لا عهد له، لا تلمذة له.

فإن قلت: وما العهد الذي يدخل به مع القدوة

فالجواب: أنه يدخل معه على بيع نفسه من الله تعالى في طلب رضاه بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأن يكون مع قدوته في خلاصه من نفسه كالميت بين يدي غاسله، حتى يتخلص من هواه ويتطهر من علق دنياه.

• **الثاني:** أن يجعل دنياه تبعا لآخرته، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يترك، بصدق عزم، وقوة جد، وصحة قصد، وإخلاص يقين، ابتغاء مرضاة الله تعالى في طلب خلاصه من نفسه، وطمعا في الوصول إلى معرفة ربه، وقبيح لمن أراد الله وقصد المعرفة به أن يثني عنانه لغيره.

فإن قلت: هذا مما قد يصعب على أهل البداية قبل أن تدخل بشاشة اليقين قلوبهم.

فالجواب: أن المشار إليه بهذا الشرط إنما هو قوة العزم، الصادرة عن اليقظة المنبعثة عن التوفيق الاختصاصي، حذرا من التلاعب والتهاون، فحسب الداخل في طريق السلوك العزم الباعث على الدخول في المكروهات، والخروج عن المحبوبات، ثم بعد ذلك يقوم ويقعد حتى يستقيم عمود سلوكه ويتمكن رسوخه بطهارة نفسه، وذلك يدخل عليه شيئًا فشيئًا، وبالله التوفيق.

• **الثالث:** أن يحصل عنده العلم اليقيني بفرق ما بين قدره وقدر قدوته، وذلك أن التلميذ مورط في ظلم الهوى، غريق في بحار الشهوات، محتاج إلى منقذ ينقذه، ودليل يدله ويخلصه، وأما القدوة فقد تخلص من نفسه، وتمكن في تصفيتها، حتى طالع من أسرار الغيب ما أشعره أنه على بينة من ربه، وفرق ما بين من هو منتظم بالأحباب، وبين من هو طريح من وراء حجاب، فليضف كل كمال للقدوة، وكل نقص لنفسه.

وليعلم أنه مهما بقي عليه من نفسه مقدار خردلة، فإن وظائف التلمذة لازمة له وأحكام الحجر غالبة عليه، وقد رأيت كثيرا ممن لعب الشيطان به فهو آخذ بناصيته حين استفزه بتعظيم الناس وخدعه بقبولهم، فهو ناظر نفسه لذلك بعين الكمال مع نقصانه، وربما حسب أنه نافذ مع انتكاصه، وتخيل إليه أنه على شيء أوجب له

التعظيم، وما هو إلا يهوي بهواه في دركات المقت، قد حرم التلمذة فضلا عن ذوق المشيخة.

• **الرابع**: الاقتصار على قدوة واحدة، وهل الانقياد للقدوة إلا كالانقياد للطبيب، ولا شك أن العلاج إذا اختلف، والمعاناة إذا تباينت، أن الخلاص من العلل متعذر، ومن استند إلى قدوة، فهو القيم بالسياسة في تأديبه وتهذيبه، وهو أدرى بذلك من غيره مع أن القدوة الكامل ربما تعذر وجوده اليوم، فضلا عن أن يكون منهم عدد. فإذا عثر التلميذ على واحد، فليعلم أنه قد ظفر بمراده، فلا يبغ به بدلا.

ومهما مال عن قدوته بظاهره أو باطنه ولو لمحة، فإن ذلك وبال عليه ونقصان له، وإن صحبته لا تصفو له ولا يستعد باطنه لسراية حال القدوة، فإن التلميذ كلما أيقن بتفرد الشيخ بالمشيخة، عرف فضله وقويت محبته، والمحبة هي الواسطة بين القدوة والتلميذ. فعلى قدر حسن ظنه به تكون محبته، وعلى قدر محبته تكون سراية حال الشيخ عنده، فالمحبة علامة التعارف الجنسي الداعي إلى التآلف المعنوي والحسي، وبالله التوفيق.

*** وأما الحقوق المرتبة له فأربعة**

• **الأول**: أن لا يتعرض له القدوة أولًا باستجلاب واستئلاف، وحسن كلام، حتى إذا رأى أن الله ﷻ بعث إليه التلميذ مسترشدا بحسن ظن وصدق إرادة، ضم عليه جناح التعليم والإشفاق والنصيحة بكل شيء ينفعه في رضاء ربه، وكل تلميذ مسترشد ساقه الله إلى قدوة، فليراجع القدوة النظر في معناه، وليكثر اللجوء إلى الله تعالى أن يتولاه فيه وفي القول معه بحسن هداية وجميل سياسة، ثم لا يتكلم مع التلميذ إلا وقلبه ناظر إلى الله تعالى، مستعين به على الهداية له لصواب القول والعمل.

• **الثاني**: حسن الخلق والصبر على وظائف التعليم وجفاء التلميذ وحمل أخلاقه، فالكامل يسع عنده الناقص، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨] والقدوة وارث النبوة في وظائف الهداية وما يبدو على التلميذ من الجفاء، فحمله في ذلك أولى، مع تعليمه وهدايته وتأديبه بحسن تلطف وجميل تؤدة، لا سيما أهل البداية الذين لم

يتمكنوا، وما يبرز منهم من البوادر التي تؤذن بسوء الحظ وتعلق بخبيث القصد، فلا يقطع بذلك حبل وصله إلا بعد الإعذار له، والنصيحة في ذلك ثلاثا، إن عاد بعد الثلاث إلى بادرته التي نهي عنها، فليتجاف عنه ظاهرًا وليرع عهده باطنا، بالدعاء له والشفقة عليه.

ثم على القدوة أن يتفقد أحوال التلميذ، فيوفي له حقه من الرفق به وبسطه بما يدفع عنه ظلم الوحشة، ويحله بساحة الأنس على حسب حاله ومشربه.

قال بعضهم: ينبغي للقدوة أن يلقى التلميذ بالرفق لا بالعلم، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه ولعل الرفق يدرج به إلى الانتفاع بالعلم، فحينئذ يعامل بصريح العلم، وبالله التوفيق.

• **الثالث:** معاملة كل تلميذ بما يناسب حاله ويقتضي مقامه، حتى يكون تأديبهم موازيًا لأحوالهم، فليس أهل البدايات مطالبين بوظائف أهل التمكينات، كما أن أهل التمكينات لا يطالبون بوظائف أهل النهايات، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] فإذا علم من بعض التلامذة ضعفا يقصر به عن مراغمة النفس وقهرها في العلل الخاصة بمنزله، فليرفق به في المناقشة، وليتلطف به في المحاسبة، وليرخ له زمام الضغط بما لا يجره إلى ممنوع، حتى إذا استجمع عزمه ورسخ قدمه، طالبه شيخه بمقتضى حاله وزم له في قمع لجام المحاسبة بقدر ما يطيقه، ورب سيئة قوم تكون حسنات غيرهم.

• **الرابع:** الإعراض عما بأيديهم رأسا والتنزه عن دنياهم جملة بل يحسن إليهم جهد إمكانه، ولا يكلفهم من الخدمة فوق طاقتهم، وليعاملهم بالمسايسة والتلطف.

وقد رأيت ناسا من أصحاب والدي جاءوه يومًا بعقود أملاكهم، وجميع أموالهم، فقالوا له: يا سيدنا، هذه أموالنا قد خرجنا عنها لك تتصرف فيها بما يظهر لك تعويلا على ما قصدناه من ابتغاء رضوان الله وخروجا عما يشغلنا عنه. فقال لهم والدي: بارك الله فيكم قد قبلتها منكم ثم صرفتها عليكم، لتعملوا فيها بما أقوله لكم: فلتوأدوا حق الله فيها من غير كلفة، بنشاط وطيب نفس، ولتتناصفوا مع الناس في معاملاتهم، ولتنصفوا الأجراء قبل جفوف عرقهم، ولتنفقوا من ذلك على عيالكم بحسب وجدكم، ولتصلوا منه أرحامكم ولتتفقدوا فقراءكم، فاحفظوا

وصيتي وقوموا بها في أموالكم قيام الوكيل الناصح، ومن ذلك التاريخ إلى هلم جرا، لم يعرج عليهم في شيء من ذلك، ولا عول عليهم ثقة بما عند الله وتسليما لأصحابه في دنياهم ومهما بقي على التلميذ بقية من نفسه، لا يؤمن عليه التقلب، فإذا غلبت عليه حال لا يقتضيها مقامه أبقى عليه فيها، وأمهل فيها خيفة فضيحة التقلب، وليكن التلميذ أبدا عاملًا بما يجب عليه في حق القدوة، مجهدًا نفسه في ذلك، كما أن القدوة لا يزال قائما بما يجب عليه من حقوق التلميذ، ومهما لم تغلب حال اليقين الحقيقي على باطن التلميذ، فإن باطنه متعلق بدنياه، فالإبقاء بها عليه أولى له وأنفع، وبالله التوفيق.

الفصل الثالث
في أحكام اجتماعهم على العبادات من ذكر وغيره

اعلم رزقني الله وإياك هديا صالحًا، وعملا راجحا ناجحا، أن الأصل في اجتماع بعض أهل الطريق على بعض الأعمال الجهرية من صلاة وذكر ونحو ذلك، هو أن بعض مشايخ هذا الطريق ربما ظهر لهم من بعض التلاميذ إفراط مجاهدة بالاشتداد في الأعمال وانقطاعا في المكابدة بإيثار الخلوة والصمت في كل الأحوال، حتى ضغط ذلك نفوسهم وأحرق أكبادهم، فرأوا ترويحهم من هذه الضغطة بشيء يرتاحون إليه لقول النبي ﷺ: «**روحوا النفوس ساعة بساعة** »[1]. لكنهم جمعوا لهم بين الارتياح وملازمة أمر العبودية كي لا تخرج النفس عن مقتضى العبادة فتنسى معنى ما كانت فيه، فربما صعب عليها الرجوع إليه بعد الرخاء لها في المباحات، فجمعوهم على بعض الأعمال الجهرية من صلاة وذكر ونحو ذلك، حتى إذا خمد عنهم لهب المجاهدة، وخف عليهم حمل أعباء المكابدة، رجعوا إلى أحوالهم من التزام خلواتهم، والتستر بأعمالهم، واستدامة صمتهم، وتواصل ذكرهم، ليستجدوا بذلك فوق العزائم يقوى نشاط الباطن والظاهر.

والسالكون في ذلك ثلاثة: قوم يروح لهم بشيء من المباحات وهم أهل البدايات، وقوم يروح لهم بشيء من الأعمال الجهرية، وهم أهل التمكينات، وقوم يروح لهم بشيء من الأحوال التي رقوا عنها لخفة مؤونتها عليهم بالنسبة لما رقوا إليه وهم أهل النهايات.

فلم يزل الاجتماع على الذكر ونحوه معروفا مألوفا عند أهل هذا الطريق، لكن على هذه القاعدة ورب أناس يظنون أن الانتظام على الذكر ونحوه هو طريق القوم الذي إليه قصدهم وعليه معولهم، إذ ليس يبدو لكثير من الناس من أحوال القوم

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٣/٥٣) بلفظ: روحوا القلوب.

غير ذلك، ولو طلعوا على ماهية طريقهم لظهر لهم أن اجتماعهم على الأعمال الجهرية أمر مرغوب عنه، وبطالة بالنسبة إلى ما قصدوه وأملوه، لكنهم إنما استعملوا ذلك بسبب ما يعرض لبعض السالكين من العوارض التي تقتضي ذلك ليروحوهم بذلك من ضغطة المجاهدات، حفظا لبواطنهم من مداخلة ما يغاير الذكر وينافي العبادة، وأما من لم يكن بهذه المثابة، فخلوته أولى له، وملازمته ذكر السر أنفع وأنجح لقصده، ومن لم تغلب عليه ضغطة المجاهدة، فرغبته عن الخلوة وذكر السر إلى الاجتماع على ذكر الجهر ميل إلى البطالة وخمار من النفس، وربما جره ذلك إلى تفريط في لزومه نعم وتضييع لبعض فرائضه أو تقصير فيها.

وما زال أمر الاجتماع على الذكر مبنيا على هذه القاعدة إلى أن لحق ذلك ما لحق غيره من التغيير والتبديل، حتى أن بعض من يرسم نفسه في هذا الطريق ويحسب أنه من أهله، جعلوا ذلك رأس مالهم، وصيروه جل عبادتهم وعمدة طريقهم وغاية سعيهم، جهلا منهم أن ذلك بالنسبة إلى ما يرادون إليه بطالة، فهم يشتغلون عن الأعلى بالأدنى، وينأون عن الأولى حتى مال بهم ذلك إلى الإفراط في الدعة والراحة، وحتى صيروا اجتماعهم محلا للمآكل وسببا إلى اللذات، من السماع واللعب بالشطح والرهج[1]، فكان لهم من ذلك أكبر قاطع عن الأوراد، وأعظم شاغل عن التأهب والاستعداد، وادعى إلى الكسل في أعمال العباد، والحق من وراء ذلك كله، وما نال أهل هذا الطريق من أسرار المعارف، وألطاف الحقائق ما نالوه إلا بتجريد النفوس عن هواها، وإيثار الخلوة على الخلطة، والصمت على الكلام، والجوع على الشبع، والسهر على المنام، وذكر السر على ذكر الجهر. فحرام على القلوب الفارغة من عمارة الذكر الاطلاع على حقائق الأسرار، والعثور على فوائد الأذكار، وها أنا أرسم في الاجتماع على الذكر حدا، قصدا ليقف السالك عليه، فيعلم حقيقة الأمر في ذلك. وإذا تقرر هذا، فاعلم أن السالكين، إذا اشتدت بهم المجاهدات، وضغطتهم أطوار المكابدات، ربما خيف عليهم لحوق التفريط عند ورود هذا الإفراط، فلا بأس أن يروحوا إلى شيء من الأعمال والأحوال التي تسكن إليها النفوس ولا تنفر عنها الطباع، مع إبقاء رسم العبادة محفوظا، لينطفئ

---

(١) الرهج، والرهج: الغبار. وأرهج: إذا كثر بخور بيته. اللسان(٣/٥).

لهب المجاهدة، وينكسر من سورة المكابدة، فتستجد النفس قوة عزم، وتستأنف شدة نشاط، ولم يزل هذا المنزع معروفا من أحوال السنة وسير السلف، إذ لا بدّ من الإبقاء على النفوس، فللنفس حق، لكن أهل الرياضة مالوا إلى الأولى فالأولى بما يقع به الإبقاء، ومهما كان للنفس ارتياح إلى ما فيه معنى العبادة، فلا يروح لها بمباح، ولا شيء أرفق وأوفق بالسالك من الاجتماع على الذكر ونحوه؛ لأن النفس تقنع بهذا بعد الخلوة، لما فيه من الإبقاء عليها بحظ من حظوظها المندرجة في الإعلان، ولا جرم أن يسامح في بعض عللها لموجب. فربما صحت الأجسام بالعلل.

فصل

وللاجتماع على الذكر شروط وآداب:

*** أما شروطه فسبعة:**

• **الأول:** أن يكون حل الاجتماع مصلحا لحال السالك تدعو إليه الضرورة من ترويح من ضغطة المجاهدة أو تنشيطها لما وراء ذلك، وحيث يكون الاجتماع عائدا بضرر، منع منه السالك؛ لأن رأس مال السالك هو عبوديته، فكلما يقدح في رأس ماله ممنوع منه

• **الثاني:** أن يكون في محل الاجتماع القدوة أو من يقوم مقامه في ضبط أمور الجمع وردهم إلى نظر واحد؛ لأن الأهواء إذا اختلفت صار عنها الشتات والفساد، والشتات يصير الاجتماع من الأمر المرغوب عنه، فإن حضر القدوة كان أولى، وإلا نوب عنه من يقوم مقامه ويرسم له سبيلا يحمل الجمع عليه لا يتعداه، ولا يخرج الجمع في ذلك عن نظره ورأيه.

• **الثالث:** أن يقدم بين يدي الاجتماع قصدا نافعا فيقصد معاملة الله ﷻ بالانتظام مع صالحي إخوانه كي يرحم بهم، ويرى أنهم القوم الذين لا يشقى جليسهم ومن قصد غير الله خاب سعيه وضاع عمله، وإذا غلب هذا القصد على باطنه نفعه الله بالاجتماع مع أصحابه وأعانه على لزوم الأدب معهم.

• **الرابع:** أن لا تحمله غلبة النوم على تضييع شيء من لزومه أو تقصير في

فرائضه؛ لأن تجار الآخرة يصونون رؤوس أموالهم من الضياع. فكلما عارض السالك عارض فاسد، نظر في الأولى ومال إلى الأعلى.

• **الخامس**: أن يكونوا صنفا واحدا يجمعهم طريق واحد؛ لأن الباطن يسكن إلى مؤالفة الصنف كما ينفر عن مؤالفة غير الصنف.

فما ينظم البواطن محمود، كما أن ما يشتتها مذموم.

• **السادس**: أن لا يمزج ما اجتمعوا له من الذكر بلغو ولا هذر ولا غير ذلك مما يجر إلى الغفلة ويدعو إلى الخسران وقبيح بأهل هذا الطريق أن يمزجوا العبادة بالتقصير أو يخلطوا الذكر باللغو لتصعد صحائفهم معمورة بما ينالون به القرب ويخرجون به عن البعد، وتجار الآخرة أبدا طلاب الربح.

• **السابع**: استصحاب الطهارة حتى يكون جميع ما يتلبسون به من أعمال الخير صادرا على أكمل الهيئات وأجمل الصفات، وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «**أكره أن أذكر اسم ربي على غير طهارة**»(١)، ولا شك أن ذكر الله تعالى أولى ما استعدله بطهارة الظاهر والباطن، وبالله التوفيق.

* **وأما آدابه فسبعة:**

• **الأول**: أن يكون الاجتماع لما ذكر ليلا، لما في الليل من الهدوء والخلوة ولأنه محل المناجاة والعبادات، ومظان الإجابة والقبول، وقد امتدح الله قوما بذلك فقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] ومن كمالات العبادات أن يتحين بها الأوقات الفاضلة والأحاين الشريفة.

• **الثاني**: أن لا ينام بين الحاضرين، وليجاهد نفسه على السهر لأن النوم بين الحاضرين مما يكسلهم ويذهب بنشاطهم، مع ما في النوم من نقيض ما اجتمعوا إليه من كان النوم غالبا عليه، فمنزله أولى له، وقد رأيت والدي ﷺ إذا كان مع أصحابه مجتمعًا على الذكر ليلًا استحضر إلى أنفه ماء ينضح منه في وجه من ينام.

• **الثالث**: تحية الموضع المجتمع فيه، بركعتين أو أكثر عند دخوله، ثم إن كان

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٤٥/٣).

القوم مجتمعين انتظم معهم على ما هم بسبيله من العمل، صلاة أو غيرها، وإلا توجه إلى القبلة ذاكرا سرًّا في سبحته ليهيئ بذلك عمارة باطنه لما يقوم عليه بعد ذلك من الأعمال.

• **الرابع**: خديم يقوم بوظائف خدمة القوم، يستسقي لهم الماء لوضوئهم، ويدور به عليه لشربهم، ويقد المصابيح ويصلح شأنها طول الليل، ويخدم السماط، ويحفظ النعال، ولا يكون الخديم إلا من عينه القدوة لذلك ممن فيه أهلية له. فإذا عينه خديما، فقد فاز بالسيادة، لقول النبي ﷺ: «**خديم الجماعة سيدها**»[1] فليحفظ الجمع له حقه، وليوفوا له واجبه، فقد أثبتت النبوءة له السيادة.

• **الخامس**: التزام الأدب مع ربه ومع الجمع. أما آدابه مع ربه، فالتزام الوقار والسكون حال العبادة، حتى لا يظهر عليه من الأحوال إلا ما يغلبه كالعطاس، وما يكون بهذه المثابة فإنه لا يدوم، إنما هو كالبرق، حدثني بعض من أثق به قال: «سمعت الشيخ أبا القاسم المريد يقول: والله ما ورد قط علي حال حال، فظننت أني أعيش بعده.

فليتحفظ السالك من أن تظهر عليه حركة مشوبة بهوى نفس فإن أكثر الأحوال لا تخلو عن شائبة وهم، وما يلتزم من توقير حال الذكر وجلال المذكور، ينافي الأحوال الممزوجة، لما فيها من التلاعب، وحال الجد ينبغي أن يحفظ من حال اللعب، وليعلم أنه بين يدي الله تعالى يناجيه بذكره، فليكرم المحاضرة وليتأدب في المناجاة، وليعط الذكر حقه من الأدب والسكون.

وأما آدابه مع إخوته، فلا يتخطى رقابهم، ولا يقطع على أحد منهم كلامه، ولا يزاحمه، ولا يشرب الماء قبل من طلبه، ولا يسيء بأحد منهم الظن، وليرِ صغير القوم كبيرا، فيتبرك بهم ولا يرى لنفسه على أحد منهم فضلا، ولا يوثر نفسه بشيء من مرافق المحل على واحد منهم.

• **السادس**: أن يبتدئوا بالصلاة أولا، فتكون صلاتهم مقدار ما يمضي من الليل نصفه ثم يوترون ويتصافحون، ثم يجلسون بخلال ما يتوضأ من له حاجة إلى

---

(١) رواه المخلص في قطعة من «الفوائد » (٢٨٤) بلفظ: «خادم القوم سيدهم».

الوضوء، ويشرب من له حاجة إلى الشرب، ثم يستفتحون الذكر بشيء من القرآن، ولو سورة الإخلاص، ثم يدخلون إلى الذكر، فيهللون ويسبحون، ويصلون على النبي ﷺ ويسلمون عليه بكيفيات مختلفات، استنشاطًا للنفس، ورفعا لدواعي السآمة والملل، وقد صنف والدي كتابًا أسماه بـ: «مصباح أهل السهر» يحتوي على مقدمة يستفتح بها الذكر تشير إلى معنى الشهادتين، وتقتضي معنى التوحيد، وكيفيات من التهليل والتسبيح والتصلية، وغير ذلك مما يشاكل ذلك ويناسبه، ففيه لأهل هذا المقصد روضة بهية.

وليكن إيرادهم الذكر وسطًا ما بين الإخفات والجهر، متراسلة أصواتهم، حاضرة قلوبهم، مغمضة أعينهم، توسطا بين الاستعجال والتمطيط[1]، والهذ[2] والترتيل، وليقيموا على ذلك مقدار سدس الليل، وليختموه بالسلام على النبي ﷺ والحمد والشكر، ثم ليدع لهم إمامهم، ثم ليمد لهم السماط، فإذ فرغوا من أكل سماطهم توجهوا إلى القبلة، وليبدأ كل واحد سبحته بالاستغفار سرا على نحو ما يتوجه بورده فإذا طلع الفجر ركعوا ركعتي الفجر ثم انصرفوا لصلاة الصبح في المسجد.

• **السابع**: أن يكون لهم سماط يجتمعون عليه، وقد ورد في وصف الصحابة أنهم كانوا لا يفترقون إلا عن ذواق، ومن أحسن ما يعملون في ذلك أن يأتي كل واحد بما يخلف الله له ويخف عليه من الطعام، فيدفعه للخديم على خفية من سائر القوم، فيجعل الخديم ذلك في وعاء يحضره فيه حتى لا يعلم أحد بحال أحد فيما جاء به من كثير أو قليل، ولتذهب عنهم علة التنافس، ويخفى من لم يتيسر له شيء، ولترتفع المؤونة في ذلك على صاحب المنزل، فإذا كان وقت السماط، مده الخديم بين أيديهم، فإذا أكلوا وفضل فضل، قسم أثلاثا: ترك لصاحب المنزل الثلث الواحد على وجه البركة، وقسم الثلثان على ضعفاء الجمع بحسب حاجتهم، وبالله التوفيق.

---

(١) مَطَّ الشيءَ يَمُطُّه مَطًّا: مدّه. لسان العرب (٧/٤٠٣).

(٢) الهَذُّ: الإسراع في القطعِ وفي القراءة. يقال: هو يَهُذُّ القرآنَ هَذًّا، ويَهُذُّ الحديث هَذًّا، أي يسرده.

فصل

وإذا تبين سبيل الاجتماع على الذكر ونحوه فالسالكون باعتباره ثلاثة:

رجل متعلق بالبداية، فهو آخذ في تقويم نفسه وإصلاح حاله، وربط نفسه بقيد المجاهدة وترييضها بإخراجها عن مألوفها، فهذا أصلح الأحوال له استدامة الخلوة، والمحافظة على أعمال السر، والانقطاع في المجاهدة على ترك الهوى، فهذا يكره له أن يعرض من حاله هذه ما يعود عليه بالفتور ويقضي له بضعف العزم ميلا مع الراحات.

ورجل ضغطته المجاهدة فهو في خناق من مكابدة الخلوة وقهر النفس، وربما خيف عليه لحوق السآمة والانقطاع، فهذا يستحب له أن يروح ويفتر بشيء مما تستريح إليه النفس، ومهما وجد الترويح لها في طاعة فلا يعدل عنها إلى مباح.

ورجل بلغ النهاية حتى امتلأ باطنه من أسرار حقائق التوحيد، فسره وعلانيته وخلوته وخلطته سواء، لاستيلاء سلطان التوحيد على باطنه، فهو ينفق منه على كل حال، فهذا مباح له الاجتماع لما ذكر، وقد يتفق اجتماع الأصناف الثلاثة لذكر الجهر ونحوه، فحسب كل صنف منهم أن يعلم ما يخص حاله مما ورد عليه أو صدر عنه، منعا أو جوازًا أو استحبابًا.

وهذه النبذة تكفي في الكشف عن حقيقة أمر الاجتماع على الأعمال الجهرية الشرعية وأحكامه، وربما أخرج الزائد على ذلك عن المقصود، وبالله التوفيق.

الفصل الرابع
في أحكام السماع وما يتعلق به

اعلم جعلني الله وإياك ممن يستمع القول فيتبع أحسنه ويعمر بوظائف العبودية سره وعلنه أن الحامل على الإتيان بهذا الفصل هو ما تواطأ عليه بعض أهل هذا الزمان، من الاسترسال في السماع الجاري الآن في هذه الأوطان، بشدة الميل إليه والحرص بالكلية عليه، حتى ألحقوه بالمندوب، وصيروه من العمل المطلوب، وربما جعلوه ضربا من ضروب العبادة، وأصلا يبنون عليه أمر الإرادة، وها أنا أكشف عن وجه أحكام ذلك بما يقف السالك عنده، فيحفظ عمله في ذلك وقصده، فأقول وبالله الاعتصام وهو المعول عليه في الإلهام:

اعلم أن الله ﷻ خلق عالم الإنسان وطوقه وظائف العبادة، ثم مدح من قام بشروط العبودية ذاكرا لربه، وذم من غلبت الغفلة عليه حتى استولت على قلبه، وجعل العبادة وأسبابها في حيز الرجحان وجعل الغفلة ووسائلها في جانب الخسران، ثم على قدر قوة الجاذب إلى العبادة تكون قوة الطلب، وبحسب قوة الداعي إلى الغفلة تكون شدة المنع، وما أشكل على السالك من ذلك، عرضه على نفسه، فما نشطت له وفرحت به، وحرصت عليه في الأغلب فهو من قبيل المذموم، وما صعب عليها وكسلت عنه وكرهته في الغالب، فهو من قبيل المحمود وذلك سر قول النبي ﷺ: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١).

وإذا تقرر هذا، فلا يغرنك ما يورده بعضهم في جواز مطلق السماع من أغاليط الاستدلال، حين يلبس الممنوع منه بالجائز بنوع من الاحتيال مع ما يستند إليه في ذلك من الطيبة التي يجدها بانبعاث الطباع، حتى يجعل ذلك فضيلة من فضائل

---

(١) رواه مسلم (٤/٢١٧٤، رقم ٢٨٢٣)، وأحمد (٢/٣٨٠، رقم ٨٩٣١)، والترمذي (٤/٦٩٣، رقم ٥٥٩)، وابن حبان (٢/٤٩٤، رقم ٧١٩).

السماع، هيهات هيهات، لا يعامل الله بالترهات، وبإدارة التقسيم على أنواعه، يظهر لك جائزه من ممنوعه، وذلك أن السماع باعتبار أنواعه ثلاثة أقسام: قسم ممنوع باتفاق، وقسم جائز باتفاق، وقسم فيه خلاف.

فأما الممنوع باتفاق، فهو ما أضيفت إليه الملاهي كالمزامير ونحوها، ويظهر لك منعه من وجوه، منها أن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه طباعا مختلفة من حرارة وبرودة، ورطوبة ويبوسة، وجعل في كل نوع منها انفعالا لضده، ولما ركبت المزامير والأوتار والأغاني على نغمات مختلفات في الحدة واللين، صارت طباع الإنسان تتأثر لما يضادها من ذلك، وربما غلب عليها هذا التأثير بشيء انضاف إليه من إفراط النغمات بنوع من الإحكام، أو زيادة مزمار أو نفر ونحو ذلك، حتى أمال الطباع عن الإدراك، ومال بها إلى الذهول استغراقا في التذاذها، وربما يعالج الأطباء من العلل السوداوية بالأصوات الطيبة والآلات المطربة، لينال بذلك استغراقا في الطلب، وذهولا عن الأفكار الرديئة، فتنحفظ له قوى الدماغ، ولا شك أن هذا وما يجري مجراه مناف لمعنى العبودية، منافي لحضور الفكر مع الله تعالى بتدبر آياته، وتذكر وعده ووعيده، والقيام بوظائف توحيده، ولا شك أن ما يلهي عن ذلك ويشغل عنه، فإنه ممنوع. ثم المنع يكون بحسب الإلهاء والاشتغال ولما كان المطلوب من العباد القيام بأمر العبودية، وكانت العبودية لا تقوم إلا باعتدال العقل، واعتدال العقل، لا يكون إلا باعتدال الطباع، فاعتدال الطباع وسيلة إلى اعتدال العقل واعتدال العقل وسيلة إلى الإتيان بوظائف العبودية على سبيل العدل والاعتدال، كان المعارض لذلك ممنوعا.

ثم انحراف الطباع له أسباب: **منها**: اكتسابية، **ومنها**: غريزية.

أما الغريزية فالعبد مطالب برياضة نفسه ومجاهدتها فيما يخرجها عن الإفراط والتفريط إلى الاعتدال، كإخراج لطباع من التهور والجبن إلى الشجاعة، ومن البخل والسفه إلى السخاء، وأمثال هذا كثيرة، وأما الاكتسابية فما يدخله الإنسان على نفسه من الأمور التي تحرف الطباع،فينحرف العقل، فيختل نظام العبودية، كشرب الخمر، والاسترسال في اللهو، والاستغراق في الغفلة ونحو ذلك. فالعبد مطلوب باجتناب ما يذهله عن الله، ويصده عن سبيل رضاه، وبحسب قوة الميل عن الحق تكون قوة

المنع، وهذا كله لا يجهله من اطلع على ما يقتضيه الكتاب والسنة من الدعوة إلى الله والاهتبال بطاعته.

ولما أفرط ميل الطباع بشرب الخمر حتى بلغ الغاية، أغلظ في منعه بالتحريم، كذلك ما يجري مجراه.

وقد أشار الضحاك. إلى هذا المعنى بقوله: «إياكم والغناء، فإنه يزيد في الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر» وهذا المعنى صحيح فإن الغناء وإن لم يقو قوة الخمر، فلا يخلو عن شائبة من أوصافه، وإلا فلينظر من يحضر الغناء إلى نفسه، إذا تحركت الآلات المطربة بمزمار ونقر ونحو ذلك، كيف يجد طباعه تنبعث وتتحرك، ثم تنحرف بالكلية إلى الإصغاء لذلك، وإن لم يفه القوال بشيء، ثم بحسب ما يزيد في ذلك من النغمات بتقطيع الأصوات والأوزان يكون الاستغراق، حتى أن الإنسان ليحدث أو يتحدث فلا يسمع، وإن سمع فبكلفة، لاستغراقه في الطرب، حتى أن بعض الناس لممن يغلب عليه الانفعال لذلك، فيظهر عليه من الاهتزاز والشطح وغير ذلك ما ينافي الوقار ويذهب بالمروءة، وإن الشيطان ليلبس عليه في ذلك حتى أنه ليظن أن الذي أصابه من الانفعال إنما هو لمعنى الشعر المقول، وليس إلا لآلات الطرب، وإن كان لمعنى الشعر، فيجري بيسير تافه، وإن أراد الوقوف على صحة هذا فلينظر كيف هو انفعاله لسماع زواجر القرآن ومواعظه وتشويقه من انفعال طباعه لسماع الآلات المطربة.

ولقد بلغني أن إنسانا كان يشطح والمشبب يشبب، والمغنون لا يزيدون على النقر والتصفيق بالأكف شيئا، والشطاح قد خرج عن الاعتدال وهو يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومنها: ما جاء في الكتاب والسنة من الإشارة إلى منع الغناء الملهي، قال الله ﷻ ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مجاهد: «هو الغناء والمزامير»، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، قال عبد الله بن مسعود: «هو الغناء والاستماع إليه »، وقال ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ [النجم: ٦١] أي: مغنون، وبه قال عكرمة،

وقال: السمد في لغة حمير وأهل اليمن: الغناء.

وروي أن النبي ﷺ قال: «**كان إبليس أول من ناح وأول من غنى** »[(١)]، وروى عبد الرحمان بن عوف أن النبي ﷺ قال: «**نهيت عن صوتين، صوت عند مصيبة وصوت عند نغمة**»[(٢)]، وروي أن عبد الله بن عمر قال: «كنت مع رسول الله ﷺ أمشي خلفه إذ سمع شبابة راع فسد النبي ﷺ أذنيه ثم جعل يقول لي: أتسمع شيئًا وأنا أقول له: نعم، حتى قلت له: لا أسمع شيئا، فأطلق أصبعيه من أذنيه».

وقد رخص قوم بما تأولوه على عبد الله بن عمر من أن النبي ﷺ سامحه في سماع تلك الشبابة وقالوا: لو كانت حراما لأمره النبي ﷺ أن يسد أذنيه عن سماع تلك الشبابة، كما فعل هو ﷺ قالوا: ولعل ذلك من خواص النبي ﷺ، وهذا تأويل ضعيف لما يتعلق به من الاحتمالات، وقبيح أن يظن بعبد الله بن عمر تقصير في الاقتداء بالنبي ﷺ، ومثل عبد الله بن عمر، وقد ثبت من شدة أمره في متابعة النبي ﷺ أنه رؤي يومًا يدير ناقته في موضع فسئل عن ذلك فقال: لا أدري غير أني رأيت النبي ﷺ يدير ناقته هنا وأنا أريد موافقته، وقد كان يتحرى المواضع التي رأى النبي ﷺ يصلي فيها بين مكة والمدينة، فيصلي فيها إلى غير ذلك، جدير أن ينزه عن مسامحة نفسه في شيء من متابعة النبي ﷺ والاقتداء به، نعم يحتمل أن يكون عبد الله بن عمر لما رأى النبي ﷺ قد سد أذنيه عن سماع تلك الشبابة سد هو أذنيه اقتداء بالنبي ﷺ، لكنه عند قول النبي ﷺ: أتسمع شيئًا وفهم عبد الله بن عمر من النبي ﷺ أنه يخاطبه، وجب عليه الإصغاء لخطاب النبي ﷺ، فأطلق أصبعيه من أذنيه لذلك، فسمع الشبابة بحكم الانجرار، فأخبره بأنه سمعها، وقد روي أن عبد الله بن عمر فعل مع مولاه نافع مثل ما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن عمر عن سماع الشبابة، ويحتمل أن يكون عبد الله بن عمر حينئذ غلاما لم يبلغ الحلم، والأول أظهر.

وهذا وإن كان الأمر في سماع الشبابة ونحوها لا ينهض لتغليظ التحريم، فلا ينحط عن الكراهة الشديدة، والمكروهات ذرائع المحرمات، وكل سالك يترخص في شيء من متابعة النبي ﷺ، فهو مائل إلى المقت والحرمان وذلك أكبر الحجب عن الله.

---

(١) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٨٨/٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٣/٤)، والحاكم في المستدرك (٤٣/٤).

وقد روي عن أبي عبد الله الشافعي أنه قال: «أن الطقطقة بالقضيب في السماع وضعها الزنادقة ليشغلوا بها عن ذكر الله وعن القرآن فما ظنك بالشبابة والأوتار والزنوج والطنجهارات وغير ذلك من الشقاشق والشناشن».

وقد حكى الطرطوشي[1] الإجماع على تحريم السماع الجاري الآن، ووجه المنع في ذلك قوي، إذ لا يختلف أحد في أن جميع ما يلهي ويشغل عن الله ويذهل عن ذكره، ويدعو إلى الغفلة والسهو، ويجر إلى الشهوات واللذات، أن جميع ذلك ممنوع غير جائز.

ومنها: أن الفقهاء مجمعون على كسر آلات اللهو وفسادها، ولا يباح إضاعة المال إلا لقوة وجوب المعارض.

ومنها: أن جميع الآلات المطربة كالشبابة والطر[2] والطنجهارات وتصفيق الأكف والشيزان، ونحو ذلك، لو فرضنا أن قوما اجتمعوا على ذلك ولم يزيدوا عليه غناء ولا خالطوه بقول، أكان هذا محسوبا من قبيل الجد أو من قبيل الهزل أو من قبيل اللعب أو من قبيل التدين؟ أو من قبيل اللهو أو من قبيل العبادة؟ أو من قبيل الحق أو من قبيل الباطل؟ لا شك أنه هزل غير جد، ولعب غير تدين، ولهو غير عبادة، وباطل غير حق.

ثم إن الأشعار التي تقتضي التوحيد، وتتضمن أسماء الله وصفاته والترغيب والترهيب والتشويق، وامتداح النبي ﷺ بما كان عليه من الصفات، وما ظهر عليه من المعجزات وغير ذلك من الأمور المحسوبة حقا غير باطل، وجدا غير هزل، وتدينا غير لعب، وعبادة غير لهو، أيجمل أو يحسن أو يجوز خلط هذا بذلك؟ كيف، ومن داخلت بشاشة الإيمان قلبه يعلم أن تعظيم الله وتوقير نبيه والتزام الأدب مع الله ومع رسوله يأبى أن يخلط ذكر الله وذكر رسوله مع ما هو لهو وهزل ولعب

---

(١) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي، صاحب سراج الملوك يعرف بابن أبي رندقة، صحب القاضي أبا الوليد، وسمع منه وتفقه بأبي بكر الشاشي، وأبي محمد الجرجاني، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري، توفي سنة: ٥٢٠هـ. انظر: وفيات الأعيان: ٣٩٣/٣ شذرات الذهب ٦٢/٤.

(٢) الطر: اللطم (اللسان/طرر).

وباطل، ويمزج به إن هذا لشيء نكر.

ومنها: أنك إذا تصورت ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح بعدهم من الاتصاف بأوصاف العبودية والتزام وظائف الأدب مع الله ومع رسوله، وتفكرت فيما يناسب أحوالهم الفاضلة من لزوم الافتقار إلى الله تعالى، والخضوع بين يديه بمحاضرته ومناجاته، ثم تفكرت في اجتماع أهل هذا الزمان وقعود المغني باتباعه بينهم، ثم نفخ المشبب في شبابته، ونقر الناقر طنجهارته، وحرك الأستاذ زنوج طره، وصفق الباقون بأكفهم، هل تجد بين هذه وتلك نسبة؟أو تجمل إضافة مثل هذه الملاهي للسلف أو تشاكل أحوالهم التي كانوا عليها الحضور لمثل هذا؟ حاشاهم عن ذلك حاشاهم، والحق الذي لا ريب فيه، أن هذه الملاهي قادحة في آداب العبودية، ناقضة لعرى الخضوع والافتقار، ومضادة لمعنى التدبر، بعيدة من الحق قريبة من الباطل يجب تنزيه جانب النبي ﷺ وجانب اصحابه، والسلف الصالح عن ذلك وأمثاله، وأقبح شيء في هذه المسألة، التعامي عن جميع ما ذكر، والميل إلى الاستدلال بفعل المتأخرين على جواز ذلك. كيف يجمل نبذ ما تقدم ذكره، والتغافل عنه استنادا إلى فعل بعض المتأخرين، ومن لم تثبت عصمته لا يؤمن زلله.

وقد قال مالك رحمه الله: «من كل القول مأخوذ ومتروك إلا ما قاله صاحب هذا القبر»، يشير إلى النبي ﷺ، وغير بعيد أن يكون المتأخر قد التبس عليه الحق وجهله في هذه المسألة، فليس إلا الكتاب والسنة وفعل السلف، فهم أقرب عهدا بزمان النبوءة، وأشد فهما لمعاني الكتاب والسنة وأشد متابعة للنبي ﷺ، ولما بعد زمان النبوءة حدث التغيير والتبديل، وبالله الاهتداء إلى سواء السبيل.

وأما القسم المختلف فيه من الغناء، فهو ما عري عن الآلات الملهية، غير التصفيق بالأكف ونحوها، مبنيا على التأنق في النغمات بالدندنة والترننة ونحو ذلك، ولا شك أن في بعض النغمات المضافة إلى تقطيع الأوزان ما ينوب عن المزامير والأوتار، فمن أجرى ذلك مجرى المزامير والآلات المطربة الملهية، حمله محمل القسم الممنوع، ومن رأى ذلك منحطا عن درجة ذلك - إذ المشبه لا يقوى قوة المشبه به -، تردد فيه، فقيل بالجواز وقيل على كراهة فيه، وقيل بالإباحة قال

عثمان بن عفان ﷺ: «ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ»[١]، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «**الغناء ينبت النفاق في القلب**» [٢]، وروي أن عبد الله بن عمر مر عليه قوم وهم محرمون ومنهم رجل يتغنى فقال: «**ألا لا يسمع الله لكم**» [٣].

قال الفضيل بن عياض[٤]: «الغناء مدرجة الزنا»، وقال أبو عبد الله الشافعي في كتاب القضاء: «الغناء لهو وباطل، من استكثر منه، سفيه ترد شهادته »، واتفق أصحابه على أن المرأة لا يجوز الاستماع إلى غنائها سواء كانت ذات محرم أو غيرها، أو حرة أو مملوكة أو ظاهرة أو مستورة، وعند مالك إذ ا اشترى أحد جارية فوجدها مغنية، فله ردها بالعيب، وهو مذهب سائر فقهاء المدينة.

وقال أبو حنيفة: سماع الغناء من الذنوب، وقال بعض أهل العلم: «الغناء يزيد في الشهوة ويهدم المروءة » لأن الطباع إذا تحركت عند سماع نغمات الأوزان ربما وجد الإنسان لذلك من نفسه ما يحمله على استحسان بعض المستقبحات كالفرقعة بالأصابع، والتصفيق بالأكف، والاهتزاز والرقص، وغير ذلك مما يدل على سخافة العقل وخرق حجاب الوقار وخلع ثوب المروءة[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٣١١).

(٢) رواه أبو داود (١٩٠٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٢٣/١٠).

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء: (٣١١/٢)، والسهروردي في العوارف ص: ١٥١.

(٤) الفضيل بن عياض بن مسعود، الأستاذ الإمام أبو علي التميمي اليربوعي المروزي الزاهد. أصله خراساني ولد في سمرقند، كان في أوله شاطرا يقطع الطريق بين، أبيورد وسرخس، ثم تاب وجاور بالحرم المكي، كان من كبار الصوفية الأوائل، أخذ عنه جمع كبير، توفي سنة: ١٨٧هـ ترجمته في طبقات ابن سعد (٥٠٠/٥) الحلية: (٨٤/٨) الجمع بين رجال الصحيحين، لابن القيسراني: (٤١٤/١) المعرفة والتاريخ (١٧٩/١)، تاريخ الطبري (٢٩٤/١).

(٥) لِلَفْظِ الْغِنَاءِ مَعْنَيَيْنِ: لُغَوِيٌّ، وَعُرْفِيٌّ، فَيُحْمَلُ الْحَدِيثُ عَلَى اللُّغَوِيِّ فَقَوْلُهَا تُغَنِّيَانِ أَيْ تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَهُمَا بِإِنْشَادِ الشِّعْرِ، وَنَحْنُ لَا نَذُمُّ إنْشَادَ الشِّعْرِ، وَلَا نُحَرِّمُهُ، وَإِنَّمَا يَصِيرُ الشِّعْرُ غِنَاءً مَذْمُومًا إذَا لُحِّنَ، وَصُنِعَ صَنْعَةً تُورِثُ الطَّرَبَ، وَتُزْعِجُ الْقَلْبَ، وَهِيَ الشَّهْوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَلَيْس كُلُّ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغِنَاءِ لَحَّنَ، وَأَلَذَّ وَأَطْرَبَ، فَالْمَمْنُوعُ، وَالْمَكْرُوهُ إنَّمَا هُوَ اللَّذِيذُ الْمُطْرِبُ. المدخل (١٩١/٣).

قالوا: وما نقل من أن رسول الله ﷺ سمع الشعر لا يدل على إباحة الغناء، فإن الشعر كلام موزون حسنه حسن وقبيحه قبيح، إنما الغناء بالألحان وتقطيع الأوزان بالنغمات، هذا مذهب جمهور السلف، وذهب القليل من العلماء إلى إباحة ذلك بشرط أن لا يكون عادة وديدنا حتى يغلب على صاحبه، ثم لم يخلوه عن كراهة لمنعهم أن يستعمل ذلك في المساجد والبقاع الشريفة.

ولم يزل السلف رضوان الله عليهم يتحفظون في جعل هذا النوع من الغناء حسنا وندبا، وقد سأل رجل القاسم بن محمد عن الغناء فقال: «أنهاك عنه وأكرهه لك، قال: أحرام هو قال: انظر يا أخي، إذا ميز الله بين الحق والباطل في أيهما تجعل الغناء».

وروي: «أن ابن جريج كان يترخص في السماع، قيل له يومًا: إذا أتي بك يوم القيامة ويؤتى بحسناتك وسيئاتك، في أيهما سماعك. فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات، يعني أنه مباح، ولم يجعله فضيلة إلا من عري عن العلم واتبع هواه، قال بعض أهل العلم: لو كان الغناء فضيلة وندبا، لم يهملها رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم، ولدأبوا عليه كدؤوبهم على الفضائل والمندوبات، وبالله التوفيق.

وأما القسم المتفق على جوازه من الغناء، فهو ما كان من إيراد الأشعار ذوات المعاني الشرعية من غير آلة مطربة لا كف ولا غيره، ولا تأنق نغمات، كالأناشيد والخبب والحذاء، ونحو ذلك مما تقرب نغماته وتسهل ألحانه، من غير أن يكون عادة وديدنا.

وإذا اعتبرت الأدلة التي أوردها بعضهم على جواز السماع كإنشاد الإشعار بين يدي النبي ﷺ وغناء المغنيتين بما تعارفت الأنصار[(١)] ويوم تغان في بيت عائشة - رضي الله عنها - وقوله ﷺ: «**فلو أرسلتم من يقول أتيناكم أتيناكم فحيَّانا وحيَّاكم**»[(٢)]، وغير ذلك من الأدلة التي أوردوها مورد الاستدلال على جواز

---

(١) رواه البخاري من حديث عائشة، ٣٩٣١. أَنَّهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْر ﵁ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جِوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَفَاءَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ أَمِزْمَارُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنْ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا**».

(٢) رواه ابن ماجه (٦١٢/١، رقم ١٩٠٠).

السماع، وجدت ذلك كله إنما يشير إلى جواز هذا القسم من أقسام السماع، إذ ليس بين تلك الأدلة وبين القسمين المتقدمين مطابقة ولا تناسب.

وأشد من ذلك ما أوردوه دليلا لجواز السماع، ما ورد من طلب تحسين قراءة القرآن بالصوت الحسن، ولا نسبة بين القراءة والسماع المشار إليه، ويكفي هذا المقدار في تبيين أحكام السماع، لما درجنا عليه من الخروج عن التطويل.

وإذا تقرر هذا، فلا يباح للسالك من أقسام السماع غير هذا القسم الأخير لكن بشروط أربعة:

• **الأول**: أن يكون عريًا عن الآلات المطربة من تصفيق الأكف فما فوقه، إنما هي أشعار ذوات معان شرعية يوردها شخص واحد كالأناشيد والخبب[1]، أو أكثر من شخص، متراسلة أصواتهم ساكنة جوارحهم خاشعة قلوبهم.

• **الثاني**: أن يكون القوالون من صنف المستمعين، سالكين طريقهم، مهتدين بهديهم، حسنة أحوالهم؛ لأن الكلام إذا صدر عن صدق أثر في القلوب، وإذا حسن السامع ظنه في المتكلم نفعه الله بكلامه.

وقد قيل: إن الجنيد ترك السماع، فقيل له: كنت تسمع، فلم تمتنع فقال: مع من؟ فقيل له تسمع أنت لنفسك، فقال ممن؟».

• **الثالث**: أن لا يكون ذلك غالبا أو عادة أو ديدنا، إنما تكون نسبة السماع من الأعمال الجهرية التي يجتمعون عليها، من ذكر وصلاة، كنسبة الأعمال الجهرية من أعمال الخلوة وذكر السر، كما أن السالك لا تباح له الأعمال الجهرية إلا لرفع السآمة لينشط لوظائف الخلوة، كذلك السماع، لا يباح له إلا لرفع السآمة والكسل في الصلاة والذكر في الجمع، ليكون للنفس في ذلك من الإحماض[2] ما يقوى به العزم وتشتد به القريحة، فليس شيء من أحوال السالك هملا. ليس إلا جري على سبيل الحكمة المقيدة بروابط الشرع المشدودة بضوابط العبودية.

---

(١) الخبب لغة: ضرب من العدو، وقيل هو مثل الرمل، وقيل: هو أن ينقل الفرس أيامنه جميعًا وأياسره جميعا. اللسان (٣٤١/١)، ومنه اشتق الإيقاع الشعري المعروف باسمه.

(٢) الإحماض: التنشيط. كما تجمم شهوة الأكل بالحامض، وأصله من أكل الجمال لنبات يسمى الحمض» مفردات ابن الخطيب، (ص: ٢٩).

• **الرابع**: حفظ الأدب في السماع بلزوم الأدب، وقهر النفس، وزم الطباع عن الهوى، في القيام بالأحوال الممتزجة، إذا ليس ذلك إلا عن مكر شيطاني، ليفسد به على السالك حاله، ويشتت عليه باطنه، وليجري به في ميدان الشرك والنفاق من حيث لا يشعر، ومهما وجد السالك من باطنه ضيقًا أو قلقًا، فليجاهد على قمعه حتى يكون مغلوبًا عليه كالعاطس، وعلامة صدق هذا الحال قلة الاسترسال، إنما يكون كالبرق، قل ما يدوم. وما دام حال إلا وهو ممزوج في الأغلب والأكثر، وقبيح بمن يسلك طريق العبودية ويقدر على زم الطباع عن الهوى واللهو واللعب، ثم يرسلها في اللعب متلبسا بحالة الجد في الموطن الذي قصده للمحاضرة والمناجاة.

وإذا تبين هذا فاعلم أن السالكين باعتبار هذا السماع الجائز ثلاثة:

أهل بداية، فالأولى لهم التجافي عن السماع والعدول عنه جنوحا إلى الخلوة وركونا إلى المجاهدة، وعملا على عمارة الباطن.

قال أبو القاسم الجنيد: «إذا رأيتم المريد يطلب السماع ويميل إليه، فاعلموا أنه مائل إلى البطالة» وأوكد ما على أهل البداية، المحافظة على الأوراد، وحفظها من طوارق الفساد وعوارض الخلل، بمجانبة الخلطة، والتزام الصمت، وخلاء البطن، والتشمير في العبادة، فمن أصلح في بدايته، هان عليه أمر نهايته.

وأهل تمكين، فالأولى لهم ما هم عليه من المجاهدة في الأعمال، والمكابدة على تحمل واردات الأحوال، حتى إذا ضاق بهم الخناق، وضعفوا عن حمل أعباء الأذواق، روح لهم بالأذكار الجهرية والسماع الجائز، ثم عادوا إلى حالهم الأول، وأهل نهاية، فهم ينفقون من الحقائق التي مع حفظ الرسوم الشرعية، والقيام بالوظائف الدينية، فسيان عندهم السر والجهر والخلطة والخلوة. جعلنا الله من تولاه بحفظه، وحرسه بوقايته بفضله وكرمه.

الفصل الخامس

في أذكار وأدعية يستعملها السالك مع حركاته من حين هبوبه من النوم إلى حين منامه

وفيه بعض وصايا اعلم عمر الله قلبي وقلبك بأنوار المراقبة، وعدل بنا عن أسباب المخالفة والمجانبة، أن من كمال حال السالك أن يكون معمور الأوقات بذكر الله ﷻ، وقد تقدم لنا أن من الحكمة استعمال الأذكار بحسب الأحوال، وإن كان معمور الأوقات بأوراده وهجيراه، فلا جرم أن يستعمل ما يناسب جميع ما يصدر عنه أو يرد عليه من الحركات، أو يشاكل ذلك، من الأذكار والدعوات خلال ليله ونهاره وقد مضى لنا فيما تقدم أن السالك مهما وجد معنى الذكر الموافق لحاله في لفظ النبوءة، فلا يعدل عنه إلى غيره على جهة الأولوية مع أن الأمر في ذلك واسع.

وها أنا أرتب للسالك ما يستعمله من الأدعية والأذكار مع تقلباته وتصرفاته وحركاته أثناء ليله ونهاره، مما ورد عن النبي ﷺ أو عن بعض السلف، أو تلقيته عن والدي، أو استنبطته واخترته لنفسي، مما لا ينافي معنى الشرع ولا ينافي مقتضى السنة، ولا يغاير حال الاقتداء والأتباع، لتنضبط بذلك أحوال السالك ويرتبط به قانون العبودية، ويعرج به إلى مقامات أهل الاختصاص والتمكين. فإذا قام من نومه فليقل: الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور، وصلى الله على سيدنا محمد.

وليقل عند لباسه أثوابه: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس من غير حول مني ولا قوة [1]، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند خروجه من بيته ماسحًا النوم عن عينيه رافعا رأسه إلى

---

(١) رواه أبو داود ٤٠٠٤، والترمذي، ٣٦٣١ وقال: حديث غريب، وابن ماجه ٣٥٥٧. وأحمد: ٣٠٥.

السماء: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى آخر عشر الآيات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عن انتهاضه إلى موضع الحاجة: اللهم أجملني على أجمل التصريف، ورافقني بالتيسير والتخفيف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وليقل عند الدخول إلى موضع قضاء الحاجة: أعوذ بالله من شر الخبث والخبائث وهمزات الشياطين وأن يحضرون، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وموضع قضاء الحاجة ينزه عنه ذكر اللسان، وغير ممنوع أن يكون الإنسان هناك ذاكرا بقلبه، مفكرا في أنعم الله وألطافه في تصريف قوى الجسد في الجذب والإمساك والدفع وغير ذلك، مما يقوم به الجسم وتستمد به الحياة، تصريفا يشعر بالوحدانية ويشير إلى إبداع الصنعة.

وليقل عند الخروج من الخلاء: غفرانك غفرانك، الحمد لله الذي رزقني لذته، وأبقى في جسدي قوته، وصرف عني مشقته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند استقاء الماء للوضوء: الحمد لله الذي فجر العيون بمائه، وعمنا بمرافق نعمائه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وليتحفظ من بقايا البول التي ربما بقيت في محل البول فأبرزها التصرف والحركة، وليستبرئ من ذلك لا يبلغ فيه حد الوسواس ولا يميل إلى التفريط وكان بين ذلك قواما».

وليقل عند الاستياك: اللهم طهر فمي من الآثام ولغو الكلام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وليقعد للوضوء تجاه القبلة.

وليقل عند الانتصاب للوضوء: بسم الله الرحمان الرحيم إلهي هذه أعضائي متصرفة في طاعتك يا غفار، فطهرها من الأوزار، وحرمها على النار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل قبل غسل يديه: نويت رفع الحدث، واستباح الصلوات، وأداء فرض الوضوء، مستحضرا معنى ذلك بقلبه.

وليقل عند غسل يديه: اللهم طهر يدي من أعمال المفسدين وألحقني بمراتب

الفائزين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند المضمضة: اللهم طهر فمي من الكذب والغيبة والنميمة وفحش الكلام واشغلني بذكرك في كل الأحوال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند الاستنشاق: اللهم طيبني بروائح الجنة، ومتعني بكرامة المنة وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند الاستنثار: اللهم طهرني من كل قذاء وقذر، واغفر لي ما بطن وما ظهر وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند غسل الوجه: اللهم بيض وجهي بنورك وضيائك وألبسني ملابس تخصيصك واجعلني من أوليائك، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند غسل اليد اليمنى: اللهم اجعلني من خلصاء أهل اليمين، وكرماء أهل التمكين وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند غسل اليسرى: اللهم لا تجعلني من أهل الشمال، ولا من حزب أهل الضلال، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

وليقل عند مسح الرأس: اللهم توجني بتاج المهابة والمعرفة والوقار، وأدخلني تحت ظلال عرشك مع المصطفين الأخيار، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند مسح الأذنين: اللهم اجعلني ممن سمع المواعظ بقلبه وسمعه، ولازم الحق بين فرقه وجمعه، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وليقل عند غسل الرجلين: اللهم ثبت على طاعتك أقدامي، واغفر بفضلك زللي واجترامي، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند فراغه من الوضوء رافعا طرفه نحو السماء: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، الشاكرين الذاكرين، المطيعين المخبتين، وارفع درجتي معهم في عليين وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

ثم ليقل: اللهم اغفر لي ذنبي، وبارك لي رزقي، ووسع لي في داري، واكلأني

في ليلي ونهاري، وسري وجهري وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليحكم غسل أعضاء الوضوء من غير اعتداء ولا تقصير، وليقلل من صب الماء، وليترك السواك إن كان صائما.

وليقل عند مسح الوجه بالمنديل: اللهم إني أسألك برد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وحسن الانتظام والاتصال بنبيك الرءوف الرحيم، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند انتهاضه إلى صلاة النافلة من آخر الليل: اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض وما فيهن، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، والنبيون حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله، وليقل إذا قام إلى الصلاة قبل التكبير: إلهي أسلم على نبيك المصطفى توسلا به إليك، واستفتاحا لخزائن القبول لديك مرة واحدة.

ثم ليقل ناصبا يديه: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بحبيبك المصطفى عندك يا حبيبي يا محمد، إني أتوسل إلى ربك، فاشفع لي عند المولى العظيم، يا نعم الرسول الطاهر، اللهم شفعه في بجاهه عندك، واجعلني من خيار المصلين والمسلمين عليه، ومن خيار المقربين منه والواردين عليه، ومن خيار المحبين فيه والمحبوبين لديه، وفرحني به في عرصات القيامة، واجعله لي دليلا إلى جنات النعيم، واجعله مقبلا علي، ولا تجعله غاضبا علي ولا معرضًا، واغفر لي ولجميع المسلمين الأحياء والميتين، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين، ثم يمسح وجهه بيديه جميعا.

ثم ليقل: اللهم إني أتوجه إليك بجلالك، وأتوسل إليك بكمالك، ومنتهى رحمتك وأفضالك، واختصاص أنبيائك وإرسالك، أن تثبتني في زمر المهتدين، وأن

تكتبني في ديوان المجتهدين، وأن تجعلني من حزبك المقربين وأهل قربك المخلصين، الذين عن طاعتك لا ينصرفون، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم ليشرع في الصلاة، فيفتتح بركعتين خفيفتين يقرأ في الأولى بالفاتحة وآية الكرسي، وفي الثانية بالفاتحة وسورة الإخلاص إحدى عشر مرة، ثم ليدخل إلى الصلاة بحزبه من القرآن على حسب عادته، وليجعل آخر الليل بعد صلاته الدعاء والاستغفار.

فإن سمع الأذان فليقل عند التكبير الأول: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سبحان المنفرد بالكبرياء والعظمة والجلال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند التشهد الأول: أشهد أن لا إله إلا الله واحد حي صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفؤا أحد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند التشهد الثاني: أشهد أن محمدا عبده ورسوله، حبيبي وقرة عيني، صلى الله عليك، حبيبي وقرة عيني صلى الله عليك، حبيبي وقرة عيني صلى الله عليك.

رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند الحيعلة الأولى: «لا حول ولا قوة إلى بالله العلي العظيم، اللهم اجعلني من أهل الخلوص والإخلاص، الظافرين بقربك في محل الاختصاص، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند الحيعلة الثانية: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي لعظيم»، اللهم اجعلني ممن أخلص في صلاته، وأصلح في تصرفاته، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند قوله: الصلاة خير من النوم: «سبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم» ولا يفتقر إلى ما تفتقر إليه الأجسام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند التكبير الآخر الله أكبر من أن تكيفه العقول، أو يلحقه الأفول، أو يطرأ عليه الذهول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند التهليل الأخير: لا إله إلا الله الواحد الصمد المنزه عن الشريك والنظير، والصاحبة والولد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وآته الشفاعة والوسيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

وليقل إذا أصبح: سبحان فالق الإصباح بحكمته، اللهم إني أصبحت وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهنا بعملي، لا أستطيع دفع ما أكره، ولا نيل ما أرجو، وأصبح الملك والعظمة والكبرياء والليل والنهار وما يضحى فيهما لله وحده، لا شريك له اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، أسألك أن تقضي عني ديني، وأن تجيرني من الفقر، وأن تجعل أول هذا النهار فلاحا، وأوسطه نجاحا، وآخره صلاحًا، وليصل ركعتي الفجر ثم ليقل: ألجأ إلى التسبيح والاستغفار، وأتوجه بهما إلى العزيز الغفار، ثم ليقل سبحان الله العظيم وبحمده، سبحان الله العظيم وأستغفر الله مائة مرة.

وليقل إذا فتح باب منزله لخروجه: بسم الله وبالله توكلت، على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا خرج عن الباب: اللهم أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا نهض ماشيا: اللهم اجعلني في حرزك وجوارك، وأمانتك ورعايتك، وحراستك ووقايتك وكالتك ووديعتك، فأنت الذي لا تضيع لديه الودائع، ثم ليقل: اللهم إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا رياء، ولا سمعة، إنما خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آله، وأن تنقذني من عذاب النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

ثم ليقل: «رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي وانصرني على من بغى علي، واهدني ويسر الهدى إلي، رب اجعلني لك شكارًا لك ذكارًا، لك مطواعًا لك مخبتًا إليك أواهًا منيبًا.

رب اغفر لي زلتي، واقبل توبتي، واغسل حوبتي وثبت حجتي، وارحم عبرتي، وسدد لساني واهد قلبي واسلل سخيمة صدري

فإن كان في طريقه إلى المسجد بعد، فليعمر باقيه بهجيراه، وليقل عند دخوله المسجد: «بسم الله وبالله، والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنبي، وافتح لي أبواب رحمتك »، وليبدأ بانتزاع رجله اليسرى من نعلها وبإدخال اليمنى إلى المسجد.

وليقل إذا أقيمت الصلاة: «أقامها الله وأدامها » ما دامت السماوات والأرض، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا توجه إلى الصلاة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي إلى أحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل بعد التكبير إن أمكنه: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد.

وليجتهد في إحضار فكره لمعنى القراءة والذكر في الصلاة، وليحضر في فكره المعنى المراد من الصلاة، فليعمل بحسبه من التبتل والخشوع والخضوع والافتقار، وطرد الخواطر عن باطنه، وفراغه من أعراض الدنيا وأوهامها، حتى يتجرد لمناجاة ربه، وليعط الصلاة حقها من إتمام الركوع والسجود والتؤدة في سائر أركانها.

وليقل عند الركوع: اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظامي، سبحان ربي العظيم وبحمده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند الرفع من الركوع: اللهم ربنا ولك الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أنت أهل الثناء والحمد، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند السجود: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين، سبحان ربي الأعلى وبحمده، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل بين السجدتين: أستغفر الله ثلاثا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل بعد التشهد: أعوذ بالله من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال.

وليقل في دبر كل صلاة ما يذكر، يتعوذ ويبسمل مرة، ويقرأ فاتحة الكتاب مرة، ثم ليقل: اللهم إني أقدم بين يدي كل نفس ولمحة وخطرة وطرفة يطرف بها أهل السماوات والأرض وبين يدي كل شيء هو في علمك كائن أو قد كان، أقدم بين يدي ذلك كله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إلى آخر آية الكرسي مرة واحدة، وخاتمة البقرة مرة و: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] مرة، و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] مرة، وخاتمة براءة مرة، وخاتمة الحشر مرة، وسورة الإخلاص ثلاثا، والمعوذتين مرة و«سبحان الله والحمد لله والله أكبر» ثلاثًا وثلاثين مرة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مرة، والصلاة التامة عشرًا، واللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وعلى جميع الملائكة والنبيين وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات صلاة تبلغني بها غاية رضاك ثلاثًا، وإن لم يكن له شغل يخرج إليه من المسجد، فليقم في المسجد ينتظر الصلاة الآتية ليفوز بالرباط ودعاء الملائكة.

وليقل عند الخروج من المسجد: بسم الله وبالله، والصلاة على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله، وليقدم الرجل اليسرى في الخروج، وليؤخرها في لباس نعلها.

وليقل إذا دخل السوق: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد،

يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير، فإن كان من أهل البداية قصد بذلك دفع أسباب الغفلة عن نفسه، وإن كان من أهل التمكين، قصد بذلك حال حضوره بإقرار توحيده، وإن كان من أهل النهايات قصد بذلك أن يتصدق بثوابه على الغافلين من أهل الأسواق.

كما حدثني أبي قال: حدثني شيخي أبو القاسم قال: كان من ترتيب الشيخ أبي عمران أيام إقامته بمالقة، إذا صلى الصبح، توجه ذاكرا في المسجد الجامع، حتى إذا كان وقت الضحى، صلى صلاة الضحى، ودعا وسلم على النبي ﷺ، ثم يخرج يتمشى في الأسواق ومواضع الغفلات، كحلق القضاة ونحوها، فلا يزال يذكر الله بين الناس في تلك المواضع والأماكن إلى وقت الزوال، فيجدد الوضوء ثم يعود إلى المسجد، فيقيم فيه حتى يصلي صلاة العشاء الآخرة ما لم يعرض له عارض متأكد. قال: وكان يقصد بذكره في الأسواق ونحوها الصدقة على أهلها بثواب ذلك وقد ورد: «ذاكر الله في الغافلين كالمجاهد في سبيل الله».

وليعط الطريق حقه من غض البصر، وإماطة الأذى عن الطريق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن استطاع، وإلا فبقلبه وإفشاء السلام على من عرف ومن لم يعرف وليتق موارد الفتن ومواطن الباطل، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وليحسن الظن بالمسلمين، ولا ير لنفسه فضلا على أحد منهم وليعلم أن ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]، وإن كان من أهل الأسواق، فليلازم الحق في تصرفاته، والتناصف في معاملاته، وأداء الأمانة في بيعه وشرائه، والنصيحة لإخوانه، والصدق في أقواله، وليتجنب الدين جهده، فإن كان لا بدّ، فله لا عليه، وليترك الهلع والطمع والحرص، وليخذ من دنياه ما يعينه على أخراه، ولا بأس باكتساب المال الحلال فنعم المال الصالح للرجل الصالح ولينه عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

وليقل إذا رأى باكورة في سوق: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا رأى مبتلى: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك، وفضلني على كثير

ممن خلق تفضيلًا، اللهم أعظم أجره، وأجزل صبره، واعف عني وعافني وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا قام من مجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا أصابه هم أو كرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم » وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا غضب: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وليتوضأ للصلاة ثم ليلصق بالأرض ثم ليصل على النبي ﷺ.

وليقل إذا رأى حية: «أنشدكم الله والعهد الذي أخذ عليكم نوح، والعهد الذي أخذ عليكم سليمان، يقول ذلك كلما رآها ثلاثة أيام، ثم ليقتلها بعد ذلك.

وليقل إذا راعه شيء: الله ربي لا أشرك به شيئًا، اللهم إني أعوذ بك من شرهم، وأدرأ بك في نحورهم وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا استراب الخبر: سبحان الله لا يعلم الغيب إلا هو وأستغفر الله، وصلى الله على سيدنا محمد.

وليقل إذا أصابته مصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم صبرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها»، وصل وسلم على سيدنا محمد.

وليقل إذا رفع رأسه إلى السماء: يا مثبت القلوب، ثبت قلبي على توحيدك وعلى طاعتك، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا رأى الريح: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فها وشر ما أرسلت به، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا رأى سحابا مقبلا بالمطر: اللهم سحابًا نافعًا، والحمد لك على نعمك الظاهرة والباطنة، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إن اشترى جارية أو غلاما أو تزوج امرأة بعد الأخذ بناصيتها: «اللهم إني

أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل لمن صنع إليه معروفا: «بارك الله في أهلك ومالك، وزادك من فضله وآتاك من خيره، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا عرضت له حاجة عند الله أو عند أحد من خلقه بعد إسباغ الوضوء وصلاة ركعتين والثناء على الله والصلاة على رسوله محمد ﷺ: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، اللهم لا تدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضًا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين» وصل على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل عند دخول منزله: «بسم الله وبالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، اللهم أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا. ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وليسلم على أهله، وإن كان على وضوء فليصل ركعتين في مصلاه وقبل أن يجلس، يقصد بهما تنحيه مصلاه.

وليقل عند الأكل: بسم الله الرحمان الرحيم، اللهم بارك في طعامنا هذا، وأطعمنا خيرا منه إلا أن يكون طعامه لبنًا، فليقل: «وزدنا منه، وإن سمى الله في أول كل لقمة، فهو حسن، وإلا فليقل: بسم الله أوله ووسطه وآخره، وإن كان صائما فأفطر فليزد: «اللهم لك صمت وبك آمنت وعليك توكلت، وعلى رزقك أفطرت، وليمضغ أول لقمة على شقه الأيمن من غير إدام، وليرقق اللقم، وليجد المضغ، وليجلس للأكل على وركه الأيسر، رافعا ركبته اليمنى واضعًا فخذه اليسرى، ولا يأكل متكئًا ولا متربعًا ولا على بطنه إلا من عذر، وليتناول الطعام بالسبابة والوسطى والإبهام من يده اليمنى، إلا أن يكون شيئًا يتعذر عليه تناوله بذلك، فليستعن بيده اليسرى كالبطيخ ونحوه، ولا يمدح طعامًا ولا يذمه، ولا يأكل ترفها، ولا يميل إلى زائد على ما يقوى به جسده من الشبع، ولا يعتب أهله ولا خادمه على شيء من أمور طعامه، ولا يوثر نفسه دونهم بشيء منه إلا عن رضا منهم وتسليم.

وليعمل الفكرة أثناء أكله في سوابغ أنعم الله عليه من غير استحقاق مع تفريطه في القيام بشكرها، وليفكر فيما اشتمل عليه جسده من العجائب التي تذكره بالوحدانية وتنبهه لعجيب الصنعة وبديع الإتقان، وليلتفت إلى حكمة قطع الأسنان، وطحن الأضراس، واندفاع الغذاء على مجراه إلى المعدة، ثم توزيعه إلى دم وفرث، ووصول القوة منه لكل جزء من أجزاء البدن، من عظم، وعرق، وعصب، ولحم، وظفر، وشعر، وجلد، وبشر، لكل جزء من ذلك ما يخصه ويوافقه نوعًا ومقدارًا، كل ذلك يشد عرى التوحيد، ويقضي بصحة الافتقار مع الأنفاس، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] لواحد صنعها، ما الصنع لاثنين.

وليقل عند شرب الماء: بسم الله في أول المصة الأولى والحمد لله في آخرها وفي أول الثانية: بسم الله الرحمن الرحيم، وفي آخرها الحمد لله رب العالمين وفي أول الثالثة: بسم الله الرحمان الرحيم، وفي آخرها: الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم ويشرب مصا، ولا يتنفس في الإناء، ولا يشرب واقفا، ولا يسرف في الشرب، حتى يثقل به بدنه، ولا يستعمل في شربه وأكله ونحو ذلك أواني الذهب والفضة ونحوها، وإن كان صائما فليفطر على الماء، ولا يسرف، فإنه ينقص القوة، وليقل: «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجران إن شاء الله»، ومن السنة تعجيل الفطر وتأخير السحور لا سيما لمن كان له تعلق باطن بالطعام.

وليقل عند تمام الأكل: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين من غير حول منا ولا قوة، وليتخلق بأخلاق الكرام، وليتصف بأوصاف السنة، وليجاهد نفسه على ترك الشره في الأكل والشرب واللباس، والكلام، والنظر والاستماع وغير ذلك.

وليقم بحق الله في العيال والأولاد والأهل والرحم والصاحب والجار والخادم وسائر المسلمين على اختلافهم، فيؤتي كل ذي حق منهم حقه من النفقة، والكسوة، والتعليم، والتأديب، والإحسان، والتجمل، والسلام، والمصافحة، وعيادة المريض، وحضور الجنازة، وتشميت العاطس، وإغاثة الملهوف، وغير ذلك من الحقوق الواجبة والمندوبة.

وليقل إذا رأى الهلال: «اللهم أهله علينا باليمن والبركة والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله»، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا رأى القمر: «اللهم إني أعوذ بك من شر الغاسق والواقب والباغي والحاسد»، وصل على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إثر الوتر إذا سلم: «اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام، إليك يعود السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله، سبحان الملك القدوس، سبحان الملك القدوس، سبحان الملك القدوس»، يمد صوته بسبحان في المرة الثالثة، ثم يهوي ساجدا يقول: سبوح سبوح، قدوس قدوس، رب الملائكة والروح ثلاثا، ثم يرفع فيقرأ آية الكرسي، ثم يهوي ساجدا فيدعو بما شاء من خير الدنيا والآخرة، ثم يرفع رأسه، فينصب يديه ويدعو بما شاء، ثم يقوم فيسلم على النبي ﷺ بالكيفيات التي سلم بها عند قيامه آخر الليل بحسب ما ذكر من دعاء وغيره، وليحافظ على وتره من أول الليل بذلك الحزم، ولا تمكر به النفس، فتقول له: آخر الليل أفضل، وليعمر آخر الليل بما تقدم من الأعمال، ولا يشتغل بعد وتره إلا بما ينفعه عند الله من الأقوال والأفعال.

وليقل إذا أخذ مضجعه: اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه، وبك أحيا وبك أموت وإليك المصير، اللهم إني وجهت وجهي إليك، وأسندت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك، رغبة ورهبة منك إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، اللهم إن أمسكت نفسي، فارحمها وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وليقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثا ثلاثا، ثم يجمع كفيه ويتفل فيهما، ويمررهما على ما أمكنه من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. ثم ليقرأ آية الكرسي مرة، وسورة الإخلاص خمسين مرة، ثم لينم على شقه الأيمن، يده اليمنى تحت خده الأيمن ويده اليسرى على وركه الأيسر، وإن أمكنه أن يكون متوجها إلى القبلة كهيئة الميت في قبره، فليفعل، وليحضر في فكره أنه مضطجع تأهبا للموت، إذ قد يمسك الله نفسه، فلا يبعثها إليه، وليحاسب نفسه على أعمال نهاره، وليتب من سيئها ويستغفر منه، وليشكر الله على حسنها ويرغب منه القبول،

وليتأهب للقدوم على الله، ولينم على وضوء، وقد كان بعضهم لا ينام إلا ووصيته عند رأسه، وليحسن الظن بربه.

وليقل إذا تعرى من الليل: لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إني أستغفرك من ذنبي وأسألك رحمتك، اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد إذ هديته، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وليقل إذا رأى رؤيا يكرهها: أعوذ بالله من شرها ومن شر ما فيها وأسأله خيرها، وخير ما فيها، وليتفل عن يساره ثلاث مرات، وليصل على النبي ﷺ.

وليقل إذا روع في منامه: «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون.

وليقل إذا أتى أهله: «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم جنبني الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتني»، وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله، وليحافظ على وضوء الجنب، لينام على إحدى الطهارتين، وإن اغتسل فهو الكمال، وبالله التوفيق.

فصل

فيما يتعلق بالسفر

فليقل إذا ودع مسافرا ويده في يده مصافحا: «أستودعك الله دينك وأمانتك وخواتم عملك، أنت في وديعة من لا تضيع لديه الودائع، أقرأ عليك السلام، وودعك الله التقوى، وغفر ذنوبك ويسر لك الخير حيث كنت، وأعانك على طاعته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله»، وليشيعه ما أمكنه.

وليقل المسافر: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل عند الركوب على الدابة: «بسم الله، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، الحمد لله الذي عمنا لطفه، وشملنا إحسانه،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله»، وليذكر على كل شرف، يكبر الله في الصعود، ويسبحه في الانحدار.

وليقل عند ركوب البحر: «بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم، اللهم أنزلني منزلًا مباركًا وأنت خير المنزلين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا رأى ما يتطير به: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا سحر في سفره: «بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا وأفضل علينا عائذًا بالله من النار، وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه».

وليقل إذا نفرت له دابته: وإن يكن هناك أحد: «أعينوا عباد الله، باسم الله استعنت بالله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا نزل المنزل: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، يا أرض، ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما يدب عليك، وأعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل إذا قدم على بلدة أو حصن أو قرية: اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، أسألك خير هذه القرية أو البلدة أو الحصن، وخير ما فيها وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها، وشر أهلها وشر ما فيها.

وليقل إذا كان قافلا عند دخول بلده: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون يكررها ثلاثًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل عند دخول منزله: «توبًا لربنا أوبًا، لا يغادر علينا حوبًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم» وليتق الله في سفره، وليواصل ذكره، ولا يرتكب

مخالفة ولا يعرض نفسه للهلاك ولا يعاشر إلا الأتقياء، وليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، والمسافر ضيف الله ما لم يعصه.

فصل
فيما يتعلق بعيادة المريض

وليقل من أصابه وجع أو حمى: «بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نغار[١] ومن شر حر النار»، ثم ليقرأ أم القرآن سبعا، وسورة الإخلاص، والمعوذتين ثلاثا ثلاثا، ثم يقول: «ربنا الله، تقدس في السماء اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع أو هذا الألم» [٢]، ثم يمر يده على الوجع سبع مرات، يقول في كل مرة: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله»[٣]. وليقل من لدغته عقرب ونحوها المعوذتين وليصب على موضع اللدغ ماء فيه ملح وليصل على سيدنا محمد وآله وليقل من كان له نبت ونحوه: «اللهم مصطفي الكبيرة ومكبر الصغيرة أطفئها عني برحمتك وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله».

وليقل عائد المريض إذا دخل عليه: «أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفيك» ثلاثا، ثم ليضع يده على جبين المريض، أو على يده أو على صدره ثم يقول: اللهم أنت الواقي وأنت الشافي وأنت المعافى، وأنت المسؤول في كل حال، اللهم اشف هذا المريض شفاء لا يغادر سقما، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، يكرر هذا ثلاثًا، وليذكره، ولينفس له في الأجل، وليؤنسه بما يحمله على حسن الظن بالله، وليحضه على الذكر والتوبة والصدقة والوصية، ورد

(١) جُرْحٌ نَغّار: سالَ منه الدَّمُ. المحيط في اللغة (١/٤٠٨).

(٢) رواه أبو داود ٣٨٧٤، والحاكم في المستدرك (١/٣٤٤).

(٣) رواه مسلم (٤/١٧٢٨، رقم ٢٢٠٢)، وأبو داود (٤/١١، رقم ٣٨٩١)، والترمذي (٤/٤٠٨، رقم ٢٠٨٠)، ومالك (٢/٩٤٢، رقم ١٦٨٦).

الظلمات، وليقصد بزيارته صلة أخوة الإسلام، والمرض نذير الموت، فليعد الزاد، وليأخذ السالك بحظ من عيادة المرضى من أصحابه وإخوانه وقرابته وجيرانه وسائر المسلمين، فإن ذلك من حقوق أخوة الإسلام، مع ما في ذلك من التذكرة والأجر.

فصل

فيما يتعلق بزيارة القبور

فليقل زائر القبور إذا خرج من البلد إلى المقابر: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وليقدم رجله اليمنى في الخروج لأنها دار حق ورد عليها صادرا عن دار الباطل والغرور، ثم ليحضر في فكره موتى أهل الأرض، فيبدأ بالسلام على سيدهم وأشرفهم، ثم من بعده الأفضل فالأفضل، فيقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا، ثم يقول: «وعلى جميع النبيين والمرسلين وعلى الصحابة أجمعين وسائر الأولياء والصالحين»، ثم يقول: «**سلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»(١)، قاصدًا جميع الموتى من المؤمنين.

* **والناس في زيارة القبور ثلاثة:**

• **أهل بداية:** فهم يطلبون الخلاص من نفوسهم، فليقصدوا بزيارتهم القبور التذكرة بدار الآخرة ليرغبوا فيها، والزهد في الدنيا ليرغبوا عنها، فليبدأ بزيارة الأقرب فالأقرب من أهله، إذ حرمتهم في الحياة كحرمتهم بعد الممات، وليتحفهم بشيء من تلاوة القرآن والذكر والدعاء، وليحضر في فكره الماضين من أهله وأصحابه وأقرانه وجيرانه ومعارفه، وليعلم أنه خلف لهم، وأن ما جمعوه تركوه، وما عملوه وجدوه في كتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] وليتوسل لنفسه ولهم بالصالحين من عباده الأحياء منهم والأموات متبركا بزيارة قبورهم، ولتكن تلاوته خلال مكثه في المقابر يس، والقيامة، والإخلاص، ومن الذكر التهليل والتصلية، وفي أثناء سعيه بين القبور يذكر هجيراه.

---

(١) رواه مسلم (٢/٢٢٩)، وأبو داود (٩/٤٦٨).

• **أهل تمكين:** فهم يقصدون الفرار من المواضع التي تتشعب عليهم علقها وعللها إلى دار تتصفى فيها مشاربهم، ويقوى شوقهم إلى الله تعالى، فيحضر في فكره شرف القدوم على الله، والاتصال بالملإ الأعلى، والخروج عن دار تثبط الأرواح عن الفراديس القدسية وتحبسها على الحضرات الربانية، فربما يجد في القبور استرواح نفحات القدوم على الله تعالى أنسا يزيده في مادة اليقين، ويخلصه من أوهام التقلب والتلوين، ثم يرى لأهل القبور عليه حقا، فيتحفهم بالتلاوة والذكر ويتوسل بصالحهم في خلاص طالحهم، وليكن ذكره هجيراه.

• **وأهل نهاية:** فالموت والحياة عندهم سواء، غير أنهم يشركون الأحياء والأموات في صلات الدعوات ومواهبهم من الأعمال الصالحات وما يبذلونه للخلق من معروف الأعمال والذكر والهداية إلى الله تعالى، فهم يقصدون بزيارة القبور إعطاء كل ذي حق حقه، فهم رحمة لأهل الأرض أحيائهم وأمواتهم.

ومن أدب زيارة القبور أن لا يتكلم في المقابر بلغو، ولا يتخذها موعدا للاشتغال، وأن تقصد في الأوقات الفاضلة، وعلى حين خلوة، وإذا رجع قدم رجله اليسرى، وليأخذ السالك بحظ من اتباع الجنائز، فذلك من جملة حقوق المسلمين مع ما في ذلك من الأجر والتذكرة بالدار الآخرة، وبالله التوفيق.

فصل

فيما يتعلق بالاستخارة

والاستخارة فيما أشكل حكمه ولم تعلم عاقبته، من الأمر الضروري في حق السالك. أما ما استبان رشده، فلا مانع عن فعله، وأما ما استبان غيه، فلا مانع عن تركه، وأما ما أشكل الأمر فيه، فليس إلا الركون إلى الله تعالى بالافتقار والانكسار، في طلب الخيرة، وحسن العاقبة، وتيسير السداد، والحفظ من موارد الفساد، بإخلاص ضمير، وصدق توجه، وإسقاط الحول والقوة، وعدم الركون إلى هوى النفس، فلا يبقي لنفسه من نفسه مع الله نظرا ولا اختيارا ولا ميلا، بل يسلم الأمر كله لله، إذ لا يعلم العاقبة أحد غيره.

ومن أدب الاستخارة أن يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم ليصل ركعتين فأكثر، يقرأ في الأولى بالفاتحة: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] إلى مبين، والثانية قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٦٨ - ٧٠]، وليكن ذكر ركوعه وسجوده: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا اسلم فلينصب يده، وليحمد الله، وليثن عليه، وليصل على سيدنا محمد بالصلاة التامة ﷺ عشر مرات وليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك مولاي، تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر، وتسمي حاجتك، خير لي في ديني ودنياي ومعادي ومعاشي وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسر لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر، ويسمي حاجته، شر لي في ديني ودنياي ومعادي ومعاشي وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني بقضائك [(١)]، ثم ليصل على النبي ﷺ بالتامة عشرًا، ثم لينصرف معتدل الباطن منتظرًا من الله ﷻ أسباب الفعل وأسباب الترك.

فصل

فيما يتعلق بيوم الجمعة

ويوم الجمعة من أفضل الأيام وأشرفها، فليتأهب فيه بإظهار التجمل[(٢)] لما شرع من إظهار شعائر الإسلام، لينتظم شمله في جميع المسلمين بشهود ذلك الوقت المشهود، والاختصاص بذلك الأجر، المخصوص بنشر الرحمة وقبول الدعاء، فليحافظ على غسل الرواح[(٣)] كغسل الجمعة قاصدا الفضيلة، وليلبس أحسن ثيابه،

---

(١) لحديث جابر، أخرجه أحمد ١٤٦٨٩، وأبو داود، ١٥٢٤، والنسائي: (٦/٨٠)، وابن ماجه ٣٨٣، والبيهقي في الكبرى: (١/١٥١).

(٢) إشارة لحديث: «ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته» رواه ابن ماجه (١٠٩٦)، ومالك (١/١٠).

(٣) الإشارة إلى قول مالك: «من اغتسل يوم الجمعة أول نهاره، وهو يريد بذلك غسل يوم الجمعة، فإن ذلك الغسل لا يجزئ عنه، حتى يغتسل لرواحه». الموطأ (١/١٠٢ - ١٠٣).

وليستك بما أمكنه من السواك، وليتطيب بما يتيسر له من الطيب(١)، ثم ليرح إلى المسجد مبكرًا محافظًا على الانتظام في الصف الأول، ثم الأقرب له فالأقرب، والميامن أفضل من المياسر، والقرب من الإمام أحسن من البعد، وليثابر على ما أمكنه من نوافل الصلاة والذكر، وليدافع الخواطر عن باطنه بملازمة الإخلاص واستعمال دواعي الخضوع.

ومن أفضل ما يستعمله يوم الجمعة صلاة التسبيح، وهي أربع ركعات يقرأ في كل ركعة نحو عشرين آية بعد فاتحة الكتاب، فإذا فرغ من القراءة في أول ركعة، فليقل وهو قائم قبل أن يركع: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» خمس عشرة مرة، ثم يركع ويقولها وهو راكع عشرا، ثم يرفع رأسه من الركوع، فيقولها وهو قائم عشرًا، ثم يهوي ساجدًا فيقولها وهو ساجد عشرًا، ثم يرفع رأسه من السجود فيقولها وهو جالس عشرا، وفي آخر العشر يقوم بالتكبير، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة وإن كان قد ورد فيها كيفية أخرى، فهذه الكيفية أقرب، رواها أبو داود وغيره، وفي الجلوس إلى التشهد يقول العشر قبل التشهد، ويخالف بين الجلوس للتشهد وبين السجدتين وبين الجلوس للذكر، فينصب فخذه اليمنى في التشهد وبين السجدتين ويرفعهما فيما سوى ذلك.

قلت لوالدي: بأي الأمرين تأخذ ذلك بإفراد كل ركعتين بتكبيرة الإحرام والسلام، أو جمع الأربع ركعات، بإحرام واحد وسلام واحد فقال لي: أي ذلك أكثر أجرا فقلت له: إفراد كل ركعتين بإحرام وسلام لما في ذلك من زيادة ذكر التكبير والسلام، وحركة الإشارة عند الانفتال(٢) بالسلام، فقال لي: فالتاجر يطلب زيادة الربح، قلت له: فماذا تقرأ فيها مع أم القرآن فقال لي: في الأولى: التكوير وفي الثانية: الانفطار، وفي الثالثة: المطففين، وفي الرابعة: الانشقاق، ونحو ذلك.

ومن لم يقدر على هذه الصلاة التسبيحية في كل يوم، فلا أقل مع طلب الربح من صلاتها في يوم كل جمعة، وما قارب وقت الزوال أفضل أن تصلى فيه لما ورد

---

(١) إشارة لحديث رواه مالك عن نافع «أن عبد الله بن عمر كان لا يروح إلى الجمعة إلا إذا ادهن وتطيب» رواه مالك في الموطأ (١/١١٠).

(٢) الانفتال هو الانصراف. مقاييس اللغة (٢١١/٣).

فيه من الأثر، فليجعلها آخر تنفله قبل طلوع الإمام على المنبر، إلا أن يخشى أن يدخل بذلك شغبًا على من يليه؛ لقلة معاهدة الناس لمثل هذه الصلاة فليصلها في منزله أو أول تنفله في المسجد قبل اجتماع الناس.

وليحافظ على الاستكثار من أعمال البر في يوم الجمعة كالصلاة على الجنائز واتباعها وعيادة المرضى، وبذل الصدقة، وصلة الرحم، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ وغير ذلك، لتصعد صحيفته في ذلك اليوم زكاة لما سلف من أيامه.

وليكن هجيراه فيه صلاة على النبي ﷺ ما لم تعرض علة تقتضي هجيرا آخر، فطب علته أولى، وليقل بعد صلاة عصر يوم الجمعة بعد الذكر الذي يذكره دبر كل صلاة: اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليما ثمانين مرة وإن قرأ سورة الكهف زيادة لذلك فهو أكمل.

وليقل بعد السلام إثر الوتر في ليلة كل جمعة، وعند ختم وتره وفي أول تنفله عند قيامه: «اللهم رب الشهر الحرام والمشعر الحرام، والركن والمقام، ورب الحل والحرام، أقرئ محمدًا مني السلام سبعا»، ثم ليقل: «صلى الله عليك يا حبيبي وسلم إلى آخر تلك الوظيفة».

فصل

وما أوردته من الأدعية والأذكار التي يستعملها السالك مع حركاته أثناء ليله ونهاره، فذلك على سبيل الاختصار طلبا للتخفيف، لما ورد في ذلك كله من الآثار المروية، والأحاديث النبوية، وأكثر ما أوردته في ذلك من الصحاح، أو سائر المسانيد، والكيس النجيب في هذا الطريق لا يضيع وقتا من أوقاته ولا يهمل حالا من أحواله من وظائف العبودية، حتى يستقيم عمود سلوكه بصلاح الأعمال، وسداد الأقوال، والصدق في الأحوال، وقد كان السلف رضوان الله عليهم لا يبرحون عن وظائف العبودية سرا وعلنا.

وبالله التوفيق.

الفصل السادس
في أدعية مختلفة المعاني
بحسب أحوال السالكين

اعلم - وفقني الله وإياك لصالح القول والعمل، وبلغنا من رضوانه غاية السؤال والأمل - أن الحامل على ختم هذا الكتاب بهذا الفصل أمور:

* **منها:** أن يكون انفصالي عن تأليفه وتصنيفه، وانفصال قارئه ومطالعه عن دعاء يختم به ما تقدم من ذكر المقامات، وما يتعلق بها، وقد روي أن النبي ﷺ ما كان ينفصل من مجلس مع أصحابه حتى يدعو لهم.

* **ومنها:** أن السالك شعاره العبادة التي تضمنتها المقامات، فلا بدّ وأن يرسم له من مخها ما يستقيم به طريق عبوديته، ويتمحض به خالص افتقاره واضطراره. «**والدعاء مخ العبادة**» [1].

* **ومنها:** وهو العمدة، تنبيه كل سالك على بعض الأدعية المناسبة لحاله، الموافقة لمقامة يستعمله، أو ما ينسجه على منواله، فليس المراد إلا المعنى الشرعي، وقد تقدم أن من الحكمة استعمال الأذكار بحسب الأحوال، والدعاء من هذا القبيل، وها أنا أرسم لكل سالك ما يناسبه من الأدعية بحسب منزله، استفتح كل دعاء من ذلك بشيء مما ورد عن النبي ﷺ في المعنى المراد، ثم اجتلب أثر ذلك من الأدعية والمناجاة التي نظمتها وألفتها واخترتها لنفسي، مرتبة على منازل السالكين، جريا على طريق الاختصار، فإن مجال الأدعية واسع، وبحره طامس، وبالله التوفيق.

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن أنس، ٣٤٣١ وقال: حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

فصل

واعلم أن للدعاء شروطًا وآدابًا:

* **أما شروطه فأربعة:**

• **الأول:** الصدق بموافقة الظاهر للباطن في حلية الخضوع وشعار الافتقار نطقا وهيئة وإخلاصًا، وليعلم أنه عبد ذليل، مسكين فقير، بين يدي مولى عظيم جليل غني محسن وهاب، فجدير أن يخشع قلبه، وتخضع جوارحه، ويخلو باطنه مما سوى الله تعالى.

• **الثاني:** اجتناب الاعتداء في الدعاء، والاعتداء ممتد إلى وجوه منها الدعاء بما لا يحل كإثم أو قطيعة، **ومنها:** انتحال السجع الملهي عن الإخلاص في الدعاء، **ومنها:** الإشراك فيه بشعبة من شعب الرياء إلى غير ذلك مما ينافي العدل وينافي الشرع، والله لا يحب المعتدين.

• **الثالث:** افتتاح الدعاء بالحمد لله والثناء عليه، والصلاة على النبي ﷺ وقد ورد الشرع بالحض على ذلك، مع ما في الثناء على الله بين يدي الدعاء والصلاة على النبي ﷺ من الأسرار المؤذنة ببلوغ الآمال ونجاح الأحوال.

• **الرابع:** إساءة الظن بالنفس وحسن الظن بالله إيقانا بالقبول والإجابة التي منها العاجل والآجل، والمقدم والمؤخر، وليس من شرط القبول كمال حال الداعي وعصمته، إنما شرطه الخضوع والانكسار بما يعلم الداعي من نفسه من نقص وتقصير والله ﷻ يقول: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**»[١]. فهو الكريم المحسن الجواد على الإطلاق والعموم ورحمته وسعت كل شيء

* **وأما آدابه فأربعة:**

• **الأول:** أن يكون على طهارة وضوء؛ لأن الدعاء ذكر، ومن كمال الأدب في الدعاء أن يناجي الداعي ربه وهو على أكمل الصفات من طهارة الباطن والظاهر، والداعي وافد على حضرة مولاه فليكن طاهرا.

---

(١) تقدم تخريجه.

• **الثاني**: أن يقدم بين يدي دعائه صلاة ركعتين فأكثر؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين وربه، وطالب اتصاله وسيلته الصلاة.

• **الثالث**: نصب اليدين عند الرغبة بظهور الكفين مما يلي الأرض، وعند الرهبة بالعكس، كأنه يدفع عن نفسه مكروهًا، وفي الأول كأنه يطلب أن تملأ له بشيء من الهبات ولأعمال الظاهر أثر في انفعال الباطن بمقتضى الظاهر، وفي حديث أبي هريرة حين اشتكى إلى النبي ﷺ نسيان ما سمع من الحديث، فقال له النبي ﷺ: «افتح ثوبك»، فدعا له، ثم قال له: «اضمم ثوبك»، ما يدلك على هذا المعنى، وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾ [الشرح: ٧]، أي انصب أكفك للدعاء، وليمسح بكفيه آخر دعائه وجهه، كأنه يصيب مما ناله من بركة الدعاء في كفيه وجهه، كالتفل أثر الرقية في الكفين والإمرار بهما على الألم، والسنة عاضدة لهذا كله من وجوه.

• **الرابع**: أن تكون ألفاظ الدعاء دالة على المعنى الذي يقتضيه حاله وتدعوه إليه ضرورته وإن أراد أن يدعو بغير ذلك، فليبدأ بالأهم فالأهم من أمره، ولتكن محامده وثناؤه على الله بكيفيات تشير إلى معنى مراده وطلبه، إذ ليس من الحسن أن يقول: يا شديد العقاب اعف عني، ولا يا مانع ارزقني، ولا: يا قاهر ارفق بي، ونحو ذلك.

ومن الحكمة ذكر كل صفة من صفات الله أو اسم من أسمائه إزاء ما يناسبه من المعنى المطلوب.

وإذا تأملت ذلك من الكتاب والسنة، وجدته ظاهرا بينا، فكل ذي منزل ينبغي له أن يكون اهتباله أبدا بصلاح شأنه الذي هو بسبيله، والعمل على الخلاص من العلل الخاصة بمنزله ذاكرا أو داعيا.

فصل

ولأهل النهاية في الدعاء حالان: حال سكون وخمود وسكوت، لجريان الأحكام ونفوذ الأقدار، رضا بما سبق من اختيار الحق، وأكثر ما يرد عليهم هذا عند استغراقاتهم، وحال انتهاض واهتبال بأمر العبودية رغبة وافتقارا وإظهارا لشعار الاضطرار بالدعاء، وهذا هو الأغلب عليهم.

وقد تكلم بعض الناس في أي الحالين أفضل، والأكمل عندي الجمع بين

الحالين، والدعاء رسم من رسوم الشرع فحفظه على السالك حال استغراقه أشرف، حتى يكون شعار العبودية على ظاهره، والسكون والرضا والتسليم والتفويض، قائم معنى ذلك بباطنه، وقد استوفيت كثيرا من أحكام الدعاء في الكتاب الذي سميته بـ: «إرشاد السائل لنهج الوسائل، وليس مقصودنا من ذلك إلا الإشارة إلى إنسان حدقة الفائدة، وبالله التوفيق.

دعاء أهل التوبة:

اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير.

إلهي، لك أرهب من خطيئاتي، ولك أرغب بدعواتي، وإليك الجأ في حاجاتي علما بأنك الذي يهرب إليه ويرهب، ويتضرع إليه ويرغب.

إلهي، أوليتني نعمًا فبارزتك بالعصيان، ومنحتني إحسانا فقارضتك بالإساءة على الإحسان، فكم من نعمة أسبغتها علي لم أقم لك بشكرها، وكم من ذنوب أحصيتها علي أستحيي من ذكرها، فما أولاني بالخوف من عقابك، وما أجدرني بالفرار من عذابك، إلهي لا أقوم بمناقشة الحساب، فكيف أقوم بحمل العقاب والعذاب وإني وإن كنت غير متساهل لما أرجوه من رحمتك، فأنت أهل أن تجود على المذنب المسرف بصادق توبتك، وسابغ منتك ورحمتك، إلهي قد علمت ما استوجبت بعملي منك، ولكن رجائي أبى أن يصرفني عنك، فخذ بيدي وأقمني لحفظ حدودك، وجد علي ووفقني لطاعتك، والوفاء بعهودك إلهي إن عفوت فمن أولى منك بالعفو وإن عذبت فمن أعدل منك في الحكم؟ وإن لم أكن أهلا لمعروفك، فأنت المعروف بالمعروف والكرم، وقد يدخل تحت ظلال كرمك من رجاك وإن كان غير متساهل. إلهي سترت علي في الدنيا ذنوبا أنا إلى سترها في الآخرة أحوج، وقد أحسنت إلي إذ لم تظهرها وتفضحني بها، فتمم إحسانك علي بالعفو عنها، اللهم أقل عثرتي، وأمن روعتي، وفرج كربتي، وامح حوبتي، واقبل توبتي، وثبت حجتي، واجعلني من خيار عبادك التوابين، يا رب العالمين.

دعاء أهل الاستقامة:

اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر.

اللهم إني أسألك من كل خير سألك منه نبيك محمد ﷺ وأعوذ بك من كل شر استعاذ منه نبيك محمد ﷺ. إلهي قصرت في اتباع نبيك بغلبة الهوى على قلبي وأسرفت في مسامحة النفس، فتكاثفت حجبي، وأخلدت إلى التفريط، فوا أسفي من بعدك يا ربي، وها أنا أستجير بك من الهوى فأجرني، وأستحفظك فيما ينفعني فاحفظني، وأستوهبك مما يقرب منك فوفقني، وأعوذ بك مما يصرفني عنك فأعذني.

إلهي، إتباع السنة سببي إلى قربك، والاقتفاء لآثار الشرع وسيلتي إلى حبك، ومواصلة ذكر المصطفى داعية إلى رضاك عني، فاجعل حظي في متابعة سنة نبيك موفورا، وسعيي باقتفاء آثاره مشكورا، ودؤوبي على ذكره سببًا إلى حبه، وما انطوت عليه ضلوعي من حبه، وسيلة إلى قربه.

إلهي، أملي خرق حجاب غفلتي عنك بمواصلة طاعتك، وعملي وقف على هبوب نواسم إرشادك وهدايتك، وأجلي قد دنا، وأخشى نفاذه قبل الظفر بعنايتك وسعادتك، فألبسني أثواب الاستقامة، وارفع عن قلبي حجاب الكسل والسآمة، وبارك لي فيما بقي من عمري لأنال الفوز بالكرامة، واحملني على العدل فيما أتوجه إليك به من صالح عملي، ووفقني للإقبال على الذكر قبل حلول أجلي، حتى أكون من أهل الجد والحزم في أمرك، والأداء للأمانة بالعكوف على ذكرك، إلهي بسطت لك يدي بسط المتضرع الراغب، وناديتك نداء المفتقر الطالب، ووقفت ببابك وقوف المستجير الهارب، وأنت السامع الأصوات، والمأمول لقضاء الحاجات، والهادي إلى الأعمال الصالحات، وأجزل حظي منك بهداية أنال منها رحمتك، واجعل لي من طاعتك سبيلا إلى رضاك، وهيئ لي من عبادتك سببًا إلى هداك، إلهي أصلح شأني وسدد لساني، واحفظ من الزيغ جناني، وقو على طاعتك عزمي، وثبت فيما يرضيك قدمي، واحرسني من نزغات الشيطان، وهفوات اللسان،

وخواطر الجنان، وارتكاب العدوان، ومقارفة الخذلان، والميل إلى الخسران، واحملني على المنهاج المستقيم، واهدني إلى السبيل القويم، وخلصني من مكائد الرجيم، يا رب العالمين.

دعاء أهل التقوى:

اللهم إني أسألك الهدى والتقوى، والعفاف والغنى، اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، اللهم اهدني رشدي، وأعذني من شر نفسي، وارزقني من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد غير ضال ولا مضل، اللهم إني ضعيف في رضاك فقو ضعفي، وخذ إلى الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضائي، اللهم إني ضعيف فقوني، وذليل فأعزني، وفقير فارزقني، اللهم ارزقني من خشيتك ما تحول به بيني وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغني به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا إنك أكثرت على من النعم وأقللت لك من الشكر، فكم لك من نعمة لا يحصيها أحد غيرك، ما أحسن فعالك إلى ورفقك بي، وإني لا أزداد إلا فقرا إليك وعزا بك، ورغبة فيما لديك، فلا أجد وسيلة إليك مثل توحيدك، ولا أجد بابا أوسع من لطفك وجودك.

إلهي أين الفرار إن ضاعت رغبتي إليك، وكيف القرار إن قطعت رجائي منك، وكيف الخلاص إن حجبتني عنك، وكيف النجاة إن طردتني عن بابك، إلهي ما أعذب توحيدك في قلوب أهل التقوى، وما أنفع معنى تهليلك في محو الدعوى، وما أعز الانقطاع إليك بترك الشكوى، فأذقني من خالص توحيدك ما ينيلني غاية تقاك، وأنلني من الاعتماد عليك ما يشغلني عن جميع من سواك، واحملني من الانقطاع إليك على ما يدلني على رضاك، فأنت الهادي إلى سبيل الرشاد، وأنت الواقي من عوارض الفساد، وأنت الحافظ من هفوات الاعتقاد.

إلهي وقفت بباب تقواك معتصم بالعروة الوثقى من توحيدك، وتعلقت من وسائل محبتك بذكرك وتمجيدك، ورجوت اللحاق بالمنقطعين إليك من عبيدك، فافتح لي بابا إلى معرفتك من توفيقك، واسلك بي سبيلا سهلا إلى تحقيقك، وارسمني في ديوان أهل العدل والسالكين على طريقك.

إلهي أشهد لك بالوحدانية، وأقر لك بالربوبية والعظمة، وأعترف لك بالأنعام التي أسبغتها فلا أقدر على شكرها إلا بمعونتك، فاستر نفسي بستر عافيتك عن مرديات الضلالة، وانظر إلي في حال غفلتي عنك نظر اللطف الواقي من الهلاك، واشغلني بذكرك حتى لا أنساك، فأنت الهادي وأنت الواقي وأنت المعافي وأنت ذو الجلال والإكرام.

دعاء أهل الإخلاص:

اللهم لك الحمد كالذي أقول وخيرا مما أقول، وخيرا مما يقول القائلون، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي وإليك ربي تراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وفتنة الصدر وشتات الأمر، اللهم إني أسألك الإخلاص في الأعمال، والسداد في الأحوال، والعافية في الدين والدنيا والآخرة[1].

إلهي أنت الحكيم في حكمك، العدل في قضائك، الواحد الأحد في ملكك، أوضحت الطرق إليك، وأنهجت السبل إلى توحيدك، وأكثرت من الآيات الدالة عليك، من العبر المخبرة عنك، وجعلت ذكرك مفتاحا للقرب منك ووسيلة إلى المعرفة بك، فلا تخلني من ذكر لك وثناء عليك، ويقين راسخ بتوحيدك، وتوكل ثابت عليك، وإخلاص سالم لوجهك الكريم.

إلهي جعلت الفطر السليمة والهمم الكريمة والفكر القويمة بابا إلى إمحاض التصديق، يوصل إلى العثور على أسرار التحقيق، وسببا يهدي إلى سواء الطريق، فاغنني باهتداء الفطرة إلى برهان الدليل على توحيدك عن رسوم تقدح فيها الأوهام، وافتح لي بإلهام القدوة إلى سداد الفكرة بابا يشرع إلى ثلج اليقين ورسوخ ثبوت الأقدام، إلهي استغنيت عن الشركاء والأعوان، وانفردت في ملكك العظيم الشأن، وتقدست في جبروتك عن التحديد والتكييف والتشبيه فلا مكان ولا زمان، اجعل قولي وعملي ونيتي صادرا عن إخلاص توحيدك، وارسمني في ديوان الخلصاء المخلصين من عبادك، وأمدني بمواد لطفك وعطفك وإنجادك وتأييدك.

إلهي، إن تأخرت في درجات اليقين، وقصرت عن غاية الإخلاص بما اقتضته

(١) من لفظ حديث ابن عمر رواه ابن ماجه في السنن. ٣٨٧١.

البشرية من التلوين، وأشكلت علي شوائب الإشراك وأخلدت بي الأدمية عن التمكين، فأنت الله الذي لا إله إلا أنت مقرب البعيد، وهادي من استهدى إلى رضاك بهديك الرشيد، وناصر من توكل عليك وانقطع إليك من العبيد، فاسلك بي مسالك المخلصين، وقارضني مقارضة الموقنين، وانصرني على هواي بما تنصر به عبادك المؤمنين، وإني وإن تخلفت دونهم وقصرت في ميدانهم، وبعدت عن حلبتهم فعندي رجاء لا يقطع بي عنك، وأمل يعلق قلبي بك وحسن ظن يصرفني إليك. فاهدني هداية من وفقته، وأصلحني صلاح من توليته، ولا تناقشني مناقشة من طردته وأهنته، واجعل ما وهبتني من الدعاء إليك ووفقتني إليه من مسألتك درجة إلى تطهير قلبي، وسببا إلى الخلاص من هوى نفسي، وسلما إلى إخلاص أعمالي وبابا إلى رسوخ يقيني، فأنت الجواد وأنت الوهاب وأنت الرحمان وأنت المنان، وأنت ذو الجلال والإكرام.

دعاء أهل الصدق:

اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة، اللهم إني أسألك ثباتا في الأمر، وعزيمة على الرشد، وأسألك نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لسانا صادقا، وقلبا سليما، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأسألك من خير ما تعلم[1]، اللهم ارزقني صدقًا ثابتًا، وإيمانًا نافعًا وعقلا راسخا، وعملا صالحا ترضى به عني.

إلهي جعلت من آثار صنعتك ورسوم فعلك وأصناف خلقك دليلا على قدرتك وحسن تدبيرك، فكل ناطق وصامت، ومتحرك وساكن، وظاهر وباطن، كل يجري إلى مدة رسمتها، وغاية حددتها، ونهاية قدرتها، لحكمة بالغة علمتها، خاضعا لك بالانقياد، منيبا إليك بالإذعان، شاهدا بأنك أنت الله، الواحد الأحد الملك الدَّيان، فاجعل لي إلهي من استبصار الفكر في بديع صنوف العبر إلى حقيقة التوحيد سبيلا سهلا، واغسل قلبي من درن أوهام مقتضيات الأجسام، بوابل أسرار الأذكار حتى يكون لورود الحقائق عليه محلا، واجعلني ممن أشرقت بين يديه مصابيح الإيمان بك فانقطع إليك بعضا وكلا.

(١) رواه الترمذي ٣٤٦٨. والنسائي (٣/٥٢).

إلهي ظفر الصادقون منك بزلفى وحسن مآب، وفازوا بالكشف عن أسرار أفعالك يا وهَّاب، وبقيت رهينًا فمالي خلف الباب، فاجعل لي من حسن هدايتك إلى غاية عنايتك سببًا وطريقا، وافتح لي إلى ساحة الصدق بابا من التأييد حتى أكتب عندك صديقا، وهيئ لي من مواصلة ذكرك صاحبا مؤانسا ورفيقا.

إلهي أعذني من علم يورث الجهل بك، وأجرني من يقين يحمل الشك فيك، وأرحني من فتنة تعقب البعد منك، واغوثاه إن أضللتني عن علم، وخذلتني عن فهم، واخزياه إن انسلخت عن آياتك وعريت عن بيناتك، وامصيبتاه إن عميت علي أنباؤك، أو كان بله خلقك في توحيدك لي مسابقين، وفي الصدق متقدمين. اللهم اجعلني صدرا في المؤمنين بك، ورأسا في المعتمدين عليك، وسابقا في حلبة الوافدين عليك، وراسخا في المنقطعين إليك، فأنت العماد وأنت المراد، وعليك الاعتماد، وبك الاستنجاد، وأنت المولى ونعم النصير.

دعاء أهل الطمأنينة:

اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك[1] وتوحيدك، اللهم يا مفرج الكرب وكاشف الهم، ومجيب المضطرين ورحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، لك الحمد لا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا مهين لمن أكرمت، ولا مكرم لمن أهنت، ولا ناصر لمن خذلت، ولا خاذل لمن نصرت، ولا معز لمن أذللت، ولا مذل لمن أعززت، ولا رازق لمن أحرمت ولا حارم لمن رزقت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا رافع لمن خفضت، ولا خافض لمن رفعت، ولا ساتر لما خرقت، ولا خارق لما سترت، ولا قريب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

إلهي أسبغت النعم حتى اطمأنت القلوب بدرور فضلك، وأظهرت العبر فخاضت الأفكار بحار الاستدلال عليك بفعلك، وأوضحت الآيات فأطرق طامح البصيرة بالعجز واستكانت القلوب بقوتك وحولك، فاجعل في قلبي من قوة اليقين

(١) من لفظ حديث أنس أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨)، وابن أبي شيبة (١٠/٣٦)، والبغوي في شرح السنة: (١/١٦٥).

ما أدرأ به في نحر الشهوات، وارزقني من نور التوحيد ما أذهب به ظلام الباطن وأنل قلبي من ذكرك ما يدلني عليك، وخلقني بالأخلاق التي تدعوني إليك، وارزقني من الأدب ما يحظيني لديك.

إلهي مننت علي بتوحيدك الذي شددت به أزر اليقين، وأنعمت علي بذكرك الذي أذهبت به واردات التلوين، وأحسنت إلي بالفهم عنك يا رب العالمين، وإني لمعترف بما أوليت، وعاجز عن شكر ما أسديت، وراض بما شئت وقضيت، ومسلم لما نفذت به أحكامك، ومذعن لما تضمنه كتابك، وقد بقي علي من بقايا الأوهام، ما قيدني عن النفوذ إلى قدام، وأخلدني مع مقتضيات الأجسام. فبك قضاء ديوني، وبك صلاح شؤوني، وبك خرق حجابي، وبك تيسير طلابي، وإليك رجوعي من نفسي ومآبي، فكن لي من حبائل الهوى منجيا، ومن مصائده منقذا، واسترني منه بستر اليقين، وأجرني من تقلبات التلوين وأثبتني في ديوان أهل التمكين.

إلهي، حجبتني عنك بقايا الأوهام الجسمانية ومنعتني من النفوذ مقتضيات الهوائية، وشوقتني إليك نفحات الأسرار القدسية، فطهرني من آثار أوهامي، ويسر لي بالخلاص مرامي، وثبت في اليقين أقدامي، وخلصني من تبعات الهوى، واجعل بيني وبينها سترا من توفيقك الأهدى، حتى لا يبقى في قلبي منها أثر ولا يشغلني عنك منها ميل ولا وطر.

إلهي، امح من قلبي سطور الأوهام بوابل رعايتك، وأزل من قلبي بقايا التقلب حتى أطمئن بعنايتك وولايتك، وانزل علي سكينة من فراديس إمدادك وهدايتك.

إلهي، نهض أهل الولاية وبقيت دونهم، ونفذ أهل النهاية وتخلفت بعدهم، وقد أنار لي قلبي من ذكرك مصباح اهتديت به إلى ما تطمئن به القلوب، ولاح لبصر بصيرتي من جنبات توحيد ذاتك لائح يشير إلى أسرار من الغيوب، وهبت على قلبي نواسم تحرك العزمات إلى المرغوب، لكنني أجد من أثر الهوى مثبطا عن لحاق أهل النهاية، وحابسا يبطئني على النفوذ إلى الغاية، ومن أسرار الأذكار داعيا يدعوني إلى فردوس النهاية، فخذ بيدي واهدني إلى سبيل يوصلني إلى المعرفة بك، واجذبني إليك بسبب من اختصاصك يدلني عليك، فأنت المعبود، وأنت المقصود، وأنت الموجود، وأنت ذو الكرم والجود، ذو الجلال والإكرام.

دعاء أهل المراقبة:

اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفذ، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

إلهي إنك وإن احتجبت عن العيون، واختفيت عن الأبصار، ولم تدركك الآذان، ولم تكيفك الأذهان، واستترت في عز جلالك وبهاء كمالك فإنك ماثل في العقول وظاهر في الأفكار، وبين في النفوس التي تطهرت بتأييدك واستنارت بأنوار توحيدك، حتى أطلعت من عجائب صنعتك وباهر حكمتك، وآثار قدرتك على ما علق همتها بك وصرفها بالكلية إليك.

إلهي أرواح أهل المراقبة في مقتضيات صفاتك غادية رائحة، وأفكارها السديدة الرشيدة في بحار توحيدك عائمة سابحة، والبصائر السليمة شاخصة في عجائب أسرارك طامحة، وأنت الذي تبل غلل[1] من اشتاق إليك برحيق الحقائق، وتذهب صدى الأرواح المتهتكة فيك بألطاف الأسرار، فأفض على روحي من أنوارك التي قام بها الوجود وعنها صدرت الأنوار، ما يزلفه من حضرة اختصاصك، ويدخله في زمر خواصك.

إلهي بك قعودي وقيامي، وبك صمتي وكلامي، وبك خلاصي واختصامي، فقربني بك إليك زلفى، وأحسن لي بك إليك العقبى، وأوردني من أسرارك المورد الأصفى، واسلك بي إلى الحضرة القدسية المسلك الأهدى، واجعل عاقبة أمري نظري إليك، فلك الفضل كله، ولك الأمر كله، ولك الملك كله، ولك الحمد كله، أوله وآخره، أنت مسببه وإليك مصيره.

إلهي تحيرت الأذهان في كنه صفاتك، وطاشت الألباب في ماهية ذاتك، وكعت العقول عن درك ما استأثرت به من أسرارك، وغرقت الأرواح في لجة من أنوارك، فلم يبق إلا الإذعان لمقتضى آياتك، والسكون لهبوب نفحات منحك وعطياتك،

(١) الغلل: شدة العطش وحرارته، والماء الذي يجري في أصول الأشجار. المعجم الوسيط (٢/١ ٢٣).

فارفع عني الحجاب الذي حجبني عن اللحاق بالأولياء، وأثبتني في ديوان خواصك الأصفياء، وأدخلني في زمرة أهل المراقبة الأوفياء، فأنت الله الواحد، وأنت الحاضر الشاهد، وأنت أمل كل قاصد ووارد، وأنت المجيب وأنت القريب، وأنت الحسيب وأنت الرقيب، ذو الجلال والإكرام.

دعاء أهل المشاهدة:

اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا، وفي لساني نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن أمامي نورا ومن خلفي نورًا ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا وفي لحمي نورًا، وفي عظمي نورًا، وفي عصبي نورًا، وفي عروقي نورًا، وفي شعري نورا، وفي بشري نورًا.

اللهم أعطني نورا، واجعل لي نورًا، واعظم لي نورا، سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان ذي العزة والتكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام. اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والأمر الذي يبلغني إلى حبك. اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد [1].

إلهي فاضت أنوار عظمتك على روحي فاستغرق فيك، ونفثت حقائق أسرارك في روعي فلا صبر لي بك عنك، وملك سلطان حبك أسري فأنابك ولك، فاحجب عني شرار الأوهام البشرية بنور مشاهدتك، واسلل روحي من الالتفاتات العادية بجواذب ولايتك، واغمسه في بحار ألطافك كي يظفر بك في حضرة عنايتك.

إلهي غمرني ما أوليتني من الإحسان وعمني ما أسديت لي من عوارف حقائق البرهان، ونزهتني بك وغيبتني عن الأكوان، وإن روحي لضعيف القوى بما لحقه من مجاورة الجسمان، قوي الأمل بما أفضت عليه من أنوارك يا منان فأمده منك برعايتك التي خصصت بها أولياءك لا ضيم ولا هوان، واجذبه إلى حضرتك العليا المؤذنة بالقرب والإدناء القاضية بنفي الأحزان.

إلهي أوليت أولياءك بأسرار معرفتك، وخصصت خواصك بخالص محبتك، وأطلعت المقربين على عجائب حضرتك، فأدخلني في زمرة من كشفت له الحجب

(١) لفظ حديث أورده الغزالي في الإحياء: (٤/٤٧٥).

دونك، ورفعت له الستر عن نورك، وبلغته أعلى مقامات الظافرين بك، وحفظته بك عن جميع ما يشغل عنك.

إلهي ما أعذب شراب وصال الأرواح، وما أطيب مذاق اتصال الأفراح، وما أعظم نواسم القرب منك يا فتاح، وإني وإن أخلدت البشرية بي عن تواصل أنوارك، ومنعتني الآدمية عن استدامة التمتع بمشاهدتك والظفر باتصال جوارك، فعندك من المواهب ما تكشف به الغيوم، ولديك من العوارف ما تقطع به أسباب الرسوم ومنك الألطاف التي ترتاح إليها الأرواح وتكثر بها الأفراح، وفي خزائن إحسانك ما تذهب به مقتضيات الأشباح، فاجعلني من خواص عبيدك وانجدني بإمدادك وتأييدك وأظفرني بغاية مراتب توحيدك، فأنت الله، وأنت الله، وأنت الله، والعبد بك ومنك وإليك لا يحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

دعاء أهل المعرفة:

اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، اللهم اهدنا واهد بنا وانصرنا وانصر بنا، اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب، فاجعله قوة لي فيما تحب.

اللهم ما زويت عني مما أحب، فاجعله لي مرادي فيما تحب، اللهم إني أسألك أنت الأول فلا شيء قبلك، والآخر فلا شيء بعدك، والظاهر فلا شيء فوقك، والباطن فلا شيء دونك، أسألك أن تبلغني من معرفتك التي خصصت بها خواص عبادك، ما ينيلني رفيع درجات توحيدك.

إلهي، فاضت الأنوار فلا غيم ولا سحاب، وتجلت الأسرار فلا ستر ولا حجاب، ولاحت الحقائق فثبت اليقين واضمحل سراب الارتياب، فأجزل المواهب، فلا قنوع منك إلا بك، ويسر المطالب، فلا رغبة بك إلا فيك، وأظهر العجائب، فلا متنزه دونك.

إلهي، أخمد نور عظمتك نار الفكر، وأبدت آياتك عجائب العبر، واطلعت أسرار توحيد ذاتك العلية على عين الخبر، وهيأت حكمتك البالغة أرواح الخلصاء بحمل الوفاء فلم يبق للبوح أثر، وجمعت قدرتك القاهرة بين الأضداد فتركبت الأرواح في البشر، فأسرج لي من معرفتك نورًا لا يزال في روحي مصباحًا،

واجعل لساني بما أودعت في جناني من فوائد الحكم مفتاحًا، ولا تجعلني لما أطلعتني عليه من مكنون أسرارك بواحًا، واحفظني في هداية عبيدك، واحرسني في حياطة أسرار توحيدك، واجعل نظري إليك، وكلامي عنك وانتهاضي بك، ودلالتي عليك وخشيتي منك ومحبتي فيك، وانقطاعي لك.

إلهي، أورثتني المعرفة فأحسن قيامي بها، وأوليتني الهداية فأجمل الدلالة عليها، وأفضت على سري أسرارك فأعظم الحفظ لها، ولولا ما طوقت من وظائف الدعاء والرغبة، وألزمت من القيام بالعبودية والرهبة، وحكمت به من إظهار شعائر القربة، فوجب القيام بما أوجبت، وتعيين إظهار وظائف ما به حكمت، ولزم التلبس بما طوقت وشرعت، لاستكان السر إلى ما ساكنه من الرضا، ولأطرقت البصائر لما جرى به القضاء، ولنخرس اللسان عن الانبساط في الدعاء، لكن تعلم ما انطوت عليه الأسرار من التسليم، وما عقدت عليه البواطن من عقود التفويض وما امتزج في القلوب من الثقة، فاللسان بالرغبة ناطق، والقلب بما جرت به أحكامك واثق، والسر في بحار الرضا غارق، فأسرار الحقيقة قد التأمت بأحكام الشريعة أي التئام، والأرواح قائمة بأسرارها أحسن قيام، والمعارف القدسية قد قطعت نياط الأوهام، فبك يحمدك الحامد، وبك تفيض الأسرار والفوائد، وبك تعقد على الأمانة العقائد، فأنت الأحد الواحد، وأنت الله الذي تحيرت في معرفتك الأفكار، وفاضت منك على الأرواح الأسرار.

وإلى هنا انتهى هذا المجموع المبارك، وقد أعان الله على الوفاء بوظائف أبوابه حسب الإمكان، والله المحسن المنان.

وإن كان يا أخي ربع هذا الطريق قد اندرس، ونور سلوكه بغلبة الهوى قد انطمس، فلا جرم أن نتلو من سور سلوكه ما يحرك من البواطن دواعي تدعو إلى الإيمان به والمحبة في أهله، فلا مطمع الآن في الانتظام في سلك أهله إلا بمجرد المحبة فيهم. ومن أحبَّ قومًا فهو منهم.

جعلنا الله ممن اختصه برحمته، وأفاض عليه مواهب منته، ولا قطع بنا عنه، ولا حجبنا بأهوائنا عنه إنه سميع الدعاء، واسع العطاء، وصلوات الله وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا وأزواجه وأصهاره وأنصاره، صلاة تدوم بدوام بقائه، والحمد لله كثيرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين.

فهرس بأهم المصادر والمراجع

١ - إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي في مملكة مالي - د. محمد بنشريفة - منشورات معهد الدراسات الإفرقية - بالرباط - مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء - ١٩٩٢.

٢ - إتحاف أهل العناية الربانية في اتخذ طرق أهل الله وإن تعددت مظاهرها الحقانية وبعض فضائل الشاذلية الدرقاوية الدباغية البنانية ذوي الهمم العالية والأحوال النورانية - فتح الله بناني (ت ١٢٨١هـ) طبع دار الكتب العلمية - تحقيق المزيدي.

٣ - الإحاطة في أخبار غرناطة - ابن الخطيب السلماني (ت ٧٧٦هـ) - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ج ١ - ط٢ - ١٩٧٣ / ج٢ - ط١ - ١٩٧٤ / ج٣ - ط١ - ١٩٧٥ / ج ٤ - ط١ - ١٩٧٧.

٤ - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ابن بلبان الفارسي (ت ٧٣٧هـ) - تحقيق كمال يوسف الحوت - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٧.

٥ - إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) - دار الفكر - بيروت - ١٩٩١.

٦ - أزهار الرياض في أخبار عياض - أبو العباس المقري - ج: ١ - ٢ ٣ - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي - صندوق إحياء التراث الإسلامي - الرباط - ١٩٧٨.

٧ - أزهار الرياض - ج ٤ - تحقيق سعيد أعراب ومحمد بن تاويت - صندوق إحياء التراث الإسلامي - ١٩٧٨.

٨ - أزهار الرياض - ج ٥ - تحقيق د. عبد السلام الهراس وسعيد أعراب - صندوق إحياء التراث الإسلامي - الرباط - ١٩٧٩.

٩ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - عز الدين بن الأثير (ت ٦٣٠هـ) - دار الفكر - بيروت.

١٠ - الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - دار الفكر.

١١ - الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - ط١٠ - ١٩٩٢.

١٢ - الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام - العباس بن ابراهيم المراكشي - تحقيق عبد الوهاب بلمنصور - المطبعة الملكية - الرباط - ١٩٧٦.

١٣ - الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر - ابن الخطيب السلماني - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط١ - ١٩٨١.

١٤ - الإملاء في إشكالات الإحياء - أبو حامد الغزالي - دار الفكر - بيروت - ط٣ - ١٩٩١.

١٥ - أنس الفقير وعز الحقير - ابن قنفذ القسنطيني (ت ٨١٠هـ) - نشر: محمد الفاسي وأدولف فور - منشورات المركز الجامعي - للبحث - العلمي - الرباط - ١٩٦٥.
١٦ - الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية - عبد الوهاب الشعراني - تحقيق طه عبد الباقي سرور - مكتبة المعارف - بيروت - لا ت.
١٧ - إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون - اسماعيل باشا البغدادي - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٠.
١٨ - إيقاظ الهمم في شرح الحكم - أحمد بن عجيبة الحسني (ت ١٢٢٤هـ) - دار الفكر - بيروت - لا ت.
١٩ - البداية والنهاية - ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) - مكتبة المعارف - بيروت ومكتبة النصر - الرياض. ١٩٦٦.
٢٠ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد - أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي (ت ٥٩٥هـ) - مطبعة البابي الحلبي وأولاده - القاهرة - ط٢ - ١٩٥٠.
٢١ - بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب - مؤلف مجهول - تحقيق عبد الوهاب بلمنصور - المطبعة الملكية - الرباط - ١٩٨٤.
٢٢ - بيوتات فاس الكبرى - شارك في تأليفه أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر - دار المنصور للطباعة - الرباط - ١٩٧٢.
٢٣ - تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس - ابن عطاء الله الإسكندري (ت ٧٠٩هـ) - مكتبة بنشقرون - القاهرة.
٢٤ - تاج العروس - محمد مرتضى الزبيدي - دارليبيا للنشر والتوزيع - بنغازي -.
٢٥ - تاريخ الأمم والملوك - الطبري - دار القاموس الحديث - بيروت.
٢٦ - تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت.
٢٧ - تاريخ الثقات - الحافظ أحمد بن عبد الله العجلي (ت٢٦١هـ) - تحقيق د. عبد المعطي قلعجي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٤.
٢٨ - التارخ الدبلوماسي للمغرب - د. عبد الهادي التازي - مطبعة فضالة - المحمدية - ١٩٨٦.
٢٩ - تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي - دار العلم للملايين - ط٧ - ١٩٧٧.
٣٠ - التاريخ الكبير - محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) - المكتبة الإسلامية بتركيا.
٣١ - التاريخ وأدب المناقب - منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي عكاظ - الرباط - ١٩٨٩.
٣٢ - تجريد أسماء الصحابة - شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - دار المعرفة - بيروت.

٣٣ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب لأسفار - ابن بطوطة اللواتي - تحقيق د. عبد الهادي التازي - مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية - الرباط - ط١ - ١٩٩٧.
٣٤ - تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي رضوان - أبو العباس أحمد بن إبراهيم الأزدي القشتالي - تحقيق فرناندو دي لاكارانخا - منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية - مدريد - ١٩٧.
٣٥ - تذكرة الحفاظ - الذهبي - مطبوعات دائرة المعارف العثمانية - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٤ - ١٩٥٨.
٣٦ - ترجمان الأشواق - محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي - دار صادر - بيروت - ١٩٦٦.
٣٧ - التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي - ابن الزيات التادلي (ت ٦١٧هـ) - تحقيق أحمد التوفيق - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - ١٩٨٤.
٣٨ - التعرف لمذهب أهل التصوف - محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) - تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٦٠.
٣٩ - التعريفات - الشريف الجرجاني علي بن محمد الحنفي (ت ٨١٦هـ) - تحقيق فلوغل - مكتبة لبنان - بيروت - ١٩٧٨.
٤٠ - تفسير القرآن - عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) - تحقيق. مصطفى مسلم محمد - مكتبة الرشد - الرياض - ط١ - ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٤١ - تفسير القرآن - إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٣٣هـ) - دار الفكر - بيروت - ١٩٨٤.
٤٢ - تقريب التهذيب - ابن حجر العسقلاني - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - دار المعرفة - بيروت - ط٢ - ١٩٧٥.
٤٣ - تكملة المعاجم العربية - وينهارت دوزي - تعريب د. محمد سليم النعيم - وزارة الثقافة والفنون - بغداد - ١٩٧٨.
٤٤ - تلخيص المستدرك - شمس الدين الذهبي - مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - بيروت.
٤٥ - تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث - الشيباني الشافعي الأثري. عبد الرحمان بن علي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨٥.
٤٦ - تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار والشنيعة الموضوعة - ابن عراق الكناني (ت ٩٦٣هـ) - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٧٩.

٤٧ - التنوير في إسقاط التدبير - ابن عطاء الله الإسكندري (ت ٧٠٩هـ) - مكتبة بنشقرون - القاهرة.
٤٨ - تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب - محمد أمين الكردي الأربلي (ت ١٣٣٢هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٧٢هـ.
٤٩ - تهذيب الأسماء واللغات - يحيى بن شرف النووي - المطبعة المنيرية - القاهرة -.
٥٠ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير لأبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي - هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران - دار المسيرة - بيروت - ط٢ - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٥١ - تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني - ط١ - الهند - ١٣٢٧هـ.
٥٢ - تهذيب الخصائص النبوية الكبرى للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت. ٩١١هـ) - إعداد عبد الله التليدي - مؤسسة التغليف والطباعة والنشر - طنجة - ط١ - ١٩٨٦م.
٥٣ - الجامع - الترمذي - مراجعة عبد الوهاب عبد اللطيف - دار الفكر - ط٣ - ١٩٧٩م.
٥٤ - الجامع الصحيح - الربيع بن حبيب - ضبط وتخريج محمد إدريس - دار الحكمة - بيروت / مكتبة الاستقامة - عمان - ط١ - ١٩٩٥م.
٥٥ - الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه - إسماعيل ابن عبد الله البخاري (ت ٢٦٥هـ) - تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣م.
٥٦ - الجامع الصحيح المسند المختصرمن السنن... - مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) - ضبط النص محمد فؤاد عبد الباقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٥ ك.
٥٧ - الجامع الصغير - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة - ط١ - ١٣٥٢هـ.
٥٨ - جامع كرامات الأولياء - يوسف بن اسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠هـ) - ضبط وتصحيح عبد الوارث محمد علي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٩٦م.
٥٩ - جامع المسانيد - الخوارزمي - ط حيدرأباد، الهند - ١٣٣٢هـ.
٦٠ - جذوة الاقتباس في ذكر من حل الأعلام مدينة فاس - أحمد بن القاضي المكناسي (ت ١٠٢هـ) دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط - ١٩٧٣م.
٦١ - الجرح والتعديل - ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٥٢م.
٦٢ - الجمع بين رجال الصحيحين (البخاري ومسلم) - ابن القيسراني. محمد بن طاهر المقدسي (ت ٥٠هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ - ١٤٠٥هـ.
٦٣ - جمهرة أنساب العرب - ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) - مراجعة مجموعة من العلماء - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٣م.

٦٤ - جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف - أبو الفيض محمود المنوفي الحسني - مؤسسة الحلبي - القاهرة - ط١ - ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
٦٥ - جهود المغاربة في خدمة السنة - أحمد حدادي - سلسلة رسائل النور - ع ٥ - مطبعة النور - تطوان - ١٩٨٢م.
٦٦ - جواهر الإكليل شرح مختصر خليل - صالح عبد السميع الأبي الأزهري - مطبعة عبد السلام بن شقرون - القاهرة - ١٩٩٥م.
٦٧ - جواهر المعاني بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني - علي حرازم بن العربي براد المغربي الفاسي - دار الفكر - بيروت.
٦٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) - مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة - القاهرة - ط١ - ١٩٣٢م.
٦٩ - اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار - أبو عبد الله محمد بن القاسم للأنصاري - نشر محمد بن تاويت - فصلة من مجلة تطوان - ع ٣ / ٤ ١٩٥٨ - ١٩٥٩م - دار كريماديس للطباعة - تطوان - ١٩٥٩م.
٧٠ - الخطاب الصوفي، مقاربة وظيفية - د. محمد مفتاح - مكتبة الرشاد - الدار البيضاء - ط. ١ - ١٩٩٧م.
٧١ - خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف - ابن الخطيب السلماني - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط١ - ١٩٨١.
٧٢ - خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال - الخزرجي الأنصاري صفي الدين محمد بن عبد الله (ت بعد ٩٢٣هـ) - ط٢ - ١٩٧١م.
٧٣ - الخيال والشعر في تصوف الأندلس - د. سليمان العطار - دار المعارف - القاهرة - ط١ - ١٩٨١م.
٧٤ - درة الحجال - ابن القاضي (ت ١٠٢٥هـ) - تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور - المكتبة العتيقة - تونس - دار التراث - القاهرة.
٧٥ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - دار الكتب الحديثة - القاهرة.
٧٦ - دلائل الخيرات وشوارق الأنوار والكرامات - محمد بن سليمان الجزولي (ت ٨٦٩هـ) - طبعة حجرية -.
٧٧ - الروض المعطار في خبر الأقطار - الحميري. محمد بن عبد الله بن عبد المنعم - تحقيق د. إحسان عباس - مكتبة لبنان - بيروت - ط٢ - ١٩٨٤م.
٧٨ - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساءهم وسير من

أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم - المالكي. عبد الله بن محمد - تحقيق البشير البكوش - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٣م.
٧٩ - ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب - ابن الخطيب السلماني - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط١ - الجزء الأول: ١٩٨٠ - الجزء الثاني: ١٩٨١.
٨٠ - زهر الأكم في الأمثال والحكم - الحسن اليوسي - تحقيق د. محمد حجي ود. محمد الأخضر - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط١ - ١٩٨١م.
٨١ - الزواجر والعظات - ابن الخطيب السلماني - تحقيق د. محمد كمال شبانة - صندوق إحياء التراث الإسلامي - الرباط - ١٩٧٧م.
٨٢ - سبيل الرشاد في هدي خيرالعباد (الجزء ٥ و٦) - د. محمد تقي الدين الهلالي - مكتبة المعارف - الرباط.
٨٣ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - أحمد بن خالد الناصري - تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري - دار الكتاب - الدار البيضاء - ١٩٥٥م.
٨٤ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ابن عبد البر - تحقيق علي محمد البخاري - مكتبة النهضة - مصر.
٨٥ - السرالأبهر في أوراد القطب الأكبر سيدي أحمد التيجاني - لجوسقي. محمد بن حسنين التجاني - المكتبة الثقافية - بيروت.
٨٦ - السفر الأول من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (القسم الأول والثاني) - ابن عبد الملك المراكشي - تحقيق محمد بن شريفة - دار الثقافة - بيروت.
٨٧ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - وأثرها السيء في الأمة - محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض - ط١ - ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٨٨ - سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس - ابن جعفر الكتاني - المطبعة الحجرية - فاس - ١٣٢٦هـ.
٨٩ - السنن - الدارمي - دار الفكر - ١٩٧٨م.
٩٠ - السنن - أبو داود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ) - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - دار الفكر ط٣ - ١٩٧٩م.
٩١ - السنن - ابن ماجه. محمد بن بزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار التراث العربي - ١٩٧٥م.
٩٢ - السنن الصغرى - النسائي. أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ) بشرح السيوطي وحاشية السندي - دار الفكر العربي - بيروت.

٩٣ - السنن الكبرى - البيهقي - أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) - الهند - ط١.
٩٤ - السنن الكبرى - النسائي. أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ) - تحقيق د. عبد الغفار سليمان.
٩٥ - سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٩٨٢م.
٩٦ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - محمد بن محمد مخلوف - دار الفكر - بيروت.
٩٧ - شرح السنة - البغوي - تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ - ١٩٨٣م.
٩٨ - شرح معاني الآثار - الطحاوي. أحمد بن محمد بن سلامة (ت ٣٢١هـ) - تحقيق محمد زهري النجار - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٧٩م.
٩٩ - شرح صحيح مسلم - يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت ٦٧٧هـ) - ضبط محمد فؤاد عبد الباقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٩٥م.
١٠٠ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم - تحقيق أحمد محمد شاكر - دار الحديث - القاهرة - ١٩٩٦م.
١٠١ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى - القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧٩م.
١٠٢ - اصطلاحات الصوفية - عبد الرزاق القاشاني (ت ٧٣٥هـ) - تحقيق د. محمد كمال إبراهيم جعفر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨١م.
١٠٣ - اصطلاح الصوفية - محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي - دار إحياء التراث العربي - بيروت. (مصورة عن طبعة حيدر أباد ١٩٤٨ م).
١٠٤ - الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع - السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٢٠٢هـ) - دار مكتبة الحياة - بيروت.
١٠٥ - طبقات الشافعية الكبرى - السبكي. تاج الدين بن تقي الدين عبد الوهاب - دار المعارف - بيروت - ط٢.
١٠٦ - الطبقات الكبرى - ابن سعد - دار صادر - بيروت - ١٩٦٠م.
١٠٧ - العبر - ابن خلدون الحضرمي - تحقيق خليل شحادة - دار الفكر - بيروت - ط١ - ١٩٨١م.
١٠٨ - العبر في خبر من غبر - الذهبي - تحقيق صلاح الدين المنجد - الكويت - ١٩٦٠م.

١٠٩ - الاعتصام - الشاطبي. إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي (ت ٧٩٠هـ) - تحقيق أحمد عبد الشافي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٨م.
١١٠ - عقد الجمان لمريد العرفان - الحاج علي الدرقاوي الإلغي - مطبعة الساحل - الرباط - ط١ - ١٩٨٤م.
١١١ - العلل المتناهية في الأحاديث الواهية - ابن الجوزي. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) - تحقيق خليل الميس - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٣م.
١١٢ - علم القلوب - أبو طالب المكي - تحقيق أحمد عبد القادر عطا - مكتبة القاهرة - القاهرة -.
١١٣ - عمل اليوم والليلة - أبو بكر بن السني (ت ٣٦٤هـ) - دار المعارف العثمانية - حيدر أباد - ط٢ - ١٣٥٨هـ.
١١٤ - عمل اليوم والليلة - أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) - تحقيق فاروق حمادة - المكتب التعليمي السعودي بالمغرب - ط١ - ١٩٨١م.
١١٥ - عوارف المعارف - شهاب الدين السهروردي - دار الفكر - بيروت - ط٣ - ١٩٩١م.
١١٦ - عيون الأخبار - ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) - دار الكتب المصرية - ١٩٢٥م.
١١٧ - غيث المواهب اللدنية في شرح الحكم العطائية - ابن عباد الرندي. محمد بن إبراهيم (ت ٧٩٢هـ) - تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ط١ - ١٩٧٠م.
١١٨ - فيض القدير شرح الجامع الصغير - عبد الرؤوف المناوي - دار المعارف - بيروت - ط٢ - ١٩٧٢م.
١١٩ - القاموس المحيط - الفيروز أبادي. محمد بن يعقوب - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت.
١٢٠ - قوت القلوب في معاملة المحبوب - أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ) - دار الفكر - بيروت.
١٢١ - كشاف اصطلاحات الفنون - التهانوي. محمد بن علي الفاروقي السني الحنفي (ق ١٢هـ) تحقيق لطفي عبد البديع، وعبد المنعم محمد حسنين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٦٣ - ١٩٦٩ - ١٩٧٢ - ١٩٧٧م.
١٢٢ - الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف - محمد أسعد طلس - مطبعة العاني - بغداد - ١٩٥٣م.

١٢٣ - كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس - العجلوني. اسماعيل بن محمد (ت ١١٦٢هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط٣.
١٢٤ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - حاجي خليفة. مصطفى بن عبد الله القسطنطي الرومي الحنفي (ت. ١٠٦٧هـ) - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٠م.
١٢٥ - كشف المحجوب - الهجويري. علي بن عثمان الحسيني الغزنوي (ت ٤٦٥هـ) - تحقيق إسعاد قنديل - دار النهضة العربية - بيروت - بيروت - ١٩٨٠م.
١٢٦ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - المتقي الهندي. علاء الدين علي (ت ٩٧٥هـ) - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٧٩م.
١٢٧ - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة - نجم الدين الغزي. محمد بن محمد القرشي (ت ١٠٦١هـ) تحقيق د. جبرائيل سليمان جبور - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط٢ - ١٩٧٩م.
١٢٨ - المصنف - الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٦١١١هـ) - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ - ١٩٨٣م.
١٢٩ - المصنف في الأحاديث والآثار - ابن أبي شيبة. عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ) - الدار السلفية - الهند.
١٣٠ - المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى) - الإمام علي القاري الهروي المكي (ت ١٠١٤هـ) - تحقيق عبد الفتاح أبو غدة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٣٩٨هـ.
١٣١ - مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات - محمد المهدي الفاسي - شركة البابي الحلبي وأولاده - القاهرة - ١٩٧٠ م.
١٣٢ - المطرب بذكر شخصيات بارزة من أولياء المغرب - عبد الله التليدي.
١٣٣ - معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة - مكتبة المثنى - بيروت، ودار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٥٧ م.
١٣٤ - معجم المصطلحات الصوفية - د. أنور فؤاد أبي خزام - مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ط١ - ١٩٩٣ م.
١٣٥ - الموطأ - الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) - تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لا ت.
١٣٦ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال - الذهبي - تحقيق علي محمد البجاوي - دار المعرفة - بيروت - ط١ - ١٩٦٣ م.

فهرس المحتويات